بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا

كلية الدراست العليا

كلية اللغات ـ قسم اللغة العربية

بحث لنيل درجة الدكتوراة في اللغة العربية

بعنوان :

المجالس الأدبية في القصور الأموية عبدالملك بن مروان والحجاج بن يوسف أنموذجأ

دراسة أدبية نقدية

The The Literary Salons At The Banu Umayya palaces Using Abd AL _ Malik Ibn Marwan And Al _ Hajjaj ibn yusuf As examples

إعداد الطالب :

أحمد المهدي أحمد عبد الماجد

إشراف الدكتور :

محمد علي أحمد عمر

2018م

بسم الله الرحمن الرحيم

آية:

قال تعالى: (وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

صدق الله العظيم

هود: 88

الإهداء:

إلى أُمي وأبي العزيزين متعهما الله بالصّحة والعافية.

إلى زوجتي الغالية.

إلى عُشاق الكلمة الرضية والأدب الرفيع.

شكر وعرفان

انطلاقاً من قوله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) (إبراهيم:7) أشكر الله أولاً، ثُمَّ أزجي أجمل الشكر إلى جامعة السودان للعُلوم والتكنولوجيا؛ لمنحها لي فرصة الدّراسة، كما أتقدم بوافر الشكر إلي مشرفي العزيز د. محمد علي؛ الَّذي أنار لي درب المعرفة بتوجيهاته الصائبة، وكان له اليد الطولى والسَّهم الوافر في إنجاز هذا البحث.

وأسوق عظيم شكري إلى أبي الغالي د. المهدي أحمد عبد الماجد؛ الَّذي أفادني بعلم جمٍ، وإرشادات قيمة؛ لإنضاج هذا البحث.

وأشكر أُمّي الغالية؛ الَّتي ساندتني وعاونتني بدعائها الخالص لي بالنجاح والتوفيق. وخيمة الشكر والود إلى –الَّتي تلفعتْ معي صبراً وأنا أسْرِق وقتها وأعطها فُضالة ما تبقى منه– زوجتي الغالية.

وتجمل بي أنْ أشكر صديق وزميلي أستاذ مُصعب بانقا؛ لمراجعته وتعليقه وتقويمه للبحث؛ كي تخرج في صورة حسنة.

وأعمق شكري لأخي مُصعب المهدي؛ الَّذي قام بطباعة البحث ومراجعته معي بدون تذمرٍ أو تضجرٍ.

المستخلص

تناولت الدِّراسة (المجالس الأدبيَّة في القصور الأُمويَّة عبد الملك بن مروان والحجَّاج بن يوسف أنموذجاً) ووقفت على :الحياة السِّياسية في العصر الأُموي وما صاحبها من ثورات، ثُمَّ عرَّجتْ على الحياة الأدبيَّة والعِلمية؛ الَّتي كان لها أثر في إشعال نار الأدب والنَّقد وشيوع مجالسه وتطور الأغراض الأدبيَّة، ثُمَّ تناولتْ الحياة الاجتماعية الَّتي انقسمت إلى ضدين: فقر وثراء، وزهد ومُجون، ولم تغفل الدِّراسة النَّقد في مجالس الخُلفاء والولاة، فعقدت فصلاً لتوجيهاتهم النَّقدية، تارِكةً بعض الخُلفاء والولاة؛ لقِلَّة النَّقد عندهم، وكان النصيب الأوفر لعبد الملك بن مروان، حيث عَرَّفت به وتناولت نقده لأغراض الشِّعر المختلفة، وعُقِدَ الفصل الأخير للحجَّاج بن يوسف، مُتناولة حياته، ونقده لأغراض الشِّعر المختلفة؛ واشتملت الدِّراسة على: مُقدمة وخاتمة ونتائج وتوصيات، وفهرس موضوعات، ومصادر ومراجع. وكان من أهم النتائج أن كلاً من عمر بن عبد العزيز وعبد الملك بن مروان قد اتخذا الصدق في قول الشِّعر مع المعيار الدِّيني والخُلقي والإنساني أساساً في المُفاضلة بين الشُعراء كما نبذا الغزل الفاحش؛ لخدشه للحياء، وأكثر الأغراض نقداً عند عبد الملك المدح وأقلها قبولاً في نفسه الغزل الفاحش.

Abstract

This study explores (the literary salons at the Banu Umayya palaces, using Abd al-Malik ibn Marwan and Al-Hajjaj ibn Yusuf as examples).

The study examined the political life and the Revolutions at the Banu Umayya period, and then focused on the Literary and scholarly life of that age and its effect on prompting of the literature and criticism and the spread of literary salons and the development of the literary purposes.

The study investigated the social life which divided into two contrasted lifestyles: poverty and wealth, asceticism and depravity, also the study offers a descriptive account of the criticism at the Caliphates and governors boards, and assigned a complete division for their criticizing orientation focusing on Abd al-Malik ibn Marwan by defining his life and upbringing, his poetics, his narrating and citing of poetry, his admiration and criticizing of the different genres of poetry and his methods in differentiation between poets, likewise assigned the last chapter for Al-Hajjaj ibn Yusuf.

The study contains an introduction, Conclusion, results, recommendations, index, resources and references.

And one of the most results derived from this study is that both Omar ibn Abd al-Aziz and Abd al-Malik ibn Marwan has chosen sincerity in poetry as their criterion by which they judge poetry alongside the ethical and religious criteria to distinguish between poets, also they eliminated filthy flirtation, and the most criticized purpose by Abd al-Malik was compliment poetry and the least favorite was filthy flirtation.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
البسملة	أ
آية	ب
إهداء	ج
شكر وعرفان	د
المستخلص	هـ
Abstract	و
فهرس المحتويات	ز
المقدمة	1
تمهيد	6
الفصل الأوَّل: أوجه الحياة في العصر الأموي	
المبحث الأوَّل: الحياة السِّياسية	10
حزب الخوارج	14
حزب الشيعة	28
الحزب الأموي	38
حِزب الزبيريين	47
حزب الموالي	54
ثورة ابن الأشعث	58
المبحث الثاني: الحياة العلمية والأدبية	60
الغزل العذري	61
الغزل اللاهي	67
النقائض	78
النقد الأدبي في مجالس الشعراء	84
النقد الأدبي في مجالس سكينة بنت الحسين	86
النقد الأدبي عند العلماء	90

الخطابة والكتابة	91
المبحث الثالث: الحياة الاجتماعية	99
طبقة الأغنياء	99
طبقة الفقراء	100
طائفة أهل اللهو والمجون	103
طائفة أهل الزهد والصلاح	107
الفصل الثاني: الشعر والنقد في مجالس خلفاء بني أمية	
المبحث الأوَّل: الأدب والنَّقد في مجالس مُعاوية بن أبي سُفيان	110
المبحث الثاني: الوليد بن عبد الملك	126
سليمان بن عبد الملك	130
عمر بن عبد العزيز	132
المبحث الثالث: يزيد بن عبد الملك	139
هشام بن عبد الملك	143
الوليد بن يزيد	146
الفصل الثالث: الشعر والنقد في مجالس عبد الملك بن مروان	
المحث الأوَّل: نشأة عبد الملك بن مروان	151
المبحث الثاني: شاعرية عبد الملك بن مروان وروايته للشعر	155
المبحث الثالث: إعجاب عبد الملك بن مروان بالشعر ومشاركته في نقده بحسب أغراضه	172
الوصف	172
الفخر	182
الحماسة	190
المدح	194
الهجاء	216
التبرؤ والاعتذار	221
الغزل	223
الرثاء	237
الحكمة والوعظ	241

الفصل الرابع: الشعر والنقد في مجالس الحجَّاج بن يوسف	
المبحث الأوَّل: نشأة الحجَّاج بن يوسف	246
المبحث الثاني: رواية الحجَّاج بن يوسف للشعر وتمثله به	251
المبحث الثالث: إعجاب الحجَّاج بن يوسف بالشعر ومشاركته في نقده بحسب أغراضه	258
المدح	258
الهجاء	264
الفخر	273
الغزل	275
الرثاء	278
التبرؤ والاستعطاف	282
الخاتمة	284
المصادر والمراجع	287

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين والصَّلاة والسلام على أشرف المرسلين مُحمد بن عبد الله وعلى صحابته الكرام ومن تبعهم إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد.

لقد أكرم اللهُ تعالى الأُمَّة العربيَّة؛ بأنْ أنزل القرءان الكريم بلغتها، لا ترى عِوجاً فيها ولا أمتا، بل واصطفى لها رسولاً عربياً قرشياً، لم يجر على لسانه ريق أعجمي، ولم يلتقِ فيه دمٌ تنكره العرب، هيأه الله بالفصاحة والبلاغة وجوامع الكلِم لتأدية رسالة ربّه، فبلَّغ الرسالة بلغة تقطر فصاحة، كيف لا ونبينا أفصح العرب، إذ يقول: (أنا أفصح العرب بيد أنِّي من قريش) وكِتابنا أبين الكُتب، قال تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) وَلمَّا كانت الفصاحة والعروبة تحف لغتنا المجيدة من المشربين مشرب السماء ومشرب الأرض، نفثنا قومٌ هذا الشَّرف، حسداً من عند أنفسهم، فراحوا أشتاتاً وزرافات، يتنقصون قدرها ويسفهون أمرها، وهذا من أخذ العِزَّة بالإثم، –ونعوذ بالله منه– وثمَّة نفر عرفوا قدرها ورفعوا ذِكرها عالياً خفاقاً في سماوات الفِكر والمعرفة، بحديثهم الماتع عن أسرارها وأقسامها، وذبهم عن حوضها تارة أخرى –فلهم المثوبة من عند الله تعالى –ولمَّا كانت المعركة حامية عليها، أراد الباحث أنْ يُدافع عنها بلسانه، ولنا في حسَّان بن ثابت –رضي الله عنه– أُسْوة حسنة إذ يُدافع عن خير البشر قائلاً:

لِسـاني صَـارِمٌ لَا عَيْـبَ فِيْـهِ وَبَحْـرِي لَا تُكَـدرهُ الـدِّلاءُ

واختار الباحث الحِقبة الأُمَويَّة؛ لأنَّها من عُصور العربيَّة الزاهرة، أُنْجِبت فيها كرائم الألفاظ، وتمسك خُلفاؤها بشطنِ العُروبة الصِرفية، ونبذهم لمظاهر العُجمة والشُعوبيَّة الَّتي سادت فيما بعد، ممَّا يلقى الطمأنينة في النَّفس لفصاحة ما أُنتج في هذه الحِقبة من أدب ونقد، ونجم للباحث أنْ يدرس ذلك من خلال مجالس الأمراء والخُلفاء، وذلك أدعى لنفي ماتُوهِم ثبوته –عند كثير من النَّاس– بأنَّ مجالس الأمراء والخُلفاء تُعْقَدُ فيها أمور السِّياسة وتجيش الجيوش، ومراجعة الخراج وأحوال السُّلطان ونحو ذلك، فلا سبيل للأدب والنَّقد، فهو عِلمٌ لا يتولَّجه الخُلفاءُ، إنَّما سدنته العُلماءُ وأربابه الشُّعراءُ.

وَلمَّا كانت دولة بني أُميَّة ضاربة بجذورها في الأرض شرقاً وغرباً، حصر الباحث دِراسته لمجالسهم في بلاد المشرق، وبهذا يكون أدب المغرب أي: الأدب الأندلسي بمغزِل عن الدِّراسة؛ لتراخي المسافة وبُعد الشُقّةِ بين البلدين؛ واختلاف البيئات الَّتي تُؤثر على طبع الشِّعر، فجاء أدب

الأندلس فريداً في سِماته وبعض أغراضه عن أدب المشرق. وانتقى الباحث من خُلفاء وولاة بني أُميَّة اثنين: خليفة ووالي، إذ هما أهدى من غيرهم بسبل النَّقد، وما طِلبة الذوق والأدب إلَّا دونهما، وأحسب أنَّهما من أولى العزم في هذا المضمار، فلا يُغمَّ على أديبٍ سهمهما في الرقي بالعمل الأدبي.

أمَّا الخليفة فهو: عبد الملك بن مروان: تحدَّر من أسرةٍ عربيَّةٍ، ونشأ مشبوباً بحب العِلم، يقرض الشِّعرَ منذ صغره، أفنى غضارة عُمره في مداعبة الشِّعر، إذ مسَّ القصيدة أخرج أنفس ما فيها، عارفاً بخبء الأدب، لا يتسرب إليه سهو الغافل في هذا الباب؛ إذ هو عالم بنقده، فله جهود نقدية سألت بها أقلام الكُتاب وأفواه المحابر، وأوعبتها بطون الكُتب فصارت المكتبات العربيِّة بهجةً بها، فلو رام مسترجع استرجاعها لثارت ذاكرته دون حصرها، غير أنَّها تفاريق أراد الباحث جمعها بصورةٍ منهجيةٍ منظمةٍ كُلاً تحت بابه.

أمَّا الوالي فهو: الحجَّاج بن يوسف اشتطت عليه أقلام، ولحقه ظُلْمُ الرواة، وراح تريكة الأدب، أو قل شبه الأدباء، يسلخونه من صِفة الأديب أو النَّاقد ويصفونه بـ(الظالم) مُلصقين عليه مالا يلتصق من التُهم الَّتي لا موئل لها، وأصوب القول فيهم أنَّهم: يهرفون بما لا يعرفون، فليس من العدل أنْ يَعْصِبُ الغضب والشنئان عين الحق، فنبخس الرجل حقه الأدبي، فالحجَّاج ناقدٌ من الطراز الأوَّل، مُرْتَبِئاً عن العي مُتَجافي عن اللحن، طُبِعَ بالفصاحة في جده وهزله، متعه الله بطاقات تعبيرية عالية، وذائقة شِعرية نبهة، يعرف منابع الشِّعر، و قطوف النَّقد؛ وأحسب أنَّ ثمَّة قوى تآذرت عليه فبخسته حقه الأدبي، فالحجَّاج أمكن من نفسه بسُوء سِيرته وشِدّة فتكه حَتَّى دبَّ بُغْضُهُ في جِذر قلوب النَّاس، وكل هذا لا ينفي عنه صِفة النَّاقد الحصيف.

ولكُلِّ ما تقدَّم تاقت نفس الباحث أنْ يدرس هذا الموضوع الَّذي جاء تحت عنوان (المجالس الأدبيَّة في القصور الأُمويَّة عبد الملك بن مروان والحجَّاج بن يوسف أُنموذجاً)

أسباب اختيار الدِّراسة:

1- تبين العلاقة بين النُّقاد والخُلفاء والأُدباء والشُّعراء، الَّتي أذكت الأدب العربي في تلك الحِقبة.

2- جمع و دِراسة وتحليل أشتات ما أوعبته الكُتب بصورة منهجية؛ بحيث يسهل التسلل للمعلومات النَّقدية.

3- دِراسة النَّقد والأدب في العصر الأُموي بصورة عامة ومجالس الخُلفاء والولاة بصورةٍ خاصةٍ؛ وذلك لتبين الأثر النَّقدي والأدبي الَّذي صدع به الخُلفاء والولاة؛ ممَّا جعل كثيراً من كُتب النَّقد تقتات على مائدتهم الدسِمة.

أهميَّة الدِّراسة: تتجلى أهميَّة الدِّراسة في:

1. أنَّها تدرس أعلام الأُمَّة الإسلامية في الفِكر والسِّياسة والأدب والنَّقد، وما خلفوه من ارث ثقافي وأدبي.
2. إثبات أنَّ النَّقد قديم النشأة، رداً على من يزعم أنَّ النَّقد لم يقف على ساقه إلَّا في العصر العبَّاسي، وما قبل ذلك كان عبارة عن خواطر نقدية.

أهداف الدِّراسة:

1- التعريف بالكِتابات الَّتي كُتِبتْ حول النَّقد والأدب في العصر الأُموي.

2- تبين حجم الحركة النَّقدية والأدبيَّة الَّتي سادت مجالس الخُلفاء والولاة في ذلك العصر.

3- جمع جهود الخُلفاء النَّقدية وتحليل أبعادها النَّفسية والتاريخية بصورةٍ منظمةٍ مبوبةٍ.

صُعوبة الدِّراسة:

1. صُعوبة تمحيص الأخبار التاريخية والأدبيَّة المتعلقة بنقد الخُلفاء والولاة للشِّعر؛ بحيث تُثبت لأكثر من خليفة ثُمَّ تُنفى عنه في موضع آخر وتُثْبت لغيره؛ ممَّا جعل الدَّخن يلف كثيراً من الأخبار ولا تثبت إلا بعد التحقيق من نسبتها لقائلها بطرق التحقيق المختلفة.
2. عدم تبويب المادة العِلمية في المصادر والمراجع بصورةٍ مُنظمةٍ.

مشكلة الدِّراسة: تتمثل مشكلة الدِّراسة في الإجابة عن الأسئلة التالية:

1- ما المعايير النَّقدية الَّتي اعتمد عليها الخُلفاءُ والولاة في مجالسهم الأدبيَّة؟

2- هل أثرت توجيهاتهم للشُّعراء في سير الأدب؟

3- هل أفاد النُّقاد من توجيهات الخُلفاء والأمراء للشُّعراء؟

منهج الدِّراسة:

اتبعت الدِّراسة المنهج الوصفي التحليلي.

الدِّراسات السابقة:

وقف الباحث على دِراستين سابقتين هما:

رسالة ماجستير من جامعة أم القرى المملكة العربيَّة السعودية كلِّية اللُّغة العربيَّة بعنوان (النَّقد في مجالس الخُلفاء والأمراء) إعداد الطَّالب: مُحمد عبد الله سيدي مُحمد، إشراف: أ.د. عبد الحكم حسَّان عمر، سنة 1985م لكنَّ الدِّراسة وقفتْ –بصورة مقتضبة– على مجالس الأمراء والخُلفاء النَّقدية في جميع العصور، بينما كانت دراسة الباحث مُختصة بالعصر الأُموي؛ ممَّا جعلها تختلف عن تلك الدِّراسة.

أمَّا الرسالة الثانية فهي: رسالة ماجستير من جامعة طيبة بالمملكة العربيَّة السعودية بعنوان (النَّقد الأدبي في مجالس عبد الملك بن مروان) إعداد الطَّالبة: أسماء غانم بن بركة، إشراف: د.صابر أحمد عبد الحفيظ، سنة 2008م، غير أنَّ دِراستها اختصتْ بمجالس عبد الملك بن مروان بينما توسعت دِراسة الباحث فشملت طائفة من خُلفاء وولاة بني أُميَّة، أضف إلى ذلك أنَّ رسالة الطَّالبة تناولت النَّقد للمنظوم والمنثور في مجالس عبد الملك، واختصت دِراسة الباحث على المنظوم فحسب، فقد أغفلت الباحثة التحليل النفسي للشعر العربي عند عبد الملك بن مروان، ولم تبوب البحث وفقاً لأغراض الشعر المختلفة.

هيكل الدِّراسة:

الفصل الأوَّل: أوجه الحياة في العصر الأموي.

المبحث الأوَّل: الحياة السِّياسية.

المبحث الثاني: الحياة العِلمية والأدبيَّة.

المبحث الثالث: الحياة الاجتماعية.

الفصل الثاني: الشِّعر والنَّقد في مجالس خُلفاء بني أُميَّة.

المبحث الأوَّل: مُعاوية بن أبي سُفيان.

المبحث الثاني: الوليد بن عبد الملك، سُليمان بن عبد الملك، عمر بن عبد العزيز.

المبحث الثالث: يزيد بن عبد الملك، هشام بن عبد الملك، الوليد بن يزيد.

الفصل الثالث: الشعر والنقد في مجالس عبد الملك بن مروان.

المحث الأوَّل: نشأة عبد الملك بن مروان.

المبحث الثاني: شاعرية عبد الملك بن مروان وروايته للشعر.

المبحث الثالث: إعجاب عبد الملك بن مروان بالشعر ومشاركته في نقده بحسب أغراضه.

الفصل الرابع: الشعر والنقد في مجالس الحجَّاج بن يوسف.

المبحث الأوَّل: نشأة الحجَّاج بن يوسف.

المبحث الثاني: رواية الحجَّاج بن يوسف للشعر وتمثله به.

المبحث الثالث: إعجاب الحجَّاج بن يوسف بالشعر ومشاركته في نقده بحسب أغراضه.

تمهيد:

قبل البسط في موضوع البحث يجب الوقوف على معنى (المجلس) جاء حول مادة (جلس) جلَسَ، يَجْلِسُ جُلوساً فهو جالس. والجلوس القعودُ، ويُقال قوم جُلُسٌ وجُلاَّس. والجِلْسَةُ الهيئة الَّتي تجلسُ عليها.

والمَجْلِسُ: موضُع الجُلوس وتجمع على مجالس، وفي القرءان الكريم " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ "[1] والمجلس جماعة الجلوس، أنشد ثعلب:[2] في هذا المعنى[3]

لَهُـمْ مَجْلِـسٌ صُـهْبُ السِّـبالِ أذِلـةٌ سواسِـــيَةٌ أَحْرارُهَـــا وَعَبِيْـــدُها

حكى أبو علي البغدادي أَنَّ المجلس يُطلق ويُراد به جماعة النَّاس، وأنشد بيت المهلهل:[4]

ذَهَـبَ الخيـارُ مِـن المعاشِـرِ كُلِّهِـم وَاسْـتَبَّ بَعْـدَكَ يَاكُلَيْـبُ المَجْلِـسُ

ومنه قول العبَّاس بن مِرداس[5] بعد مَعركة حُنين: [6]

إِمَّـا أَتَيْـتَ عَلَـى النَّبِـيِّ فَقُـلْ لَـهُ حَقَّـاً عَلَيْـك إِذَا اطْمَـأَنَّ المَجْلِـسُ

---

[1]سورة المجادلة، الأية (11)

[2]العبَّاس أحمد بن يزيد البغدادي النحوي المعروف بثعلب، إمام الكُوفيين في اللُّغة والنحو والحديث، وكان راوية للشِّعر ومحدثاً مشهوراً وُلِد ببغداد سنة 200هـ ومات سنة 291هـ، ينظر (طبقات النحويين) لأبي بكر مُحمد بن الحسن الزبيدي، تحقيق: مُحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف المصرية، ط2، ص 141- 151

[3]ابن منظور: محمد بن مكرم " لسان العرب " تحقيق: عامر أحمد حيد، دار الكُتب العِلمية بيروت ، ط 2 ، 2009 م ، 6 / 46 ، 47

[4]مهلهل لقبه؛ لأنَّه أوَّل من هلهل بالشِّعر أي: رققه وقِيل غير ذلك، واسمه امرؤ القيس بن ربيعة وقِيل عدى بن ربيعة، شاعر جاهلي أشتهر برثاء أخيه كُليب، وهو فارس من فرسان تغلب، ينظر دِيوان المهلهل بن ربيعة ، شرح :طلال حرب ، الدَّار العالمية 6 ، 7 ، 8 ، 10

[5]العبَّاس بن مِرداس بن أبي عامر السلمي، أبو الهيثم، شاعر فارس، من سادات قومه، أُمّه الخنساء الشاعرة، مُخضرم، كان من المؤلفة قلوبهم، بدوياً قحاً، ذم الخمر في الجاهلية، له دِيوان شِعر، مات سنة 18هـ، ينظر خير الدِّين الزركلي (الأعلام) دار العِلم للملايين، بيروت- لبنان- ط15، 2002م، 3/ 267

[6]البغدادي : عبد القادر بن عمر " خِزانة الأدب ولُب لِبان لِسان العرب " تحقيق : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي مصر ، ط 3 1996م 30/9، دِيوان العبَّاس بن مِرداس، جمعه وحققه: يحيى الجبوري، مُؤسسة الرسالة، ط1، 1991م، ص 88

ذكر المجلس وأراد أهل المجلس.

وعنوان الرسالة " المجالس الأدبية في القصور الأُمويَّة عبد الملك بن مروان والحجَّاج بن يوسف أنموذجاً "

فهي تُعنى بمجالس الأدب الَّتي عقدها الخُلفاء للشُّعراء والأدباء في قصورهم. وما تضمنتها من وجهات نقدية، فالنَّقد توأم الأدب الَّذي شبّ معه، فهو بمثابة الأخ النصوح الَّذي يرشده إلى التمام، ولقد عثر الباحث على بيتين لأبي المنهال الأكبر[1] يجمع فيهما بين مجالس الأدب والنَّقد، إذ يقول:[2]

وإنَّما الشِّعرُ لُبُّ المَرْءِ يَعْرِضُهُ عَلَى المَجالِسِ إنْ كَيْساً وإنْ حُمُقا

وإنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قائِلُهُ بَيْتٌ يُقالُ إذا أنْشَدْتَهُ صَدَقا

أشار في البيت الأوَّل إلى مجالس الشِّعر، وفي البيت الثاني إلى الحُكم النَّقدي، ويكون بذلك قد جمع بين مجالس الأدب والنَّقد، وهذا ما أراد الباحث أن يكشفه ويوضحه في هذا البحث.

أمَّا كلمة الأدب فهي من الكلمات الَّتي تطورت في مدلولها في كل عصرٍ من العصور، ففي الجاهلية كانت تدل على الداعي إلى الطَّعام، قال طرفة بن العبد[3] في هذا المعنى: [4]

نَحْنُ فِي المَشْتَاةِ نَدْعُو الجَفَلَى لا تَرَى الآدِبَ فِينا يَنْتَقِرْ[5]

---

[1]هو بَقِيلة الأكبر، من بني هند وهو شاعر وسيد كريم ، شَهِدَ القادسية مع سعد بن أبي وقاص، ينظر (الإصابة في تميز الصَّحابة) ابن حجر العسقلاني، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وأخرون، دار الكُتب العِلمية، بيروت –لبنان –ط1، 1995م، 1/ 162

[2]علي بن أبي الفرج بن الحسن صدر الدِّين " الحماسة البصرية " تحقيق : عادل سُليمان جمال ، مكتبة الخانجي ، ط1 ، 1999م 914/2

[3]طرفة بن العبد البكري، شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى، وُلِدَ بالبحرين واتصل بالملك عمر بن هند، وأمر بقتله؛ لأنفته عليه، قتله المكعبر صاحب هجر، وهو ابن 26 عاماً وقيل 20 سنة، له دِيوان شِعر، ينظر، الأعلام، 3/ 225

[4]دِيوان طرفة بن العبد، شرحه: مهدي مُحمد ناصر الدِّين، دار الكُتب العِلمية – بيروت ، ط 3 ، 2002م ص24 .

[5]المشتاة: وقت الشتاء. الجفلى: الَّذين يدعون كل النَّاس إلى الطَّعام دون تسمية. الآدب: صانع المائدة والدَّاعي لها. ينتقر: يتذمر.

وازداد معناها اتساعاً في صدر الإسلام فأصبحت تدل على الخُلقُ الحميد، قال كعب بن سعد الغنوى[1] يرثى أخاه:[2]

حَبِيْـــبٌ إِلَـــى الـــزُّوَارِ غِشْـــيَانُ بَيْتِـــهِ جَمِيـلُ المُحَيَّـا، شَـبَّ وَهْـوَ أَدِيْـبُ

هذه الكلمة في هذا البيت لا تخلو من معنى الكرم وإقدام الزوار عليه وعدم ترددهم في زيارته وغشيان بيته؛ لمعرفتهم أنَّه سمح الجانب بشوش يستقبل الضيفان، كريم يبذل ما عنده من طعام.

وفي القرن الأوَّل للهجرة أصبحت تدل " على ما يلقيه المعلم على تلاميذه من الشِّعر والقصص، وكل ما من شأنه أن يثقف نفس النشء ويهذبها، ويمنحها حظاً من المعرفة"[3]

وصارت في العصر الأُموي تعني " الشِّعر والنثر وما يتصل بهما من الشرح والأخبار والأنساب " [4]

[1]كعب بن سعد بن عمرو الغنوى من بنى غنّى شاعر جاهلي حُلو الدِّيباجة، له دِيوان شِعر مات قبل الهجرة، ينظر، خِزانة الأدب، 3 /621

[2]الجاحظ: أبو عثمان بن عمر بن بحر " البيان والتبين " تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1367 هـ / 1948م 1/ 168

[3]حفنى محمد شرف " النَّقد الأدبي عند العرب: أصوله، قضاياه، تاريخه " مكتبة الشباب، القاهرة، 1970م، 36

[4]المرجع نفسه ، ص38

الفصل الأوَّل

أوجه الحياة في العصر الأموي

المبحث الأوَّل: الحياة السِّياسية

المبحث الثاني: الحياة العِلمية والأدبية

المبحث الثالث: الحياة الاجتماعية

المبحث الأوَّل:

الحياة السِّياسية:

إنَّ الشِّعر دِيوان العرب به سجل أحداثهم كلها؛ سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية ومن هذه الأحداث الأحداث السِّياسية وما صاحبها من شعر حيث يعود تاريخه إلى صدر الإسلام، متمثلاَ في المناهضة الشديدة الَّتي لقيها شعراء الإسلام من شعراء قريش والقبائل الأخرى؛ إذ احتدم النزاع بينهم، فنافح شعراء الإسلام عن تعاليم الدِّين الجديد بنسف أرآء المعارضين، وردها على أدبارها، وتبين فساد النظام القبلي الجاهلي، الَّذي يتكئ على المفاخرة بالآباء، والأجداد، والأحساب، إلى آخر ما عُرِفَ من تُرُّهاتِ الجاهلية وأباطيلها.

ولعلّ قصيدةَ حسَّان بن ثابت[1] الَّتي قالها ردّاً على وفد بني تميم، خير شاهد يُساق، في نقض غَزْلِ الجاهليةِ أنكاثاً مِنْ بَعْدِ قُوة، وجاء فيها:

إنَّ الـــذَّوائِبَ مِـــنْ فِهـــرٍ وَإِخْـــوتِهِمْ ... قَـــدْ بَيَّنُـــوا سُـــنَّةً لِلنَّـــاسِ تُتَّبَـــعُ[2]

يَرْضَـى بهَا كُلُّ مَنْ كانَتْ سَرِيرَتُهُ ... تَقْـوَى الإِلـهِ وبـالأَمرِ الَّـذِي شَـرَعُوا[3]

قَـــومٌ إِذَا حَـــارَبُوا ضَـــرُّوا عَـــدُوَّهمُ ... أَوْ حـاوَلُوا النّفْـعَ فـي أَشْـيَاعِهِمْ نَفَعُـوا[4]

سَـــجِيَّةٌ تِلْـــكَ مِـــنْهُمْ غَيْـــرُ مُحْدَثَـــةٍ ... إِنَّ الخَلائِـقَ، فـاعلَمْ، شَـرُّهَا البِـدَعُ[5]

ومنها :[6]

أكـــرِمْ بقَـــومٍ رَسُـــولُ اللهِ قائـــدُهُمْ ... إِذَا تَفَرَّقَـــتِ الأَهْـــوَاءُ والشِّـــيَعُ

---

[1]حَسَّان بن ثابت بن المنذر، الأنصاري، أبو الوليد، صحابي وشاعر النَّبيِّ ﷺ مُخضرم، عاش في الجاهلية 60 سنة وفي الإسلام مثلها، سكن المدينة، مدح الغساسنة، توفي سنة 54هـ، له دِيوان شِعر، ينظر، الأعلام، 2/ 175- 176

[2]الذوائب : الأعالي والمراد هنا السادة ، فهر : أصل قريش وهو فهر بن غالب بن النصر بن كنانة وأراد بالذوائب المهاجرين ، وأراد بفهر الأنصار .

[3]السريرة : هي السر وما خفى عن النَّاس .

[4]الأشياع : هم الأنصار والأتباع ، تقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر و المؤنث.

[5]السجيَّة : الغريزة وما جُبِلَ عليه الإنسان . الخلائق: جمع خليقه وهي الطبيعة هنا. البدع : جمع بدعة والمراد بها مستحدثات الأخلاق .

[6]شرح دِيوان حسَّان بن ثابت: عبد الرحمن البرقوقي ويوسف الشيخ، دار الكِتاب العربي، بيروت، 2008م، 187- 191

فـــإنّهُمْ أفضَـــلُ الأَحْيَـــاءِ كلّهِـــمِ إنْ جَـدُّ بالنَّـاسِ جِـدَّ القَـوْلِ أوْ شَـمَعُوا[1]

وكانت هذه القصيدة ردّاً على الزِّبرقان بن بدر[2] شاعر بني تميم الَّذي قال مفاخراً:

نحـــنُ الكِـــرَامُ فَـــلَا حـــيٌّ يُعَادِلُنـــا مِنَّـــا المُلُـــوكُ وَفِينَـــا يُقْسَـــمُ الرُّبُـــعُ[3]

وَكَـــمْ قَسَـــرْنَا مِـــنَ الأَحْيَـــاءِ كلِّهِـــم عِنْـــدَ النِّهَـــابِ وَفَضـــلُ العـــزِ يُتَّبَـــعُ[4]

وَنَحْـــنُ نُطْعِـــمُ عِنْـــدَ القَحْـــطِ مَطْعَمَنَـــا مِـــنَ الشّـــواءِ إذا لَـــمْ يُـــؤْنَسِ القَـــزَعُ[5]

بمـــا تـــرى النَّـــاس تأتينـــا ســـراتُهُمُ مِـــنْ كـــلِّ أرضٍ هُوِيّـــاً ثُـــمَّ تَصْـــطَنِعُ[6]

فَنَنحَـــرُ الكُـــومَ عَبْطـــاً فـــي أَرُوَمتِنَـــا للنَّـــازِلِينَ إذَا مـــا أُنْزِلُـــوا شَـــبِعُوا[7]

فَـــلَا تَرَانَـــا إلـــى حَـــيٍّ نُفَـــاخِرُهُم إلَّا اســـتَفَادُوا فكـــانُوا الـــرَّأْسَ يُقْتَطَـــعُ

فَمَـــنْ يُفَاخِرُنَـــا فـــي ذَاكَ نَعرِفُـــهُ فيَرجِـــعُ القَـــوْمُ والأَخبَـــارُ تُسْـــتَمَعُ

إنَّـــا أَبَيْنَـــا ولا يَـــأبَى لَنَـــا أَحَـــدٌ إنَّـــا كَـــذَلِكَ عِنْـــدَ الفَخْـــرِ نَرْتَفِـــعُ

والنَّعرة الجاهلية ظاهرة في قول الثاني، غايبة عن الأوَّل.

إنَّ قول حسّان يربو عن قول الزِّبرقان بمسافات بعيدة، وله أثر في النَّفس، يظهر في صدع وفد بني تميم بكلمة الحق قائلين: " إنَّ هذا الرجل لمؤتى له[8] لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعرهم أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا، فَلَمَّا فرغ القوم أسلموا ، وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم " [9]

وبعد وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم – برزت مسألة الخِلافة، وهي مسألة سِياسة عظيمة الشأن، لاحت بوادر الاختلاف عليها بين المهاجرين والأنصار، وانتهى بهم الأمر إلى مُبايعة

---

[1]شمعوا: أي لم يجدوا، والمشمعة: الطرب والضحك والمزاح.

[2]الزِّبرقان بن بدر التميمي، اسمه الحُصين، أبو عياش، وأبو شذرة، سيد في الجاهلية والإسلام، شاعر مُحسن، والزِّبرقان لُقِبَه لحسن وجهه، يُقال له (قمر نجد) مات في أيام مُعاوية سنة 45هـ، ينظر، الأعلام، 3/ 41

[3] وفينا يقسم الرُّبع: ربع الغنيمة ، وكانو يعطونها سَيِّد القوم وتُعرف بالمرباع.

[4]النِهاب: الغنيمة.

[5]القزع: السَّحاب.

[6]هُويا: سِراعاً.

[7]الكوم: عظم السنام . عبْطاً: من غير عله.

[8]مؤتى له : موفق يعني النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم .

[9]ابن هشام ، عبد الملك بن هشام (السِّيرة النَّبوية) تحقيق : مصطفى السقا وآخرون ؛ ط3 ، مصطفى البابي الحلبي ، 175/4

الصِّديق – رضي الله عنه – ولقد كان للشُّعراء مواقف تجاه هذه الحادثة العظيمة، وهذا أبو سُفيان بن حرب[1]، يرى أنَّ الخِلافة سُلِبت من عليٍّ بن أبي طالب[2]، قائلاً:[3]

بنـــي هاشـــمٍ، لا تُطمعُـوا النَّـاسَ فـيكُمُ وَلا سِـــيمَا تَـــيْمُ بـــن مُـــرَّةَ أَوْ عَـــدي

فَمَـــا الأمَـــرُ إلّا فِـــيكُمُ وَإلـــيكُمُ وَلـــيْسَ لَهَـــا إلَّا أَبـــو حَسْـــنٍ عَلـــي

أبا حســـنٍ فاشـــدد بهـــا كـــفَ حـــازم فإنَّـــك بـــالامرِ الَّـــذي يُرتجـــى ملِـــي

---

[1]أبو سُفيان صخر بن حرب، صحابي من سادات قريش في الجاهلية، اسلم يوم فتح مكَّة، وأبلى في الإسلام بلاءً حسناً، شَهِدَ حنيناً والطائف واليرموك مات بالشَّام سنة 31هـ وقِيل بالمدينة، ينظر، الأعلام، 3/ 201

[2]علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، أبو الحسن، رابع الخُلفاء الراشدين وأمير المؤمنين، وأحد العشرة المُبشرين بالجنَّة، ابن عمِّ النَّبيِّ وصهره، من أكابر الخُطباء والعُلماء بالقضاء، كان شجاعاً أوَّل النَّاس إسلاماً بعد خديجة قتله ابن مُلْجَم سنة 40هـ، ينظر، الأعلام، 4/ 295

[3]النُّعمانً عبد المتعالي القاضي " شِعر الفِرق الإسلامية في العصر الأُموي " ، دار المعارف مصر ، 1970م ، ص323

ومِن قَبِيل الشِّعر السِّياسي، ما قِيل في حُروب الرِّدة ، ولا مجال لِذِكره في هذا المبحث لكثرته وتشعبه ، وقد بُسِطَ في كُتبِ الأخبار والسِير.

ويدخل في باب السِّياسة، الأشعار الَّتي قِيْلَتْ في حِصار عثمان بن عفَّان[1] – رضي الله عنه– وعدم قبوله خليفةً للمُسلمين، قال الشاعر داعياً لعثمان بن عفَّان رضي الله عنه:[2]

عَجِبــتُ لِمَــا يَخُــوضُ النَّــاسُ فيــهِ ... يَرومُــونَ الخِلافــةَ أن تَــزُولا
وَلــو زَالــتْ لَــزالَ الخيــرُ عَــنهُم ... وَلاقُــوا بَعْــدهَا ذُلاً ذلِــيلا
وكــانوا كــاليهودِ أو النَّصــارى ... ســواء، كلهــم ضَــلّو السّــبيلا

ومن كلِّ ما تقدم يمكن أن نُعرِّفَ الشِّعر السِّياسي بأنَّه: " الشِّعر الَّذي يتصل بإمور الحُكم مُؤيداً أو مُعارضاً: أو يتناول علاقة الأمة بغيرها في الحرب أو السِلم "

إنَّ الشِّعر السِّياسي بهذا المفهوم نضج وازدهر واكتملت خصائصه ومعالمه في العصر الأُموي.

أمَّا الشِّعر السِّياسي الَّذي قد تلمح فيه خواطر سياسية في العصر الجاهلي، وهو الَّذي يتصل بمصالح القبيلة، والدِّفاع عنها، ومنافحة خصومها، فلا ينطبق عليه هذا المفهوم انطباقاً واضحاً؛ لأنَّ الجاهليين لم يكن لهم وطن أو دولة بمقوماتها الواضحة الكاملة؛ أي ليس لوطنهم حدود معلومة أو حاكم يجمعون عليه.

بيد أنَّ المفهوم السِّياسي أخذ بظهور الإسلام يتضح تدريجياً في الشِّعر بعد أنْ حلّتَ العقيدة مكان القبيلة، وهو ما ظهر في قصيدة حسَّان بن ثابت ردّاً على الزِّبرقان بن بدر، ثُمَّ أخذ النَّاس من مختلف طبقاتهم يلتفون حول تعاليم الإسلام سياسية واقتصادية ...، غير أنَّ الشِّعر السِّياسي لم يتشعب إلى طوائف متفرقة تعتمد على سوق الحُجج والبراهين إلَّا في عصر بني أُميَّة حيث ظهرت الفرق السِّياسية وهي: الخوارج، الشِّيعة والأُمويون، الزُّبيريون، والموالي، وكانت هنالك ثورات أهمها ثورة ابن الأشعث.

---

[1] عثمان بن عفَّان بن أبي العاص أمير أُموي، أبو عبد الله، وُلِدَ عام الفيل وهو الخليفة الثالث، قُتِلَ سنة 35هـ وهو ابن 82 سنة وله شِعر ،ينظر ،الإصابة، 2/ 464

[2] غازي طليمات ، وعرفان الأشقر " الشِّعر في عصر النُّبوة والخِلافة الراشدة " دار الفِكر- دِمشق، ط1، 2007م، ص 332

أوَّلاً: حِزب الخوارج:

الخوارج في اللُّغة: " جمع خارج وهو اسم مشتق من الخُروج وهم طائفة من النَّاس خرجوا على عليٍّ، أو خرجوا على النَّاس، وهم قوم من أهل الأهواء لهم مقالة على حدة، وهو تعريف الفيروز آبادى والأزهري في تهذيب اللُّغة "[1]

أمَّا تعريفهم الإصطلاحي، فقد اختلف العُلماء فيه اختلافاً كبيراً ومن ذلك:

قال الشهرستاني:[2] " كل من خرج على الإمام الحق الَّذي اتفقت الجماعة عليه يُسمى خارجياً، سواء كان الخروج في أيام الصَّحابة على الأئمة الراشدين أو كان بعدهم على التابعين لهم بإحسان والأئمة في كل زمان "[3]

"سُمِيَ هؤلاء الثائرون (الخوارج) لخُروجهم على عَلِيٍّ بعد أن قبل تحكيم عمرو[4] وأبي موسى[5]. أو لخروجهم مجاهدين في سبيل الله صدعاً بأمر الله عز وجل: " ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثُمَّ يدركه الموت فقد وقع أجره على الله "[6]

" هم الَّذين يقولون: لا حكم إلَّا لله، وكانت لهم على الإمام عليٍّ مآخذاً، وتطلق هذه الكلمة على كلِّ الأفراد والجماعات الَّذين قالوا بقولهم في العصور اللاحقة "[7]

إنَّ التعريف الأخير لم يقتصر على الزمن والعصر، بل جعل كل من يقول بقولهم في أي عصر من العصور صار منهم.

---

[1] الأزهري: مُحمد بن أحمد الهروي (تهذيب اللُّغة) تحقيق: مُحمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2001م، 50/7

[2] أبو الفتح مُحمد بن عبد الكريم وُلِدَ سنة 467هـ، مهتم بدراسة المذاهب، فقيه ثقة، له تصانيف كان كثير الحفظ والمحاوره، مات سنة 548هـ، ينظر، الذَّهبي: شمس الدّين مُحمد بن أحمد (سِير أعلام النبلاء) تحقيق :شُعيب الأرنؤوط وآخرون، مُؤسسة الرسالة، ط11، 1996م، 2/ 287

[3] الشهرستاني، مُحمد بن عبد الكريم " المِلل والنِّحل " تحقيق: أحمد فهمي مُحمد، المكتبة العِلمية، ط2، 1992م، 114/1.

[4] عمرو بن العاص: عمر بن سعيد بن العاص بن أُميَّة، الصَّحابي الجليل داهية من دهاة العرب، وُلِدَ بمكَّة، أسلم وحسن إسلامه، شَهِدَ المشاهد، استعمله النَّبيُّ ﷺ على تبوك وخيبر وفدك، له أخبار في التحكيم، رُوِي له شِعر، مات سنة 43هـ، ينظر، الإصابة، 4/ 526

[5] عبد الله بن قيس من بني الأشعر، صحابي من الولاة الفاتحين، أحد الحكمين في صِفين، وُلِدَ باليمامة ومات بالكُوفة سنة 44هـ، ينظر، الأعلام، 4/ 114

[6] الشِّعر في عصر النُّبوة، ص344.

[7] خليل إبراهيم جفّال " عبد الملك بن مروان النَّاقد الأديب" دار النضال مصر، ط1، 1991م ص 77 .

والَّذي يُعنى به البحث، الخوارج الَّذين خرجوا على عليٍّ بن أبي طالب – رضي الله عنه – ونشطوا في العصر الأُموي، وكانت لهم طوائف وعقائد وآراء في السِّياسة الأُمويَّة، حَتَّى غدا حِزبهم حزباً يشكل الحياة الدِّينية والسِّياسية والأدبية في العصر الأُموي.

اختلف المُؤرخون وعُلماءالفرق في بدء نشأتهم:

يرى ابن كثير أنَّ خروجهم كان زمن عثمان بن عفَّان، وهم الَّذين قتلوه في داره حيث يقول: "وجاء الخوارج وقتلوا عثمان وأخذوا مال بيت المال وكان فيه شئٌ كثير جداً "[1]

ومن العُلماء من يرى أنَّ الخوارج لم يصبح حزباً له آراؤه وأتباعه إلاَّ في زمن نافع بن الأزرق[2]، وما كان قبل ذلك من ثورات حربية على الأمويين وعلى عليٍّ بن أبي طالب – رضي الله عنه – فهي لا تعدو أن تُسمّى ثوراتٍ خفيفة، يقول أبو اسحاق اطفيش: " الخوارج طوائف من النَّاسِ في زمن التابعين وتابع التابعين، رؤوسهم نافع بن الأزرق، ونجدة بن عامر[3]، و مُحمد بن الصفار، ومن شايعهم وسُمّوا خوارج؛ لأنَّهم خرجوا على الحق وعن الأمة بالحكم على مرتكب الذنب بالشِّرك"[4]

يتفق الاطفيش مع غيره في أنَّ الخوارج خرَجوا على الإمام عليٍّ بن أبي طالب، ثُمَّ يصف منهجهم بتكفير مرتكب الذنب، ويرى أنَّ أوَّل ظهورهم يعود إلي نافع بن الأزرق. ومن معه ممَّن ذكرهم.

طوائف الخوارج:

الخوارج: هو أشهر أسمائهم، وكان الخوارج يفخرون بذلك الاسم لأنَّه مأخوذ من قوله تعالى:" وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا "[5]

---

[1]ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي " البداية والنهاية " مكتبة المعارف - بيروت، 189/7

[2]نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي، الحروري، أبو راشد، رأس الأزارقة وإليه نسبتهم، كان أمير قومه، وفقيههم، من أهل البصرة، صحب في أوَّل أمره عبد الله بن عبَّاس ثُمَّ فارقه، وله معه أسئلة، مات سنة 65هـ، ينظر، الأعلام، 7/ 176

[3]نجدة بن عامر الحروري من حنيفة، وُلِدَ سنة 16هـ رأس النَّجدية من الخوارج، له آراء انفرد بها عن سائر الخوارج، له حُروب مع مُصعب بن الزُّبير، وعبد الملك بن مروان، مات سنة 69هـ، ينظر، الأعلام، 8/ 108

[4]السالمي ، مُحمد بن عبد الله " عمان تاريخ يتكلم ، دِمشق الطبعة العمومية ، 1963 م ص103

[5]سورة النِّساء ، الأية : 100

يقول مُحمد بن عبد الله السالمي: " وكان اسم الخوارج في الزَّمن الأوَّل مدحاً؛ لأنَّه جمع خارج: وهي الطائفة الَّتي تخرج للغزو في سبيل الله تعالى ، قال تعالى : " ولو أرادوا الخُروج لأعدوا له عُدَّةً .... [1] "

وكان الخارجي لا يستنكف أن يُسمِّي نفسه بهذا الاسم، ولقد ورد في أشعارهم: [2]

كـــذبتم لـــيسَ ذاكَ كمْـــاَ زعَمْـــتُم وَلَكِـــنَّ الخَـــوارِجَ مُؤمِنُوْنَـــا

الحرورية: نسبة للمكان الَّذي خرج فيه أسلافهم على عليٍّ، وهو قرب الكُوفة ، وقد وردت هذه التسمية في الصَّحيحين ، عن مُصعب قال سألتُ أبي عن قوله تعالى : " قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالاً " هم الحرورية ؟ قال : لا هم اليهود والنَّصارى ، أمَّا اليهود فكذبوا محمداً ﷺ وأمَّا النَّصارى فكفروا بالجنَّة قالوا : لا طعام فيها ولا شراب ، والحرورية الَّذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، وكان سعد يُسميهم الفاسقين "[3]

الشُّراة: نسبة إلى الأية الكريمة: " إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ"[4] وهم يفخرون بهذه التسمية ويسمون من عاداهم (بذوي الجعائل) قال عيسى بن فاتك:[5]

فَلَمَّـــا اســـتجمعوا حملـــوا علـــيهم فظـــــل ذوو الجعائِـــــلِ يقتلونـــــا[6]

يقول كعب بن عُميرة[7] في رثاء أبي بلال[8] بيتاً يسفر عن مصيره الأبدي:[9]

شـــرى ابـــن حديـــد نفســـه لله فـــاحتوى جنانـــاً مـــن الفـــردوسِ جمـــاً نعيمهـــا

---

[1] التوبة ، الأية : 46
[2] السالمى " عمان تاريخ يتكلم " ص 118
[3] رواه البخاري برقم 4728
[4] التوبة ، الأية : 111
[5] احسان عبَّاس " شِعر الخوارج " دار الثقافة للطباعة والنشر ، ط2 ، 1974م ، ص54
[6] الجعائل: جمع جُعل وهي العطية يجعلها السُّلطان لبعض النَّاس، وعنى بالجعائل أتباع بني أُميَّة
[7] أحد شعراء الخوارج وفرسانهم، كان ينوي الخروج يوم النهروان فحبسه أخوه، فرثى من قُتِل من أصحابه وتمنى لو نال الشَّهادة معهم، ينظر، المرزباني: أبو عبد الله مُحمد بن عمر (مُعجم الشُّعراء) تحقيق فاروق أسليم، دار صادر، ط1، 2005م، ص345
[8] - مِرداس بن حدير التميمي، من عُظماء الخوارج الخُطباء الأبطال، شَهِدَ صِفين وأنكر على عليٍّ التحكيم، ثُمَّ خرج عليه، فقتله عبَّاد بن علقمة وهو يصلي مع أصحابه يوم الجمعة سنة 61هـ، ينظر، الأعلام، 7/ 202
[9] شِعر الخوارج، ص43

وكان خصومهم يسموهم بـ(المارقة)؛ لمروقهم من الدِّين كما يمرق السَّهم عن الرَّمية، قال بن قيس الرقيَّات[1] في هذا الاسم:[2]

إذا نحن شتى صادفتنا عصابةٌ حرويةٌ أضحت من الدِّينِ مارقه

الفِكر الدِّيني والسِّياسي عند الخوارج:

اتهم الخوارج عليَّاً بن أبي طالب بالزيغ، وذلك بعد حادثة التحكيم، ورفعوا شعاراً – هتف به عامتهم – لا حكم إلّا لله، وعلى وفقه حكموا على عليٍّ بالكفر، إذ حكَّم الرِجال ولم يحكِّم كِتاب الله تعالى، حتَّى قال شاعرهم فروة بن نوفل[3] ذاماً عليّاً بن أبي طالب:[4]

نقاتل من يقاتلنا، ونرضى بحكم الله لا حكم الرجال
وفارقنا أبا حسن عليّاً فما من رجعةٍ إحدى الليالي
فحكَّم في كتاب الله عمراً وذاك الأشعري أخا الضلال

يظهر من خلال هذه الأبيات " بأنَّ جماعة الخوارج حزباً سياسيّاً مُعارضاً شديد المُعارضة، وأَنَّ مُعارضتهم منبثقة من مبدأ يستلهم السلوك السِّياسي من العقيدة الدِّينية، وأَنَّ الركن الأساسي في السلوك السِّياسي هو الاحتكام إلى القرآن الكريم "[5]

لقد كان عَليٌّ شقيّاً بأصحابة الَّذين انقلبوا عليه، ورموه بالكفر ثُمَّ ارتقت بهم الأسباب حتَّى أباحوا دمه، بل مدحوا قاتله مدحاً سياسياً، يعبر عن موقفهم السِّياسي من ابن مُلْجَمٍ[6] – القاتل الغادر –

---

[1]عبد الله بن قيس الرقيَّات، شاعر أموي، خرج مع مُصعب بن الزُّبير على عبد الملك بن مروان، أكثر شِعره في الغزل السِّياسي، وله مدح لآل الزُّبير وهو شاعرهم، توفي سنة 85هـ، ينظر الأعلام، 4/ 196

[2]ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم " الكامل في التاريخ " دار الكُتب العِلمية ، ط 1 ، 1987م ، 198/4

[3]فروة بن نوفل بن شريك الأشجعي، ثائر من زُعماء الخوارج، كان رئيساً للشراة، إعتزل عليَّاً بعد التحكيم، قتله مُعاوية بن أبي سُفيان في حُروبه مع الخوارج، ينظر، الأعلام، 5/ 143

[4]نايف معروف " دِيوان الخوارج " دار الميسرة ، 1983م ، ص 159

[5]الشِّعر في عصر النُّبوة والخِلافة الراشدة ، ص 355

[6]عبد الرحمن بن مُلْجَم المراري، فاتك ثائر، أدرك الجاهلية والإسلام، فأسلم، وقرأ على مُعاذ بن جبل، فكان من القراء وأهل الفقه والعبادة، وهو الَّذي قتل عليَّاً بن أبي طالب رضي الله عنه، مات سنة 40هـ ،ينظر،الأعلام، 3/ 339

فالحِزب يُقر ما فعل، بل هو الَّذي حرضه على هذا الفعل، قال شاعرهم عمران بن حطان[1] مادحاً بن مُلْجَم : [2]

لِلـــــهِ درَّ المُـــــرادِيِّ الـــــذي سَـــــفكَتْ كَفــاهُ مُهجَــةَ شَــرِّ الخَلــقِ إنســانا
أمســـــى عَشـــــيَّةَ غَشَّـــــاهُ بِضَـــــربتِهِ مِمَّــا جَنــاهُ مِــنَ الآثــامِ عُريَانــا
يــا ضَــرَبةً مــن تَقِــيٍّ مــا أراد بهَــا إلَّاَ ليَبْلُــغَ مِـن ذي العَـرشِ رِضـوانا
إنِّـــــي لأذكُـــــرُهُ حينـــــاً فأحســـــبُهُ أوفـــى البَرِيَّـــةِ عِنـــدَ اللهِ ميزانـــا
أكـــرِمِ بقـــومٍ بُطـــونُ الطّيـــرِ قَبـــرَهُمُ لَـمْ يخلطـوا ديـنهم بَغْيـاً وَعُـدوانا

فالشاعر يُبدي إعجابه بفعل ابن مُلْجَم، ويرى أنَّ هذا الفعل ينفي عنه أدران الذُنوب، ويقربه إلى الله أبواعاً وأذرعاً، حتَّى يثقل مِيزانه بالحسنات. ثُمَّ تعَّجب من أصحابه الخوارج بقوله: أكرم بقوم بطون الطَّير قبرهم! وهو كناية على شجاعتهم وقتالهم، وأنَّهم يموتون في المعارك وتأكلهم الطَّير. والعجب كل العجب من عجز البيت الأخير من هذه الأبيات، كيف لم يخلطوا دينهم بغياً وعدوانا وهم قتلوا ابن أبي طالب ؟!

لقد راوح الشاعر في هذه الأبيات بين الأساليب؛ وذلك لتوكيد فِكرته في أذهان النَّاس، ويظهر ذلك في التعجب في البيت الأوَّل والأخير " لله درّ المرادى، أكرم بقوم بطون الطَّير قبرهم! " وعمد الشاعر إلى المقارنة بين عليٍّ وقاتله، حيث وصف عليّاً " بشر الخلق إنسانا " وفي المقابل وصف ابنَ مُلْجَمٍ بـ" أوفى البرية عند الله ميزانا، ويصفه بالتقوى في البيت الثالث انظر إلى قوله: " من الأثام عُريانا " أى اثم أكبر من قتل النَّفس المؤمنة الَّتى فدت النَّبىَّ ﷺ بنفسها ، وباتت على فِراشه ليلة الهجرة ؟!

ونشتم رائحة التعظيم والتعجب في النَّكرة غير المقصودة في البيت الثالث " يا ضربةً من تقى ..." أى هي ضربة أىّ ضربة! تقرب بها هذا اللعين إلى الله على حدّ زعم الشاعر.

---

[1] رأس القعدة الخوارج الصفرية، شاعر وخطيب، كان قبل ذلك من رجال العِلم والحديث، أدرك جماعة من الصحابة فروى عنهم، مات سنة 84هـ، ينظر، الأعلام، 5/ 70

[2] مُحمد عبد القادر أحمد " دِراسات في أدب ونصوص العصر الأُموي " مكتبة النَّهضة المصرية ط1 ، 1982م ص133

لقد فَخِرَ الخوارج بهذه الضَّربة فخراً كبيراً، حتَّى آضت عُنصراً مهماً من عناصر فخرهم، يقول في ذلك ابن مياس المرادي:[1]

ونحـــن ضـــربنا، يـــا لـــك الخيـــر حيـــدرا أبـــا حســـن مأمومـــة فتفطـــرا
ونحـــن حللنـــا ملكـــه مـــن نظامـــه بضـــربة ســـيف إذ عـــلا وتجبـــرا
ونحـــن كـــرام فـــي الصـــباح أعـــزة إذا المـــوت بـــالموت ارتـــدى وتـــأزرا

يعلو عنصر الفخر في هذه الأبيات ، إذ يكرر الشاعر عبارة "نحن" ثلاث مرات في صدر كل بيت " نحن ضربنا ، نحن حللنا ، نحن كرام " يزعم في البيت الأوَّل : بأنَّ هذه الضَّربة أسفرت عن الخير المتمثل في قتل عليّ ، ويكشف البيت الثاني عن : نظرة الخوارج الضيقة إزاء " الخِلافة " فالشاعر يتشبث ببعض أوبار الجاهلية ؛ إذ يرى أنَّ عليَّاً مَلِكاً ولم يره خليفةً للمُسلمين ولا أميراً لهم؛ وذلك في قوله " حللنا مُلْكَه " ومفردة المُلك من المفردات الجاهلية الضاربة في القدم والشاهد على ذلك تلك الألقاب الَّتي كان أفراد القبيلة يلقبون بها مُلوكهم ، من أمثال قولهم : " مُلوك الغساسنة وملوك المناذرة .... " . قال الهدهد لسُليمان عليه السلام في شأن بلقيس : " إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيم "[2] وجعل الله الملك معجزة لسليمان عليه السلام إذ دعا سليمان ربه قال تعالى حاكيا على لسان سُليمان: " قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ"[3] جعل الله عز وجل المُلك إمارة للعزّة والقُوة ، وذلك في سورة البقرة في الحوار والجدال بين قوم جالوت وطالوت ، قال تعالى : " وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين " [4] ولمَّا جاء الإسلام أعطى المُفردات دلالات جديدة ، واستبدل بعض المفردات بمفردات أخرى، ومن تلك المُفردات الَّتي أُسْتُبْدِلت مُفردة المُلك بكلمة(أمير المؤمنين أو خليفة المُسلمين)

[1] شِعر الخوارج ، 35
[2] سورة النمَّل ، الأية : 23
[3] سورة ص ، الأية : 35
[4] سورة البقرة، الأية 248

لم ير الشاعرُ عليّاً رضي الله عنه – سوى ملك من مُلوك الجاهلية؛ لذا سلخه عن ألفاظ الإمارة الإسلامية والخِلافة؛ لكي يُحلَّ قتله ويكون حينها غير آثم ؛لأنَّه قتل رجلاً جباراً، والشاهد على ذلك عجز البيت إذ يقول: إذ علا وتجبرا.

وفي البيت الثالث وصف قومه بالكرم والعزَّة عند المعركة إذ بلغت القلوب الحناجر؛ وذلك في قوله: (إذا الموت بالموت ارتداء وتأزرا) بالَروعةِ التصوير! المتمثل في تجسيد الموت، كيف يكون له ازار ورداء هذا من بديع الاستعارات المكنية.

يَصُب شِعر الخوارج في مصب: الحماسة، والفخر، والرثاء، وهجاء بني أُميَّة والشُّعراء المتملقين لهم من أجل لعاعة الدُّنيا، وهذا عمران بن حطان يهجو الفرزدق؛ لأنَّه يمدح بني أُميَّة لأجل المادة، إذ يقول: [1]

أيُّهـــا المَـــادِحُ العبـــادَ لِيُعْطـــى ... إنَّ لِلـــهِ مـــا بِأَيْـــدِي العِبَـــادِ
فَاسْـــأل اللهَ مَـــا طَلَبْـــتَ إلَـــيْهِمْ ... وارْجُ فَضـــلَ المقسِّـــمِ العَـــوَّادِ
لا تقُـــل فـــي الجّـــوادِ مـــا لـــيسَ فِيـــهِ ... وَتُسَـــمِّي البخِيـــل بِاسْـــمِ الجّـــوادِ

يدور مدح الخوارج لأصحابهم حول محورين هما: الشَّجاعة والبسالة في حومات الوغى، والخشوع والتقوى والزهد في الدنيا، والشاهد على ذلك كلمة الطّرماح بن حكيم[2] إذ يقول:[3]

وهـــم الأســـود لـــدى العـــرين بســـالةً ... ومـــن الخشـــوع كـــأنهم أحبـــارُ
يمضـون قـد كسـروا الجفـونَ إلـى الـوغى ... متبســـمين وفـــيهم استبشـــارُ
فكأنمـــا أعـــداؤهم أحبـــابُهمُ ... فرحـــاً إذا خطـــرَ القنـــا الخطـــارُ
يـــردون حَوْمـــاتِ الحمـــامِ وإنَّهـــا ... تـــاللهِ عنـــد نفوســـهم لصـــغارُ

يجب أنْ ينال هذا النَّص ضرباً من الشُهرة؛ لصدق العاطفة فيه، الَّتي منحته حيوية وخلوداً، وأثر العاطفة محسوس لا يخفى، كيف لا يكون صادقاً من يُقدِّم نفسه في سبيل ما أمن به ثُمَّ يرى روحه صغيرةً؟! أكد الشاعر هذه الصورة بالقسم وتاء القسم، والبيت الثاني يؤكد عزمهم على تقديم نفوسهم

[1] دِراسات في أدب ونصوص العصر الأُموي، ص 132
[2] شاعر إسلامي من شعراء الدَّولة الأُمويَّة نشأ بالشام ثم انتقل إلى الكُوفة، اعتنق مذهب الشُّراة والأزارقة، وكان فصيحا يكثر في شِعره من الغريب له دِيوان شِعر، ينظر، البيان والتبين، 1/ 46
[3] دِراسات في أدب ونصوص العصر الأُموي 135

رخيصة مع الاستبشار والرضى، إذ يكسرون أغمادهم طلباً للموت وخصوما للحياة. هم أسودٌ في الحرب أحبارٌ في مِحراب العِبادة.

ومن أمثلة استعذابهم للموت غير آبهين بالحياة الدُّنيا، قول قطرئ بن الفجأة:[1]

لاَ يَـــرْكَن أحـــدٌ إلـــى الإحجـــامِ يَـــوْمَ الـــوغَى مُتَخَوِّفـــاً لِحِمَـــامِ
فلَقَـــدْ أَرانِـــي للرِّمـــاحِ دَرِيئَـــةً مِـــن عـــن يَمِينِـــي تَـــارةً وأَمـــامِي
حَتَّـى خَضَـبْتُ بِمـا تَحَـدَّرَ مـن دَمـي أَكنـافَ سَـرْجِي أَو عِنـانَ لِجـامِي
ثُـمَّ أَنْصـرَفْتُ وَقَـد أَصَـبْتُ وَلَـمْ أُصَـبْ جَـذَعَ البَصِـيرةِ قـادِحَ الإِقْـدامِ

أمَّا العِبادة فهم أهلها، حتَّى إنَّ الرّجل – من غير حِزبهم – يحقر صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم ، قال شاعرهم عيسى بن فاتك[2] مُصوراً عبادتهم :[3]

إذا مَـــا الليـــلُ أظلـــمَ كَابَـــدُوه فَاسْـــفر عـــنهم وهـــمْ رُكُـــوعُ
أطـــارَ الخـــوف نـــومَهُمُ فقـــاموا وأَهـــلُ الأَمـــنِ فـــي الـــدنيا هُجُـــوعُ
لَهُـــم تحـــتَ الظَّـــلامِ وهـــمْ سُـــجُودٌ أنـــينٌ منـــهُ تنفـــرجُ الضـــلوعُ
وَخُـــرسٌ بالنَّهـــار لِطـــولِ صـــمتٍ علـــيهم مِـــنْ ســـكِيْنتِهِمْ خُشـــوعُ
يُعـــالون النَّحيـــبَ إليـــهِ شَـــوقاً وإنْ خفضـــوا فـــربهم سَـــمِيعُ

لا يخفى أثر الاقتباس من القرءان الكريم في هذه الأبيات: أخذ الشاعر معنى البيت الثاني من الأية الكريمة: " أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ "[4]

نظر الشاعر في البيت الأوّل للأية القرآنية: " تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ" [5]

---

[1] شِعر الخوارج ، ص 18
[2] عيسى بن فاتك، وقِيل بن عاتك، وعاتك أُمّه، شاعر من الخوارج الأزارقة من أصحاب نافع بن الأزرق، كانت تتعلق به بناته عند الخروج للحرب وينشد الأشعار، له شِعر رقيق، ينظر، الحماسة البصرية، 10/ 273
[3] شِعر الخوارج، ص 56
[4] سورة الأعراف ، الأية : 97، 98
[5] سورة السَّجدة ، الأية : 16

ولم يك تصوير الشَّجاعة والعِبادة قاصراً على الشِّعر فحسب ، بل تعداه إلى الخطابة، وراح خُطباء الخوارج يُصورون ذلك في خُطبهم، ومن أشهر هذه الخُطب الَّتي وصفتهم وصفاً لا تغادر صغيرة ولا كبيرة من صفاتهم إلَّا وصفتها خُطبة أبي حمزة الشَّارى الَّتي ألقاها في مكَّة، ويُقال بل ألقاها في المدينة : " شبابٌ والله مكتهلون[1] في شبابهم غَضيضةٌ عن الشرّ أعينهم، ثقيلةٌ عن الباطل أرجلهم ، أنضاء[2] عبادة و أطلاح [3] سَهر ، ينظر الله إليهم في جَوْف اللَّيل، منحنيةً أصلابهم على أجزاء القرءان ، كُلَّما مَرَّ أحدهم بآية من ذِكْرِ الجنَّة بكى شوقاً إليها، وإذا مرّ بآية من ذِكْرِ النَّار شهق شهقةَ كأن زفير جهنَّم بين أذنيه . موصول كَلالهم بكلاَلهم، كلال اللَّيل بكلال النهار ... حتَّى إذا رأوا السِّهام قد فُوِّقت والرِّماح قد شُرعت والسُّيوف قد انتُصبتْ وَرَعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقتْ، استخفوا بوعد الكتيبة لوعيد الله، ومضى شباب منهم قُدُماً، حتَّى اختلفت رِجلاه على عنقِ فرسه، وتخضت بالدِّماء محاسن وجهه، فأسرعت إليه سباع الأرض، وانحطت عليه طير السماء.

فكم من عينٍ في منقار طائرٍ طالما بكى صاحبها في جوف اللَّيل من خوف الله، وكم من كفٍّ زالت عن مِعْصَمِها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف اللَّيل بالسجود لله[4]

لم يك الفِكر الخارجي حِكراً على الذُكور فحسب، بل كان حظ الأنثى مثل حظ الذَكر، في الإقدام والشَّجاعة ومُقارعة الكُماة، وربَّما نبذت المرأة حظها الفِطري من الخوف، والوجل، وراء ظهرها، وبسطت سلطانها على المُلوك والقادة حتَّى غدا الفارس يفر منها فرار الظليم من الأسد، كما كان شأن الحجَّاج بن يوسف مع غزالة الخارجية[5]، قال الشاعر في ذلك: [6]

أســدٌ علــيَّ وفــي الحــروبِ نعامــةٌ فتْخــاءُ تنفــر مــن صــفير الصــافرِ
هَــلاَّ بــرزتَ إلــى غَزالــة فــي الــوغى بــل كــان قلبُــك فــي جنــاحي طــائرِ

---

[1] مُكتهلون : يريد أنَّ لهم رزانة الكهول .
[2] انضاء : مهزولون.
[3] أطلاح : مكدودون.
[4] الجاحظ: أبو عثمان عمر بن بحر " البيان والتبين " مكتبة الخانجى، ط1، 122/2 .
[5] غزالة هي أمّ حكيم الخارجية، شاعرة الخوارج، من أشجع النِّساء، وأحسن النَّاس وجهاً، ودِيناً، كان الخوارج يفدونها بالآباء والأمهات، أحبها عمران بن حطان، له شِعر حسن فيها، ينظر، البيان والتبين، 1/ 365
[6] شِعر الخوارج، ص 166

إنَّ تشبيه الشُّجاع بالأسد والجبان بالنَّعامة ، تشبيه جاهلي قديم فهذا عنترة بن شداد[1] يصف نفسه ويهجو أحد الجبناء ، إذ يقول :[2]

وأنـــا الرَّبيـــعُ لمـــنْ يَحُـــلُّ بســـاحَتي أسَـــدٌ إذا مـــا الحـــرْبُ أبْـــدَتْ نابَهـــا
وإذا لقيـــــتُ كتيبـــــةً طاعَنْتُهـــــا وَسَـــــلبْتُهَا يـــــومَ اللِقـــــاءِ عُقابَهـــــا
فَاذْهَـــبْ فَأَنْـــتَ نَعامَـــةٌ مَـــذْعُورَةٌ وَدَعِ الرِّجـــــالَ قِتالَهـــــا وَسِـــــبابَها

إنَّ مشهد وداع الأبطال من المشاهد الَّتي أرخى لها شعراء الخوارج عنان القلم ، تخليداً لِذِكْرِ الراحلين ، وعُجن هذا الرثاء بالطينة الإسلامية الَّتي تشيد صرحاً مداده التقوى والصِّدق والاخلاص والجهاد ، وغيرها من القِيم الدِّينية. وأحياناً يتمسك شعراؤهم بمظاهر إنسانية، مثل تحريض العين على البكاء، والتنويه بشجاعة المرثي، وتأجج المشاعر وألم الفِراق ...

هذا العيزار بن الأخنس الطائي[3] يرثي قتلى صِفين رثاءً يتلهب حرارة ومرارة، وتمنى أن يلقى مصيرهم تُقَطِّعه لوامع السّيوف، أو يلتقمه ضريحه، مؤمناً بأنَّ الخوارج على حقٍ؛ لأنَّهم رفضوا تحكيم البشر، وقالوا: لا حكم إلَّا لله، ويرى أنَّهم أتقى النَّاس إذ يقول:[4]

ألا ليتنـــي فـــي يـــوم صِـــفين لـــم أوب وغـــودرت فـــي القتلـــى بصـــفين ثاويـــا
وقُطّعـــت آرابـــاً، وأُلقيـــت جُثـــه وأصـــبحت ميتـــاً لا أجيـــب المناديـــا
ينـــادون لا لا حكـــم إلاّ لِربِّنـــا حنانيـــك ، فـــاغفر حوبنـــا والمســـاويا
هـــم فـــارقوا فـــي الله مـــن جـــار حكمـــه وكـــل علـــى الـــرحمن أصـــبح راضـــيا
وآلـــوا إلـــى التقـــوى ولـــم يتبعـــوا الهـــوى فـــلا يبعـــدن الله مـــن كـــان شـــاريا

[1] عنترة بن شداد بن عمرو العبسي، أشهر فرسان العرب في الجاهلية، من شعراء الطبقة، الأولى، أسود اللون، عزيز النَّفس، حسن الشيم، كان مُغرماً ببنت عمِّه (عبلة) شَهِدَ حرب داحس والغبراء، عاش طويلاً، قتله الأسد الرهيص، له دِيوان شِعر، ينظر، الأعلام، 5/ 91

[2] الخطيب التبريزي " شرح دِيوان عنترة " تحقيق مجيد طراد، دار الكُتب العِلمية ، ط1 ، 1992م ، ص24

[3] شاعر من شعراء الخوارج، فارس شجاع، شَهِدَ صِفين ضد عليٍّ، والنهروان، كان خارجياً وأبوه كذلك، قتله عليٌّ بن أبي طالب، ينظر البيان والتبين، 1/ 406- 407

[4] الشِّعر في عصر النُّبوة والخِلافة الراشدة ، ص 620

تأثر عمران بن حطان بِمْقَتلِ أبي بلال مِرداس الَّذي قُتِل سنة 61هـ، ومات ميتةً شريفةً قعصاً بالرِّماح، لا كما يموت العير، قائلاً [1]

لقد زادَ الحياة إلـيَّ بُغْضاً ... وَحُبَّاً للخُروجِ أبو بلال
أحاذرُ أن أموتَ على فِراشِي ... وَأرجو الموتَ تَحتَ ذُرَى العَوالي[2]
وَلَو أني عَلِمتُ بأنَّ حَتْفي ... كحتفِ أبي بلالِ لَمْ أُبالِ
فَمن يَكُ هَمُّهُ الدُنيا فإنّي ... لها واللهِ رَبِّ البيتِ قَالِي

ولام عمران بن حطان عيسى بن فاتك، لقعوده عن القتال، إذ تشبث به بناته فحركن فيه دواعي الفطرة الأبوية تجاه الولد، فأصبح حِلْسَ بيته، قال عيسى بن فاتك في ذلك:[3]

لَقَدْ زَادَ الحياةَ إلـيَّ حُبَّاً ... بَنَاتي إنّهُنَّ من الضِّعَاف
أُحاذِر أنْ يَرَيْنَ الفقرَ بَعْدِي ... وأنْ يشْرَبْنَ رَنْقاً بعد صافِ
وأنْ يَعْرَيْنَ إن كُسِيَ الجَوَارِي ... فَتَنْبُو العَيْنُ عَنْ كَرَمٍ عِجَافِ
فلولا ذاك قد سومت مُهرى ... وفي الرحمن للضعفاء كافِ
تقول بنيتي: أوصى الموالي ... وكيف وصاة من هو عنك جَافِ
أبانا من لنا إن غبتَ عَنّا ... وصار الحيّ بعدك في اختلاف

إنَّ هذه الرّقة والتعطف من الأب على الأبناء أمرٌ كثير الدوران في الأدب العربي، ومن ذلك ما أورده المرزوقى في شرحه للحماسة: [4]

لولا أُمَيْمةُ لم أَجْزعْ من العَدَم ... ولم أُقاسِ الدُّجىَ في جِنْدِسِ الظُّلم
وزادني رغْبةً في العْيش مَعْرِفَتِي ... ذُلَّ اليتيمةِ يَجْفُوَها ذَوُو الرَّحِمَ
أُحاذِرُ الفقرَ يَوْماً أن يُلِمَّ بها ... فَيَهْتكَ السّترَ عن لَحْمٍ على وَضَمِ[5]
أخْشى فَظَاظَةَ عَمٍ أو جَفاءَ أخٍ ... وكُنتُ أُبْقِي عَليَهَا من أذى الكَلِمِ

---

[1] شِعر الخوارج، ص 142
[2] العوالي: الرّماح.
[3] الحماسة البصرية. 144/1
[4] المرزوقي ، أبو علي أحمد بن مُحمد بن الحسن " شرح دِيوان الحماسة لأبى تمام الطائى " دار الكُتب العِلمية بيروت ، ط 1 ، 2002م ص 205 ، 206
[5] الوضم: ما يُوضع عليه اللحم لتقطيعة ن وفي المثل " النِّساءُ لَحَمٌ على وضَمٍ إلَّا ما ذُبَّ عنه "

ومن العجيب الغريب أن نجد بعض الخوارج يتركون مجالسهم، وتلاوة القرآن إذا خنقهم أمر الحاكم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، كما صنع بهم ابن زياد، قال شاعرهم:[1]

وَمَـــا زالَ بـــي صـــرفُ الزّمـــانِ وريبـــه حَتّـــى رَفضـــتُ مَجـــالِسَ الفِتيـــانِ
وَألفـــت أَقوامـــاً لغيـــرِ مـــودةٍ وَهجـــرتُ غَيْـــرَ مُفـــارِقٍ إخـــواني
وَأَفْضـــتُ فـــي لَهْـــوِ الحـــديثِ وهجـــرِه بَعْـــدَ اعتيـــادِ تِـــلاوة القـــرءانِ

تكشف هذه الأبيات عن منهجٍ يشبه منهج الشِّيعة في تقيتهم غير أنَّه لم يك شائعاً عندهم.

بل إنَّ التنكب عن المنهج جريرة عظيمة لا تُغْفر إلَّا بتوبة صادقة، وإنْ وقع ذلك عند بعضهم لاحِقته أصواتُ اللوم حتَّى يرعوى إلى ما كان عليه قبل. ومن ذلك أنَّ سميرة بن الجعد ترك الخوارج وتبع الحجَّاج بن يوسف، فكتب إليه قطرئ بن الفجاءة[2] قائلاً: [3]

لَشـــتّانَ مَـــا بَـــيْنَ ابـــنَ جَعـــدٍ وَبَينَنَـــا إذا نَحْـــنُ رُحنـــا فـــي الحَديـــدِ المُظـــاهَرِ[4]
نُجَالِـــدُ فُرْســـان الْهلَّـــبِ كُلّهَـــا صَـــبورٌ علـــى وَقَـــعِ السُّـــيوفِ البَـــواتِرِ
وَراحَ ابـــنُ جَعـــد الخيـــر نَحـــوَ أميـــرِهِ أميـــرٌ بتقـــوى رَبِّـــهِ غيـــرِ آمِـــرِ
أبـــا جَعـــدٍ أيـــن العلِـــمُ وَ الحِلـــمُ والنُّهـــى وميـــراثُ آبـــاءٍ كِـــرامِ العَناصِـــرِ
فراجـــع أبـــا جَعـــدٍ وَلا تَـــكُ مُغْضِـــباً عَلـــى ظلمـــةٍ أعْشَـــتْ جَميـــعَ النّـــواظِرِ
وَتُـــب تَوْبَـــةً تُهْـــدي إليـــك شَـــهادَةً فإنَّـــكَ ذو ذَنـــبٍ وَلسْـــتَ بكـــافِرِ[5]
وَسِـــر نَحْوَنَـــا تلـــقَ الجِهـــادَ غنيمـــةً تُفْـــدِكَ ابتيَاعـــاً رَابِحـــاً غيـــرَ خَاسِـــرِ

ولمَّا سَمِعَ سميرة الأبيات، ترك الحجَّاج ولحق بالأزارقة وأنشد[6]

فَمَـــنْ مُبْلِـــغ الحجَّـــاج أن ســـميرةَ قلـــى كـــل ديـــنٍ غَيْـــرَ ديـــنِ الخَـــوارِجِ

---

[1] شِعر الخوارج ، ص48
[2] قطري بن الفجاءة بن مازن بن يزيد التميمي، أبو نعامة، والنَّعامة فرسه، فارس، وشاعر وخطيب، وزعيم خارجي، من أهل قطر، قرب البحرين، وكانت كُنيته في السِّلم (أبو مُحمد) حيَّر بشجاعته الأُمويين، قُتِلَ سنة 87هـ، ينظر، الأعلام، 5/ 200
[3] شِعر الخوارج، ص18
[4] المظاهر: الَّذي لبس بعضه فوق بعض، كأن يلبس درعين.
[5] لست بكافر : على مذهب غير الأزارقة أنه صاحب ذنب وليس بكافر .
[6] شِعر الخوارج ، ص94

رأى النَّـــاسَ إلَّا مَـــنْ رأى مِثْـــلَ رأيـــه مَلاعِـــيْنَ تـــراكين قَصْـــدَ المَنَـــاهِجِ
يُسَـــائلنى الحجَّـــاجُ عَـــنْ أصـــلِ دينـــه وَلَـــيْسَ هَـــواه للصَّـــوابِ بِواشِـــجِ

عاش الخوارج ولسان حالهم ومقالهم يقول: من أحقٌ مِنّا بالخِلافة، وجهروا بها في شِعرهم وخُطبهم واستيقنتها أنفسهم، ولم يصفوا أميراً للمؤمنين بهذا الوصف إلَّا من ارتضى دينهم ، قال عتبان الشيباني[1]، مُخاطباً عبد الملك بن مروان:

فَمِنَّـــا سُـــوَيْدٌ والبطـــينُ وَقَعْنَـــبٌ وَمنِّـــا أميـــر المُـــؤْمِنين شَـــبِيْبُ

قال أحد الخوارج يرثي نافعاً بن الأزرق، ويصفه بأمير المؤمنين:[2]

فَلـــئنِ أميـــر المُـــؤْمِنين أصـــابه رَيْـــبُ المنـــونِ فَمْـــنَ يُصِـــبْهُ يَغْلَـــقِ

لذلك حمَّلوا بني أُميَّة أوزار حجب الامارة عنهم، وجاهدوهم في ذلك جهاداً كبيراً، واستنفروا الهمم عليهم ، وشقوا عصا الطاعة ، ولم يك حظ اللسان أقل من حظ السِنان ، وخير دليل يُساق في هذا الباب ، أبيات عُبيدة بن هلال[3] ردّاً على عمرو بن عبد الله ، وكان عمرو قد جاء بعد المُهلَّب بن أبي صُفرة[4] ، وشمر عزمه لحرب الخوارج فكتب لخوارج سابور :[5]

قَـــلْ للخوارجـــة الَّـــذينِ تَجمعـــوا بســـابور إنِّـــي لَسْـــتُ مِثْـــلَ المُهلَّـــبِ

فأجابه عُبيدة بن هلال:

تـــأن ولا تعجـــل علينـــا ابـــن معمـــر فلســـت وإن أكثـــرت مثـــل المهلـــبِ
كـــذلك كنـــا كلنـــا يـــا بـــن معمـــرٍ وأنـــت كبيـــت العنكبـــوت المذبـــذبِ

---

[1]عتبان بن أصيلة ويُقَال وصيلة، وهي أمُّه، شاعر من شُراة الجزيرة، ينظر ابن عساكر: الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن (تاريخ مدينة دِمشق) تحقيق: محب الدِّين عمر بن غُلامه، دار الفِكر للطباعة والنشر، ط1، 1998م، 6/ 256

[2] شِعر الخوارج ، ص 72

[3]أبو مالك، اليشكري، من شعراء الخوارج، صاحب دِين وجهاد له مواقف مشهودة في حُروب الخوارج مع المُهلَّب بن أبي صُفرة، مات سنة 77هـ، ينظر شِعر الخوارج، 258

[4]ظالم بن سراق الأزدي، أبو سعيد، وُلِدَ سنة 7هـ أمير بطاش، فارس جواد، ولاه أهل البصرة قتال الخوارج، ثُمَّ ولاه الحجَّاج خُراسان، فتبع الخوارج، فكانت بينهم حُروب، ثُمَّ تولى الأمر من بعده أبناؤه، فتابعوا سِيرة أبيهم، مات سنة 83هـ، ينظر، الأعلام، 7/ 315

[5]شِعر الخوارج، ص94 .

فلســـنا بأكنـــاسٍ قصـــارٍ رماحُنـــا وَلا نَحْـــنُ نَخْشـــى وَثبـــتَ المتوثِـــبِ
ولكـــن نقـــول الحكـــم للهِ وحـــده وبـــاللهِ نرضـــى والنَّبـــيِّ المقـــربِ

ويصور عيسى بن فاتك شجاعتهم، وهزيمتهم لبني أميَّة، وذلك لمَّا نزلوا مع أبي بلال "بآسك" وهو موضوع بين رامهرمز وارجان، وكان معه أربعون رجلاً، ومع عبد الله بن رباح جيش من ألفين فارس:[1]

فَلَمّـــا أَصـــبحَوا صَـــلَّوْا وقُـــاموا إلـــى الجُـــرْدِ العِتـــاقِ مُســـوّمينا[2]
فَلَمّـــا اسْـــتجْمَعُوا حَمَلـــوا عَلَـــيْهِم فَضَـــلَّ ذَوُو الجَعائِـــل يَقْتُلونَـــا[3]
أألفـــا مـــؤمن فيمـــا زعمـــتم ويهـــزمهم بآســـك أربعونـــا
كَـــذَبْتُم لـــيْسَ ذاكَ كَمـــا زَعَمْـــتُم وَلكِـــنَّ الخـــوارجَ مُؤْمِنُونَـــا
هـــمُ الفِيئـــةُ القَليلـــةُ غَيْـــرَ شَـــكٍ عَلـــى الفِئيـــةِ الكثيـــرَةِ يُنْصَـــرونا
أَطعـــتُم أَمـــرَ جَبّـــارٍ عنيـــدٍ وَمـــا مِـــن طاعـــةٍ للظامِينَـــا

إنَّ حِزب الخوارج من أكبر الأحزاب السِّياسة في العصر الأُموي، اتسم شِعرهم بِصِدق العاطفة، والحماسة.

[1] الأصفهاني : أبو الفرج علي بن الحُسين " الأغاني" مُؤسسة الرسالة - بيروت ، 1983م ، 145/16
[2] الجُرد : الخيل قصيرة الشَّعر . العِتاق : الخيل كريمة الأصل . مُسومينا : مُعلمة بعلامات .
[3] الجعائل : المال يُعطى للرجل لكي يحارب ، وهو من الجُعل وكان الخوارج يرونه من العار أنْ يُقاتل الرجل لأجل المال .

ثانياً: حِزب الشِّيعة:

الشِّيعة لغة:

تُطلق كلمة شِيعة ويُراد بها (الأعوان والأنصار) قال الزَّبيدي: " كل قومٍ اجتمعوا على أمر فهم شِيعة، وكل من عاون انساناً وتحزب له فهو شِيعة له، وأصله من المُشايعة وهي المُطاوعة والمُتابعة"[1]

وردت هذه الكلمة في القرءان الكريم بمعنى (الفِرقة الجماعة) قال تعالى: " ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا "[2]

أي: من كل فِرقة وجماعة. قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ"[3] أي فِرقاً.

وجاء استخدامها في القرءان بمعنى (الأمثال والأشباه) قال تعالى: " وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ "[4] أي: أهلكنا أمثالكم وأشباهكم في الكُفر. وتأتي بمعنى المُتابع والمُوالى والمُناصر. قال تعالى: " وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ "[5]

الشِّيعة اصطلاحاً:

اختلفت تعريفات العُلماء بحقيقة الشِّيعة، ونوجز بعض أقوالهم: قال الفيروز أبادى: " وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى عليّاً وأهل بيته، حتَّى صار اسماً لهم خاصاً "[6]

---

[1] الزَّبيدي: مُحمد بن عبد الرزاق(تاج العروس في جواهر القاموس) طبعة الكويت، ط2، 405/5 .
[2] سورة مريم ،الأية : 69
[3] سورة الأنعام، الأية : 159
[4] سورة القمر ، الأية : 51
[5] سورة القصص ،الأية: 15
[6] الفيروز آبادي: مُحمد بن يعقوب (القاموس المُحيط) تحقيق: مُحمد نعيم العرقسوسي، مُؤسسة الرسالة، ط8، 2005م، 499/3

ويذهب صاحب الفهرست إلى " أنَّ الشِّيعة هم الَّذين قصدوا عليّاً ليقاتلوا معه طلحة والزُّبير حتَّى يفيئا إلى أمر الله جلّ اسمه؛ فَسُمى من تبعه على ذلك شِيعةً، فكان يقول :شِيعتي وسماهم – رضي الله عنه – الأصفياء الأولياء ....." [1]

يقول الشهرستاني: " هم الَّذين شايعو عليّاً – رضي الله عنه – على الخصوم وقالوا بإمامته وخِلافته نصاً ووصِيةً، إمّا جلياً وإمّا خفياً، واعتقدوا أنَّ الإمامة لا تخرج من أولاده، فإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقية من عنده" [2]

تدور النَّظرية السِّياسية لهذا الحِزب على أنَّ عليَّاً بن أبي طالب – رضي الله عنه – وأبناءه وأحفاده من بعده هم أهل الخِلافة الحقيقيون، وأصحابها الشرعيون، ولا حق فيها لغير العلويين، وأنَّ الأُمويين اغتصبوها منهم، وينبغي أنْ تردّ عليهم، وأنَّ الخِلافة ليست مفوضة للأُمة؛ بل تنتقل بالوصِية من أبنائه المعصومين من الأئمة "[3]

للشِّعية فِرق وطوائف أهمها:

الكيسانية: " زعيمها المُختار الثقفي[4] وكان يدعو لمُحمد بن الحنيفة[5] وتقول هذه الفِرقة بالرجعة، والوصِية، والحول، والتناسخ، وتعتقد في المهدي المنتظر. وهم من غُلاة، الشِّيعة وأشدهم تطرفاً، ومن شعرائهم كُثيِّر عَزَّة[6].

---

[1] ابن النديم: يحيى بن اسحق "الفهرست في أخبار العُلماء والمُصنفين من القُدماء والمُحدثين وأسماء كُتبهم" دار المعرفة للطباعة والنشر ، 1997 ، ص 175

[2] المِلل والنِّحل ، 146

[3] دِراسات في أدب ونصوص العصر الأُموي، ص38

[4] المُختار بن أبي عبيد الثقفي، وُلِدَ سنة 1 هـ وتوفي سنة 67هـ وهو صاحب مذهب الكيسانية. ينظر، الكامل في التاريخ، لابن الأثير، 241/4، 264، 273

[5] أبو القاسم مُحمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي القُرشي، وُلِدَ سنة 21هـ وأمَّه خولة بنت جعفر الحنفية نُسِبَ إليها، لكي يميز عن أخوية الحسن والحُسين، كان قائداً في المعارك توفي سنة 63هـ وقِيل 65هـ وقِيل غير ذلك ، ينظر، البداية والنهاية، 212/9 .

[6] عبد الرحمن بن الأسود بن عامر، أبو صخر، شاعر مُتيم مشهور، من أهل المدينة أكثر اقامته بمصر، مُتشيعاً لعليٍّ بن أبي طالب، كان شاعر أهل الحجاز في الإسلام، لا يقدمون عليه أحداً، له أخبار مع عزَّة بنت جميل، وكان عفيفاً في حُبّه، مات بالمدينة سنة 105هـ، ينظر، الأعلام، 5/ 219

الزَّيدية: إمامها زيد بن علي بن الحُسين يعتقد أتباعه أنَّ الإمامة في أولاده من عليٍّ بن أبي طالبٍ فقط، وأجازوا خلِافة أبي بكر[1] وعمر[2] في وجود عليٍّ؛ ويعلقون على ذلك بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل "[3]

ومن شعرائهم: الكُميت بن زيد الأسدي[4]، وأيمن بن خُريم[5] وغيرهم وهم قلة إذا ما قيسوا بكثرة شعراء الحِزب الأُموي " وربمَّا كانت هذه القِلة ترجع إلى أنَّ حظ أهل البيت من الثورة والسُلطة كان محدوداً في هذا العصر، كما أنَّ الشُّعراء الَّذين يمدحون آل البيت كانوا يتعرضون لسخط أصحاب السُلطان ونقمتهم، وما من شكٍ في أنَّ النَّاس إلى الدُّنيا وزينتها أميل، وعلى إيثار السلامة أحرص"[6]

ومن أشهر الخُطباء المُختار الثقفي، والكُميت بن زيد[7]

لقد اتخذ الشِّيعة من الشِّعر أداةً لتصوير شُعورهم السِّياسي والتعبير عن آرائهم، وطُبِعَ بالحُجج، والأدلة، البراهين، وتأثر بمذاهب المُتكلمين، وأهل الجدل، وعلا فيه النَّغم الخطابي، لا سيما عند الكُميت بن زيد في هاشمياته.

دارت أشعارهم حول حب آل البيت، وهذا أبو الأسود الدؤلى[8] وكان جاراً لأصهاره من بني قُشير، وكانوا يكلمونه كثيراً في حبه لعليٍّ بن أبي طالب وآل البيت، فردَّ عليهم بقوله:[9]

---

[1] أبوبكر الصِّديق: عبد الله بن أبي قُحافة، أو عبد الله بن عُثمان، خليفة رسول الله ﷺ كان اسمه عبد الكعبة، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله، وكان يُسمى (عتيقاً) كان رئيساً في الجاهلية، له مناقب، وينسب له دِيوان شِعر توفي سنة 13م ينظر، البداية والنهاية، 3/ 183

[2] عمر بن الخطاب بن نوفل بن عبد العزى، ثاني الخُلفاء الراشدين، سُمي الفاروق؛ لأنَّه فرق بين الحق والباطل، أبو حفص، أوَّل من سُمي بأمير المؤمنين، كان متواضعاً خشن اللباس، شَهِدَ عصره فتوحات واسعة توفى مقتولاً سنة 23هـ، ينظر، سِيرة ابن هشام، 1/ 373

[3] دِراسات في أدب ونصوص العصر الأُموي ، ص 38

[4] شاعر الهاشميين وُلِدَ سنة 60هـ، من أهل الكُوفة، عاش في العصر الأُموي، كان عالماً بالأدب واللُّغة والأخبار والأنساب، مات سنة 126هـ، ينظر، خِزانة الأدب، 1/ 69- 71

[5] أيمن بن خُريم بن فاتك الأسدي: شاعر أُموي، كان من ذوي المكانة عند عبد العزيز بن مروان بمصر، ثُمَّ تحول عنه إلى أخيه بشر في العِراق، وكان يشارك في الغزو، مات سنة 80هـ، ينظر، الأعلام، 2/ 35

[6] دِراسات في أدب العصر الأُموي، ص136

[7] شوقي ضيف ،العصر الإسلامي ، 415،416

[8] ظالم بن عمرو، واضع علم النحو، كان معدوداً من الفقهاء، والأعيان، والشُّعراء، حاضر الجواب، تابعي، وُلِدَ سنة 1هـ، وهو أوَّل من نقط المُصحف الشريف، تشيع لعليٍّ، وله شِعر جيد، مات سنة 69هـ، له ديوان شِعر، ينظر، الأعلام، 3/ 236- 237

[9] دِيوان أبي الأسود الدؤلي، صنعه: أبو سعيد الحسن السُكري، تحقيق: الشيخ، مُحمد حسن آل ياسين، دار مكتبة الهلال، ط2، 1998م، ص153

يقـــولُ الأرذلـــونَ بنـــو قُشَـــيرٍ طِـــوالَ الـــدَّهرِ لا تنســـىَ عَلِيَّـــا
فقلـــتُ لهـــم: وكيـــف يكـــون تركـــي مـــن الأعمـــالِ مـــا يُقضـــى عَلَيَّـــا
أحـــبُّ "مُحمـــداً" حُبـــاً شـــديداً و"عبَّاســـاً" و"حمـــزةَ" و"الوَصـــيّا"
وجعفـــرَ إنَّ جعفـــرَ خيـــرُ سِـــبْطٍ شَـــهِيداً فـــي الجِنـــانِ، مُهَاجِريـــا
بَنُـــوْ عَـــمِّ النَّبِـــيِّ وأَقْرَبُـــوهُ أَحْـــبُّ النَّـــاسِ كُلِّهِـــم إِلَيَّـــا

لا يخفى أثر العربيَّة في هذه الأبيات، إذ جانس بين عجز البيتين الأوَّل، والثاني وذلك في قوله: " عَلِيًّا وعَلَيّا " ثُمَّ ذَكَرَ نفراً من آل البيت الطيبين مُحتجاً بهم على بني قشير، وأعطى المُفردات صِبغةً إسلاميةً وذلك في قوله " سِبْطاً، و شهيداً ، الجنان ، مهاجريا " وكلُّها كثيرة الدوران في القرءان الكريم، والسُّنة المُطهرة . ويمضي أبو الأسود في قصيدته إلى أن يقول:[1]

هُـــمْ أهـــل النصـــيحةِ مـــن لـــدنى وأهـــلُ مـــودتي مـــا دُمـــتُ حَيَّـــا
أحـــــبهم لحـــــبِّ الله حتَّـــــى أجـــئُ إذا بُعِثْـــتُ علـــى هوَيّـــا
رايـــتُ اللهَ خـــالقَ كُـــلّ شـــيءٍ هـــداهُمْ واجتبـــى مِـــنهم نبيّـــا

يُشير في قوله: (أهل مودتي) إلى الأية القرآنية : " قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى "[2]

ويتشبث الشاعر بحبه لهم في الحياة وفي الممات، لأنَّ الله تعالى اصطفى منهم النَّبىَّ ﷺ.

يقول الشاعر أبو وجزة السَّعدي[3] في مدح عبد الله بن الحُسين وإخوته في المدينة المُنورة :[4]

فكـــــرمَ اللهُ ذَاكَ البيـــــتَ تكرمَـــــةً تَبْقـــى وتخلُـــدُ فيـــهِ آخـــر الأبـــدِ
هُـمُ السَّـدَى والنَّـدى مـا فـي قنـاتِهِمُ إذا تعوّجَـــت العيـــدان مـــن أودِ[5]
مـاينتهي المجـدُ إلَّا فـي " بنـي حَسـنٍ " ومـــالهُمْ دُونـــه مـــن دَارِ مُلْتَحَـــدِ[6]

---

[1] المصدر نفسه، ص 154
[2] سورة الشُّورى، الأية: 23
[3] يزيد بن أبي عُبيدة السُّلمي، نشأ في بني سعد، وهو شاعر مشهور من التابعين، وهو مُحدِّث ومُقرئ، من الموالي، سكن المدينة المُنورة فانقطع إلى آل الزُّبير، مات بالمدينة سنة، 130هـ، ينظر، الأعلام، 8/ 185
[4] دِراسات في أدب ونصوص العصر الأموي، ص 137
[5] السدى: المعروف. وأود: إعوجاج.
[6] ملتحد: مختبأ.

إنَّ من أنصع المجموعات الشِّعرية في هذا الباب، الَّتي تذخر بحب آل البيت قصيدة الكُميت بن زيد، نجتزئ منها قوله:[1]

بَنـــي هاشِـــمٍ رَهـــطِ النّبـــيِّ فـــإنّني ... بهـــم وَلهـــم أرضـــى مِـــراراً وأغضـــبُ
بـــأيِّ كتـــابٍ أم بأيـــةِ سُـــنّةٍ ... تَـــرى حُـــبَّهُمْ عـــاراً عَلَـــيّ وتَحْسَـــبُ؟
فمـــالى إلَّا آلَ أحمـــدَ شـــيعةٌ ... ومـــالِي إلا مَشْـــعَبَ الحـــقِّ مَشْـــعَبُ[2]
ومَـــنْ غيـــرهم أرضـــى لنفســـى شـــيعةً ... ومـــن بعـــدهم لامـــن أُجِـــلُّ وأرْحَـــبُ[3]
وجـــدنا لكـــم فـــي آل حـــاميم آيـــةً ... تأوَّلَهَـــا مِنّـــا تقـــيٌّ ومُعْـــرِبُ
وفـــي غيرهـــا آيـــاً وآيـــاً تتابَعَـــتْ ... لكـــم نَصَـــبٌ فيهـــا لِـــذِي الشـــكّ مُنْصِـــبُ

وآية آل حاميهم الَّتي أشار إليها الكُيمت هي: " قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى" [4]

غمر الحُزن نفراً من شعراء الشِّيعة على قتلاهم من الأئمة ، الَّذين سفك الحِزب الحاكم دماءهم ، من غير أن يراعي فيهم إلّاً ولا ذِمةً ولا حُرمة "وتحولوا يبكونهم و يندبونهم بدموع لا تَرْقأ ولا تجفُّ . وربَّما كان هذا الطابع أهمّ ما يميِّز الشِّعر الشِّيعي في هذا العصر ، فهو دمع وبُكاء وزفرات على الحُسين أوَّلاً ثُمَّ على زيد بن على وابنه يحيى ، مثل قول سُليمان بن قَتيّة يرثى الحُسين"[5]

مـــررتُ علـــى أبيـــاتِ آل مُحمَّـــدٍ ... فلـــم أرهـــا كعهـــدها يـــوم حُلّـــتِ
وكـــانوا رجـــاءً ثُـــمَّ صـــاروا رَزِيـــةً ... وقـــد عَظُمَـــتْ تلـــك الرزايـــا وجَلّـــتِ
ألـــم تـــر أنَّ الشَّـــمس أضـــحتْ مرِيضـــةً ... لفَقْـــدِ حُسَـــينٍ والـــبلادُ اقشـــعرَّتِ
وقـــد أعولـــتْ تبكـــي الســـماءُ لفقـــدهِ ... وأنجمُهـــا ناحـــتْ عليـــه وصَـــلّتِ

---

[1] دِيوان الكُميت بن زيد، تحقيق: مُحمد نبيل الطريفي، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، ص 516، 517، 518، 521
[2] الشعب : الطريقة.
[3] أرحب : أهاب وأعظم.
[4] سورة الشُّورى ، الأية : 23
[5] أبو الفرج الأصفهاني " مقاتل الطالبيين " طبعة الحلبي ، ص 121 .

شُبّتْ هذه الأبيات عاطفةً، حتَّى إنَّ القارئ يجد أثرها في نفسه فيشارك الشاعر مُصابه، وإذا كان الأدب على هذا النحو وصفه النُّقاد بأنَّه مشبوب العاطفة أو قل صادق العاطفة، إنَّ هذا المُصاب لِعْظَمِهِ جاز البشر إلى الجمادات، فغدت الشَّمسُ مريضةٌ، والبلادَ، مقشعرة، والسماءُ ذاتُ عويلٍ وبكاءٍ والنَّجمُ ذو نُواحٍ وصلاةٍ؛ وأثر التحريض والتوثيب لأخذ الثأر لايخفى.

وتمتد يدُ الحِزب الأُموي إلى زيد بن على بن الحُسين بالقتل والصلب، ويُنكئ جُرح الشِّيعة للمرّة الثانية، فيبكيه الشِّيعة مُعْولين منذرين لبني أُميَّة قال: المفضَّل المطّلبي:[1]

ألا يـــا عـــينُ لا تَرْقـــي وجُـــودي ... بـــدمعك لَـــيْسَ ذا حِـــينَ الجمـــودِ
وكيـــف تضـــنُّ بـــالعبراتِ عَيْنـــي ... وتطمـــع بعـــد زيـــدٍ فـــي الهجـــودِ[2]
وكيـــف لهـــا الرُّقـــادُ ولـــم ترائـــى ... جيـــادَ الخيـــلِ تَعْـــدُو بالأُســـودِ
بأيـــديهم صـــفائحُ مرهفـــاتٍ ... صـــوارمُ أُخْلِصَـــتْ مـــن عهـــدِ هُـــودِ
بهـــا نَسْـــقِي النُّفـــوس إذا التقينـــا ... ونقتـــل كُـــلَّ جبـــارٍ عنيـــدِ
ونُحْكـــم فـــي بنـــي الحكـــمِ العـــوالى ... ونجعلهـــم بهـــا مثـــلَ الحَصِـــيدِ[3]

حثّ الشاعر الشَّيعة لأخذ الثأر؛ وذلك في الاستفهام التعجبي المتمثل في تكرار "كيف" وهو يرى ألا هجود ولا رقاد ولا جفاف للدِّموع مادام دم زيدٍ حاراً بعد لم يجف. والبيت الثالث يُشْبِه إلى حدّ كبير بيت الرقيَّات في هجائه لبني أميَّة إذ يقول:[4]

كيـــف نَـــومي علـــى الفـــراشِ وَلَمَّـــا ... تَشْـــمَلِ الشَّـــامَ غـــارةٌ شـــعواءُ

أحسن الشاعر في تشبيهاته إذ جعل الفرسان أسوداً. والقتلى مثل الزرع المحصود. وجانس في قوله: (نُحْكم في بني الحكم)

وفي جملة القول: إنَّ هذه الأبيات جاءت في أعلى درجات الحماسة، وأرقى طبقات البلاغة.

---

[1] شوقي ضيف "تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي" دار المعارف المصرية، ط5، ص 316 ، 317
[2] الهجود : النوم .
[3] بنو الحكم : بنو مروان بن الحكم . العوالي: الرِّماح .
[4] دِراسات في أدب ونصوص العصر الأُموي، ص226

إنَّ الشِّيعة لا يرون أميراً للمؤمنين غير أئمتهم وما عداهم غاصبٌ للإمارة وإن تشبث بها، قال كُثيِّر عَزَّة:[1]

بَرِئْـــتُ إلـــى الإلـــهِ مِـــنْ ابـــنِ أرْوَى ... ومَـــــنْ ديـــــنِ الخـــــوارجِ أجمعينـــــا[2]
وَمِـــنْ عَمْـــرٍ بَرِئْـــتُ ومِـــنْ عَتِيْـــقٍ ... غَـــــداةَ دُعِـــــى أميـــــر المؤمنينـــــا

وكان يؤمن بالرَّجعة "ويرى أنَّ الأئمة الحقيقين هم علي والحسن والحُسين وابن الحنيفة"[3] ويقول في ذلك:[4]

ألا إنَّ الأئمَّـــــةَ مـــــن قـــــريشٍ ... ولاةَ الحـــــــقِ أربعـــــــةٌ سَـــــــواءُ
علـــــيٌ والثلاثـــــةُ مـــــن بنيـــــهِ ... هـــم الأســـباطُ لـــيس بهـــم خفـــاءُ

وكانت ابنة أبي الأسود الدؤلى متشيعة لعليٍّ ولا ترى في بني أُميَّة إلَّا الاغتصاب للسُلطة إذ تقول:[5]

فـــلا تشـــمت معاويـــة بـــن صـــخرٍ ... فـــــإنَّ بقيـــــة الخلفـــــاء فينـــــا
وأجمعنـــا الإمـــارة عـــن تـــراضٍ ... إلـــى ابـــن نبينـــا ، وإلـــى أخينـــا
ولا نعطـــى زمـــام الأمـــرِ فينـــا ... ســـواةَ الـــدّهرِ آخـــر مـــا بقينـــا

اشتد الهجاء بينهم وبين شعراء بني أُميَّة، وأخذ طابع الحوار يقول كعب بن جُعيل[6] وهو شاعر أُموي:[7]

وقـــالوا: علـــيٌّ إمـــامٌ لنـــا ... فقلنـــا : رضـــينا ابـــن هنـــد رضـــينا
وقـــالوا: نـــرى أنْ تـــدينوا بـــهِ ... فقلنـــا لهـــم: لا نـــرى أنْ نـــدينا

---

[1] دِيوان كُثيِّر عَزَّة، تحقيق: إحسان عبَّاس، دار الثقافة بيروت، لبنان، 1971م، ص 490
[2] ابن أروى: عثمان بن عفَّان وأروى : أمَّه . عتيق: أبو بكر الصِّديق .
[3] شوقي ضيف (العصر الإسلامي) ص 323
[4] دِيوان كُثيِّر عزَّة، ص 521
[5] أبو الفرج " مقاتل الطالبيين " ص43
[6] كعب بن جُعيل بن قُمير، التغلبي، شاعر إسلامي ويقال مُخضرم، من الشُّعراء المُفلقين، وهو شاعر مُعاوية بن أبي سُفيان، مدح أهل الشام ورثى موتاهم، مات سنة 55هـ، ينظر، الأعلام، 5/ 225
[7] الشِّعر في عصر النُّبوة، ص364

فردَّ عليه النَّجاشي، وهو من الشِّيعة:

فقولـــــوا لكعـــــبٍ أخـــــي وائـــــلٍ ومـــــن جعـــلَ الغـــثَ يومـــاً ســـمينا
جعلـــــــتم عليّـــــــاً وأشـــــــياعه نظيـــر ابـــن هنـــدٍ، أمـــا تســـتحونا؟

يقول الكُميت محتجاً لبني هاشم:[1]

فـــإنْ هـــي لـــم تصـــلح لِحـــيٍّ ســـواهُمُ فـــــإنَّ ذوي القُرْبـــــى أحـــــق وأَقْـــــرَبُ
عَـــلامَ إذاً زرْنـــا الزُّبيـــر ونـــا فعـــاً بغارتِنـــــا بعـــــد المقانِـــــب مِقْنَـــــبُ[2]

ويذكر الكُميت حال حِزبه مع الأحزاب الأخرى قائلاً:[3]

وقـــــالوا: ورثناهـــــا أبانـــــا وأُمّنـــــا ومـــــــــا ورثـــــــــتهم ذاكَ أمٌّ ولا أبُ
يـرون لهـم فضـلاً علـى النَّـاسِ واجبـاً ســـفاهاً وحـــق الهاشـــميين أوجـــبُ

ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب، بل كفَّر نفرٌ من النَّاس الشاعرَ؛ لفرط حبه لآل البيت، ووجد في سبيل ذلك عنتاً شديداً إذ يقول:[4]

فطائفـــــةٌ قـــــد كفَّرتَنْـــــى بِحـــــبِّكم وطائفـــــةٌ قـــــالوا مُسِـــــيءٌ ومُـــــذْنِبُ
فمـــا ســـاءني تكفيـــرُ هـــا تيـــك مـــنهُمُ ولا عيْـــبُ هاتيـــك التـــى هـــى أعيـــبُ
يعيبُـــونَنى مـــن خـــبِّهم وضـــلالهم علـــى حُـــبِّكُمْ بـــل يَسْـــخَرُون وأعجـــبُ[5]

إلى أنْ يقول:

ألـــم ترنـــي مِـــنْ حُـــبِّ آلِ مُحمـــدٍ أروح وأغـــــــدو خائفـــــــاً أترقـــــــبُ

---

[1] دِيوان الكُميت بن زيد، 528- 529
[2] الزُّبير بن المأجور كان من خلفاء الخوارج. نافع: بن الأزرق. المقانب: جماعات الفرسان تتألف من خمسين إلى ألف فارس.
[3] دِيوان الكُميت، ص 524
[4] المصدر نفسه، ص 519 – 520
[5] خبهم: ضلالهم.

كـــــأنِّى جـــــانٍ مُحـــــدِثٌ وكأنّمـــــا بهـــم يتَّقـــى، مـــن خشـــيةِ العُـــرِّ أجْـــرَبُ[1]
علـــــى أىِّ جُـــــرْمٍ! أم بأيـــــةِ سِـــــيرةٍ! أُعنـــــفُ فـــــي تقـــــريظهم وأُؤنَّـــــبُ[2]

يقتبس الكُميت من قصة موسى مع بني إسرائيل حين قتل عدوه فأصبح في المدينة خائفاً يترقب وذلك في قوله: ألم ترني من حُبِ آلِ محمدٍ، البيت.

سيطر الطابع الدِّيني على ألفاظ الكُميت وغلب عليه المذهب الجدلى الَّذي أكسبه قُوة سياسية واضحة، يقول صاحب دراسات في الأدب الأُموي: " تُعدّ الهاشميات فتحاً جديداً في الشِّعر العربي؛ لأنَّنا لا نجد شاعراً قبل الكُميت وقف جانباً كبيراً من شِعره على الدِّفاع عن مذهبٍ سِياسي أو دِيني، وإنَّما كان الشاعر يقول الأبيات أو القصيدة في تأييد هذا المذهب أو ذاك "[3]

رغم موقف الكُميت من بني أُميَّة إلَّا أنَّه –أحياناً تحت إلحاح الضرورة – يجد نفسه مُرغماً في مدح خلفائهم أخذاً بمبدأ التقية، وهو مبدأ سنّة الشِّيعة عندما تضيق عليهم الأرض بما رحبت، ولا يجدون مناصاً مِنه إلَّا إليه، وهذا الكُميت يستعطف خُلفاء بني أُميَّة بقوله:[4]

فـــــالآن صـــــرتُ إلـــــى أميَّـــــ ـــــةَ والأمـــــوُر إلـــــى مصـــــائر
أنـــــتم معـــــادن للخِـــــلا فـــــةِ كـــــابراً مِـــــنْ بَعْـــــدِ كـــــابر

أخلص كُثيِّر عَزَّة المدح لعمر بن عبد العزيز، وذلك لموقف الخليفة من أهل البيت، إذ نفحهم بالحُرية الكاملة ومنع ألسن الخُطباء أن تلوكهم سِباباً على المنابر على غير ما كان شائعاً عند بني أُميَّة، لا سيما الخُطباء منهم.

وهنالك طائفة من شُعراء الشِّيعة نبذوا التقية وراء ظهرهم، وصرحوا بحبهم لآل البيت ومن هولاء النفر إبراهيم بن هرمة يقول مُعلناً حبه لآل البيت غير وجلٍ لِمَا يلقاه في سبيل ذلك:[5]

---

[1] جانٍ: محدث جنية.
[2] التقريظ: المدح.
[3] دِراسات في أدب ونصوص العصر الأُموي، ص274
[4] دِيوان الكُميت، 130- 131
[5] الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علَّي (تاريخ مدينة السلام وأخبار محدِّثيها وذكر قُطَّانِها العُلماء من غير أهلها وواردِيها) تحقيق: بشار عوَّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2001م، 7/ 48

بَنِـــي بِنْـــتِ مَـــنْ جَـــاءَ بالمُحْكمـــاتِ وَبالـــــــــدِّينِ والسُّـــــــــنَّةِ القَائمـــــــــهْ
ومهمـــــــا ألام علـــــــى حـــــــبهم فـــــــإنِّي أحـــــــب بنـــــــى فاطمـــــــهْ
ولســـــتُ أبـــــالي بحُبـــــي لهـــــم ســـــواهم مـــــن الـــــنعمِ الســـــائمهْ

فالشاعر يُصرح بأنَّه يُحب أبناء فاطمة الزهراء الحسن والحُسين وغيرهم، غير عابئ بلوم اللوام ويشبّه الرعيَّة وبقيَّة النَّاس بالنَّعم السائمة.

اختص شِعرهم بخصائص أهمها:

1- واكب الأحداث السِّياسة مواكبةً تامةً، حتَّى يقترب بأن يكون وثيقةً تاريخيةً.
2- غلب على شِعرهم الحزن القائم على إذلالهم واضطهادهم من قِبل خُلفاء بنى أُميَّة.
3- اتسم شِعرهم بالجدل السِّياسي، وقُوة الحُجة والبُرهان، والاقتباس من القرءان والسُّنة، كما أخذ بعض صِفات أهل الكلام وذلك عند الكُميت بن زيد.
4- غلب على شِعرهم وخاصة الكُميت بن زيد النغمة الخطابية في الإيقاع والعبارات.
5- جاء شِعرهم متفاوتاً بين القُوة و اللين،يقوى عند الحمل على خصوهم ويلين عند رثائهم للأئمة، ولا يخلو شِعرهم من الجزالة وشِدةَّ الأسر.

ثالثاً: الحِزب الأُموي:

بدأ ظهور هذا الحِزب بعد مَقْتِل عثمان بن عفَّان رضي الله عنه، إذ مضى الأُمويون يهاجمون قتلة عثمان رضي الله عنه " جاعلين أنفسهم أصحاب الحق في الثأر من قتلته، فهم أهله الأقربون، ومن ثَمَّ فهم أولياء دمه ... "[1]

وراح مُعاوية وجيشه يُطالب عليّاً رضي الله عنهما بأنْ يُسلمه القتلة وأبى عليٌّ وانشق النَّاس إلى فرقٍ وطوائف " وتطورت الظروف وقُتل عليٌّ بعد التحكيم، وبايع النَّاسُ مُعاوية"[2] فهو أوَّل خُلفاء بني أُميَّة، أسس حِزباً " من أقوى الأحزاب وأقدرها على اجتذاب الشُّعراء الَّذين يمدحون الخُلفاء كـ "الفرزدق والأخطل وجرير، ومِسكين الدَّرامي، وأبو العبُّاس الأعمى، وعبد الله بن خارجة الشيباني، وعدي بن الرِّقاع، وأبو صخر وأعشى ربيعة، وعبد الله بن الزَّبير الأسدي ... وغيرهم "[3]

قد بلغ الشُّعراء من الكثرة حدّاً يصعب الإلمام بشِعرهم، أو محاولة إحصاء عددهم.

وهنالك شعراءٌ مدحوا بني أُمية تقيةً وخوفاً، وكان انتماؤهم الحقيقي لأحزابهم الأُخرى، منهم الكُميت بن زيد حيث يقول في مدح بني أُميَّة:[4]

أنـــــــتم معـــــــادنُ للخِـــــــلا فـــــةِ كـــــابراً مِـــــنْ بَعْـــــدِ كـــــابرْ

يدخل في هذا الباب مدح الرقيَّات لعبد الملك، إذ يقول:[5]

مـــــا نقَمـــــوا مـــــن بنـــــي أُميّـــــة إ لَّا أنهـــــم يَحْلمُـــــون إن غَضِـــــبوا
وأنهـــــم مَعْـــــدِن الملـــــوكِ فـــــلا تَصـــــلحُ إلا علـــــيهمُ العَـــــربُ
إنَّ الفَنيـــــقَ الَّـــــذي أبـــــوه أبـــــو ال ـــــمعاصي عليـــــه الوقـــــارُ و الحُجُـــــبُ[6]

[1] شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 336
[2] المرجع نفسه، ص336
[3] دِراسات في أدب ونصوص العصر الأُموي، ص126 بتصرف.
[4] دِيوان الكُميت بن زيد، 131
[5] دِيوان عبد الله بن قيس الرُقيَّات، تحقيق: مُحمد يوسف نجم، دار صادر بيروت، 3- 4
[6] الفنيق : أصله الفحل من الإبل الكريم على أصحابه .

خليفـــــــةُ الله فـــــــوق مِنبـــــــرهِ جَفّـــــت بـــــذاك الأَقـــــلامُ والكُتـــــبُ
يَعْتـــــدل التـــــاج فـــــوق مفرقـــــهِ علـــــى جَبـــــينٍ كأَنّـــــه الـــــذَّهَبُ

اتفق الرقيَّات مع الكُميت حيث جعل الخُلفاء " مَعْدِن المُلوك " وجعلهم الكُميت (مَعَادِن الخِلافة) وزاد الكُميت على الرقيَّات بجعلها وراثةً فيهم حيث قال: " كابراً من بعد كابر " وجعل الرقيَّات صلاح الخِلافة بهم فكمّل المعنى. فمكث غير بعيد، حتَّى أفسد آخره أوله، إذ مدح الخليفة بالصِفات الجسدية في آخر القصيدة، وكان حقه أن يمدحه بالصِفات الخُلقية.

ومن الَّذين مدحوا ولاة بني أُميَّة تقية أعشى همدان، حيث قال في الحجَّاج بن يوسف[1]

أبَـــــى اللهُ إلا أن يـــــتمِّم نـــــوره ويطفـــــئَ نـــــارَ الفاســـــقينَ فتخْمُـــــدَا
ويُنْـــــزل ذُلّاً بـــــالعِراقِ وأهلـــــه لِمـــــا نقضـــــوا العهـــــدَ الوثيـــــقَ المؤكْـــــدَا
ومـــــا زحـــــف الحَجّـــــاجُ إلا رأيتـــــه مُعَانـــــاً مُلَقَّـــــى للفتـــــوحِ معـــــوَّدا

ولَمَّا انتهى من الإنشاد أمر الحجَّاج بضرب عنقه؛ لأنَّه كان من قبل يُظاهِرُ ويشارك مع ابن الأشعث، فهو من شوكته، الأمر الَّذي لم ولن يغفره الحجَّاجُ له.

ويمكن إجمال سمات وأصول هذا الحزب الَّتى نادى بها الخُلفاء والشُّعراء والخُطباء في التالي:

جعل الخِلافة وراثة، حيث أراد مُعاوية أنْ يجعل الخِلافة في بيته وأنْ يأخذ البيعة لابنه يزيد من بعده. وكان ذلك في رأى الكثيرين بدعة مُنكرة إذ تخرج الخِلافة عن الشُّورى وتصبح إرثاً من الأب للابن، على ما هو معروف عند الروم والفرس، وعرف مُعاوية نفور المسلمين من ذلك، فدفع بعض الخُطباء إلى الدَّعوة لفِكرته، كما دفع بعض الشُّعراء وكان أسرع من لباه منهم مِسكين الدَّارمى فأنشأ يقول في كلمة له:[2]

بنـــــي خُلفـــــاءِ الله مهـــــلاً فإنمـــــا يُبَوئهـــــا الـــــرحمنُ حيـــــثُ يريـــــدُ

[1] شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص335
[2] دِيوان مِسكين الدَّارمي، تحقيق: كارين صادر، دار صادر بيروت، ط1، 2001م، ص39

إذا المِنْبـــرُ الغربـــي خـــلَّاه رَبُّـــهُ فـــإنَّ أميـــرَ المـــؤمنينَ يزيـــدُ

فَلَمَّا فرق قال مُعاوية رضي الله عنه: ننظر فيما قلتَ يا مِسكين ونستخير الله، ووصلاه هو وابنه يزيد وأجزلا صلته.

فَلَمَّا مات مُعاوية رضي الله عنه، قام الضحاك بن قيس[1] خطيباً فقال: " إنَّ أميرَ المؤمنين مُعاويةَ كان أنف العرب، وهذه أكفانُه ونحن مُدْرِجُوه فيها، ومُخلون بينه وبين ربّه، فمن أراد حضوره بعد الظهر فليحضُره " فصلى عليه الضّحاك بن قيس، ثُمَّ قَدِم يزيدُ ولده، فلم يُقدِمْ أحدٌ على تعزيته حتَّى دخل عليه عبد الله بن همَّامٍ السَّلوليُّ[2]

فأنشأ يقول:[3]

اصْـــبِرْ يزيـــدُ فقـــد فارقْـــتَ ذَا ثِقـــةٍ واشـــكر حِبَـــاءَ الَّـــذي بالمُلْـــك حاباكـــا
لارُزْءَ أصْـــبحَ فـــي الأقـــوامِ قـــد عَلِمـــوا كمـــا رُزِئـــتَ ولا عُقْبـــىَ كعُقْباكـــا
أصـــبحتَ راعـــىَ أهـــل الـــدِّينِ كلِّهـــم فأنْـــتَ ترعـــاهمُ واللهُ يرعاكـــا
وفـــي معاويـــةَ البـــاقي لنَـــا خَلَـــفٌ إذا نُعِيْـــتَ ولا نَسْـــمَعْ بِمنعاكـــا

لقد أرشد الشاعر في البيت الأخير يزيد بن مُعاوية على البيعة لابنه مُعاوية، وجعل الخِلافة وراثة، وتجلى من النَّصين الخطابي والشِّعري أنَّ الخطابة رفيقة درب الشِّعر لم تغب عنه في المشاهد الكُبرى والأحداث الجِسام، وهما توأمان لرسم ملامح وجه السِّياسة في ذلك العصر.

وصف الخليفةَ بأنَّه مُبارك من عند الله يُستسقي بدعائه البشر والشَّجر قال الأخطل في قصيدته "خف القطين" الَّتي مدح بها عبد الملك بن مروان:[4]

إلـــى امـــرئٍ لا تُعـــدِّينا نوافلـــهُ أظفـــره اللهُ فليهنـــأ لـــهُ الظفَـــرُ[5]

---

[1] أبو أُميَّة، سيد فِهر، وُلِدَ سنة 5هـ، أحد الولاة الشّجعان، خرج على مروان بن الحكم، في (مرج راهط) فقتله مروان سنة 65هـ، ينظر، الأعلام، 3/ 30- 31

[2] من بني مُرّة بن صعصعة، شاعر إسلامي، أدرك مُعاوية وبقي إلى أيام سُليمان بن عبد الملك أو بعده، كان يُقال له (العطار) لِحُسْن شِعره، ينظر، الأعلام، 4/ 118

[3] البيان والتبين ، 132/2

[4] دِيوان الأخطل، شرح: مهدي مُحمد ناصر الدِّين، دار الكُتب العِلمية، بيروت، ط2، 1994م، 103- 104

[5] لاتعدينا: لا تغيب عنا.

الخصـــائضِ الغمـــر والميمُـــونُ طـــائرُهُ خليفـــةِ اللهِ يُستَسْـــقى بـــه المطـــرُ[1]

إلى قوله:

ومـــا الفُـــراتُ إذا جاشـــت حَوالِبُـــه فـــي حافتيـــه وفـــي أوســـاطه العشَـــرُ[2]
وَذعذَعتْـــه ريـــاحُ الصّـــيفِ واضـــطرَبت فـــوقَ الجـــآجئ مـــن آذِيِّـــهِ غُـــدرُ[3]
يوْمـــاً بـــأجودَ منـــه حـــين تسْـــألُهُ ولا بـــأجْهَرَ مِنـــهُ حـــين يُجْتَهـــرُ

تدور هذه الأبيات حول مدح عبد الملك بن مروان، فيصفه الشاعر بالكرم، والثبات، وحسن الطلعة، وأنَّه خليفة الله المُبارك، ويصفه بالجود ويشبهه في الأبيات الأخيرة بالفرات في العطاء، وهو يُحاكي النَّابغة الذُّبياني[4] في مدحه للنُّعمان بن المنذر[5] مشبهاً له بالفُرات إذ يقول:[6]

فمـــا الفُـــراتُ إذا هَـــبَّ الرِّيـــاح لـــه تَرْمِـــى غَوارِبُـــه العُبـــرينِ بالزَّبَـــدِ[7]
يَمُـــدُّه كـــلُّ وادٍ مُتْـــرَع لَجِـــبٍ فيـــه رُكـــامٌ مـــن اليَنْبُـــوتِ والخَضَـــدِ[8]
يومـــاً بـــأجودَ مِنـــه سَـــيْبَ نافِلـــةٍ ولا يَحُـــولُ عَطـــاءُ اليـــومِ دُونَ غَـــدِ[9]

قد يجنح الشُّعراء في مدح الخُلفاء إلى المبالغة الَّتي ترفعهم إلى مكانة أرفع ممَّا هم عليه، ومن ذلك قول الفرزدق[10] واصفاً يزيد بن عبد الملك:[11]

---

[1] الغمرة: الشِّدة. الميون: المبارك.
[2] الحوالب: الأمواج . العُشرة: ضرب من الشَّجر .
[3] ذعذته: حركته بشدة . الجآجئ: جمع جوجؤ وهو صدر السفينة . الآذى : الموج . غدر: جمع غدير.
[4] زياد بن مُعاوية، أبو أمامة، شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى، كانت تُضرب له قُبة حمراء في سُوق عُكاظ فتعرض العرب عليه أشعارها، اتصل بالنُّعمان بن المُنذر وله اعتذاريات، عاش طويلاً، له دِيوان شِعر، ينظر الأعلام، 3/ 55
[5] ملك الحِيرة في الجاهلية، كان داهية مُقدماً، وهو ممدوح النَّابغة الذُّبياني وحسَّان بن ثابت وحاتم الطائي، كانت العرب تفد إليه وتهابه، وهو صاحب يوم البؤس والنعيم، كان أبرشاً، أحمر الشَّعر، قتله كِسرى تحت أقدام الفيلة، ينظر، الأعلام، 8/ 43
[6] دِيوان النَّابغة الذُّبياني، تحقيق: مُحمد أبو الفضل، دار المعارف المصرية، ط3، ص27 ،28
[7] فما الفرات: أي: ليس نهر الفرات بأجود من الممدوح. عبر الوادي: جانباه. الزبد: ما يطرحه الوادي إذا جاش ماؤه.
[8] المترع: المملوء. اللّجب : الصوت الشديد الينبوت والحصد : نبتان.
[9] السيب: العطاء.
[10] أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة، وُلِدَ بالبصرة سنة 20هـ، مدح سُليمان بن عبد الملك، اشتهر بالهجاء، كان زير نِساء، قالوا: لولا شِعر الفرزدق لذهب ثلث شِعر العرب، له دِيوان شِعر، ينظر، الأغاني، 8/ 186- 197
[11] دِيوان الفرزدق، شرح: على فاعور، دار الكُتُب العِلمية بيروت، ط1، 1987م، 591- 592

لـــو كـــان بعـــد المصـــطفى مـــن عبـــاده ... نبـــيٌّ لهـــم مـــنهم لأمـــرِ العـــزائمِ
لكنـــتَ الَّـــذي يختـــاره اللهُ بعـــدَهُ ... لحمـــلِ الأمانـــاتِ الثقـــالِ العظـــائمِ
ورثـــتمُ ْخليـــل اللهِ كـــلَّ خِزانـــةٍ ... وكـــلَّ كتـــابٍ بـــالنبوةِ قـــائمِ
وحبلُـــكَ حبـــلَ اللهِ مـــنْ يعتصـــمِ بِـــهِ ... إذا نالـــه يأخـــذ بـــه حبـــل ســـالمِ

فهو يغلو في مدحه لدرجة جعلته يقول: لو أنَّ الله اختار نبياً بعد النَّبيِّﷺ لاختار يزيدَ لحمل الأمانات الثِقال، ويجعله وريث الأنبياء، ولعلَّنا نلمح في مثل هذه المُبالغات، بدايات المُغالاة الَّتي تقود إلى البدعة، والكُفر فينشأ عنها تأليه البشر وعبادتهم.

ومن قبيل المُبالغة قول جرير[1] في مدح عبد الملك:[2]

لـــولا الخليفـــةُ والقـــرآن يقـــرأُه ... مـــا قَـــامَ للنَّـــاس أحكـــامٌ ولا جمـــعُ
أنـــتَ الأمـــين، أمـــين الله، لا سَـــرفٌ ... فيمـــا وليـــت ولا هيابـــة ٌورعُ
أنـــتَ المبـــارك يهـــدي اللهُ شـــيعتَهُ ... إذا تفرقـــتْ الاهـــواءُ والشِّـــيعُ
يـــا آلَ مـــروانَ إنَّ اللهَ فضَّـــلَكُمْ ... فَضْـــلاً عَظِيْمـــاً عَلَـــى مَـــنْ دِيْنُـــهْ البِـــدعُ

فجرير يبالغ إذ يجعل وجود عبد الملك وقراءته للقرآن سبباً لاستمرار الحياة، ولو لم يوجد الخليفة لتوقفت الحياة، فالخليفة أمين الله والهادي للرعيَّة.

ويُبالغ عديُّ بن الرِّقاع العاملي[3] في مدح الوليد بن عبد الملك فيقول:[4]

وَلَقَـــــــدْ أَرادَ اللهُ إِذْ وَلَّاكَهَـــــــا ... مِـــنْ أُمّـــةٍ إِصْـــلاَحَهَا وَرَشَـــأْدَهَأ
وَعَمَـــرْتَ أرضَ المُســـلِمِيْن فأَقْبلـــتْ ... وَنَفَيْـــتَ عَنْهَـــا مَـــنْ يُرِيْـــدُ فَسَـــادَهَا

[1] جرير بن عطية الخطفى: حذيفة بن بدر من كليب، أبو حزرة، وُلِدَ في خِلافةِ عليٍّ بن أبي طالب، شاعر فحل، قامت شهرته على الهجاء، له نقائض مع الفرزدق والأخطل، تنقل بين الشَّام والعِراق للمدح والتكسب، له مدح لمُلوك بني أُميَّة، له دِيوان شِعر، ينظر، الشِّعر والشُّعراء، 283

[2] دِيوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، 1986م، 278

[3] شاعر أموي من فحول الشُّعراء، عاش في دِمشق، مدح بني مدح بني أُميَّة، يُلقب بشاعر (أهل الشَّام) له دِيوان شِعر، مات سنة 95هـ، ينظر، الأعلام، 4/ 222

[4] دِيوان عدى بن الرّقاع العاملي، جمع وشرح ودِراسة حسن مُحمد نور الدِّين؛ دار الكُتب العلمِية بيروت، لبنان ط1، 1990م ص 49، 40

وَأَصَـــبْتَ فـــي بَلَـــدِ العَـــدُوِّ مُصِـــيْبَةً بَلَغَـــتْ أقَاصِـــي غَوْرِهَـــا وَنجادَهَـــا[1]

ظَفَـــراً ونَصْـــراً مَاتَتَـــاوَلَ مِثْلَـــهُ أحَـــدٌ مـــن الخُلَفَـــاءِ كَـــانَ أَرَادِهَـــا

فـــإذا نَشَـــرْت لَـــهُ الثَّنَـــاءَ وَجدْتَـــهُ جَمَـــعَ المَكَـــارِمَ طُرْفَهَـــا وَتلادَهَـــا[2]

تأتِيـــه أَسْـــلاَبُ الأَعِـــزَّةِ عَنْـــوَةً قَسْـــراً وَيَجْمَـــعُ لِلحُـــرُبِ عِتَادَهَـــا

تمسك الشُّعراء في مدحهم السِّياسي للخُلفاء بفِكرتين هما: "فِكرة الجبرة وفِكرة المهدي المنتظر. أمَّا فِكرة الجبرية فتقوم على أساس أنَّهم خُلفاء الله ورسوله في الأرض، اختارهم الله واصطفاهم لولاية المُسلمين، وليس بعد اختيار الله اختياراً، فخِلافتهم قدرٌ مقدرٌ قدّره الله على الأُمَّة الإسلامية، وعلى الأُمَّة أنْ تطيع وترضى بحُكمهم "[3].

قال الفرزدق مادِحاً عبد الملك بن مروان: [4]

فَـــالأرضُ للهِ ولاهـــا خليفتـــه وصـــاحبُ الله فيهـــا غيـــرُ مَغْلُـــوْبِ

وعلى هذا النهج يقول الأحوص في الوليد بن عبد الملك :[5]

تخيَّـــرهُ ربّ العبـــادِ لخلقِـــهِ وَلِيّـــاً وكـــان اللهُ بالنَّـــاسِ أعْلَمـــا

أمَّا فِكرة المهدي المُنتظر فيستمدها الشُّعراء من الشِّيعة، وهو من أثر تداخل الأحزاب في بعضها بعضاً، فالأدب هو الانعكاس الحقيقي لتداخلات الحياة، هذه الفِكرة صبّت على الخُلفاء هالةً من القداسةِ والطُهرِ وإنْ كانوا في الحقيقة على غير هذا، يقول جرير في مدح هشام بن عبد الملك:[6]

إلـــى المهـــدي نفـــزعُ إنْ فزعنـــا ونسْتســـقى بغُرَّتـــهِ الغَمَامَـــا

وَحَبْـــلُ اللهِ تعْصِـــمكم قُـــواهُ فَـــلَا نَخْشَـــى لعُروتِـــهِ انْفِصَـــامَا

---

[1] غورها : العميق و البعيد . نجادها : ما غلظ من الأرض وأرتفع.
[2] طرفها: جديدها. التلاد: القديم.
[3] دِراسات في أدب ونصوص العصر الأُموي ، ص131
[4] دِيوان الفرزدق ، ص45
[5] شِعر الأحوص الأنصاري، تحقيق: عادل سُليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1990م، ص 247
[6] دِراسات في أدب ونصوص العصر الأُموي، ص130

ويقول في عمر بن عبد العزيز:[1]

أنـــتَ المُبـــاركُ والمهـــدي سِـــيرتُه تَعْصِـــى الهـــوى وتقـــومُ اللَّيـــل بالسُّـــوَرِ
نـــالَ الخلافـــةَ إذ كانـــتْ لـــه قَـــدَراً كمـــا أتـــى ربَّـــه مُوســـى علـــى قَـــدرِ

اشتد الهجاء بين شعراء بني أُميَّة والأحزاب السِّياسية المُعاصرة، فكان حظ الزُّبيرين من أوفر الحظوظ في الهجاء، يقول عبد الله بن الزَّبير[2] مُعبراً عمَّا حلّ بالزُّبيرين بعد مَقْتَلِ مُصعب بن الزُّبير:[3]

كـــأنِّي بعبـــدِ اللهِ يركـــبُ رَوْعَـــه وفيـــه سِـــنانٌ ذاعِبـــيٌّ مُحَـــرَّبُ[4]
وقـــد فَـــرَّ عنـــه الملحـــدون وحلّقـــت بـــه وبمـــن آســـاه عنقـــاءُ مُغْـــربُ[5]
تولّـــوا فخلّـــوه فشـــالَ بشِـــلوه طويـــلٌ مـــن الأخـــذاعِ عـــارٍ مشـــذَّبُ[6]
بكفـــي غـــلامٍ مِـــنْ ثَقيـــفٍ نَمَـــتْ بِـــهِ قـــريشٌ وذو المجـــدِ التّليـــدِ معتّـــبُ

جمعت الأبيات مشهدين مُختلفين في الشعور، فالمشهد الأوَّل يُصور القائد المخزول الَّذي تخلى عنه قومه المُلحدون فَمُزِقُوا شرّ مُمزّقٍ، وأحسن الشاعر في توظيف الخُرافة القديمة الَّتي تُضْرَبُ لمن حلّ به السُوء حين قال: حلقت به وبمن آساه عَنْقُاء مُغْرب.

وأمَّا المشهد الثاني فهو مشهد الغُلام المُنتصر الَّذي صَلبَ عبد الله بن الزُّبير[7] في مكَّة عند الكعبة ألا وهو الحجَّاج بن يوسف، فهو بمثابة الساعد الأيمن للدَّولة الأُمويَّة.

---

[1] دِيوان جرير، ص211
[2] عبد الله بن الزَّبِير بن الأشتم. ينتهي نسبه إلى أسد بني خُزيمة وُلِدَ سنة 75هـ وهو شاعر أهل الكُوفة اشتهر شِعره بالمدح والهجاء، وقف في صفوف بني أُميَّة يمدحهم ويهجو خصومهم إلى أنْ زالت دولتهم ، اتسَم شِعره بشِدَّة العاطفة وسلامة اللُّغه وهو وثيقة تاريخية لاحداث عُمره . كُفه بصره في آخر عُمره، ينظر الأغاني (طبع دار الكُتب) 217/14 وما بعدها و الخِزانة، 345/1
[3] شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 343
[4] يُقال ركب روعه: إذا سقط قتيلا يشخب دمه. الذاعبي: ضرب من الرِّماح. محرِب: محدد.
[5] عَنْقُاء مُغرب: حام الطَّير على أشلائهم.
[6] الشلو: الجسد. شال به: رُفع ويشير إلى صلبه على الجزع. مشذب: مصلح مقوم.
[7] عبد الله بن الزُّبير بن العوام، أبو حبيب، أوَّل مولود من المُسلمين بعد الهِجرة، بُويع بالخِلافة سنة 64هـ، بنى الكعبة وأدخل فيها الحجر، وزيَّن داخلها، حكم إقليم الحجاز، ثُمَّ قُتِل في زمن عبد الملك بن مروان سنة 73هـ، ينظر، ابن خلكان: أحمد بن مُحمد بن أبي بكر (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) تحقيق: إحسان عبَّاس، دار صادر بيروت، 1972م، 3/ 71

يقول عدى بن الرِّقاع العاملي في مدح عبد الملك بن مروان أثناء حُروبه مع مُصعب، حيث يصفه بالتأيد من عند الله تعالى، ومفهوم المُخالفة أنَّ مُصعباً مخذولاً من عند الله تعالى، حيث يقول:[1]

لَعَمْـــــري لَقَـــدْ أَصْـــحَرَتْ خَيْلُنـــــا بأكْنـــــافِ دِجْلَـــــةَ للمصْـــــعَبِ[2]
فَقَـــــدَّمنَا وَاضِـــــحٌ وَجْهُـــــهُ كَـــــرَيْمُ الضِّـــــرَائِبِ والمنْصِـــــبِ[3]
أُعِـــــيْنَ بنـــــا وَنُصـــــرنَا بِـــــهِ وَمَـــــنْ ينْصـــــر اللهُ لـــــمْ يُغْلَـــــبِ

ولو قال (لن يُغلَب) لكان أفضل من قوله: "لم يُغلب"

سار عبد الله بن خارجة[4] على الطريقة نفسها – وكان شديد التعصب للأُمويين – في مدحه لعبد الملك بن مروان وحثه على القضاء المُبرم على الزُّبيريين قائلاً:[5]

آلُ الزُّبيـــرِ مِـــنْ الخلافـــةِ كـــالَّتي عَجِـــلَ النِّتـــاجُ بحملِهَـــا فأحالهـــا[6]
قومـــوا إلـــيهم لا تتـــاموا عـــنهمُ كَـــم للغـــواةِ أطلـــتَمُ إمهالهـــا
إنَّ الخلافـــةَ فِـــيكمُ لا فـــيهم مـــازلتمُ أركانهـــا وثِمالهـــا[7]
أمســـوا علـــى الخيـــراتِ قفـــلاً مُغلقـــاً فـــانَهض بيُمنـــكَ فـــافتتح أقفالهـــا

دار هذا النَّص حول فِكرة الخِلافة الَّتي لا جدل في أنَّها لبني أُميَّة؛ فهم أركانها وثمالها وأكد الفِكرة بقوله: إنَّ الخِلافة فيكم ثُمَّ نفاها عن الزُّبيريين بقوله لا فيهم، ووصفهم بالغواية والضلال، وفي المُقابل وصف الخليفة باليُمن والخير.

ومن الشُّعراء الأوفياء لبني أُميَّة ودولتهم أبو العبَّاس الأعمى[8] الَّذي ظل وفياً لهم حتَّى بعد زوال دولتهم، إذ يقول[9]

---

[1] دِيوان عدى بن الرِّقاع العاملي، ص59 ،60
[2] أصحرت : برزت.
[3] الضرائب: الطباع.
[4] عبد الله بن قيس بن حبيب المعروب بأعشى بني ربيعة ، شاعر أُموي كان شديد التعصب لبني أُميّة ، مدح عبد الملك بن مروان وسُليمان ، وجعل مُعاوية رابع الخُلفاء؛ لأنَّه أغفل عليّا رضي الله عنه ، ينظر، الأغاني، 155/16
[5] الأغاني، 155/16
[6] أحالها : جعلها لا تنتج.
[7] الثمال: الغياث الَّذي يقوم بأمر قومه.
[8] أبو العبَّاس الأعمى السائب بن فروخ مولى بني جزيمة، من شعراء الدَّولة الأُمويَّة المقربين وشيعتهم الأوفياء، ويُقال إنَّه عاش حتَّى أدرك الدَّولة العبَّاسية، روى الحديث عن صدر من الصحابة وكان ثِقة عدلاً صدوقاً، مات سنة 136هـ، ينظر، البيان والتبين، 333/1، الأغاني، 16/ 298- 309
[9] شوقي ضيف ،العصر الإسلام ، ص 339

ليـــت شِـــعري أفـــاحَ رائحـــة المســـ كِ ومـــا إنْ أخـــال بـــالخَيْف أنْســـى
حـــين غابـــتْ بنـــو أُميَّـــةَ عنـــه والبهاليـــلُ مـــن بنـــي عبـــدِ شَـــمْسِ
خطبـــاءُ علـــى المنـــابرِ فُرســـا نٌ عليهـــا وقالـــةٌ غيـــرَ خُـــرْسِ

ولبني أُميَّة خُطباء تهتز لهم المنابر، وتُخْلعُ لهم القلوب فزعاً لمن سلك غير سبيلهَم من أشهرهم: زياد بن أبيه، ومُعاوية بن أبي سُفيان، وعبد الملك بن مروان، والحجَّاج بن يوسف، وغيرهم، وسيأتي الحديث عن خُطبهم في بابه إن شاء الله.

رابعاً: حِزب الزُّبيريين:

تأثرت الحياة السِّياسية في هذا العصر بالفتنة الَّتي دبّت بين المُسلمين في أواخر خِلافة عثمان بن عفَّان – رضي الله عنه – والَّتي انتهت بقتله ونشأ عن ذلك صِراع بين عليٍّ ومُعاوية – رضي الله عنهما – حتَّى آل أمر الخِلافة إلى مُعاوية الَّذي جعل الخِلافة في عقبه خالصةً من دون النَّاس ، وعهد بالخِلافة إلى ابنه يزيد ، ونجم عن ذلك صِراع سِياسي ، فما إنْ تولى يزيد الخِلافة حتَّى شاع السخط، والغضب، بين أوساط المُسلمين، ودبّ الصّراع بين يزيد والحُسين – رضي الله عنه – مُنتهياً بمقتل الحُسين رضي الله عنه[1]

وكان ممّن خرج على يزيد بن مُعاوية عبد الله بن الزُّبير ووقعت بينهم حُروب طاحنة فوجه يزيدٌ مسلم بن عقبة المُرِّى[2] لقتال ابن الزُّبير فانتصر عليه في موقعة الحَرَّة، وحاصر مكَّة فلاذ ابن الزُّبير بالكعبة فضربها مُسلم بالمنجنيق، وحرق أستار البيت الحرام، وفي خلال ذلك وصلت الأخبار بموت يزيد، فنصّب ابن الزُّبير نفسه خليفة للمُسلمين وأطلق على نفسه " العائذ بالبيت والمستجير بالرَّب " وقد كاد الامر يتم له؛ حيث اجتمعت على دعوته: الحجاز، والعراق، واليمن، ومصر، وبعض أمصار الشَّام، حتَّى قِيل: إنَّه غلب على دِمشق عاصمة الأمويين، لكن سرعان ما انقلب الأمر لصالح بنى أُميَّة، فاستخلص مروان بن الحكم[3] الشَّام من يد ابن الزُّبير، وقضى عبد الله بن مروان[4] على دعوته في العِراق بعد مَقْتَل مُصعب بن الزُّبير الَّذي كان والياً عليها. وقضى الحجَّاج ابن يوسف على دعوة عبد الله بن الزُّبير في الحجاز، وانتهت بذلك دعوة ابن الزُّبير"[5]

---

[1] الطبري: مُحمد بن جرير (تاريخ الرسل والمُلوك) دار المعارف، ط2، 1967م، 260/6

[2] مُسلم بن عقبة بن رياح المُرِّى ، قائد من الدهاة القساة في العصر الأموى . شَهِدَ صِفين مع مُعاوية وقُلعت عينه ، ولاه يزيد بن مُعاوية قيادة الجيش للقضاء على ابن الزُّبيروأسرف في القتل فسماه أهل الحجاز " مُسرفاً" توفى سنة 63هـ، ينظر، تاريخ الطبري، 7/ 14

[3] مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أُميّة . أبو عبد الملك بن مروان ، استولى على الشَّام ومصر توفى سنة 65هـ، ينظر، جمال الدِّين المزني (تهذيب الكمال في أسماء الرجال) تحقيق: بشار عوَّاد معروف، مُؤسسة الرسالة، ط1، 1983م، 3/ 19

[4] عبد الله بن مروان بن مُحمد الأُموي. شَهِدَ كوارث زوال دولة بني أُميَّة ، فر من السَّفاح العبَّاسي إلى بلاد النوبة ، وأُسِرَ في فلسطين، وقُدِم إلى المهدي في بغداد فحبسه سنه 161 هـ ومات في أيام الرشيد . ينظر عبد الحي بن أحمد العكري (شذرات الذَّهب في أخبار من ذهب) تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط1، 1986م، 184/1

[5] الكامل لابن الاثير 35/3- 67 بتصرف

" كان عصر بني أُميَّة مليئاً بالقلاقل السِّياسية، الَّتي أفرزت العديد من الأحزاب المتصارعة، فإلى جانب حِزب بني أُميَّه، كان هناك حِزب الشِّيعة، والخوارج، والزُّبيريين "[1]

يُنسب هذا الحِزب إلى عبد الله بن الزُّبير بن العوام القرشي، وهو ذو نسبٍ وصلاح، وكان أبوه أحد الذين اختارهم عمر بن الخطاب لتكون الخِلافة لهم من بعده.

وممّا ساعد ابن الزُّبير لنشر مذهبه: ظُلم بني أُميَّة يقول شوقي ضيف: " دعا أهل الكُوفة الحُسين ليبايعوه، ومضى إليهم غير أنَّه قُتِلَ دون غايته، فخلا الجوّ لابن الزُّبير الَّذي عاذ بمكَّة، وقد اتخذ من قَتْل الحُسين أداةً للتشنيع على يزيد وعُمّاله، وثارت المدينة"[2] وعند حصار البلد الحرام إلتف " كثيرٌ من العرب حتَّى من الخوارج للذّود عن البلد الحرام"[3] وظل ابن الزُّبير داعياً إلى منهجه لمدة تسع سنوات. "وكان لحِزبه شُعراء وخُطباء من أشهر الشُّعراء الَّذين مدحوا مُصعباً وعبد الله ودافعوا عن حِزبهم وألبوا القبائل على بني أُميَّة، ابن قيس الرقيَّات، وأعشى همدان"[4] ولم يَكْثُر شُعراء هذا الحِزب؛ ويُرجع الرُّواة هذه الظاهرة إلى بخل ابن الزُّبير، ويستدلون على ذلك "بأنَّ فضالة بن شريك الأسدى[5]، وقِيل بل ابنه، وفد عليه فقال له: إنَّ ناقتي قد نَقِبَتْ[6] ودَبِرَتْ[7] فقال: ارْقَعْها بجلد[8] واخْصِفْها بهُلْب[9] وسِر البَرْدَين[10] بها تصحّ، فقال فضالة: إنِّي أتيتك مُستحملاً ولم آتك مُستوصفاً، فلعن اللهُ ناقةً حملتني إليك، فقال له ابن الزُّبير: إنَّ[11] وراكبها. وانصرف فضاله قائلاً[12]

شـــكوتُ إليـــه أنْ نَقِبَـــتْ قلوصـــى ... فـــردَّ جـــوابَ مشـــدودِ الصِّـــفاد[13]

يَضِـــن بناقـــةٍ ويـــروم مُلْكـــاً ... محـــالٌ، ذلكـــم غيـــر السِّـــدادِ

---

[1] الذَّهبي ، شمس الدِّين أبو عبد الله مُحمد بن أحمد " العبر في خبر من غبر " تحقيق : صلاح الدِّين المنجد ، دائرة المطبوعات والنشر ، الكويت . 1960م ، 1/66-71 بتصرف

[2] شوقي ضيف ، العصر الإسلامي ، 290

[3] المرجع نفسه 290

[4] المرجع نفسه 293

[5] شاعر من أهل الكُوفة مُخضرم، شِعره حُجة عند اللُّغويين، كان يهجو عبد الله بن الزُّبير، له شِعر في رثاء مُعاوية بن أبي سُفيان، مات سنة 64هـ، ينظر، الأعلام، 5/ 146

[6] نقِبت : حفيت ورقت أخفافها.

[7] دَبِرت : أصابها جرح في ظهرها.

[8] ارقعها بجلد : اجعل لها خفاً من جلد.

[9] الهلب : الشَّعر.

[10] البردين : الغداة والعشى.

[11] إنّ : هنا بمعنى نعم.

[12] شوقي ضيف ، العصر الإسلامي ، 291- 292

[13] القلوص : الناقة . الصِّفاد : ما يشد به الأسير من قيد.

ومن أشهر خُطباء هذه الحِزب، عبد الله بن الزُّبير وأخوه مُصعب، وسوف نعرض لخُطبهم في موضع آخر.

قام هذا الحِزب على مبادئ لهج بها الشُّعراء والخُطباء يمكن أن تُجمل في:

1- الحمل على مُعاوية؛ لأخذه البيعة لابنه يزيد وجعل الخِلافة وراثة في بنيه.
2- بقاء الخِلافة في قريش؛ ولا يصلح لها غير خليفة قرشي.
3- نقمهم على بني أُميَّة؛ لنقلهم الخِلافة من الحجاز إلى دِمشق.

من أكثر الشُّعراء الَّذين حملوا هذه المبادي، عبد الله بن قيس الرقيَّات كان في بداية أمره شاعر غزل. وقِيل: لُقب بالرقيَّات؛ لتشبيبه بثلاث نِسوة اسمهنّ رقية[1]

والَّذي دفع الرقيَّات أن يدافع عن هذا الحِزب أمور منها:

1- أنَّه كان شديد التعصب لقريش ورأى في بني أُميَّة المُغتصب الحقيقي للخِلافة من ابن الزُبيَّر
2- كَرِه من بني أُميَّة استباحتهم المدينة المُنورة، وما فعلوه في أهلها ورميهم الكعبة بالمنجنيق، في معركة الحرَّة الَّتي راح ضحيتها نفرٌ من أهل بيته، منهم: أُسامة وسعد ابنا أخيه عبد الله، وراح يبكيهم بُكاءً حاراً يقطر دماً بالثورة على بني أُميَّة، إذ يقول[2]

إنَّ الحـــــوادثَ بالمدينـــــةِ قـــــد ... أوْجَعنَنـــــي وقَـــــرَعْنَ مَرْوَتِيَـــــهْ[3]
يَنْعـــــى بَنِـــــي عبـــــد وإخـــــوتهم ... حـــــلَّ الهـــــلاكُ علـــــى أقارِبِيَـــــهْ[4]
ونَعـــــي أســـــامةَ لـــــى وإخوتَـــــه ... فظللـــــتُ مُسْـــــتَكّاً مَســـــامعيهْ[5]
تبكـــــي لهـــــم أســـــماءُ مُعْولـــــةً ... وتقـــــولُ ليلـــــى: وا رَزِيتَّيَـــــهْ
واللهِ أبـــــرحُ فـــــي مقدِّمـــــهِ ... أهـــــدِي الجيـــــوشَ، علـــــيَّ شِـــــكَّتِيَهْ[6]
حَتَّـــــى أفجِّعهـــــم بـــــإخوتهِم ... وأســـــوقَ نســـــوتهم بنسْـــــوَتِيهْ

[1] دِراسات في أدب ونصوص العصر الأُموي ص209
[2] دِيوان الرقيَّات، 98- 100
[3] المروة : حجر أبيض تقدح منه النَّار . وهو مثل يُضرب لمن نزل به الشَّر.
[4] أقاربه : هم بنو عبدَ ينتهي نسبهم إلى جده السابع.
[5] استكت المسامع: ضُمَّت وضاقت، وهو مثل يُضرب للنبأ الشديد يعرك سامعه .
[6] الشكه : السلاح التام .

يقول شوقي ضيف: "ومن ثَمَّ كان اعتناقه للعقيدة الزُّبيرية اعتناقاً مُخلصاً، وهو اعتناق يشوبه الحِقد على بني أُميَّة والرغبة الشديدة في أنْ ينقضَّ حكمهم في الشَّام انقضاضاً"[1]

يصرح الشاعر بغيظه الشديد على بني أُميَّة؛ لسفكهم الدِّماء، وأثر الحُزن يظهر في البيت الأوَّل، فالحوادث أوجعته وقرعته قرع المروة، وهذا البيت يُشْبِهُ بيتاً لأبي ذؤيب الهذلي[2] الَّذي يقول فيه:[3]

حَتَّـــى كَـــأنّي لِلحَـــوْادِثِ مَـــرْوَةٌ بِصَـــفا المُشَـــرَّقِ كُـــلَّ يَـــوْمٍ تُقْـــرَعُ[4]

وتتصاعد نعمة الحُزن في البيت الثاني، إذ يصيف الشاعر ما حلّ بأقاربه بالهلاك. ولم يقل "الموت" وكلمة الهلاك تنهض بالحُزن والفجيعة، أكثر من كلمة الموت، والقرءان المجيد استعارها للموت في أكثر من موضع ومن ذلك قوله تعالى: "وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ"[5] وعلى هذا النحو وردت في الشِّعر العربي، قالت السُّلُّكة ترثي السُّليك[6]

طَـــــافَ يَبْغـــــي نَجْـــــوَةً مِـــــنْ هَـــــلَاكٍ فَهَلَـــــكْ
لَيْـــــتَ شِـــــعرى ضَـــــلّةً أيُّ شـــــيءٍ قَتَلـــــكْ
أمـــــريضٌ لـــــم تعُـــــدْه أمْ عَـــــدُوٌّ خَتَلَـــــكْ

ويبلغ الحُزن ذروته في البيت الثالث، إذ سكّ صوتُ الناعي أُذنه فأصبح لا يسمع بعد ذلك شيئا؟! أراد الشاعر بهذا التصوير النَّفسي أنْ يبيّن عدم سماع العُذر والحُجج فيما حصل، وأنَّ صوت الحرب سوف يعلو، ولذلك جاءت الأبيات الأخيرة تدل على الوعيد بالحرب.

والحق إنَّ الشَّاعر قد تدرج في هذه الأبيات تدرجاً شِعرياً حسناً؛ حيث جاء البيت الأوَّل عاماً بالفجيعة وخصص هذه الفجيعة في البيتين الثاني والثالث بنفرٍ من أقاربه وأهله، وهم: أُسامة وإخوته.

---

[1] شوقي ضيف، العصر الإسلامي ص 295
[2] خُويلد بن خالد بن محرث بن زيد بن مضر بن نِزار، شاعر إسلامي هلك بنوه الخمسة في سنة واحدة بالطاعون ورثاهم بهذه القصيدة الَّتي مطلعها: أمن المنون وريبها تتوجه: المفضليات: تحقيق : عبد السلام هارون وأحمد شاكر ، دار المعارف ط6 ص456
[3] المصدر السابق، 422
[4] المروة: حجارة بِيضٌ تُقْدَحُ منها النَّار.
[5] سورة غافر ، الآية: 34
[6] السُّلُّكة أمُّ السُّليك، أمة سوداء ، تزوجها عمرو بن يثربي السعدي ، فولدت له السُليك أحد الصَّعاليك المشهورين . ينظر شِعر بني تميم في العصر الجاهلي، عبد الحميد محمود المعيني ، 1402هـ ص92

إنَّ الرقيَّات كان صديقًا لمُصعب بن الزبيَّر فقد مدحه بالشِّعر ولزمه إلى أن قُتِل، ومن مدائحه قوله فيه:[1]

إنَّمـــا مُصْـــعَبٌ شِـــهَابٌ مِـــن اللهِ تَجَلّـــتْ عَـــنْ وَجْهِـــهِ الظَّلْمَـــاءُ
مُلكُـــهُ مُلْـــكُ قُـــوَّةٍ لَـــيسَ فِيـــهَ جَبَـــــروتٌ وَلَا بِـــــه كِبْرِيَـــــاءُ
يَتَّقِـــي الله فـــي الأمُـــورِ وَقَـــدْ أفْـــ لَـــح مَـــنْ كَـــانَ هَمَّـــهُ الإتّقَـــاءُ

كان مُصعب رخيَّ اليد، لذلك مدحه الشُّعراء، قال نعيم بن مسعود الشيباني:[2]

فَصُـــمِّمتِ الآذانُ مـــن بعـــدِ مُصـــعبٍ ومِـــنْ بَعْـــدِ "عبـــدِ اللهِ" فـــالأنف يُجـــدعُ
ففـــي كـــلِّ عـــامٍ مـــرتين عطـــاؤه وغيـــثٌ لنـــا فيـــه مصـــيفٌ ومُرْبـــعُ
علـــى ابـــنِ حَـــوارِيِّ النبـــيِّ تحيـــةٌ مـــــن اللهِ إنَّ الله يُعْطِـــــي ويمْنَـــــعُ

لقد استخدم الرقيَّات الغزل الفاحش أداة للتعبير عن آرائه السِّياسية. "وكان قد رأى عبد الرحمن بن حسَّان بن ثابت[3] حين لجّ الهجاء بينه وبين يزيد بن مُعاوية، يتخذ الغزل الفاضح برملة أخته وسيلة إلى الهجاء المقذع، فحاكاه في هذا الاتجاه بغزله بعاتكه زوجة عبدالملك، وأمَّ البنين زوجة ابنه الوليد"[4]

وكان يصِف نِساء مُصعب بالطهر والعفاف، ويصِف أُمَّ البنين بالتهتك والانحلال. ويقول في زوجة مُصعب:[5]

لَـــمْ أرَ مِثلـــك لا يكـــون لـــه خَـــرجُ العـــراقِ ومِنْبَـــرُ المُلْـــك
تَرْمـــي لتقتلنـــا بأســـهمها ونزِنُّهـــا بـــالحلم والنُّسْـــكِ

وفي المُقابل يصِف أُمَّ البنين بقوله:[6]

---

[1] دِيوان الرقيَّات، 91- 92
[2] علاء الدِّين معلطاي (إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال) تحقيق: عادل بن مُحمد، دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ط1، 2000م، 7/ 352- 353
[3] شاعر إسلامي، وُلِدَ سنة 6هـ، كان أبوه شاعراً، أقام بالمدينة وأشتهر بالشِّعر، له دِيوان شِعر، مات سنة 104، ينظر، الأعلام، 3/ 303
[4] شوقي ضيف، العصر الإسلامي، 297
[5] دِيوان الرقيَّات، 141
[6] المصدر نفسه، 122- 123

أتتنـــــي فـــــي المنـــــامِ فقلـــــ تُ هـــــذا حـــــين أُعْقبُهـــــا
فَلَمَّـــــا أنْ فَرِحـــــت بهـــــا ومـــــال علـــــيَّ أَعْـــــذَبُها
شـــــربتُ بريقهـــــا حتَّـــــى نهِلْـــــتُ وبِـــــتُّ أُشـــــربها
وبِـــــتُّ ضـــــجيعها جَـــــذْلا نَ تُعْجِبُنِـــــي وأُعْجِبُهَـــــا
وأَيقظنـــــا مُنـــــادٍ فـــــي صـــــلاةِ الصّـــــبحِ يرْقُبهـــــا

وله شِعر عنيف في هجاء بني أُميَّة، فلا يرضى لهم غير القتل والهلاك، قائلاً:[1]

كَيْـــفَ نَـــوْمِي عَلَـــى الفِـــرَاش وَلَمّـــا تَشْـــمَلِ الشَّـــامَ غَـــارةٌ شَـــعوَاءُ[2]
تُـــذْهِلُ الشَّـــيخَ عـــن بنِيـــهِ وتبْـــدِي عـــن بُرَاهـــا العقيلـــة العـــذراءُ[3]
أنـــا عَـــنْكُمُ بنـــي أُميَّـــةَ مُـــزْوَرٌ وَأَنْـــتُم فـــي نَفْسِـــيَ الأَعْـــداءُ[4]
إنّ قتْلـــى بـــالطَّفِّ قـــد أوْجَعْتنـــي كـــانَ مـــنْكُم لـــئن قُتِلْـــتُم شِـــفَاءُ[5]

لقد حزن الرقيَّات لِمَا أصاب قريشاً، من تمزيق وتشريد، وقال في ذلك:[6]

حَبّـــذا العَـــيشُ حِـــيْنَ قَـــوْمي جَميـــعٌ لَـــمْ تُفَـــرِّقْ أُمرَهَـــا الأهْـــواءُ
قَبْـــل أَنْ تَطْمَـــعَ القَبائِـــل فـــي مُلْـــ كِ قُـــرَيْشٍ وَ تشْـــمَتَ الأعْـــدَاءُ

ويمضي فيردَّ على الخوارج وأشباههم، ممَّن كان يرى أنَّ الخِلافة يجب أنْ لا تكون لقريش وحدها، بل هي للمُسلمين جميعاً، يتولاها أتقاهم وأصلحهم لها، إذ يقول :[7]

أيُّهـــا المُشْـــتَهِي فَنَـــاءَ قُـــرَيشٍ بِيَـــدِ اللهِ عُمْرُهـــا والفَنَـــاءُ
إن تُـــوَدِّعْ مِـــنَ الـــبلادِ قـــرَيشٌ لا يَكُـــنْ بَعْـــدَهُمْ لِحَـــيٍّ بَقَـــاءُ

---

[1] دِيوان الرقيَّات، 95- 96
[2] الشعواء : المتفرقة أي :غارات متفرقة .
[3] براها: يعني خلاخلها وسوارها. العقيلة : الكريمة من النِّساء.
[4] مزور: مائل ، منصرف ، يعبر في هذا البيت عن كرهه لبنى أُميَّة.
[5] الطف: موقع قرب الكُوفة قتل فيه الحُسين وكثيرين من بني هاشم سنة 61 هـ، لم يك الرقيَّات متشيعا ، لكنَّه رثى الحُسين لتعصبه لقريش عامة.
[6] دِيوان الرقيَّات، 88
[7] المصدر نفسه، 88- 89

وفي أبيات أُخرى من هذه القصيدة يبكي ماصار إليه أمر قريش؛ حتَّى كادت السماء تبكي لهم، ويعدد نفراً من قريش أوّلهم النَّبيِّ ﷺ وآخرهم مُصعب، الَّذي فتك بالمُختار الثقفي الَّذي يزعم أنَّه يوُحى إليه:[1]

لَــوْ بَكَــتْ هــذه السَّــماءُ عَلــى قَــوْمٍ كِـــــرَامٍ بَكَـــــتْ عَلَيْنَـــــا السّـــــمَاءُ
نَحْــنُ مِنّــا النَّبــيُّ الأمِّــيُّ والصِّــديق مِنَّـــــــا التّقـــــــيُّ والخُلَفَـــــــاءُ
والزُّبَيــرُ[2] الّــذي أجــابَ رسُــولَ الــ لـــهِ فـــي الكَـــرْبِ والـــبَلَاءُ بَـــلاءُ

وهكذا ظل الرقيَّات يدافع عن مبادئ هذا الحِزب إلى أنْ قُتِلَ مُصعب، وظل هذا الحِزب يُنافح عن أرآئه السِّياسية إلى أنْ مات عبد الله بن الزُّبير، ثُمَّ غابت رايته بغياب صاحِبه في الثرى.

[1] المصدر نفسه ، 89- 90
[2] أبو عبد الله أحد العشرة المبشرين بالجنَّةِ ، وأحد أصحاب الشورى ، هاجر الهجرتين وشَهِدَ المشاهد كُلَّها ، وهو أوَّل من سل سيفاً في سبيل الله ، قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنَّ لكُلِّ نبيٍّ حوارياً ، وحواري الزُّبير ، قُتل يوم الجمل، قتله ابن جرموز، وله أشعار، ينظر، الأعلام، 3/ 43

خامساً: حِزب الموالي:

الموالي في اللُّغة: جاء في لسان العرب، قال أبو الهيثم: "المولى على ستة أوجه: المولى ابن العمِّ والعمِّ والأخ والابن والعصبيات كلهم، والمولى الناصر، والمولى الولي الَّذي يلي عليك أمرك "[1]

وردت هذه الكلمة في القرءان الكريم بمعنى (السيد) قال تعالى: "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" أى سيده.

والمولى الناصر، قال تعالى: "ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ"[2]

ومولى الرجل عصبته قال تعالى حاكياً على لسان زكريا عليه السلام : "وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا"[3] ومن ذلك قول اللهبي يخاطب بني أُميَّة:

مهـــلاً بنـــي عَمنّـــا مهـــلاً موالينـــا لاتنبشـــوا بيننـــا مـــا كـــان مـــدفونا

ومنه قول النَّابغة الجَّعدي:[4]

مـــوالي حلـــفٍ لا مـــوالي قرابـــةٍ ولكـــن قطينـــاً يســـألون الأتاويـــا[5]

وسُمِّي المولى مولى؛ لأنَّه ينعقد بينك وبينه سبب للولاء"[6]

الموالى اصطلاحاً "هم حِزب مُعارض للدَّولة الأُمويَّة؛ لتعصب الأُمويين للعرب وتقديمهم في دواووين الدَّولة، وحجبهم الموالى عن ذلك، إلَّا في موضعٍ ضيق، عندما يعوذهم العُثور على عُنصرٍ عربي"[7]

---

[1] لسان العرب ، مادة " ولى " 408/15

[2] سورة مُحمد ، الأية: 11

[3] سورة مريم ، الأية: 5

[4] عبد الله بن قيس بن ربيعة الجعدي العامري: كُنيته أبا ليلى ، ولقبه ، النَّابغة ، عاش طويلاً إلى زمن الخُلفاء الراشدين ، حرَّم على نفسه عبادة الأصنام في الجاهلية ، وفد على النَّبيِّ ﷺ وانشده الرائية : له هجاء مع ليلى الأخيلية، ينظر ،ابن قتيبة: (الشِّعر والشُّعراء) تحقيق وشرح: أحمد مُحمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، 280- 281

[5] قطين: خدم. الأتاويا: جمع اتاوة، وهي العطية والصدقة.

[6] لسان العرب ، 15/ 408- 415

[7] دِراسات في أدب ونصوص العصر الأُموي ، ص45 بتصرف

هذه السِّياسة جعلت الموالي ينخرطون في الثورات المُعارضة لبني أُميَّه، وراح فريق منهم يظاهر العلويين، ونفرٌ يساند الخوارج. حتَّى كان لهم آخر الأمر القِدح المُعلى في تقويض الدَّولة الأُمويَّة. يقول أحمد الشائب مؤكداً الكلام أعلاه: "راح الموالى يحقدون على الأُمويين لأسباب شتئ وراحوا ينظمون أنفسهم في صفوف الأحزاب المناهضة للأُمويِّن؛ ليعيشوا من جهة، وليخرجوا من الرِّق أو حياة الولاء إلى حياة تشبه الأحرار والسادة من جهة أخرى، ثُمَّ ليشفوا ما في صدورهم من غلٍّ، ولينفسوا على أنفسهم ما كانوا يُضمرون من ضغينة للعرب من جهةٍ ثالثةٍ"[1]

ويظهر أنَّ الدَّولة الأُمويَّة بالغت في الحط من قدرهم، وعاملتهم مُعاملة السيد للعبد ، " وعدتهم دون العرب دماً وجنساً ولغةً وأدباً وشجاعةً وخُلقاً. ووصل الأمر إلى حد أنْ يُفَرِق أحدُ ولاة الدَّولة الأُمويَّة بين أحد الموالى وزوجته العربيَّة من بني سليم ، وزاد على ذلك فضربه مائتى سوط وحلق رأسه وحاجبيه ، ممَّا أثار نقمتهم على العرب وجعلهم يعتزون بمجدهم التليد ، ودولتهم البائدة ذات الحضارة الراقية ، والسُلطان العظيم"[2]

ومن شعراء الموالى: الحُسين بن مطير[3]، وموسى شهوات[4]، وإسماعيل بن يسار[5] وغيرهم"[6]

كان ولاؤهم الحقيقي لمذهبهم " الكِسروى أو الفارسي " وإنْ اندسوا خلف ستر الزُّبيريين أو الخوارج أو غيرهم من الأحزاب المُعارضة. يقول عبد العزيز الدوري عن ذلك: "إخال أنَّ "الكِسروية" كانت في طليعة المذاهب الَّتي كان أكثر الشُّعراء الموالي يختفون وراءها، ويوزعون من أجلها أنفسهم على الأحزاب في العصر الأُموي إنَّ (الفارسية أو الكِسروية) كانت حِزبهم الحقيقي، الَّذي كانوا يسعون

---

[1] الشايب، أحمد الشايب ، تاريخ الشِّعر السِّياسي ، مكتبة النَّهضة المصرية ، ط5 ، 1976م، 27.

[2] دِراسات في أدب ونصوص العصر الأُموي ، ص 45

[3] شاعر من قبيلة بني أسد، رجاز، من مُخضرمي الدَّولتين الأُمويَّة والعبَّاسية، مدح رجالها، كان كلامه وزيه ككلام وأهل البادية، مدح معن بن زائدة ورثاه لَمَّا مات، له دِيوان شِعر، مات سنة 169هـ، ينظر، الأعلام، 2/ 267

[4] موسى بن يسار المدني، أبو مُحمد، شاعر من الموالي، نشأ بالمدينة، ونزل الشَّام، وهو من أهل أذربيجان، مدح سليمان بن عبد الملك، وشهوات لقبه؛ لأنَّه كان يتاجر بالسُكر، فقالت امرأة: مازال موسى يأتينا بالشهوات، فلُقِبَ بذلك، ينظر، الأعلام، 7/ 331

[5] شاعر أصله من الفرس، أشتهر بشُعوبيته وفخره على العرب، كُنيته أبو الفدائي، كان من موالي بني تميم، انقطع إلى آل الزُّبير، ولمَّا مات، مدح عبد الملك وبنيه، مات سنة 130هـ، ينظر، الأعلام، 1/ 329

[6] دِراسات في أدب ونصوص العصر الأُموي ، ص46

جادين لإعادة ما كان له من عز، ومجد ، وحضارة انصهرت بالإسلام وذابت فيه . لقد كان دِينهم الحقيقي أو دِين أكثرهم ما عبّر عنه نصر بن سيَّار[1]:

فَمَـنْ يكـن سَـائِلاً عَـنْ أَصْـلِ دِيْـنِهِم فـــإنَّ دِيْـــنَهُمْ أنْ تُقْتَـــل العـــربُ

ومنذ ذلك التاريخ انبجست الحركة الشُعوبية"[2]

يُعدّ إسماعيل بن يسار من أكثر الشُّعراء الَّذين فخروا بمجدهم التليد، وحمل الفِكر الكِسروى، وخير شاهد يُساق، قصيدته الَّتى فَخِرَ فيها على العرب ، وعقد موازنة بين العرب والعجم، إذ يقول:[3]

رُبَّ خـــالٍ مُتـــوجٍ لـــي وعَـــمٍّ ماجـــدٍ مُحتـــدٍ كـــريم النِّصـــابِ[4]

إنَّمـــا سُـــمّي الفُـــرسُ بالفُـــرسِ مُضَـــاهَاة رِفـــعَة الأنْســـابِ

فـــاتركي الفخـــرَ يـــا أُمـــامُ علينَـــا واتركـــي الجـــورَ وانطقـــي بالصـــوابِ[5]

واســـألي إنْ جَهلـــتِ عَنَّـــا وعنكُـــمْ كَيـــفَ كُنَّـــا فـــي سَـــالِفِ الأَحَقْـــابِ

إذْ نُربـــــيِّ بَناتِنَـــــا وتدُسُّـــــو نَ سَـــفَاهاً بَنـــاتِكمُ فـــي التـــرابِ

يُعرِّض الشاعر في البيت الأخير بفِكرة (الشرف) عند العرب ونظرتهم للمرأة، وهي من أهم ما كانت الشُعوبية تهاجم به العرب وتطعن عليهم في حين أن شريعة (مزدك)[6] كانت تبيح الأمهات والأخوات والبنات ... "[7]

يدخل الشاعر نفسه على الخليفة هشام – ويظنه سيمدحه – فاخراً بمجده الفارسي ممَّا جعل هشاماً يغمسه ويغمره بالماء حتَّى كاد أنْ يموت، وهو يقول أعليَّ تفخر بالعجم ؟! ومطلع القصيدة:[8]

---

[1] أمير أُموي، وشاعر عربي، حكم خُرسان، لمَّا جاء جيش المُسودة بقيادة أبي مُسلم الخُرساني كاتب بني أُميَّة، وله أشعار ينبه فيها بخطر أبي مُسلم، فلم يستجيبوا له، قتله أبو مُسلم الخُرساني سنة 131هـ، ينظر تاريخ الرسل والملوك، 7/ 224

[2] الدوري: عبد العزيز " الجزور التاريخية للشُعوبية " طبعة القاهرة مصورة عن طبعة دار الطباعة بيروت ص 30/28/14

[3] يوسف حُسين بكار، شِعر إسماعيل بن يسار، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط1، 1984م، 28- 29

[4] النِّصاب : الأصل.

[5] أُمام : منادى مرخم وهي هنا كناية عن العُرب.

[6] المزدكية: دين منبثق من المانوية، مُؤسسه الزعيم الدِّيني الفارسي (مزدك) كان دينه يقوم على: المُشاركة في الأموال والنِّساء؛ لكي لا يتفرق النَّاس، قال عنه صاحب المِلل والنِّحل: (أحلَّ النِّساء، وأباح الأموال، وجعل النَّاس شِركة فيه كاشتراكهم في النَّار والماء والكلأ) ينظر، المِلل والنِّحل، 276

[7] أبو حيان التوحيدي ، الامتاع والمُؤانسة ، طبعة أحمد أمين و أحمد الزين ، مكتبة الحياة بيروت بدون تاريخ ، 93-92

[8] شِعر إسماعيل بن يسار، ص54 ، 55

يـــاربْعَ رامَـــةَ بالعليـــاءِ مـــن رِيـــمِ هـــلْ تـــرْجِعَنَّ إذا حُيِّيْـــت تســـلِيمي؟[1]

إلى أنْ يقول:

أَصـــلى كَـــرِيمٌ وَمَجـــدي لا يُقْـــاسُ بـــهِ وَلِـــى لِســـانٌ كَحْـــدِ الســـيف مَسْـــمُومِ
أَحمِـــي بـــهِ مَجْـــدَ أقـــوامٍ ذَوْي حَسَـــبٍ مِـــن كُـــلِّ قَـــوْمٍ بِتـــاجِ المُلـــكِ مَعْمُـــومِ
جَحَاجـــحٍ ســـــادَةٍ بُلْـــجٍ مَرَازِبـــةٍ جُـــوْدٍ عِتَـــاقٍ، مَســـاميحٍ مَطـــاعيمِ[2]
مَـنْ مِثْـلُ كِسـرى وسـابور الجنـود مَعـاً والهُرْمُـــزان لِفَخـــرٍ أو لِتعظـــيمِ[3]
أُسْـدِ الكتَائـبِ يـومَ الـرّوعِ، إن زَحفـوا وهـــمْ أذلـــوا مُلـــوكَ التُـــركِ والـــرُّومِ
يمشـــون فـــي خَلَـــقِ المـــاذيّ ســـابغةً مَشـــى الضَّـــراغمةِ الأُسْـــدِ اللهـــامِيمِ[4]
هنـــاك إنْ تســـألى تُنْبـــى بـــأنَّ لَنَـــا جُرثومـــةً قهـــرتْ كُـــلَّ الجـــراثِيمِ[5]

كان مع ابن الزُّبير في أوَّل أمره فَلَمَّا قُتِل جاء إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه في الإنشاد فردّ الخليفة قائلاً: " الآن يابن يسار، إنَّما أنتَ امرؤ زُبيري، فبأي لسان تنشد؟ فأجابه يا أمير المؤمنين أنا أصغر شأناً من ذاك وقد صفحت عن أعظم جرم وأكثر غناء لأعدائك منِّي، إنِّما أنا شاعر مُضحك ، فتبسم عبد الملك : وأنشده قصيدته الَّتى مطلعها:[6]

ألا يـــــالقومي للرقـــــادِ المسّـــــهدِ وللمـــاء ممنوعـــاً مـــن الحـــائم الصـــدى

ويفخر يزيد بن ضبة بماضيه التليد أمام هشام بن عبد الملك قائلاً [7]

ألـــم يـــك بـــالبلادِ لنـــا جـــزاءٌ فَنُجْـــزَى بالمَحَاســـنِ أمْ حُسِـــدْنَا
وقـــد كـــان المُلـــوكُ يَـــرون حَقـــاً لوافـــدِنَا فَنُكْـــرَمَ إنْ وفَـــدْنَا
وَلِيْنَـــا النَّـــاسَ أزمانـــاً طِـــوالاً وسُـــمْنَاهُمْ وسُـــدْنَاهُمْ وقُـــدْنَا
وأتلـــدَ مَجْـــدُنَا أنَّـــا كِـــرامٌ بحـــدِ المشـــرفيةِ عَنْـــهُ ذُدْنَـــا

وساهم هذا الحِزب في سقوط دولةِ بني أُميَّة.

---

[1] رامة : منزل في طريق البصرة إلى مكة . وقِيل : وهي هضبة أو جبل.
[2] جحاجح : سادة . بلج : الأبلج هو طلق الوجه . مرازبة : هي فارسية مُعرَّبة تعني الشُّجاع المِقدام . الجُرد : قصيرة الشَّعر .
[3] كِسرى وسابور : من سادة الفرس.
[4] الماذي : الدروع البيضاء . اللهاميم : جمع لهموم وهو السابق الجواد من الخيل.
[5] الجرثومة : الأصل .
[6] شِعر إسماعيل بن يسار، ص 12- 13
[7] دِراسات في أدب ونصوص العصر الأُموي، 46

ثورة ابن الأشعث:[1]

شَهِدَ العصر الأُموي ثورات عديدة منها ما كان في العِراق كثورة مُصعب والمُختار الثقفي ويزيد بن المُهلَّب[2] وثورة الرقيق الَّذين كانت تعاملهم الدَّولة فيما يظهر معاملة قاسية، ممَّا جعلهم يثورون مراراً، مرَّةً في عهد المُغيرة بن شُعبة والي الكُوفة ، ومرَّةً ثانية في عهد مُصعب ، ومرَّةً ثالثة في عهد الحجَّاج بن يوسف ، وكان الزنج هم الَّذين أشعلوا الثورتين الأخيرتين[3]

أهم هذه الثورات ثورة ابن الأشعث وتُعْرَفُ بثورة (القُرَّاء) وهي ثورة قام بها أهل السيادة والشرف في الكُوفة على بني أُميَّة لعهد الحجَّاج بن يوسف فقد كانت الكُوفة مستقر البيوتات العربيَّه

وكان سادة هذه البيوتات يمتعضون من ظلم ولاة بني أُميَّة لهم وأخذهم بالعنف والقسوة لا سيما الحجَّاج واتيحت الظروف لواحد منهم وهو ابن الأشعث أن يعلن الثورة على الحجَّاج ويخلعه وأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، ويدعو لنفسه بالخِلافة ، وذلك أنَّ الحجَّاج اختاره قائداً لحرب زنبيل ملك التُرك في سجستان ، وأمده بجيش عظيم يُسمى " جيش الطواويس" لتمام أُهْبته و عُدَّته . والتقى بجيش التُرك وانتصر عليه وغنِم غنائم عظيمة ، غير أنَّه رأى – خشية على جيشه – أن لا يتوغل وراء التُرك ، حتَّى يعرف طرقها. فلمَّا عَلِمَ الحجَّاج بذلك ، هدّده واتهمه بالجُبن . فثار عبد الرحمن وثار معه الجيش ، وقالوا : إنَّما يريد مِنّا الغنيمة ولا يهمه هلاكنا وبايعوه بالخِلافة ، ووادع عبد الرحمن ملك التُرك أنَّه إن ظَفِرَ بالحجَّاج لم يسأله خراجاً أبداً ، وإن هزمه الحجَّاج لجأ إليه .

واتجه بجيشه إلى العِراق، وانضم إليه القراء من أمثال عامر الشَّعبي[4] وسعيد بن جُبير[5]، الَّذين كرهوا ظُلم بني أُميَّة. وانضم إليه الشاعران أبو جلدة اليشكري وأعشى همدان[6]

---

[1] عبد الرحمن بن مُحمد بن الأشعث، خرج على الحجَّاج من سجستان إلى العِراق سنة 81هـ، بايعه النَّاس على حرب الحجَّاج وخلع عبد الملك، وكان بينه وبين الحجَّاج وقائع منها: الأهواز، والزاوية، ودير الجماجم، قتل نفسه بأن ألقى بها من فوق قصر، ينظر، البيان والتبين، 1/ 329

[2] يزيد بن المُهلَّب بن أبي صُفرة ولي المشرق بعد أبيه وولي البصرة، عزله عمر بن عبد العزيز، وُلِدَ سنة 53هـ، ولاه سُليمان العِراق وخرسان، سُجِنَ وظل في السجن إلى أن مات سنة 99هـ، وقِيل سنة 102هـ، ينظر، الأعلام، 8/ 190

[3] تاريخ الطبري، 338/5

[4] عامر بن شرحبيل، أبو عمر، راوية وعالم من التابعين، ضُرِبَ المثل بحفظه، وُلِدَ بالكُوفة، اتصل بعبد الملك بن مروان فقربه وكان سميره ورسوله إلى المُلوك، كان فقيهاً وشاعراً، ينظر، وفيات الأعيان، 1/ 244

[5] أبو عبد الله، تابعي حبشي الأصل، عالم، وُلِدَ سنة 45هـ، وخرج مع ابن الأشعث على الحجَّاج بن يوسف فقتله الحجَّاج سنة 95هـ، ينظر، الأعلام، 3/ 93

[6] عبد الرحمن بن عبد الله الهمداني شاعر اليمانين بالكُوفة وفارسهم في عصره، عاش في العصر الأُموي، غزا الدَّيلم زمن الحجَّاج بن يوسف، ولمَّا خرج بن الأشعث لحق به وقاتل معه رجال الحجَّاج، فَظَفِرَ الحجَّاج به وضرب عُنقه سنة 83هـ، ينظر، الأعلام، 312/3

وراح أبو وجرة يرتجز بين يدي جيشه، ويحمسهم لحرب الحجَّاج:[1]

أيـــا لهفـــي ويـــا حُزْنـــي جميعـــاً ... ويـــا غَـــمّ الفُـــؤَادِ لِمَـــا لقينـــا

تركنـــا الـــدِّين والـــدُّنيا جميعـــاً ... وخَلَّينـــا الحلائـــلَ والبنينـــا[2]

فمـــا كنَّـــا أُناســـاً أهـــلَ ديـــنٍ ... فنَصْـــبِرَ للـــبلاءِ إذا بُلينـــا

ولا كنَّـــا أُناســـاً أهـــلَ دُنيـــا ... فنَمْنَعهـــا وإنْ لـــم نَـــرْجُ دِينـــا

تركنـــا دُوْرَنَـــا لطَغـــامِ عَـــكٍّ ... وأنبـــاطِ القُـــرَى والأَشْـــعَرِينا[3]

والَّذي يظهر من الأبيات: أنَّهم يقاتلون لردَّ الضيم والظُلم والكرامة ، الَّتي سلبها بنو أُميَّة منهم ، وهي بعد تنحو منحى الحماسة الجاهلية الَّتي لاحظ لها من الإسلام .

إنَّ معاهدة ابن الأشعث لزنبيل – الَّذي لا يَرقُبُ في مُؤمنٍ إلَّاً وَلا ذِمَّةً – يُعضِض الفِكره السابقة.

وقف أعشى همدان موقفاً مُعارضاً لحكام بني أُميَّة ، منذ عهد التوابين ، ثُمَّ شدّ من أزر مُصعب ، وكان لا يرضى –دائما– عن ولاة بني أُميَّة ، ويراهم ظالمين للرعيَّة . ولمَّا وفد جيش ابن الأشعث وجد فيه ضالته ، واستعبد له قريحته الشِّعريه ، رفعاً لذِكره وإخمالاً لِذِكر الحِزب الحاكم . ومن ذلك قوله:[4]

يـــأبى الإلـــهُ وعـــزةُ ابـــن محمَّـــدٍ ... وجُـــدود ملـــكٍ قبـــل آل ثمـــودِ[5]

أنْ تأنســـوا بِمُـــذَمَّمين عُـــروقُهم ... فـــي النَّـــاسِ إنْ نُسِـــبوا عُـــرُوْقُ عبيـــدِ

كـــم مـــن أبٍ لـــك كـــان يَعْقِـــدُ تاجـــه ... بجبـــينِ أبْلَـــجَ مِقْـــوَلِ صِـــنْدِيدِ[6]

مـــا قصَّـــرت بـــك أن تنـــال مـــدى العُـــلا ... أخـــلاقُ مَكرمـــةٍ وإرثُ جـــدودِ

فَلَمَّا إلتقا الجمعان في معركة دير الجماجم هُزِم ابن الأشعث، وهرع إلى زنبيل – ظنّه صادق العهد – فبدأ له ما لم يك يحتسب، فوجده حال عن العهد والإنسان قد يتغيرُ، فردّه خائباً إلى الحجَّاج، وضُرِبَ الَّذي فيه عيناه.وقِيل مات منتحراً، وبهلاكه انتهت ثورة ابن الأشعث.

---

[1] الأغاني، 312/11

[2] الحلائل: الزوجات.

[3] الطغام: الأوقاد. عك: من قبائل الشام اليمنية ومثلها الأشعر قبيلة يمنية. وسماهم أنباطاً يريد أنَّهم ليسو بدواً، فهم فلاحون.

[4] شوق ضيف، العصر الإسلامي، 335

[5] ابن الأشعث مُحمد. آل ثمود: قبيلة ثقيف قوم الحجَّاج. وآل الرجل أهله.

[6] أبلج: طلق الوجه. مقول: خطيب. صنديد: الجواد الشُّجاع.

المبحث الثاني:

الحياة العلمية والأدبيَّة:

وُضِعَت في هذا العصر نواة عُلوم العربيَّة ، كعلمي اللُّغة والنحو.... وهيأ الله لهذه اللُّغة العُلماء المُلخصين ، الَّذين قعدوا لها القواعد والأصول من أمثال : "يحيى ابن يعمر[1] ، وعيسى بن عمر الثقفي[2] ، وعبد الله بن اسحاق الخضرمي[3]، وأبو عمرو بن العلاء[4] وغيرهم"[5]

وانتشر المُعلمون في البلاد المُختلفة، وكان منهم من يُعلم العامة مثل عطاء بن أبى رباح[6] والطرماح بن حكيم وفيه يقول بعض من شاهدوه: " لقد رأيتُ الصبيان يخرجون من عِنده كأنَّهم قد جالسوا العُلماء"[7] ومن مُعلمين الخاصة " عبد الصمد بن عبد الله"[8]

وقد نشطت حركة الترجمة والتعريب "يروى أنَّ سالماً مولى هشام بن عبد الملك ترجم بعض الرسائل لأرسطاليس"[9]

كما نشطت حركة العُلوم الحديثة مثل : الطِّب والكِيمياء وكان خالد بن يزيد بن مُعاوية : (هو أوَّل من تُرجمت له كُتب الطِّب والنُّجوم والكِيمياء)[10]

---

[1]من عَدوان، عالم يُروى عنه الفقه، أخذ النحو من أبي الأسود الدؤلي، وهو من كِبار التابعين القراء، عاش في المدينة، كان عالماً باللُّغة والغريب، وهو ممَّن نقط المُصحف الشريف، له أخبار مع الحجَّاج بن يوسف، مات سنة 129هـ، ينظر، طبقات النحويين واللُّغويين، 27- 28

[2]أبو سُليمان، من أئمة اللُّغة، وهو شيخ الخليل وسيبويه وابن العلاء، أوَّل من هذب النحو ورتبه، وسار على طريقته سبويه، كان صاحِب تقعر في كلامه مُكثراً من الغريب، لله نحو 70 مُصنفاً، احترقتْ أكثر كُتبه، مات سنة 149هـ، ينظر، الأعلام، 5/ 106

[3]نحوي من الموالي من أهل البصرة، أخذ عنه كبار النحاة، كأبي عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمرو، مات سنة 117هـ، ينظر، طبقات النحويين واللُّغويين، 31- 33

[4]إمام لُغوي وأديب، أحد القراء السبع، وُلِدَ بمكَّة سنة 70هـ، ونشأ بالبصرة، له مُصنفات، مات بالكُوفة سنة 154هـ، ينظر، الأعلام، 3/ 41

[5]مُصطفى عبد الرحمن إبراهيم (في النَّقد الأدبي القديم عند العرب) دار مكَّة للطباعة، 1998م، ص 111

[6]أبو مُحمد وُلِدَ باليمن سنة 27هـ، من الموالي من كِبار التابعين، مُفتي الحرم المكّي، ثِقة في الحديث، أسود اللون أعور العين أفطس الأنف أشل أعرج، ثُمَّ عمي بعد ذلك، مات بمكَّة سنة 115هـ وعمره 88 سنة، ينظر، ابن سعد (الطبقات الكبرى) تحقيق: علي مُحمد عمر، مكتبة الخانجي القاهرة، ط1، 2001م، 6/ 20- 22

[7] البيان والتبين، 223/20

[8] شوقي ضيف، العصر الإسلامي. ص201

[9] الفهرست، ص171

[10] البيان والتبين، 328/1

وكان هنالك حركة واسعة لتدوين العُلوم فدُوِن الشِّعر والأخبار، وكان من أوائل ما عُنوا به أخبار آبائهم في الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم"[1]

يقول الجاحظ في كِتابه الحيوان: " إنَّ ذا الرُّمة[2] كان يقول لعيسى بن عمر اكتب شِعري ؛ فالكِتاب أحبَّ إليّ من الحفظ ؛ لأنَّ الأعرابيَّ ينسى الكلمة وقد سَهِرَ في طلبها ليلته ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ثُمَّ ينشدها النَّاس ، والكِتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام"[3]

ودُوّن الفقه، والحديث ، والسِّير، والأخبار، " دون الزُّهرى الحديث ، بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وكان مُعاوية : يأمر بتدوين أخبار الأمم الماضية "[4]

ولا يخفى أثر الأسواق في انتشار الأدب ، تُعد الأسواق مركزاً من مراكز الأدب ، وكانت تنهض بعمليتي الشِّعر والنَّقد " ومن هذه المراكز سوق المِربد في البصرة وسوق الكِنَاسَة في الكوفة ، وكانتا تقومان مقام سوق عُكاظ في الجاهلية " [5] دفعت الأسواق حركة الأدب إلى التقدم . وأنتجت النقائض والجدل السِّياسي، وطورت في الأعراض الشِّعرية الأخرى. يقول مُصطفى عبد الرحمن عنها :" اشتجر التقاتل والتطاول والجدل والخلاف بين الخصوم منهم . وكَثُرَ شِعر الحماسة والفخر والهجاء والمديح "[6] ويتمثل تطور الحياة الأدبية في:

تطور الغزل والنقائض ، والنَّقد ، والخطابة والكِتابة .

أوَّلاً الغزل : ينقسم الغزل إلى قسمين :

الغزل العُذري: هو " الغزل العفيف النقي الطاهر الَّذي تشيع فيه حرارة العاطفة ، ويقتصر فيه الشاعر على محبوبةٍ واحدةٍ ، وهو غزل يهتم بالجوانب المعنوية للمرأة اهتماماً كبيراً على العكس من الغزل الحسي"[7]

---

[1] المرجع نفسه، 318/1

[2] غيلان بن عقبة، أبو الحارث، من مضر، شاعر فحل من فُحول الطبقة الثانية في عصره، قال عنه أبو عمرو بن العلاء: (فُتِحَ الشِّعر بامرئ القيس وخُتِم بذي الرُمة) كان قصيراً دميماً أسوداً، يذهب في شِعره مذهب الجاهليين، من تشبيب وطلل، عشق ميّة المنقرية واشتهر بها، له دِيوان شِعر، ينظر، الأعلام، 5/ 124

[3] الجاحظ (الحيوان) تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، مطبعة مصطفى البابلي الحلبي ، ط2 ، 41/1

[4] شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص454

[5] شوقي ضيف " البلاغة تطور وتاريخ" ط دار المعارف، ص16

[6] في النَّقد الأدبي القديم عند العرب، ص 110

[7] يوسف خليف " الحب المثالي عند العرب " دار المعارف بمصر 1961 ، ص48

ويُنْسب هذا النوع من الغزل إلى قبيلة (بني عُذْرة) إحدى قبائل قضاعة، الَّتي كانت تنزل في وادي القرى شمالي الحجاز، والَّتي اشتهرت بكثرةِ عُشاقها، الَّذين عُرِفوا بالعِفة في العِشق، لم يقتصر هذا الغزل على هذه القبيلة فحسب ، بل امتد إلى بوادى أخرى مثل : بوادي نجد والحجاز ، لكنَّه شاع وانتشر في هذه القبيلة حتَّى عُرِف بها .

"وهذا الغزل ليس وَلِيدُ العصر الأُموي فيما يتردد أحياناً"[1] لقد عرف العصر الجاهلي جماعة من شعراء العِفة المتيمين ممَّن اقترنت أسماؤهم بمحبوباتهم مثل: المُرقش الأكبر[2] وأسماء، والمُرقش الأصغر[3] وفاطمة، وعبد الله بن علقمة وحبيشة، وعبد الله بن العجلان وهند ، وعنترة وعبلة وغيرهم.

وجاء شِعرهم قليلاً بالنسبة لنظرائهم الأُمويين ، دالاً على حُبٍّ مُخلصٍ وعواطف صادقةٍ ومشاعر ملتهبةٍ ، يقول المُرقش الأصغر:[4]

وإنِّـــي لأَسْـــتَحْيي فُطَيْمـــةَ جَائِعـــاً ... خَمِيصـــاً، وأســـتحيي فُطَيْمـــةَ طاعِمَـــا
وإنِّـــي لأَسْـــتَحْيِيكِ والخَـــرقُ بَيْنَنَـــا ... مخَافـــةَ أنْ تَلْقَـــىْ أَخـــاً لِـــىَ صـــارِمَا[5]
أَلا يـــا آسْـــلمى ثـــمَّ اعْلَمـــي أَنَّ حـــاجَتِي ... إليـــكِ، فَـــرُدِّي مِـــنْ نَوَلِـــكِ فاطِمَـــا
أفـــاطِمَ لَـــوْ أنَّ النِّســـاءَ بِبَلْـــدَةٍ ... وأنْـــتِ بـــأُخْرَى لَا تَّبَعْتُـــكِ هائِمَـــا

لقد اقترنت كذلك أسماء الشُّعراء العُذريين في العصر الأُموي بأسماء محبوباتهم، مثل

جميل بُثينة، كُثيِّر عَزَّة، والصّمّة القشيري[6] وريّا، وقيس بن ذريح ولُبنى، وقيس وليلى، وتوبة بن الحُمير[7] وعفراء.[8]

---

[1] شكري فيصل " تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام " مطبعة جامعة دِمشق 1959م، ص235

[2]عوف بن سعيد بن المالكي، شاعر جاهلي، من المتيمين الشّجعان، أحبَّ ابنة عمِّه (أسماء) وقال فيها شِعر كثيراً كان يُحسن الكِتابة، اتخذه الحارث الغساني كاتباً، شِعره من الطبقة الأولى، وهم عمِّ المُرقش الأصغر، مات لمَّا تزوجت أسماء برجل غيره، ينظر، الأعلام، 5/ 95

[3]ربيعة بن سُفيان بن سعد، شاعر جاهلي، كان جميل الوجه، أحبَّ فاطمة بنت المنزر وله فيها أشعار، وهو ابن أخت المُرقش الأكبر، وعمِّ طرفة بن العبد، ينظر، الأعلام، 3/ 16

[4]الفضليات، ص246

[5] الخرق: ما اتسع من الأرض

[6]شاعر بدوي مُقِل، عاش في العهد الأُموي، له شِعر رقيق في الغزل، مات بطبرستان، ينظر، الأغاني، 1/ 5- 9

[7]أبو حرب العامري، شاعر من عُشاق العرب المشهورين عاش في العصر الأُموي، كان يهوى عفراء فردّه أبوها وزوجها غيره، فانطلق يقول الشِّعر مشبباً بها، قتله بنو عوف بن عقيل، ينظر، الأعلام، 2/ 89

[8]عفراء بنت مالك الضبية، شاعرة أُمويَّة، اشتهرت بأخبارها مع عُروة بن حِزام، وهو ابن عمِّها، زوجها أبوها لغيره، فماتت بعد موت عُروة ودُفِنت إلى جانبه سنة 50هـ، ينظر، الأعلام، 4/ 238

" وكان للفقهاء سهمٌ وافرٌ في هذا الضرب من الغزل، إذ نجد الفقيه عبد الرحمن ابن أبي عمار المُلَقبْ بالقس في مكَّة، يقع في شِراك سلاّمة بعد أن سَمِعَ غناءها فأعجبه فَنُسِبتْ إليه، وَقِيل: "سلاّمة القس" وشابهه عُروة بن أُذينة أخاه في الغزل الَّذي وقع في حبال زوجته (عثمة) وقال فيها شِعراً بعد أن طلَّقها ونَدِمَ على طلاقها"[1]

اختص شِعر العُذريين بخصائص موضوعية أهمها :

العِفة والطُهر : وهو الغزل الَّذي لا سلطان فيه لشهوات الجسد ، ونوازع الغريزة[2]، ومن جنس هذا النَّوع قول مجنون ليلى:[3]

حَلفْتُ بمنْ صَلَّتْ قُريشٌ وجَمَّرَتْ ... لَهُ بِمنىً يَوْمَ الإفاضة وَ النَّحْرِ
لَقدْ أَصْبَحَتْ مِنِّى حَصاناً بَريئةً ... مُطهّرةً لَيْلَى مِنْ الفُحْشِ والنُّكْرِ
مَن الخفراتِ البِيضِ لَمْ تدرِ مَا الخَنا؟ ... وَلَمْ تُلفَ يَوْماً بَعْدَ هَجْعَتِهَا تسرى
ولا سمِعُوا مِنْ سَائِرِ النَّاسِ مِثلهَا ... وَلَا بَرَزَتْ فِي يَوْمِ أضحَى وَلَا فِطْرِ

ومنه قول جميل بُثينة:[4]

لا والّذي تَسجُدُ الجِباهُ لهُ ... مَالِى بِمَا دَونَ ثَوْبهَا خَبْرُ
وَلَا بفيها وَلا هَمَمتُ بِهِ ... مَا كَانَ إلَّا الحدِيثُ وَالنَّظْرُ

الشكوى من الحِرمان : يكون الحِرمان بسبب ما حاكه الوشاة من أقاويل ، أو بسبب صدّ المحبوبة عن صاحِبها .

يقول قيس بن ذريح[5] في الضَّرب الأوَّل :[6]

فإن يَحْجِبُوها أَو يَحُلْ دُون وَصلِها ... مَقالةُ واشٍ أَوْ وَعِيدُ أميرِ
فَلَنْ يَمنعوا عَيْني مِن دَائِمِ البُكَا ... وَلَنْ يخرجُوا مَا قَدْ أَجَنَّ ضَمْيري

---

[1] عبد الله كنون (أدب الفُقهاء) دار الكِتاب اللبناني بيروت ، ص 24 – 29 بتصرف
[2] دِيوان قيس بن الملوح، دراسة وتعليق: يسرى عبد الغنى ، دار الكُتب العِلمية بيروت ، ط 1 ، 1999م، ص 68
[3] دِيوان مجنون ليلى، جمع وتحقيق وشرح: عبد الستار أحمد فراج، دار مصر للطباعة، 121
[4] دِيوان جميل ، تحقيق: حُسين نصار، دار صادر ، ص 70
[5] قيس بن ذريح بن سنة بن حذاقة الكِناني ، شاعر عاشق مُتيم ، أُشْتُهِرَ بحب لبنى بنت الحباب الكعبية ، وكان رضيعاً للحُسين بن علي، أرضعته أمُّ قيس توفى سنة 68 هـ ، ينظر، الأغاني 8/ 108 - 128
[6] حُسين نصار ، قيس ولُبنى (شِعر ودِراسة) مكتبة النَّهضة مصر القاهرة، ص 78

ومن الضَّرب الثاني ، قول جميل [1] مُعبراً عن الرضا بالحِرمان ، والقناعة بالوهم الكاذب:[2]

وإنِّـــي لَأرضـــى مِـــنْ بُثْيَنَـــةَ بالـــذي ... لَـــوْ أبْصَـــره الوَاشـــي، لقَـــرَّت بَلابلُـــهْ
بِـــلاَ، وبـــأن لَا أَســـتطِيعَ وَبـــالمُنى ... وَبالوَعـــدِ حَتَّـــى يَسْـــأَمَ الوعـــد آمِلُـــهْ
وبـــالنظرةِ العُجْلـــى وبـــالحوْلِ تَنْقضِـــي ... أَوْاخِـــــرهُ، لا نَلتقِـــــي، وأوئلـــــهْ

الاقتصار على حبيبة واحدة : يقول جميل بُثينة مُجيباً من أرادت صرفه عن بُثينة ليهيم بها ، بأنَّ قلبه قد شُغِل ببُثينة وحدها ، ولا سبيل لغيرها :[3]

فَلـــربَّ عارضـــةٍ علينـــا وَصْـــلها ... بالجِـــدّ تَخْلِطُـــه بقـــولِ الهَـــازِلِ
فأجِبتُهـــا بـــالقَولِ بَعـــدَ تَســـتُّرٍ: ... حُبّـــي بُثْيَنَـــةَ عَـــن وصَـــالِكِ شَـــاغِلي
لَـــو أَنّ فـــي قَلْبِـــي كَقَـــدْرِ قُلامَـــةٍ ... فَضْـــلاً، وَصَـــلتُكِ، أَوْ أتتـــكِ رَســـائِلي

تذكر المحبوبة في كل حال ووقت: ليلاً ونهاراً ، نوماً ويقظة ، حضراً وسفراً ، بل زادوا على ذلك فأصبح ذكر الحبيبة لا يغيب عنهم في صلاتهم وحجهم ، الأمر الَّذي أفسد عليهم عبادتهم ونسكهم، يقول مجنون ليلى : [4]

أعُـــدَّ اللَّيـــالى ليلـــةً بعـــد ليلـــةٍ ... وقـــد عِشـــتُ دهـــراً لا أعـــدُّ الليـاليـــا
أرانـــي إذا صـــلَّيتُ يمْمـــتُ نحوهـــا ... بـــوجهي وإنْ كـــان المُصـــلى ورائيـــا
ومـــابي إشـــراكٌ ولكـــنَّ حُبَّهـــا ... وعُظـمَ الجـوَى أعيـا الطبيـبَ المـداويا
هـــي الســـحرُ إلَّا أنَّ للســـحرِ رقيـــةً ... وإنِّـــي لا أُلفِـــى لهـــا الـــدَّهرَ راقيـــا

ويقنع الشاعر –أحيانا– باللقاء الروحي: فنسيم الجو يجمع بينهما، وأرواحهما تلتقيان ليلاً ويستظلان بالظل في وقت القيلولة ، وينظران إلى النَّجم معاً ، يقول قيس بن ذريح : [5]

---

[1] جميل بن معمر العُذري القضاعي ، أبو عمر شاعر من عُشاق العرب ، افتتن ببُثينة من فتيات قومه وقال فيها شِعراً ، وفد على عبد العزيز بن مروان بمصر ، فأكرمه وأمر له ببناء منزل ومات هناك سنة 82 هـ ، ينظر وفيات الأعيان، 115/1

[2] دِيوان جميل ، ص 115

[3] دِيوان جميل بُثينة، دار بيروت للطباعة والنشر، 1982م، 54

[4]- دِيوان مجنون ليلى، 228- 229

[5]دِيوان قيس بن ذريح، اعتنى به وشرحه: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعارف بيروت، لبنان، ط2، 2004م، 107- 108

فـــإن تَـــكُ لُبنـــى قَـــدْ أتـــى دُونَ قُرْبِهَـــا حِجَـــابٌ منِيـــعٌ مَـــا إليـــهِ ســـبيلُ
فـــإنَّ نَســـيمَ الجـــوّ يَجمـــعُ بَينَنَـــا وَنبصُـــرُ قَـــرنَ الشَّـــمسِ حـــيْنَ تـــزولُ
وَأرواحُنَـــا باللَّيـــل فـــي الحـــيِّ تَلْتَقِـــى وَنَعْلَـــمُ أَنّـــا بالنّهـــارِ نَقِيـــلُ
وَتَجمعُنَـــا الأرضُ القَـــرارُ وفوقنـــا سَـــمَاءٌ نَـــرى فيهـــا النُّجـــومَ تجـــولُ

وربَّما نام الشاعر لكي يرى حبيبته في المنام، يقول قيس بن ذريح:[1]

وإنـــي لأهـــوى النـــومَ فـــي غيـــرِ حِينـــه لَعَـــلَّ لِقَـــاءً فـــي المنـــامِ يَكـــوْنُ
تحـــدِّثنى الأحـــلامُ أنِّـــي أراكـــمُ فيالَيْـــتَ أَحـــلامَ المنـــامِ يقِـــيْنُ

لقد شكى الفُقهاءُ العُذريون من صدّ الحبيبة، وكثرة الوشاة، يقول عُروة بن أُذينة [2] شاكياً من صدّ الحبيبة في أبيات ذات جرس موسيقي عذب: [3]

إنَّ الَّتـــى زعمـــتْ فـــؤادكَ ملَّهـــا خُلِقَـــتْ هـــواكَ كمـــا خُلِقْـــتَ هَـــوىً لهـــا
فيـــك الَّـــذي زعمـــتْ بهـــا وكِلاكُمَـــا يُبْـــدى لصـــاحِبِهِ الصَّـــبابةَ كُلَّهـــا
بيضـــاءُ باكرهـــا النَّعـــيمُ فصـــاغها بلباقـــةٍ فأدقهـــا وأجلَّهـــا
مَنعـــتْ تحيَّتهـــا فقلـــتُ لصـــاحبي مـــا كـــان أكثرهـــا لنـــا وأقلَّهـــا

وهذا عبد الرحمن الفقيه يصف مُعاناته إزاء حُبِّه لسلَّامة، وما يجده من لوم النَّاس له قائلاً:[4]

ســـلاَّمُ هـــل لـــي مـــنكم ناصـــرُ أمْ هـــل لقلبـــى عـــنكم زاجـــرُ ؟
قـــد ســـمع النَّـــاسُ بوَجْـــدى بكـــم فمـــنهم اللائـــمُ والعـــاذرُ

ومن خصائصه الفنية:

تأثر الشُّعراء بالإسلام في معانيهم وألفاظهم ، يقول جميل :[5]

---

[1] دِيوان قيس بن ذريح، 115
[2]- عُروة بن يحيى بن مالك بن الحارث بن عمرو بن عبد الله ، وأُذنية لقبه يكنى بأبي عامر ، وهو شاعر غزل مُقدم من شعراء أهل المدينة وهو معدود من الفقهاء و المُحدِّثين توفى سنة 130هـ ، ينظر، الأغاني، 330/18 دِيوانه دار صادر بيروت ، ط1 1996 ، ص3
[3] شِعر عُروة بن أُذينة، جمع: يحيى الجبوري، دار القلم الكويت، ط2، 1981، 360- 363
[4] شوقي ضيف، العصر الإسلامي، 362
[5] دِيوان جميل ، ص58

هـــي البـــدرُ حُســـناً ؛ والنِّســـاءُ كواكـــبٌ وشـــتّانَ مـــا بـــين الكواكـــبِ والبـــدرِ!
لقـد فُضِّـلت حُسـناً علـى النّـاسِ مثلمـا علـى ألـف شـهرٍ ، فُضِّـلتْ ليلـةُ القـدرِ

ويقول –أيضاً– شاكياً إلى ربه تباريح الهوى وألم البعد: [1]

إلـــى اللهِ أشـــكو لا إلـــى النَّـــاسِ حُبَّهـــا ولا بـــدّ مِـــنْ شـــكوى حبيـــبٍ مـــودَّعُ
ألا تَتَّقَـــــينَ الله فـــــيَمن قتلْتِـــــهِ فأمســـــى إلـــــيكم خاشـــــعاً يتضـــــرَّع
فيـــاربِّ حَبِّبْنـــي إليهـــا ، وأعطِنـــي الـــ مـــوَّدة منهـــا أنـــت تُعطِـــي وتمنـــعُ

العناية بالعاطفة والحرص على صدقها وحرارة الانفعال، وبيان أثر الحُب على عكس ما جاء في الغزل الجاهلي، يقول طه حُسين: " كانوا {شعراء الجاهلية} يصِفون لذَّة الحُب كما يصفون لذَّة الصّيد ولذَّة الحرب، وكانوا يصِفون النِّساء كما كانوا يصِفون الإبل" .

سهولة الألفاظ وجمال الأسلوب : فالألفاظ بسيطة سهلة لا تعسف [2] فيها ولا تكلف ، بعيداً عن الحوشي الغريب .

" وهذه البساطة تتعدى الألفاظ إلى التراكيب فلا تعسف في التأليف ، ولا تكلف ولا إلتواء ، وذلك لأنَّ همّ الشاعر الإفصاح عن حبه العفيف"[3]

الالتزام بالوحده الموضوعية في سائر القصيدة ، فقد وجدنا قصائدهم لا تخرج عن الغزل ، الأمر الَّذي فُقِدَ في بناء القصيدة الجاهلية ، وخير شاهد يُساق القصيدة الَّتي نُسِبت لأكثر من شاعرٍ عُذري:[4] وقِيل هي لنُصيب[5] بن رباح

كـــأنَّ القلـــبَ ليلـــةَ قيـــلَ يُغـــدَى بليلـــــــى العامرِّيـــــــةِ أو يُـــــــراحُ
قطـــــاةٌ عزَّهـــــا شـــــرَكٌ فباتـــــتْ تجاذبـــــهُ وقـــــد عَلِـــــقَ الجَنـــــاحُ

[1] المصدر نفسه، ص 73 ، 74
[2] طه حُسين حديث الأربعاء) المطبعة التجارية الكبرى ، مصر ، 1925م 221/1
[3] دِراسات في أدب ونصوص العصر الأموي ، ص 27 بتصرف
[4] شِعر نصيب بن رباح، جمع وتحقيق: داؤد سلوم، مطبعة الإراشاد بغداد، 1967م، 74
[5] أبو محجن مولى عبد العزيز بن مروان، شاعر فحل مقدم في النسيب والمدح، من سكان البادية، كان أسود اللون، مات سنة 108هـ ، ينظر، الأعلام، 8/ 32

لهـــا فرحـــانِ قـــد تُرِكَـــا بقفـــرٍ وعشُـــــهما تصـــــفِّقُهُ الرِّيـــــاحُ
إذا ســـمعا هُـــوبَ الـــريح هبَّـــاً وقَـــدْ أوْدَى بهـــا القَـــدَرُ المُتـــاحُ
فـــلا باللَّيـــلِ نالـــتْ مـــا ترجَّـــى ولا فـــي الصُّـــبحِ كـــان لهـــا بـــراحُ

وصف الشاعر حال قلبه عِند فِراق المحبوبه بحال القطاة الَّتى جذبها الشرك ، فهي تعاني ليلها كله دُون خلاص ، أضف إلى مأساة فرخيها اللذينِ لعبت الرِّيح بوكرهما ، يالَها من صورةٍ دقيقةٍ مؤثرةٍ .

الغزل اللاهي:

اشتهر بهذا النوع من الغزل ثلاثة شعراء وهم:

عمر بن أبي ربيعة:

لقد حمل عمر بن أبي ربيعة[1] لواء التجديد في الغزل الحضري ، فجاء بقصص ومغامرات مع الكواعب الأبكار الشريفات الأصل ، المحميات الجناب ، وهو بهذا النهج يختلف عن غزل امرئ القيس ؛ إذ كان يغامر مع المتزوجات ، ويختلف عن العرجي والأحوص ، فكانا يُغامران مع المُغنيات و الإماء ، وله في ذلك شواهد تقوّي هذا المذهب ، منها قوله في المرائية :[2]

فحييـــــتُ إذ فاجأتهـــــا فتولهـــــت وكـــادتْ بمخفـــوضِ التحيّـــةِ تَجْهَـــرُ
فقالـــتْ وعضـــتْ بالبنـــانِ فضـــحتني وأنـــتَ امـــرؤٌ ميســـورُ أمـــرِكَ أَعْسَـــرُ
أريتُـــكَ إذ هُنّـــا عليـــك ألَـــمْ تَخَـــفْ علـــيَّ وحـــولي مِـــنْ عَـــدُوكِ حُضّـــرُ

إلى قوله :

فبـــتُ قريـــرَ العـــينِ أُعْطِيْـــتُ حَـــاجَتِي أُقَبِّـــلُ فَاهـــاً فـــي الخَـــلاءِ فَـــأكْثِرُ

[1] أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة، شاعر غزل وُلِدَ ليلة قُتِل عمر بن الخطاب رحمه الله 23هـ ومات سنة 94 هـ وعُمره جاوز السبعين كانت العرب تقر لقريش بالزعامة في كل شئ إلاَّ في الشِّعر ، فَلَمَّا كان عُمر أقرت لها بالشِّعر، ينظر، دِيوان عمر بن أبي ربيعة ، دار القلم - بيروت – لبنان بدون تاريخ طبع ، ص1 – 5
[2] المصدر نفسه، ص65

وفي موضع آخر يقص علينا مُغامرته مع فتاة كاعِبٍ ، لا عهد لها بتجارب الغزل و اللهو ، قضى معها ليله ذاك ، وذاق ريقها العذب الَّذي يُشْبِهُ طَعْمَ الخمرِ ، حيث يقول : [1]

حَتَّـــى دَخَلـــتُ علـــى الفَتـــاةِ وإنَّهـــا ... لَـــتَعُطُّ نَوْمـــاً مِثـــلَ نَـــوْمِ المُـــبْهَجِ
فوضـــعتُ كَفِـــيِّ عِنْـــدَ مَقْطـــعِ خَصْـــرِها ... فَتَنَفَّسَـــــتْ نفســـــاً فَلَـــــمْ تَـــــتَلَهَّجِ
فَلَزِمْتُهـــــــا فَلَثِمْتُهـــــــا فَتَفَزَّعـــــــتْ ... مِنِّـــى وَقَالـــتْ : مَـــنْ ؟ فَلَـــمْ أَتَلَجْلَـــجِ
قالَـــتْ . وَعَـــيشِ أبـــي وَحُرمَـــةِ إخـــوتي ... لأنَـــــبِهَنَّ الحَـــــيَّ إنْ لَـــــم تَخْـــــرُجِ
فَخَرَجْـــتُ خَـــوفَ يَمينِهـــا فَتَبَسَّـــمتْ ... فَعَلِمْـــتُ أَنَّ يمينهَـــا لَـــمْ تَحْـــرَجِ
فَلَثِمـــتُ فَاهـــاً آخـــذاً بقُرونهـــا ... شُـــرْبَ النَّزيـــفِ ببـــردِ مـــاءِ الحَشـــرجَ

وله مُغامرة أخرى تشبه هذه المُغامرة، غير أنَّها تفضلها بالنظر في مُعظم أبياتها إلى معاني القُدماء، حيث يقول:[2]

وَلَقَـــدْ دَخَلْـــتُ البَيْـــتَ يُخْشَـــى أهلُـــهُ ... بَعْـــدَ الهُـــدوء وَبَعْـــدَ مـــا سَـــقَط النَّـــدى
فَوَجَـــدْتُ فيـــه حُـــرَّةً قـــد زُيِّنَـــتْ ... بـــالْحَلْيِ تَحْسَـــبُهُ بهـــا جَمْـــرَ الغَضـــا
لمَـــا دَخَلـــتُ منَحْـــتُ طرْفـــى غيْرَهـــا ... عَمْـــداً مخافَـــةَ أنْ يُـــرىَ ريـــعُ الهَـــوَى
كَـــىْ مـــا يقـــولَ مُحَـــدّثُ لِجليسِـــهِ ... كَـــذَبُوا عَلَيهْـــا والَّـــذي سَـــمَكَ العُلَـــى
قالـــتْ لأَ تـــرابِ نَـــواعِمَ حَوْلَهَـــا ... بِـــيْضِ الوُجـــوهِ خَرائِـــدٍ مِثْـــلِ الـــدُّمَى
بـــــاللهِ رَبِّ مُحَمّـــــدٍ حـــــدِّثْنَني ... حَقّـــاً أَمـــا تَعْجَـــبْنَ مِـــنْ هـــذا الفَتـــى
الـــدّاخِلِ البَيـــتَ الشَّـــديدَ حِجابُـــهُ ... فـــي غَيْـــرِ مِيعـــادٍ أمـــا يَخْشَـــى الـــرَّدى
فأجَبْتُهـــــا إنَّ المُحِـــــبَّ معَـــــوَّدٌ ... بلقـــاءِ مِـــنْ يهـــوى وإنْ خـــافَ العـــدى

ذكر الشاعر في البيت الأوَّل، أنَّه دخل بيت محبوبته ليلاً، بعد ليلةٍ ماطرة، وهي من أطيب الأوقات عند العرب، لا سيما إذا كانت بها امرأة حسناء ، وأحسب أنَّ الشاعر نظر في بيته الأوَّل إلى أبيات المُنخل اليَشْكرى[3]، حيث يقول:[4]

---

[1] المصدر نفسه ، ص43
[2] المصدر نفسه ، ص8
[3] شاعر جاهلي، كان ينادم النُّعمان بن المُنذر، وهو الَّذي سعى ليفسد بين النَّابغة الذُّبياني والنُّعمان بن المُنذر في أمر (المُتجردة) مات حرقاً، ينظر، الأعلام، 7/ 291
[4] الأصمعي : عبد الملك بن قريب بن عبد الملك (الأصمعيات) تحقيق وشرح : أحمد مُحمد شاكر وعبد السلام هارون ، ط 5 ، بيروت لبنان ، ص 60

وَلَقَـــدْ دَخَلْـــتُ عَلـــى الفَتَـــا ... ةِ الخـــدرَ فـــي اليَـــومِ المَطيـــرِ
الكاعِـــبِ الحســـناءِ تـــرْ ... فُـــلُ فـــي الـــدِّمقسِ وفـــي الحَريـــرِ
فَـــدَفَعْتُهَا فَتـــدَافَعَتْ ... مَشَـــيَ القَطـــاةِ إلـــى الغَـــدِيرِ
ولَثِمْتُهـــا فَتَنفَّســـتْ ... كَتَـــنفّسِ الظَّبـــي البهِيـــرِ

يصِف عمر بن أبي ربيعة المرأة الَّتي وجدها؛ بأنَّها (حُرَّة) فكان لا يُغامِرُ إلّا مع الحرائر من النِّساء ، وهذه المرأة قد تزينت بذهب أحمر مثل جمر الغضا ، والعرب كانت تصف حُمْرةَ الذَّهب بجمر الغضا ، يقول سُحيم عبد بني الحسَّحاس[1] : [2]

وَجيـــدٍ كَجيـــدِ الـــرَّيم لَـــيْسَ بِعاطِـــلٍ ... مـــن الـــدُّرِّ والياقوتِ والشـــذْر حَالِيـــا
كـــأنَّ الثُّريَّـــا عُلِّقـــتْ فـــوقَ نَحْرِهـــا ... وجَمْـــرَ غَضـــىً هَبَّـــت لـــه الـــرِّيحُ ذَاكِيـــا

عمد الشاعر في البيت الثالث إلى حِيلة ذكية ، بحيث أنَّه أعرض بنظره عنها ذَباً للشبهةِ، وتشتيتاً للوشاة ، وذلك في قوله : " منحتُ طرفي غيرها ... " وهذا البيت يشبه بيتاً آخر في رائيته، حيث يقول:[3]

إذا جئـتَ فـامنح طـرفَ عينيـك غيرنـا ... لكـي يحسـبوا أنَّ الهـوى حيـث تنظُـرُ

ثُمَّ نعت صويحباتها في البيت السادس، بأنهُنَّ نَواعِمَ ، بيض الوجوه ، خرائدَ، يُشْبِهْن الدُمى ، ونظر في هذا البيت إلى النَّابغة الذُّبياني، في نعته للمُتجرِّدة ، إذ يقول:[4]

أو دُمْيَـــةٍ مِـــنْ مَرْمَـــرٍ مَرفوعـــةٍ ... بُنْيَـــتْ بـــآجُرٍ يُشـــادُ وقِرْمَـــدِ

ويختتم الشاعر قصيدته، بأنَّ الَّذي قاده إلى هذا الصنيع ، هو شدَّة الحُبِ والوجد، والناظر إلى دِيوانه ، يجد أنَّ غزله الحسي أكثر من أنْ يُحصى في هذا المبحث ، وحسب الباحث مِثالاً أخيراً يكتفي به، وهو قوله:[5]

---

[1]شاعر مُخضرم مُشهور عبداً نوبيا أعجمي الأصل، أدرك النَّبيَّ ﷺ ولم يعرف له صحبه تمثل النَّبيﷺ بشِعره قُتِل في خِلافة عثمان رضي الله عنه لتشبيبه بالنِّساء، له دِيوان شِعر، ينظر، الخِزانة، 1/ 272

[2] دِيوان سُحيم بن بني الحسَّحاس ، ص17

[3] دِيوان عمر بن أبي ربيعة ، ص 66

[4] دِيوان النَّابغة الذُّبياني ، ص 93

[5]- دِيوان عمر بن أبي ربيعة ، ص26

فبـــات وســـادِي ثنـــى كَـــفٍّ مُخَضَـــبٍ مُعـــاوِدَ عَـــذْبٍ لَـــمْ يُكـــدَّر بِمَشْـــرَبِ
إذامِلْـــتُ مِالـــتْ كَالكَثِيـــبِ رَخيمـــةٌ مُنَعَّمَـــــةٌ حُسَّـــــانَةُ المُتَجَلْبَـــــبِ

لقد نظر الشاعر في البيت الأوَّل إلى قول سُحيم عبد بنى الحسَّحاس : [1]

تُوَسِّـــدُنِي كَفَّـــاً وَ تَثْنـــى بِمِعْصَـــمٍ عَلَـــيَّ وَتَحْـــوِى رِجْلَهَـــا مِـــنْ وَرَائِيـــا

ونظر في البيت الثاني إلى قول امرئ القيسِ[2] في مُعلقتِهِ : [3]

تَقُـــولُ : وَقَـــدْ مَـــالَ الغَبَـــيطُ بِنَـــا مَعـــاً عَقْـــرتَ بَعيـــرِي يـــا امْـــرأ القـــيسِ فـــانْزِلِ

أي: تقول وقد مال الهودج بهما ؛ وذلك لأنَّهما صارا في شقٍ واحدٍ

اتخذ عمر بن أبي ربيعة من موسم الحجِّ معيناً لغزلة بالحاجات المُتنسكات لبيت الله الحرام ، يقول في ذلك : [4]

يَقْصِـــد النَّـــاسُ للطـــوافِ احتســـابا وذُنـــوبي مَجْمُوعـــةٌ فـــي الطَّـــوافِ

لقد فاق شاعرنا أهل الجاهلية في غزله بالمُتنسكات لبيتِ الله الحرام ، فكان الجاهلي لا يُشبب بالمُتنسكات ، ويُعرض عن اللهو والغزل إذا تنسك ، ومن ذلك حوار النَّابغة الذُّبياني مع فتاةٍ لامته عن الإعراض عنها لتنسكه : [5]

قالـــتْ : أراكَ أخَـــا رَحْـــلٍ وراحِلـــةٍ تَغشَـــى مَتـــالِفَ لَـــنْ يُنْظرْنَـــكَ الهَرمَـــا [6]
حَيَّـــاكِ رَبِّـــي فإنَّـــا لا يَحَـــلُّ لَنَـــا لَهْـــوُ النِّســـاءِ ، وأنَّ الـــدِّين قـــد عَزَمـــا
مُشَـــمِّرين علـــى خـــوصٍ مُزَمّمـــةً نَرْجُـــو الإلـــه ، و نرجُـــو البـــرَّ والطُّعَمـــا

---

[1] دِيوان سُحيم عبد بني الحسَّحاس، ص20

[2] امرؤ القيس بن حجر الكندي، شاعر جاهلي، يماني الأصل، تنقل بين البلاد المختلفة لأخذ ثأر أبيه من بني أسد الَّذين قتلوا أباه، كان ماجناً فاتِكاً سِكيراً وهو صاحب المُعلقة وله ديوان شِعر، لُقِبَ (بذي القروح والملك الضِّليل) ينظر، الأعلام، 2/ 11- 12

[3] الخطيب التبريزي أبو زكريا" شرح القصائد العشر " ط2 ،1352ه ، ص 18

[4] شوقي ضيف ، العصر الإسلامي ، ص 350

[5] دِيوان النَّابغة الذُّبياني ، ص62

[6] الدّين : هنا بمعنى الحج . الخوص . الإبل الغائرة العيون . مُزممة : عليها أزمتها . الطُّعَم : الرزق . البر : الحجّ.

ومن مظاهر التجديد في شِعره ؛ أنَّه جعل محبوباته يُشببن به ونادراً ماكان يُشببُ بِهنَّ، ويرجع ذلك لعُجْبِهِ بنفسه ، ولمحاكاته أساليب القرءان الكريم ، ففي القرءان الكريم صورةٌ لنِساء عاشقات للرجال ، الأمر الَّذي غاب عن الشُّعراء الجاهليين في غزلهم . يقول د. عبد الله الطَّيب : "إن القرءان لم يذهب مذهب الشِّعر الجاهلي في جعل المرأة مصدراً و مركزاً للحنين والشهوات فقط ، ولكنَّه جعلها تتحدث حديثاً طبيعياً قوياً مُؤثراً ، ففي سورة يوسف تجد صورةَ امرأةٍ مُحِبة ، وهذا مذهب لم تألفه العرب في شِعرها الجاهلي ، إذ فيه أبداً المرأة المحبوبة المطلوبة ... " [1]

ومن هذا الضَّرب ، قول عمر : [2]

قَــدْ حَلَفَــتْ لَيْلَــةَ الصَّــوْرَيْنِ جَاهِــدَةً وَمَــا عَلَــى المَــرْءِ إلَّا الحلــفُ مُجْتَهِــدا
لأُختهــا ولأُ خــرَى مِــنْ مَناصــفِهَا لقَــدْ وجَــدتُ بــه فــوقَ الَّــذي وَجَــدا
لــو جُمِّــع النَّــاسُ ثُــمَّ اخْتِيــرَ صَــفْوهُمُ شَخصــاً مِـنْ النَّـاسِ لَـمْ أَعْـدِل بـه أَحَـدا

لقد صور عواطف النِّساء ، ومجالسهنَّ ، وحوارتهنَّ ، وكيف يتهالكن وجداً عليه ويسعين لاسترضائه حين ينصرف عنهنَّ ، ومن ذلك قوله : [3]

قالــتْ: علــى رِقْبــةٍ يومــاً لجارتهــا مــا تــأمرين ،فــإن القلــب قــد شُــغِلا
فجاوبتْهــا حَصــانٌ غيــر فاحشــةٍ برَجْــعِ قــولٍ وأمــرٍ لــم يكــن خطِــلا
إقْنَــى حيــاءَكِ فــي سِــتْرٍ وفــي كــرمٍ فَلســت أوَّلَ أُنثــى عُلِّقَــتْ رجــلا
لا تظهــري حُبَّــه حَتَّــى أراجعــه إنــى ســأكفيكه، إنْ لــم أمــتْ عَجِــلا

وله أبيات قليلة جداً يشكو فيها من هجر النِّساء ، واتخاذهنَّ خليلاً غيره ، إذ يقول: [4]

عُلِّقْتُهــا ناشِــئاً وَعُلِّقــت رَجُــلاً غَيْــرِي غَــضَّ الشَّــبابِ كالغُصُــنِ
وعُلِّقَتْنــى أُخــرى وعُلِّقهــا نــاشٍ يَصــيدُ القُلــوبَ كالشَّــطنِ [5]

---

[1] عبد الله الطِّيب " الحماسة الصغري " الدَّار السُودانية ، ص 95
[2] ديوان عمر بن أبي ربيعة ص 58
[3] شوقي ضيف ، العصر الإسلامي ، ص 351
[4] شرح دِيوان عمر بن أبي ربيعة ، محمد محي الدِّين عبد الحميد مطبعة السعادة مصر ، ط1 ، 1925 م ، ص223
[5] الشطن : الحبل.

إلى أنْ يقول :

آثـــــرتِ غَيْـــــري عَلـــــيَّ ظالِمَـــــةً اللهُ بَيْنـــــــي وَ بَيْـــــــنَكُمْ سَـــــــكْنِي

البيتان السابقان يسِيران على نهج الأعشى[1] في مُعلقته ، إذ يقول :[2]

عُلِّقتُهـــا عَرَضـــاً وَ عُلِّقَـــتْ رَجُـــلاً غَيْـــرِي و عُلِّـــقَ أُخْـــرَى غَيْرَهَـــا الرَّجُـــلُ

ومن أبياته الَّتى سلك فيها مسلك العُذريين ، و أخلص لحبيبة واحدةٍ ، قوله : [3]

لا أصْـــرِفُ الـــدَّهْرَ وُدّى عنـــك أَمْنَحُـــهُ أُخـــرى أواصِـــلُها مـــا أورَق الشـــجرُ

أنْـــتِ المُنـــى و حَـــديثُ الـــنَّفسِ خاليـــةً وَفِـــي الجَميـــعِ وَأنـــتِ السَّـــمْعُ والبَصـــرُ

وفي موضع آخر يشكو من تباريح الهوى ، والوجد ، وأسر الفؤاد ، في سبكٍ جميلٍ ، يُشْبِهُ قول المجنون في ليلى وجميل في بُثينة ، إذا يقول:[4]

فيـــا نُعـــمُ ،قَلبـــي فـــي الأســـارَى إلـــيْكُمُ رَهِـــينٌ، وَقَـــدْ شَـــطَّ المـــزارُ بكُـــمْ عنـــي

قَـــدَرْتِ علـــى نَفْعـــى وَ ضُـــرِّى فـــأجمِلى وَفُكِّـــي بِمَـــنْ مِـــنْ إســـارِكُمُ رَهْنـــي

ومن عجيب أثر الحُب ، قوله:[5]

مـــا كُنْـــتُ أشـــعُرُ إلاَّ مُـــذْ عَـــرَفْتُكُمُ أنَّ المضـــاجعَ تُمْسِـــي تُنِبـــتُ الإبَـــرا

قد خاطب عمر بن أبي ربيعة النِّساء خِطاباً فاق به أقرانه العُذريين ، ومن ذلك قول جميل بن مَعْمَر لَمَّا أسمعه عمر قصيدته الَّتي مطلعها :

جـــرى ناصـــح بـــالودِّ بينـــي وبينهـــا فَقَرَّبنـــي يـــوم الصـــحاب إلـــى قتلـــي

" هيهات يا أبا الخطاب، لا أقول مثل هذا سَجِيسَ[6] الليالي والله ما خاطب النِّساءَ مثلك أحدٌ"[7]

---

[1] ميمون بن قيس الأعشى، لقب بصناجة العرب؛ لحسن شِعره، من أصحاب المُعلقات، يقال له أعشى بكر، أدرك الإسلام ولم يسلم، كان أبوه يلقب ب(قاتل الجوع) ينظر، الخِزانة، 1/ 85

[2] الخطيب التبريزي (شرح القصائد العشر) ص 293

[3] دِيوان عمر بن أبي ربيعة ، ص 71

[4] شرح دِيوان عمر بن أبي ربيعة ، ص221

[5] دِيوان عمر بن أبي ربيعة ، ص 91

[6] سجيس اللَّيالي : أي أبد اللَّيالي قال الشنفرى :

هنالك لا أرجو حياةً تسرنى سجيس اللَّيالي مُسبلاً بالحرائِر

[7] شرح دِيوان عمر بن أبي ربيعة ص26 .

العرجى:

ومن الَّذين اشتهروا بالغزل الحضري العرجِى[1] نحا فيه طريقة عمر بن أبي ربيعة وتشبَّه به فأحسن وأجاد. ويختلف عن عمر بن أبي ربيعة في أمور منها: "ما كان مشغوفاً بالَّهو والصَّيد، وكانت فيه فروسية ، حتَّى عُدَّ من الفرسان ، ثُمَّ اجتذبته حُروب مسلمة بن عبد الملك بأرض الروم ، فأبلى فيها بلاءً حسناً"[2] ونراه يتغزل بالنِّساء المُتزوجات ، إذ اتخذ الغزل وسيلة للهجاء ، ومن ذلك غزله بجبرة المخزومية وجيداء بنت عفيف ليفضح مُحمد بن هشام المخذومي ، في زوجه وأمَّه ، إذ يقول : [3]

عـــوجي علـــيَّ فســـلِّمى جَبْـــرُ فـــيم الصُّـــدودُ وأنـــتمُ سَـــفْرُ

وهو بهذا الغزل السِّياسي يلتقى مع الرقيَّات، الَّذي جعل الغزل ضربُ من ضروب الهجاء السِّياسي لبنى أُميَّة .

ويتفق العرجي مع ابن أبي ربيعة في تغزله بالفتيات المُتنسكات للحجِّ، يقول في إحداهنَّ وقد سفرت عن وجه جميل : [4]

أماطـتْ كسـاءَ الخَـزِّ عـن حُـرِّ وجههـا وأدنـت علـى الخـدَّين بُـرْداً مُهَلْهَـلا
مـن الـلَّاءِ لَـمْ يَحْجُجْـنَ يبغـينَ حِسـبَةً ولكـن ليقـتلنَ البـرئَ المُغفَّـلا

وهذا ضرب من ضروب الغزل المادي ؛ لا يصف الشاعر من محبوبته إلَّا الجمال الِحسي الَّذي يترك في نفسه أثراً عميقاً .

وكان العرجي يختلف إلى دار جميلة المُغنية ، فتُغني له شِعره على نحو قوله [5]

ألا قاتـلَ اللهُ الهـوى كيـفَ أخْلَقـا ولـم تلفـه إلَّا مَشـوباً ممـذَّقا
ومـا مِـنْ حبيـبٍ يسـتزيد حبيبـه يُعاتبـهُ فـي الـودِّ إلَّا تفرَّقـا

---

[1] العرجي لقبه وهي ضيغة كانت له قُرب الطائف ، واسمه عبد الله بن عمرو بن عفَّان بن أبي العاصي ، وُلِدَ سنة 75 هـ واشتهر بالغزل والمديح وربط صاحب الحماسة شُهرته بشُهرة عمر بن أبي ربيعة ، توفي سنة 120 هـ ،ينظر، دِيوان العرجي ،تحقيق وجمع: سجيع جميل الجبيلي ، دار صادر بيروت ، ط1 ، 1998 م ، ص 10 – 17

[2] شوقي ضيف ، العصر الإسلامي، ص 357

[3] دِيوان العرجي ، ص 232

[4] المصدر نفسه ، ص 285-286

[5] شوقي ضيف ، العصر الإسلامي، 268-270

فقـد سَـنَّ هـذا الحـبَّ مَـنْ كـان قبلنـا وقـاد الصِّـبا المـرءَ الكـريمَ فأَعْنقـا

تنم هذه الأبيات عن تجربة ناضجة في الحُب والغزل ، بعيدة الغور في نفوس النِّساء والعُشاق ، ظهرت في ثوبٍ حِكمي ، فالشاعر في هذه الأبيات " حَكيم العُشاقِ والمُحبين "

لقد وجد أهل الغِناء والطَّرب في شِعره مادةً وفيرةً ، شغلت السامع والمُغَنِى ، ومن هذا الضَّرب أشعاره في جبرة المخزومية ، حين رأها وهي نافرة من مِنىً فقال:[1]

عُـوجِي عَلَـيَّ وَسَـلِّمي جَبْـرُ فِـيمَ الصُّـدودُ ؟ وأنـتُمُ سَـفْرُ
لا نَلْتَقـى إلا ثَـلاثَ مِنـىً حَتَّـى يُشَـتِّتَ بَيْنَنَـا النَّفْـرُ
بالشَّـهرِ بعـدِ الحـولِ نتبعـه مـا الـدَّهرُ إلا الحَـوْلُ والشَّـهرُ

هذه الأبيات غناها ابن سريج[2] على جمرة العقبة ثاني أيام منى ، فقطع الطريق حتَّى تكسّرت الحوامل[3]

لقد تفنن العرجي في وصف المرأة تفنناً تقدم به على أهل طبقته ، عدا عمر بن أبي ربيعة فهو الفحل الَّذي لا يقارع .

ومن غزله المكشوف الَّذي صور فيه مجالس النِّساء ، وشبه نفسه بالسقيم والصَّبى ، و كلاهما يحتاجان إلى عطف ورقةٍ ، وهذا ما يرومه الرجل من المرأة ، إذ يقول : [4]

فَبِـتُّ صَـريعاً بَيْـنَهُنَّ كـأنَّنِي أخُـو سَـقَمٍ تَحْنُـو عليـهِ العَوَائِـد
يُفَـدِّيَننى طَـوْراً ، وَ يَضْـمُمْنَ تـارةً كمَـا ضَـمَّ مَوْلُـوداً إلـى النَّحْـرِ وَالِـدُ

لا ينسى العرجي أنَّه فارس بُهْمٌ يمتلك حُساماً لا يفارقه ، حتَّى وهو يتسلل إلى خِباءِ محبوبته كي يغامر معها ليله ذاك ، إذ يقول : [5]

---

[1] دِيوان العرجي، 232
[2] مولى من بني نوفل، أبو يحيى، وُلِدَ بالمدينة سنة20هـ، مغني كان يغني مرتجلاً، عاش في الكُوفة، وهو أوَّل من ضرب بها العود، مات سنة 98هـ، ينظر، الأعلام، 4/ 194
[3] ديوان العرجي ، 232
[4] المصدر نفسه ، 209- 210
[5] المصدر نفسه ، 295

وَكَـــمْ لَيْلَـــةٍ طَخْيـــاءَ سَـــاقِطةِ الـــدُّجى تَهُـــبُّ الصِّـــبا فيهَـــا مِـــراراً وَتشْـــمُلُ
لِحُبّـــكِ أُسْـــرِيها وحُبّـــكِ قَـــادَني إليـــكِ مَـــعَ الأهْـــوالِ ، والسِّـــيفُ مُخضِـــلُ

يلتقى الشاعر مع امرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة في المُغامرة مع النِّساء ، لا سيما رائية عمر بن أبي ربيعة ، ومنها : [1]

فَـــواللهِ مَـــا أَدْرِي أتَعْجِيـــلُ حاجَـــةٍ سَـرَتْ بِـكَ أَمْ قَـدْ نَـامَ مَـنْ كُنْـتَ تَحْـذَرُ
فَقُلْـتُ لَهـا: بـل قَـادَنِي الشـوقُ وَ الهـوىَ إلَيْـكِ وَمَـا نَفـسٌ مِـن النَّـاسِ تَشْـعُرُ
فَقَالَـــت: وَقَـــدْ لَانَـــتْ وَأفـــرَخَ رَوْعُهـــا كَـــلاكَ بِحْفـــظٍ رَبُّـــكَ المُتَكَبِّـــرُ

وله أشعار سلك فيها مسلك العُذريين ، من صفا الحُب ونقا السريرة ، والإخلاص إلى حبيبةٍ واحدةٍ ، وتغلغل الحُب في الجسد ، والرضا من حبيبته بالقليل ، ومن ذاك قوله : [2]

أَلَـــمْ تَعْلَمِـــي أنْ رُبَّ باذِلَـــةٍ لنَـــا هَوَاهَـــا ، فـــلا أَدْنـــو لَهَـــا ، فتُصـــانِعُ
عَلَـــيَّ ، وإنِّـــي بالقَليـــلِ مـــنَ الَّـــذي لَـــدَيْكِ وَلَـــو صَـــرَّدتِهِ لِـــي قَـــانع

فهو يقنع من المحبوبة بالقليل ولو قطعته ، وهذا مسلك عُذري سبقت الإشارة إليه في أبيات المجنون ومنها : [3]

وإنِّـــي لارَضـــى مِـــنْ بثينـــةَ بالَّـــذي لَـــوْ أبصـــره الواشـــي لقـــرتْ بلابلـــهْ

لقد ساط الحُبُ لحمه ودمه وتغلغل في فؤاده ، تغلغل الخمر في جسم شاربها ،وتغلغل السُم في جسد اللديغ ، إذ يقول : [4]

وأُشْـــربَ جِلْـــدي حُبَّهَـــا وَمشَـــي بِـــهِ تَمَشِّـــي حُمَيَّـــا الكـــأسِ فـــي جِلـــدِ شَـــارِبِ
يَـــدِبُّ هَواهَـــا فـــي عِظـــامِي وَ حُبُّهَـــا كمـــا دَبَّ فـــي المَلْـــدُوغِ سُـــمُّ العَقَـــارِبِ

[1] دِيوان عمر بن أبي ربيعة ، ص 125-126
[2] دِيوان العرجي ، ص260
[3] دِيوان مجنون ليلى ،ص 176
[4] دِيوان العرجي ، ص185

أحسن الشاعر في وصفه للحُب بالذَّة المُتمثلة في " الكأس " والعذاب المُتمثل في" سُمّ العقارب " فالحُب (لذَّة وعذابٌ) فهو لذَّة عِند اللقاءِ ، وعذابٌ عند الفِراق .

وكانت العرب تطلِق مع الكأس (اللذة) ومن ذلك قول الأعشى في المُعلقة : [1]

لَـمْ يُلْهِنـي اللَّهـوُ عَنْـهُ حِـينَ أَرْقُبُـهُ وَلا اللَّـذاذَةُ مـن كـأسٍ وَلَا شُـغُلُ

والشاهد علَى أنَّ العذاب عند الفِراق أشعار العرب ، ومنها تصوير ما يحل بالقلب عند الفِراق من ألم ، يقول الراعي النُميرى : [2]

كأنَّمـا شُـقّ قلبـي يَـوْمَ فـارقهُمْ قسـمين : بـين أخـي نجـدٍ ومنحـدِرِ

لَمْ يحسن الشاعر في الشطر الأوَّل إذ يقول: " وأُشْرِبَ جِلدي حُبَّهَا " ولو قال : (وأُشْرِبَ جِسْمِي حُبها) لكان أتمَّ و أعمَّ وأوقع في النَّفس ؛ لأنَّ الجِسم يشمل الجِلد و العظم ، فحصل له التقصير من هذا الباب .

الأحوص

ومن الشُّعراء الَّذين سلكوا مسلك الغزل الصريح الأحوص [3] وهو مثل عمر بن أبي ربيعة عاش للحُب والغزل ، وكان شديد الصبابة يستأثر الحب بقلبه ويملك عليه كل شئٍ ، يقول في ذلك:[4]

إذا أنـتَ لَـمْ تَعشـق وَلَـمْ تَـدْرِ مَـا الهَـوَى فَكُـن حَجَـراً مِـنْ يَـابِسِ الصَّـخَر جَلمَـدا
فَمـا العَـيْشُ إلا أَنْ تَلـذَّ وَتَشـتهِي وإنْ لامَ فيـهِ ذو الشـنانِ وفنَّـدا

فكان الأحوص يتغزل بالإماء والمُغنيات ، يقول شاكياً إلى سَلَّامَة القس حُبه : [5]

وإذا شـكوتُ إلـى سَـلامَةَ حُبَّهـا قالـتْ : أجـدٌّ مِنـكَ ذا أمْ تمـزَحُ

---

[1] التبريزي : الخطيب أبي زكريا يحيى بن على "القصائد العشر" ط2 سنة 1352هـ،ص300
[2] دِيوان الراعي النُميري، جمعه وحققه:رينهرت فاييرث،المعهد الألماني للأبحاث الشرقية،بيروت ،لبنان،ص122
[3] عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم الأنصاري، من بني ضبة، شاعر هجاء وغزِل من طبقة جميل و نُصيب ، عاش في حقبة بني أُميَّة ، سكن المدينة ، نُفي إلى جزيرة " دهلك " لغزله الفاحش ، قدمه حماد على غيره في الغزل ، لُقِبَ بالأحوص ؛ لضيق في عينه توفى في دِمشق سنة 105 هـ ، ينظر، الأغاني ، 4/40-58 ، خِزانة الأدب للبغدادي، 232/1
[4] عادل سُليمان جمال " شِعر الأحوص الأنصاري " مكتبة الخانجي ، ط9 ، 1990 م، 121
[5] المرجع نفسه ، ص109

وله غزلٌ في الذّلفاء ضُرِبت له الأوتار ، واسْتَحَلقَ له السُمَّاعُ ، كقوله : [1]

إنَّمـــــا الـــــذَّلفاءُ هَمِّـــــي فَليـــــدَعْنِي مَـــــن يَلُـــــومُ
حَبَّـــــبَ الـــــذَّلفاءَ عنـــــدِى مَنْطِـــــقٌ مِنهـــــا رَخـــــيمُ
حُبُّهَـــــا فـــــي القَلـــــبِ دَاءٌ مُسْـــــــتَكِنٌّ لَا يَـــــــريمُ [2]

وأوفرٌ غزله في أمِّ جعفرٍ الأوسية ، الَّتي كانت تعرض عنه وتصده رغم تشبثه بها ، ومن هذا قوله:[3]

وإنّـــى ليـــدعوني هـــوى أمَّ جعفـــرٍ
وجاراتهـــا مِـــنْ ســـاعةٍ فأجيـــبُ
وإنَّـــي لآتـــي البيـــتَ مـــا إنْ أُحِبـــهُ
وأكثـرُ هَجْـرَ البيـتِ وهـو حبيـبُ

لقد قرض الأحوص الشِّعر اللاهي الَّذي سار فيه على نهج عمر بن أبي ربيعة ، في وصف المحاسن الحِسية للمرأة ، إذ يقول : [4]

رَامَ قلبـــي السُّـــلوَّ عـــنْ أَسْـــمَاءَ وَتعـــزَّى ومَابِـــهِ مِـــنْ عـــزاءِ
سُـــخْنَةٌ فـــي الشِّـــتاء بـــارِدةٌ الصَّـــ يـــف سِـــراجٌ فـــي الليلـــة الظّلْمـــاءِ

تشبه هذه الأبيات ، غزل عمر بن أبي ربيعة ، في هند الَّتي يقول فيها:[5]

طَفلَـــــةٌ بَـــــارِدةُ القَـــــيظِ إذا مَعْمعـــانُ الصَّـــيفِ أَضـــحى يتَّقِـــد [6]
سُخْنَة،المَشْـــتى لِحـــافٌ للفَتَـــى تَحـــتَ لَيـــلٍ حـــينَ يَغشَـــاهُ الصَّـــرَدْ[7]

ومن أشعاره الَّتي نهج فيها نهج العُذريين ، من تهالك الصبابة وسلب العقل والفؤاد ، وسح الدَّمع ، وكل ذلك أثر من أثار الحُب ، وسِمة من سِمات العُذريين ، وخير شاهد يساق، قوله:[8]

---

[1] شِعر الأحوص،ص239-240
[2] يريم: يبرح.
[3] عادل سُليمان : " شِعر الأحوص " ص94
[4] عادل سُليمان (شِعر الأحوص)ص87
[5] دِيوان عمر بن أبي ربيعة ، ص54
[6] معمعان الصيف : حرارته.
[7] الصَّرد : البرد.
[8] عادل سُليمان : " شِعر الأحوص الأنصاري " ص126-127

أبغَضْـــتُ كُـــلَّ بـــلادٍ كُنـــتُ آلفُهـــا فَمَـــا أُلائِـــمُ إلَّا ارضَـــهَا بَلـــدَا
يـــا للرجـــالِ لمقتـــولِ بـــلا تِـــرةٍ لا يأخـــذُونَ لـــهُ عقـــلاً وَلا قـــودا [1]
مـا تُـذْكرُ الـدَّهر لـي سُـعْدى وانْ نَزَحَـتْ إلَّا تَرَقَـــرقَ مَـــاءُ العـــين فـــاطّرَدَا
ولا قـــرأتُ كِتَابـــاً مِنـــكِ يبلغُنـــي إلَّا تنفســـتُ مِـــنْ وَجـــدٍ بِكُـــمْ صَـــعدا

يُصرِّح الشاعر بأنَّ سبب البُكاء التذكر، على نهج العُذريين ، الَّذين ما يفتؤون يريقون الدُّموع وجداً وصبابة على محبوباتهم ، قال الصِّمّةُ القُشيرى : [2]

بكَـــتْ عيْنـــي اليُمْنَـــى فَلَمَّـــا زجَرْتُهـــا عَـــنْ الجَهـــلِ بَعـــدَ الحِلـــمِ أَسْـــبَلَتا مَعَـــا

وله أشعار تُصور صُعوبة اللقاء ، إذ أن سبيل الحبيبة مُرصداً بالرقباء و الوشاة ، يقول في ذلك : [3]

مـــن عاشـــقين تراســـلا وتواعـــدا بلقـــا ، إذا نجـــمُ الثُّريـــا حلقـــا
بعثـــا أمامهُمـــا مخافـــةَ رقبـــةٍ رصـــداً ، فمـــزق عنهمـــا مـــا مزَّقـــا
باتـــا بـــأنعمِ ليلـــةٍ وألـــذَّهاً حتَّـــى إذا وضـــحَ الصَّـــباحُ تفرَّقـــا

وبرغم من أنَّ الشاعر من شعراء الغزل اللاهي أو الغزل الصريح ،فقد جاءت له أشعارٌ تكشفُ عن خُلقٍ رفيع وأدبٍ جمٍ ، للإسلام فيه أثر ، إذ يذب عن حوض جارته وذلك تنفيذاً لأمر الله تعالى ، يقول في ذلك : [4]

ثِنْتَـــان لا أدْنُـــو لِوَصْـــلِهمَا عِـــرسُ الخليـــلِ ، وَجَـــارَةُ الجَنْـــبِ
أمّـــا الخَليـــلُ فلَسْـــتُ فَاجِعَـــهُ وَالجـــارُ أَوْصَـــانِي بِـــهِ رَبِّـــي

ثانياً : فن النقائض :

يعود فن النقائض إلى العصر الجاهلي ، فقد كانت القبائل المتحاربة تتراشق بالشِّعر كما تتراشق بالنبل . " وقد وصلت إلينا بعض هذه النقائض الَّتي تتصل بأيام الجاهليين ووقائعهم ، كالَّتي قِيلت

[1] العقل : الدِّية . القود : القصاص يعني: أنَّ قتيل الحُب لا قود ولا قصاص له .
[2] شرح دِيوان الحماسة لأبي تمام ، ص 853
[3] دِيوان الأحوص ، ص204
[4] عادل سُليمان : " شِعر الأحوص الأنصاري " ص 102

في الوقائع الَّتي دارت بين عرب الجنوب وعرب الشَّمال ، وبين الأوس والخزرج ، وبين عبس وذبيان، وبين بكر وتغلب ، ونقائض النَّابغة الذُّبياني وعامر بن الطُفيل ، وغيرها " [1]

ثُمَّ جاء الإسلام وكان شعراء المُسلمين والمُشركين يتناقضون بالشِّعر ، وَلَمَّا انقسم المُسلمون إلى أحزاب كان شعراء كل حِزب يتناقضون كالتناقض الَّذي مرّ من قبل ، بين كعب بن جُعيل المُناصر لمُعاوية والنجاشي المُناصر لعليٍّ بن أبي طالب .

على أنَّ النقائض لم تزدهر إلا في العصر الأُموي ، الَّذي استيقظت فيه العصبيات ، وانضمت إلى العوامل القبلية عوامل سياسة ، واجتماعية ، واقتصادية ، ساهمت في ازدهار هذا الفن ، وشيوعه شيوعاً عظيماً .

النقائض لغة: " جمع نقيضة من نقض البناء إذا هدمه، و نقض الحبل إذا حله ، ونقض العهد إذا تحلل منه ، ونقض فلان كلام فلان إذا أثبت بُطلانه . كُلّ هذه المعاني نجدها في القصيدة الثانية حيث ينقض الشاعر القصيدة الأولى .

النقائض اصطلاح : لون من ألوان الهجاء و التحدي بين شاعرين يبدأ أحدهم فيهجو الآخر فيفاخر بوزن خاص وقافية خاصة فيردَّ عليه الآخر بنفس الوزن والقافية ، وحركة الروى ، وقله أن تختلف حركة الروى " [2]

من هذا التعريف يتضح لنا التباين بين النقيضة في العصرين السابقين للعصر الأُموي ، حيث كان الشاعر لا يلتزم البحر ، والقافية ، والروي ، ولا ينقض معاني خصمه معنى معنى .

لقد ولج هذا الفن جماعة من الشُّعراء الأُمويين منهم : ليلى الأخيلية الَّتي كانت تناقض النَّابغة الذُّبياني ، وزفر بن الحارث القيسي وغيرهم ، ويُعدّ جرير والفرزدق والأخطل أبرز من نهضوا بهذا الفن .

لقد كان لحكام بني أُميَّة اليد الطولا والسَّهم الوافر، في إشعال نار النقائض ، وتشجيع الشُّعراء تجاهها؛ وذلك لصرفهم عن أمور السُلطان و السِّياسية. ومن ذلك القصة الَّتي يرويها صاحب

[1] دِراسات في أدب ونصوص العصر الأُموي ، ص49
[2] المرجع نفسه ، ص52

الأغاني إذ يقول : " إنَّ سُراقة البارقي هجا جريراً والفرزدق ، وحمل والى العِراق بِشر بن مروان أبيات سُراقة إلى جرير وأمره أنْ يُجِيْبَ عنها . والأبيات هي : [1]

إنَّ الفـــــرزدقَ بَـــــرزَت أعراقـــــه عفـــواً وغُـــودِرَ فـــي الغبـــارِ جريـــرُ
ماكنـــتَ أول مِجْمَـــرٍ قعـــدتْ بـــه مســـــعاتُه إنّ اللئـــــيمَ عثـــــورُ[2]
هـــــذا قضـــــاءُ البـــــارقيّ وإنّـــــه بالميـــــلِ فـــــي ميـــــزانكم لبَصِـــــيرُ

فأجابه جرير :

يـــا بشـــرُ حَـــقَّ لبِشْـــرِكَ التبشـــيرُ هَـــلّا غضـــبتَ لنـــا ،وأنـــتَ أميـــرُ
قـــد كـــان حقـــك أنْ تقـــولَ لبـــارِقٍ يـــا آلَ بـــارق فـــيم سُـــبَّ جريـــرُ
يُعطـــى النّســـاءَ مُهُـــورهنّ كرامـــةً ونِســـاءُ بـــارقَ مـــالهنَّ مُهـــورُ

فأخذ الرسول الأبيات ومضى بها إلى بِشر ، فقرئت عليه ، وأُفحِم سُراقة فلم ينطق بعدها بشيءٍ .

هذه القصة وأمثالها تدل على أنَّ الحُكام كانوا يشغلون الرعيَّة عن أمور الحكم بالشِّعر، والملاهى الأخرى: كالغِناء، والعصبيات القبلية، وغيرها.

إنَّ للسِّياسة رحماً في إنتاج النقائض وازدهارها. كما أنَّ للحياة العقلية والاجتماعية أثراً في إذكائها وإشتعال نارها بين الشُّعراء.

لقد قامت النقائض على غرضين هما: "الفخر والهجاء" أمَّا الفخر: فكان يقوم على، رفعة الحسب والنسب والأيام، وغيرها من الدّواعي الَّتي يُتمدّحُ بها. وللفرزدق القِدح المُعلى في هذا الباب. ونجدهم أحياناً يجمعون بين الهجاء والمدح كما عند جرير الَّذي أكثر من هجاء الشُّعراء وقِيل إنَّه هجا أكثر من سبعين شاعراً وهزمهم، وكان من بينهم الراعي النُميري، قال جرير في هجائه:[3]

لنـــا حـــوضُ النّبـــيِّ وســـاقِياه ومَـــنْ ورِثَ النبـــوَّةَ والكِتابـــا
إذا غَضـــبتْ عليـــكَ بنـــو تمـــيمٍ حَسِـــبتَ النَّـــاسَ كُلُّهُـــم غِضَـــابا

[1] الأغاني (دار الكُتب) 18/8 ، 19.
[2] المجمر: اللئيم.
[3] خِزانة الأدب، 72/1 ، 73 دِيوان جرير، 64- 65

فغـــضَ الطـــرفَ إنَّـــكَ مِـــنْ نُميـــرٍ فَـــــلا كَعبـــــاً بَلغـــــتَ ولا كِلابـــــا

وقال الراعي، وهو يريد نقضها:[1]

رأيـــتُ الجَحْـــشَ جَحْـــشَ بَنِـــى كُلَيْـــبٍ تـــــيمٍ حَـــــوْلَ دِجْلَـــــةَ ثُـــــمَّ هَابَـــــا
فَـــــأوْلى أَنْ يَظَـــــلَّ العبـــــدُ يَطْفُـــــو بِحَيْـــــثُ يُنَـــــازِعُ المَـــــاءُ السَّـــــحابَا
وَلَـــــوْلا أَنْ يُقـــــالَ هَجَـــــا نُمَيْـــــراً وَلَـــــمْ نَسْـــــمَعْ لِشَـــــاعِرِهَا جَوَابَـــــا
رَغِبْنَـــا عَـــنْ هِجَـــاءِ بَنِـــي كُلَيْـــبٍ وَكَيْـــفَ يُشَـــاتِمُ النَّـــاسُ الكِلابَـــا

ثم كف ورأى أنْ لا يُجِيْبَ.

ويرجع أمر إمساكه عن مناقضة جرير، لنقص منزلته الشِّعرية في هذا الباب ، وكان لا يحسن الهجاء بل يحسن وصف الإبل ، وهو نفسه يُقر لجرير بالتفوق في هذا الضَّرب ، وذلك لَمَّا سَمِعَ راكباً يُغنِّي:[2]

وعـــاوٍ عـــوَى مِـــنْ غيـــرِ شـــيءٍ رميتُـــه بقارعـــــةٍ أنفاذُهـــــا تَقْطُـــــرُ الـــــدَّما[3]
خَـــــروجٍ بـــــأفواهِ الـــــرُّواةِ كأنَّهـــــا قَـــــرا هُنْـــــدُوَانِّي إذا هُـــــزَّ صَـــــمَّما

فسأل عن صاحب البيتين ، فقيل له جرير ، وقال : والله لو اجتمع الجن والإنس على صاحب هذين البيتين ما أغنوا فيه شيئا ، وهل أُلام على أن يغلبني مثل هذا الشاعر ؟

وأمَّا الهجاء : فكان يُجرّد الشاعر فيه صاحبه من الفضائل ، وينحو به إلى السخرية.

ومنه قول جرير يهجو عمراً بن لجأ[4] التميمي:[5]

قَـــومٌ إذا حَضْـــرَ المُلـــوكُ وفُـــودَهم نُتِفـــت شـــوارِبهُم لَـــدى الأبـــوابِ

ومن الصور المُضحكة الساخرة، قول الأخطل في هجاء جرير وقومه:[6]

---

[1] المرجع نفسه، 72/1، 73 ديوان الراعي النُميري، 17، 18
[2] أدب العصر الإسلامي ، 278 – 279
[3] أنقاذها : أي الطعنة . الخَروج : كثرة الانشاد . قرا : ظهر ومتن . صمما : قطع اللحم والعظم.
[4] شاعر أُموي، عاصر جريراً والفرزدق والأخطل، اشتهر بالهجاء، مات بالأهواز سنة 105هـ، ينظر، الأعلام، 5/ 59
[5] دِراسات في أدب ونصوص العصر الأُموى ، ص 68
[6] دِيوان الفرزدق، 166

قــومٌ إذا اســتنبحَ الأضــيافُ كَلْــبهمُ قَــالوا لأمّهْــم: بُــولي علــى النَّــارِ
فتمســك البــول بخــلاً أن تجــود بــه ومــا تبــول لهــم إلَّا بمقــدارِ

وهجا جرير الأخطل مُعيِّره بالنَّصرانية وشرب الخمر، وأكل لحم الخنزير، قائلاً:[1]

رجــسٌ يكــون إذا صَــلَّو أذانُهُــمُ قَــرْعُ النــواقيسِ مايــدرون مــا السُّــورُ
والمقرعــونَ علــى الخنزيــرِ مَيْســرَهُمْ بــئسَ الجــزورُ وبــئسَ القــومِ إذ يَسَــرُ
جــاء الرســولُ بــدينِ الحــقِ فــانتكثوا وهــل يضــيرُ رســولَ اللهِ أنْ كفــروا

خصائص شعر النقائض:

1- التأثر بالإسلام: نشأ الشُّعراء في بلاد إسلامية وكان لا بدّ أنْ يتأثروا بالقرءان وأسلوبه في أشعارهم ، ويظهر هذا التأثر في نقيضة الفرزدق المُسماة باسم (الفيصل) يقول الفرزدق:[2]

إنّ الَّــذي سَــمَكَ السَّــماءَ بنَــى لَنَــا بَيْتــاً دَعَائِمُــهُ أعَــزُّ وأطــوَلُ

اقتبس هذا البيت من قوله تعالى : "أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا"[3] ويقول فيها : [4]

ضَــرَبَتْ عَلَيْــكَ العَنْكَبُــوتُ بِنَسْــجِهَا وَقَضَــى عَلَيْــكَ بِــهِ الكِتَــابُ المُنْــزَلُ

نظر في هذا البيت لقوله تعالى : "مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ"[5]

2- توليد المعاني وابتكار الصور : " كان جرير يكرر في هجائه للفرزدق أربعة معانٍ وهي : قتل مجاشع للزبير ، والفرزدق قين وابن قين ، وهجاؤه لأخته جعثن ، و نبو السيف في يده حين ضرب الرومي . وأمَّا الفرزدق فكان يكرر: ذل أصل جرير ، ويرميه بأمه"[6] وكان جرير يهجو الأخطل بالنَّصرانية والصَّليب ، وشرب الخمر .

---

[1] دِيوان جرير، 200- 201
[2] دِراسات في أدب ونصوص العصر الأُموي، 77
[3] سورة النازعات الأية: 27 ، 26
[4] المرجع السابق، ص 77
[5] سورة العنكبوت الأية: 41
[6] دِراسات في أدب ونصوص العصر الأموي ، ص 80

يقول جرير في هجاء الفرزدق أنَّه قين وابن قين:[1]

حَـــدْرَاءُ أنكَـــرتِ القُيـــونَ وريحَهُـــم والحُـــــرّ يمنـــــعُ ضَـــيْمَهُ الإنكـــــارُ
لمَّـــا رأتْ صَـــدَأ الحديـــدِ بجِلـــدِهِ فـــــاللّونُ أوْرَقُ، والبنـــــانُ قِصـــــارُ

لقد أنكرت زوجة الفرزدق نتن ريحه، وسواد جلده، وقِصر أصابعه.
ويكرر جرير للفرزدق: قتل قبيلة الفرزدق الزُّبير بن العوام:[2]

قُتِـــلَ الزُّبيـــرُ وأنـــتُم جيرانـــهُ تبّـــاً لِمـــنْ قَتـــلَ الزُّبيـــرَ طَـــوِيلا

وأكثر جرير من ذكر حادثة نبو السَّيف في يد الفرزدق، عندما أُمِر أنْ يَضْرِبَ عنق الأسير الرومي، فضربه بالسَّيف ولم يقطع عنقه، وقِيل :إنَّ السَّيف كان رديئاً كهاماً لايقطع لحماً ولا يكسر عَظْماً، يقول جرير في ذلك : [3]

ضـــربتَ بـــه عنـــدَ الإمـــامِ فأُرْعِشَـــتْ يـــداك وقـــالوا: مُحْـــدثٌ غيـــر صـــارمِ[4]

وردّ عليه الفرزدق مُفتخراً بأصله:[5]

فهـــل ضـــربةُ الرومـــيِّ جاعلـــةٌ لكـــم أبـــاً عـــن كُليـــبٍ أو أبـــاً مِثْـــلَ دَارِمِ

3- الفخر بالأحساب والأنساب: أسرف الفرزدق في هذا الباب؛ لأنَّه وجد مادةً يبنى عليها صرحه ، ومعاول تهدم بناء الآخرين ؛ إذا كان رفيع النسب والحسب ، وَلَمَّا هجاه جرير بنقيضته الَّتي يقول فيها:[6]

مَهْـــلاً فَـــرزدَقُ إنَّ قَوْمَـــكَ فـــيهِمُ خَـــوَرُ القلـــوبِ وخِفَّـــةُ الأَحْـــلامِ

ردّ الفرزدق فاخراً بأهله:

---

[1] دِيوان جرير، 156
[2] المرزباني: أبو عبد الله مُحمد بن عمران (المُوشح في مأخذ العُلماء على الشُّعراء) تحقيق: مُحمد علي البِجاوي، مطبعة نهضة مصر، ص 154
[3] دِيوان جرير، 462
[4] مُحدث: حديث العهد بحمل السَّيف.
[5] دِيوان الفرزدق، 622
[6] أبو عبُيدة معمر بن المثنى "نقائض جرير والفرزدق" وضح حواشيه عمران المنصور ، دار الكُتب العلِمية بيروت لبنان ، ط1 1998 194/1 ، 200

إنِّـــي وَجَـــدتُ أبـــي بَنـــى لـــىَ بَيْتَـــهُ فـــــي دَوْحَـــــةِ الرُّؤســـــاءِ والحُكَّـــــامِ
مِـــنْ كُـــلِّ أبـــيضَ مـــن ذُؤابـــةِ دَارِمٍ مَلِـــكٍ إلـــى نَضَـــدِ المُلـــوكِ هُمـــامِ[1]
مِنَّـــا الَّـــذي جَمَـــعَ المُلـــوكَ وبيْـــنهُمْ حَـــرْبٌ يُشَـــبُ سَـــعيرُها بضِـــرامِ

4- المُوازنة والمُقابلة والمُقارنة: هو أسلوب يلجأ إليه الشُّعراء، لتوضيح الفِكرة و الاحتجاج و التحدي . يقول جرير مُقارناً بين قبيلته قيس وقبيلة تغلب النَّصرانية ، الَّتي فَخِرَ بها الفرزدق:[2]

فخـــرتُ بقـــيسٍ وافتخـــرتَ بتغلـــبٍ فســـوفَ تـــرى أي الفـــريقين أربـــحُ
فأمَّـــا النَّصـــارى العابـــدون صـــليبهم فخـــابوا وأَمّـــا المُســـلمون فـــأفلحوا

وهذا الأسلوب شائع في النقائض.

5- طول النقيضة والميل إلى التكرار: قد تتجاوز النقيضة أكثر من مائة بيت، وأدى هذا الطول إلى تكرار الموضوعات المطروقة. وللنقائض خصائصٌ أخرى كالجزالة، والميل للاستقصاء، وسرد الأيام، وغيرها من الميزات الَّتي لا يتسع المقام لسردها بالتفصيل.

والحق إنَّ النقائض أمدت الأدب بأساليب ومُفردات لغوية جديدة، وكانت سِجلاً تاريخياً للأيام و المشاهد ، وكانت مجالاً – عند النُّقاد – للمُوازنة والمُفاضلة بين الشُّعراء" قد حققت النقائض ثروة نقدية قامت على مظاهر مُختلفة ، بعضها لغوى والآخر نحوي والثالث أدبي ، وأعادت للشِّعر فخامته ورقيه الفني، وكست فنونه وأغراضه دِيباجة من القُوة والازدهار"[3] ولا تخلو من عيوب مثل: الإفحاش في الهجاء، وإيقاظ العصبيات.

ثالثاً: النَّقد الأدبي: وله مجالس وهي:

النَّقد الأدبي في مجالس الشُّعراء:

زخرت كتب الأدب والأخبار بمجالس الشُّعراء النَّقدية، يروي صاحب الخِزانة (اجتماع كُثيِّر عزَّة، ونُصيب بن رباح، والأحوص، وعمر بن أبي ربيعة، قال كُثيِّر لعمر: أنتَ القائل:

قالـــتْ: تصـــدّىْ لـــه ليعرفَنـــا ثـــم اغمِزيـــهِ يـــا أخـــتُ فـــي خفَـــرِ

[1] النضد: ماعظم من السّحاب.
[2] دِيوان جرير، 87
[3] رفعت ذكي مُحمد عفيفي "من مظاهر النَّقد الأدبي عند العرب" ط دار الكُتب المحمدية 1990م، ص96

قالـــتْ لهـــا: قـــد غمزتُـــه فـــأبَى ثـــم اسْـــبطرَّت تشـــتدُّ فـــي أثـــري
قالـــتْ لتـــربٍ لهـــا مُلاطِفَـــةً لنُفسِـــدَنَّ الطَّـــوافَ فـــي عُمـــرِ[1]

أتراكَ لو وصفتَ بهذا الشِّعر هِرَّةَ أهلك ألم تك قد قَبَّحتَ، واسأْت لها وقلتَ الهُجرُ! إنَّما تُوْصَفُ الحرُّة بالحياء والإباء والبخلِ والامتناع، كما قال هذا – وأشار للأحوص:

أدُور وَلَـــــولا أَنْ أَرى أُمَّ جَعْفَـــــرٍ بأبيـــــاتِكُمْ مَـــــادُرْتُ حَيْـــــثُ أدورُ
وَمَـــا كُنْـــتُ زَوّاراً وَلكِـــنَّ ذا الهَـــوَى إذا لَـــمْ يُـــزَرْ لا بُـــدَّ أَنْ سَـــيَزُورُ
لَقَـــدْ مَنَعَـــتْ مَعْرُوفهَـــا أُمُّ جَعفـــرٍ وإنِّـــي إلـــى مَعْرُوفِهَـــا لَفقِيـــرُ

فدحلت الأحوصَ الأُبَّهةُ وعُرِفت الخيلاءُ فيه ، فَلَمَّا عرف كثيِّرٌ ذلك منه قال له : أَبطِلْ أخزاكَ الله وأذلَّك . أخبرني عن قولك :

فـــإنْ تصـــلى أصِـــلْكِ وإنْ تبينـــى بصـــرْمك بعـــدَ وصـــلك لا أُبـــالى
ولا أُلفَـــى كمـــن إنْ سِـــيَم خَســـفاً تعـــرَّضَ كـــى يُـــردَّ إلـــى الوصـــالِ [2]

أما والله لو كنتَ فحلاً لباليت ، ألا قلتَ كما قال هذا الأسود ، وأشار إلى نُصيبٍ :

بزينـــبَ أَلمـــمْ قبْـــلَ أن يَرْحَـــلَ الرَّكـــبُ وَقُـــلْ إنْ تَمَلِّينـــا فَمَـــا مَلَّـــكِ القَلْـــبُ

فانكسر الأحوص ودخلتْ نُصيباً الأُبَّهةُ ، فَلَمَّا فهم ذلك منه قال :

وأنتَ يا أسودُ أخبرنا عن قولك :

أيهـــم بِدْعَـــدٍ مَـــا حَييـــتُ وإنْ أَمُـــتْ فـــوا كبـــدي مَـــنْ ذا يَهـــيمُ بهـــا بَعـــدِي

أهمك من ينكحها بعدك ؟ فأبلس نُصَيبٌ . فَلَمَّا سكت كُثيِّرُ أقبل عليه عمرُ فقال : قد أنصتنا لك فاستمع ، أخبريني عن قولك لنفسك و تخيُّرك لِمَنْ تُحِبُّ حيثُ تقول :

ألا ليتَنـــا يـــا عـــزَّ مـــن غيـــرِ ريَبـــةٍ بعيـــران نَرعَـــى فـــي الخَـــلَاءِ ونعـــزُبُ [3]

[1] "قالت لتربٍ لها ملاطفة " هذه رواية الأغاني 11/17 وكذلك في الدِّيوان، 137
[2] " إنْ سِيم صرماً " رواية الأغاني وفي الدِّيوان، 169 "إنْ سِيم ضيما"
[3] نعزب : نبعد ونغيب بعيداً.

كلانـــا بـــهِ عُـــرٌّ فَمـــنْ يَرَنَـــا يَقُـــلْ علـــى حُسْـــنِهَا جَرْبَـــاءَ تُعـــدِى وَ أَجْـــرَبُ
إذَا مَـــا وردنَـــا مَـــنهَلاً صَـــاحَ أهلُـــهُ عَلينَـــا فمَـــا نَنْفَـــكُ نُرْمَـــى ونُضْـــرَبُ
ودِدتُ وَبَيْـــــتِ اللهِ أنَّـــــكِ بَكْـــــرَةٌ هِجـــانٌ وَأنِّـــي مُصْـــعَبٌ ثُـــمَّ نهـــرُبُ
نَكُـــوْنُ بعيـــرَىْ ذي غِنـــىً فَيُضـــيعُنا فَـــلا هُـــو يَرعَانـــا وَلا نَحْـــنُ نُطْلَـــبُ

ويلك تمنيتَ لها ولنفسك الرِّق والجرب ، والرَّمى والطرد والمَسْخ ، فأيَّ مكروه لم تتمنَّ لها ولنفسك ! ولقد أصابك منها قولُ الأوَّل: "معاداة عاقِلٍ خير من مودة أحمق" فجعل يختلج جَسَد كُثيِّر كُلَّه وقام القوم يضحكون)[1]

النَّقد الأدبي في مجالس سُكينة بنت الحُسين:

كانت تُعْقَد لسُكينة بنت الحُسين [2] جلسات أدبية نقدية ، يؤمها الشُّعراء والأدباء وتحكم على شِعرهم ، ولها في ذلك حِكايات ونوادر ، ومن هذا القَبِيل ، ما ترويه كُتب الأدب ، " اجتمع بالمدينة راوية جرير وراوية نُصيب وراوية كُثيِّر وراوية جميل وراوية الأحوص ، فادعى كُلّ منهم أنَّ صاحبه أشعر ثُمَّ تراضوا بسُكينة فأتوها فأخبروها ، فقالتْ لصاحب جرير : أَليس صاحبك الذَّي يقول:

طرقتـــكَ صـــائدةُ القلـــوبِ ولـــيس ذا وَقْـــتَ الزّيـــارةِ فـــارجعي بســـلامِ

وأيُّ ساعة أحلى للزيارة من الطُروق ؟ قَبَّحَ اللهُ صاحبك وقَبَّحَ شِعره ، ثُمَّ قالت لصاحب كُثيِّر : أليس صاحبك الَّذي يقول :

يَقـــرُّ بعينـــي مـــا يَقـــرّ بِعينهـــا وَأحســـنُ شـــيءٍ مـــا بـــهِ العـــينُ قَـــرّتِ
كـــأنِّي أنـــادي صـــخرةً حـــين أعرضـــتْ مـــن الصُـــمّ لـــو تمشـــى بهـــا العُصـــمُ زلّـــت[3]

فليس شيءٍ أحب إليهنّ ولا أقرب لأعينهنّ من النِكاح ، أفيحب صاحبك أنْ يُنْكَح ، قَبَّحَهُ اللهُ و قَبَّحَ شِعره .

---

[1] الخِزانة، 387/8 – 390

[2] سُكينة بنت الحُسين بن علي بن أبي طالب، شاعرة كريمة نبيلة ، كانت سيدة نِساء عصرها ، تجالس الأجلة من قريش ، ولها مجالس أدبيَّة مع الشُّعراء تزوجت مُصعباً فقُتِلَ عنها، فتزوجت بعده مِراراً، توفيت بالمدينة سنة 117 هـ، ينظر، وفيات الأعيان، 211/1 الأعلام، 106/3

[3] العصم من الظباء والوعول : ما في ذراعه أو أحدهما بياض وسائره أبيض وأحمر .

ثُمَّ قالتْ لصاحب جميل : أليس صاحبك الَّذي يقول؟ :

فَلــوْ تركــتْ عَقْلِــى مَعِــي مــا طَلَبْتُهَــا وَلكِــنْ طِلابيهَــا لِمَــا فَــاتَ مِــنْ عَقْلِــى

ما أرى لصاحبك هوىً ، وإنَّما يطلب عقله ، قَبَّحَ اللهُ صاحبك وقَبَّحَ شِعره ، ثُمَّ قالتْ لصاحب نُصيب أليس صاحبك الَّذي يقول؟:

أهــيمُ بدعــدٍ مــا حييــتُ فــإنْ أمــتُ فــوا حزنــي مَــنْ ذا يهــيمُ بهــا بعِــدي

كأنه يتمنى لها من يعشقها بعده ، قَبَّحَ اللهُ صاحبك وقَبَّحَ شِعره ، ألا قال :

أهــيمُ بدعــدٍ مــا حييــتُ فــإنْ أمــتُ فــلا صــلحتْ دعــدٌ لــذي خلــةٍ بعــدِي

ثُمَّ قالتْ لصاحب الأحوص : أليس صاحبك الَّذي يقول ؟:

مــــنْ عاشـــقين تواصـــلا وتواعـــدا لـــــيلاً إذا نَجـــــمُ الثّريـــــا حَلّقـــــا

باتـــــا بـــــأنْعَمِ لَيْلَـــــةٍ وَ ألـــــذّها حَتّـــــى إذا وَضَـــــحَ النَّهـــــارُ تَفرّقـــــا

قالتْ قَبَّحَ الله صاحبك وقَبَّحَ شِعره ، ألا قال تعانقا " [1] إنَّ معاني الأبيات السابقة لم تتجاوب مع كبريائها ، لا سيما في بيت جرير ، فالأنثى تحب الاحتفاء بها لا الصد عنها ، فكأنَّها بصرت في هذه الأبيات فُتوراً في عاطفة الشَّوق والصَّبابة ، وهمّا سِر جمال الشِّعر العُذري ؛ ولذلك جاءت أحكامها على هذا النحو . فهي لم تستوعب شِعر هولاء في مجموعة ، بل حكمت على البيت والبيتين بصلاحية الشاعر أو فساده . " وهذا لون من النَّقد الذوقي التأثري ، الَّذي يعوزه التعليل المفصل لِمَا أصدره من حكم ، والَّذي يرفض شِعر الشاعر أو يقبله من خلال بيت أو مجموعة أبيات دون أنْ يستقصى شِعره في مجموعة" [2]

فاضلت –في مجلس آخر– بين الجاهليين والمُعاصرين لها ، متخذةً جودة المعنى مِقياساً لنقدها ، وتروى كُتب الأخبار " أنَّها قالتْ يوماً لكُثيِّر عَزَّة : أأنتَ القائل :

---

[1] المُوشح ، ص209 ، 210

[2] مصطفى عبد الرحمن" في النَّقد الأدبي القديم عند العرب " ، ص118

فَمـــا روضـــةٌ بـــالحَزْنِ طيّبـــةُ الثـــرى يَمُـــجّ النّـــدى جثجَاثُهـــا وَ عَرارُهـــا [1]
بأطْيَـــبَ مِـــن أَرْدَانِ عَـــزّةَ مَوْهِنـــاً وَقْـــدَ أوقـــدتْ بالمنـــدلِ الرّطـــبِ نارُهـــا

ويحك وهل على الأرض زنجية منتنة الإبطين توقد بالمندل الرطب نارها ؟ ألا قلت كما قال عمك امرؤ القيس:

ألـــم تريَـــاني كُلَّمـــا جئْـــتُ طَارِقـــاً وَجَـــدتُ بهـــا طِيبـــاً ،وإنْ لَـــمْ تَطَيّـــبِ [2]

ومن تفضيلها بين الشُّعراء ما رواه الشّعبيُّ " أنَّ الفرزدق لَمَّا فرغ من حجه أستأذن ودخل عليها ، فقالتْ له يا فرزدق من أشعر النَّاس ؟ قال : أنا ، قالتْ : كذبتَ أشعر منك الَّذي يقول :

بنفسِـــي مَـــنْ تَجَنبـــه عَزِيْـــزُ علـــيَّ وَمَـــنْ زِيارَتُـــه لِمَـــامُ
ومَـــنْ أُمسِـــي وأُصْـــبحُ لا أراه ويَطْرُقُنِـــي إذا هَجَـــعَ النِّيَـــامُ

فقال والله لو أذنتي لي لاسمعتكِ أحسن من هذا ، ثُمَّ عاد إليها من الغد فقالتْ له : من أشعر النَّاس ؟ قال : أنا ، قالتْ : كذبتَ ، صاحبك جريرٌ أشعر منك حيث يقول :

لـــولا الحَيـــاءُ لعـــادَني اسْـــتِعبارُ ولـــزُرْتُ قبـــرَكِ والحبيـــبُ يُـــزارُ
لا يُلْبِـــثُ القُرنـــاءُ أَنْ يتفرَّقـــوا لَيـــلٌ يَكُـــرّ علـــيهمُ ونهـــارُ

فقال والله لئن أذنتِ لي لأسمعنّك أحسن منه ، ثُمَّ عاد إليها في اليوم الثالث فقالتْ له: من أشعر النَّاس ؟ قال أنا ، قالت كذبتَ صاحبك أشعر منك حيث يقول :

إنَّ العُيـــونَ الَّتـــى فـــي طَرْفِهَـــا حَـــورٌ قَتلننـــا ثُـــمَّ لـــم يُحْيـــينَ قَتْلانـــا
يَصْـــرَعن ذَا اللُّـــبِّ حَتَّـــى لَا حَـــرَاكَ بـــهِ وَهْـــنَّ أَضْـــعَفُ خَلْـــقِ اللهِ أركانـــا

فقال لها : يا بت رسول الله ، ضربتُ إليكِ أباط الإبل من مكَّة وكان جزائي من ذلك تكذيبي وتفضيل جرير عليَّ ..... " [3]

---

[1] الجثجات : شجر طيب الرائحة وكذلك العرار . الحَزن : ما غلظ من الأرض . الأردان : كُمّ القميص يُقال : قميص واسع الردن.
[2] ابن عبد ربه (العِقد الفريد) تحقيق: مُحمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، 1953م، 372/5
[3] الأغاني، 44/8

وهذا حكم عامٌ لا يُعول عليه كثيراً ، فالفرزدق فحل من فحول الشُّعراء ، وله قصائد جياد لم تتطرق إليها في حكمها ، والأبيات الَّتي ذكرتها لجرير كُلّها في الغزل والرثاء ،ولا يُحْكَمُ على الشاعر بأنَّه أشعر النَّاس بغرضين فقط من الأغراض الشِّعرية .

وحكمها لجرير على الفرزدق لموافقة طبيعتها الأنثوية ، فالمرأة يستهويها الغزل والتهالك في الصبابة لها ، والعجيب أنَّ قصيدة جرير الَّتي في الرثاء كانت حول المرأة ، وما الرثاء إلَّا إظهار التفجع و الوجد تجاه من غاب عن الحياة ولم يغب عن القلب ، وهذا ما رمت إليه .

ولَمَّا كان الغزل والرثاء يحتاجان للرِّقة الَّتي هي أوفر ما تكون عند النِّساء ، كان حُكمها على أبيات عُروة بن أُذنية في رثاء أخيه بكرٍ بأنَّه قد بالغ في وصف حالته تجاه أخيه ، والأبيات هي :

سَـــرَى همِّـــي وهَـــمُّ المـــرءِ يَسْـــري ... وغـــابَ الـــنَّجْمُ إلَّا قيـــدَ فِتـــرِ [1]

أُراقِـــبُ فـــي المَجَّـــرةِ كُـــلَّ نَجْـــمٍ ... تَعَـــرَّضَ لِلمَجَـــرَّةِ كَيْـــفَ يَجْـــرِى

لِهَـــــمٍّ لا أزالُ لَـــــهُ قَرِيْنَـــــاً ... كَـــأنَّ القَلْـــبَ أُسْـــعِرَ حَـــرَّ جَمْـــرى

علـــى بَكْـــرٍ أخِـــي وَلَّـــى حَمِيـــداً ... وأيُّ العَـــيْشِ يَصْـــلُحُ بَعْـــدَ بَكْـــرِ

فقالتْ : ومن أخوه بكر أليس الأسَيْد [2] القصير الَّذي كان يمر بنا صباحاً ومساءً ؟

قالوا : بلى ، قالتْ : كُلّ العيش يَصْلُحُ ويَحْسُنُ بعد بَكرٍ حتَّى الخبز والزيت " [3]

وإنَّما عابت على بكرٍ السَّواد الَّذي هو أبشع ما يكون عند النِّساء ، كيف إذا كانت هذه المرأة أميرة قرشية ؟! ألم يشتكي سُحيم عبد بنى الحسَّحاس هجر النِّساء له لِسواده إذ يقول : [4]

أشَـــارَتْ بمِـــدْارَها وَقَالـــتْ لِتِرْبهـــا ... أَعَبْـدُ بَنِـي الَحْسّـحاس يُزْجِـى القَوَافِيَـا [5]

رأَتْ قَتَبـــاً رَثـــاً وسَـــحْقَ عَبَـــاءَةٍ ... وأَسْـــوَدَ مِمَّـــا يَمْلِـــكُ النَّـــاسُ عَارِيـــا

يُـــرَجِّلْنَ أَقْوَامـــاً ويَتْـــرُكْنَ لِمتـــى ... وذَاك هَـــوَانٌ ظَـــاهِرٌ قَـــدْ بَـــدَالِيا

---

[1] فتر : المسافة الَّتي بين السبابة والابهام إذا فتح الابهام .
[2] شِعر عُروة بن أُذينة ، يحيى الجبورى دار القلم ، ط2 ، 1981 م ص18
[3] الأسَيْد : تصغير الأسود.
[4] ديوان سحيم ، ص 25 ، 26
[5] المدرى: الَّذي تدرى به الشَّعر. القتب: صحفة قديمة. يرجلن: أي يمشطن. اللمة: الشَّعر إذا تجاوز شحمة الأذن. ورداً: أبيضاً.

فَلـــو كُنْـــتُ وَرْدَاً لَوْنُـــه لَعَشِـــقْتِني وَلكـــنَّ ربِّـــي شَـــانَني بسَـــوَادِيا

وأبيات عُروة جاءت في ذروة التفجع والنوح ، واختلطت ألفاظها ومعانيها بألفاظ الغزل فالشاعر : " راقب النَّجم ، وسرى همّه ، وأسعر الجمرُ قلبه " وكُلّها ألفاظ غزل ، وللرثاء علاقة بالنِّساء يقول عبد الله الطَّيب : " إنَّ الرثاء إذا أُرِيدَ منه النوح حوى عُنصراً مُهماً من التأنيث واللين ، كيف لا وإنَّما النوح كانت تقوم به النِّساء وكنَّ يتخذن مِنه مَعْرِضاً للفتنة والتبرج ،انظر إلى أبيات الرَّبيع بن زياد العبسي[1]" في الرثاء[2]

مـــنْ كـــان مَسْـــروراً بمقتـــلِ مالـــكٍ فليـــأت نِســـوتَنَا بوجـــهِ نهـــارِ
يجـــدِ النِّســـاءَ حَواسِـــراً يَنْدُبْنَـــهُ يَلْطُمْـــنَ أوجههـــنَّ بالاســـحارِ
قـــد كُـــنَّ يخبـــأن الوجـــوهَ تســـتراً فـــاليومَ حِـــيْنَ بـــرزن للنُظّـــارِ

النَّقد الأدبي عند العُلماء:

اعتمد العُلماء في نقدهم على المنهج العِلمي؛ الَّذي يُخضع النُّصوص لقواعد اللُّغة. وكان ابن أبي إسحاق الحضرمي يتعقب الفرزدق بالنَّقد، وَلَمَّا سَمِعَ الفرزدق ينشد:

وَعـضَّ زَمـانٌ يـابن مـروان لَـمْ يَـدعْ مـن المـالِ إلَّا مُسْـحَتاً أَوْ مُجـرَّفُ [3]

قال له: على أي شيءٍ ترفع (مجرف) فقال الفرزدق: على ما يسوءك و ينوءك . وأنكر عليه قوله:

مُسْـتَقْبِلِيْن شَـمَالَ الشّـامِ تَضْـرِبُنَا بِحَاصـبٍ مـن نـدِيفِ القُطْـنِ مَنْثُـورِ [4]
عَلَـى عَمَائِمنـا تُلقـى وَأَرْحُلِنَـا عَلَـى زَوَاحِـفَ تُزجِـى مخّهَـا رِيـرُ

رفع الفرزدق رويَّ البيت وكان حقه الكسر؛ لأنَّ القصيدة كُلَّها مكسورة حرف الروى . وأراد ابن الحضرمي أنْ يُصْلِحَ هذا العيب فقال: (على زواحف نزجيها محاسير) فغضب الفرزدق ، وهجاه بقوله :

---

[1] أحد دهاة العرب وشجعانها، رئيس جاهلي، له شِعر جيد، كان يُقال له (الكامل) اتصل بالنُّعمان ونادمه ثُمَّ فارقه، شَهِدَ حرب داحس والقبراء، وله أخبار فيها، ينظر، الأعلام، 3/ 14

[2] عبد الله الطَّيب " المُرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها " دار الاثار الإسلامية الكويت، ط2، 1989م ، 219/1

[3] المسحت : المهلك. المجرَّف : الَّذي أخذ من جوانبه .

[4] الحاصب : الرِّيح الشَّديدة الَّتي تثير الحصباء . الرير : المخ الرقيق.

فَلَــوْ كَــانَ عَبــدُ اللهِ مَــوْلَى هَجَوْتُــهْ وَلِكــــنَّ عَبْــــدَ اللهِ مـــــولى مَوالِيَـــا

فقال ابن الحضرمي له لحنتَ في قولك (مولى مواليا) وكان ينبغي أنْ تقول : (مولى موالٍ) [1]

وكانت له نظرات في معانِ المُفردات الشِّعرية. قال الأصمعي[2]: قرأتُ على خلفٍ الأحمر[3] شِعر جرير – فَلَمَّا بلغتُ قوله :

ويـــــومٍ كأبهـــــامِ القطـــــاةِ مُـــــزَيَّنٍ إلـــى صِـــبَاهُ ، غالـــبٍ لـــيَ باطِلُـــهْ
رزقنــا بــهِ الصَّــيدَ الغزيــرَ، ولــم أكُــنْ كَمَـــــنْ نبلُـــــهُ محرومـــــةٌ وحبائِلُـــــهْ
فيالـــــك يومـــــاً خَيْـــــرهُ قَبْـــــلَ شـــــرّه تغيـــــب واشـــــيه وأقصـــــرَ عاذِلـــــهْ

قال: ويله ، وما ينفعه خير يؤول إلى شر؟ قلتُ هكذا قرأته على أبي عمرو ، فقال لي: صدقت وكذلك قال جرير ، وكان قليل التنقيح مشرد الألفاظ ، وما كان أبو عمرٍ ليقرئك إلَّا كما سَمِعَ ، فقلتُ كيف يجب أنْ تقول ؟ فقال : فيالك يوماً خيره دون شره ، فاروه هكذا ، فقلتُ : والله لا أرويه بعد هذا إلا هكذا " [4] ورواية الدِّيوان (خيره دون شره)كما أرشد خلفٌ الأحمر الأصمعي.

ولأبي عمرو بن العلاء قول في شِعر ذي الرُّمة : " إنَّما شِعره نقط عروس يضمحل عن قليل ، وأبعار ظِباء لها مشم في أوَّل شمها ثُمَّ تعود إلى أرواح البعر " [5]

شبه شِعره بنقط العروس الَّذي يذهب مع الغسل ، وببعر الظِباء طيب الرائحة حال لينه فإذا جف عاد إلى مشمه الطبيعي ، يعني أنَّ شِعره حُلو أوَّل سماعه فإذا كررتَ إنشاده ضعف .

رابعاً: الخطابة والكِتابة :

تُعدّ الخطابة والكِتابة ضربين من ضروب النثر ، فما هو النثر ؟

---

[1] خِزانة الأدب، 114/1

[2] عبد الملك بن قريب ابن أصمع الباهلي، أبو سعيد، عالم بالشِّعر والمعاني والأنساب، والنحو وله مُصنفات، توفى بالبصره سنة 117هـ، ينظر، الفهرست، 82

[3] خلف بن حيان، راوية شاعر عالم بالأدب، من موالي البصره، كان يصنع الشِّعر وينسبه إلى العرب، ثُمَّ أقر في آخر حياته بما وضعه، توفي سنة 180هـ، ينظر، الأعلام، 2/ 358

[4] في النَّقد الأدبي القديم عند العرب ، ص127

[5] المرزباني (المُوشح) تحقيق :مُحمد حُسين شمس الدِّين ، دار الكُتب العلِمية بيروت ، ط1، 1995م، ص205

النثر: "هو الكلام الَّذي لم يُنْظَم في أوزانٍ وقوافٍ"[1] بخِلاف الشِّعر الَّذي تميز بالوزن والقافية؛ وهما سر جماله. يُعْرِّف قدُامة بن جعفر الشِّعر: "بأنَّه قول موزونٌ مُقفى دال على معنى" [2]

"والشِّعر والنثر هما الدِّعامتان الأساسيتان اللتان يقوم عليهما الأدب" [3]

الخطابة:

الخطابة: في اللُّغة مصدر خطب يخطُب أي ألقى عليهم خُطبةً.[4]

أمَّا في الاصطلاح : فقد تعددت عبارات الباحثين في تعريفها ، ونأخذ منها قولاً واحداً وهو : " إنَّ الخطابة هي فن مُخاطبة الجماهير بطريقة إلقائية تشتمل على الإقناع والاستماله " [5]

ازدهرت الخطابه وتنوعت في هذا العصر ، ومن أهم أنواعها : (الخطابة السِّياسية ، وخطابة المحافل ، والخطابة الدِّينية) [6]

الخطابة السِّياسية :

شَهِدَ هذا العصر خُطباء مفوهين من جميع الأحزاب السِّياسية ، دندنوا حول أحقيتهم بالخِلافة، وسالت ألسنتهم بما أفآء الله عليهم من حجج وبراهين ، ولم يك نصيب خطباء بني أميّة إزاء هذا الهجوم الشرس ، إلّا الزود عن حوض خلافتهم ، ودمغ كُلّ حُجَّة من هذه الحُجج ، هذا الأمر انعش الخطابة انعاشاً ملحوظاً بحيث برئة الخطبة من السماجة و التعقيد والبساطة ، وجنحت إلى تزاحم الأدلة من نصوص القرءان و الاستشهاد بالشِّعر والمُراوحة بين الأساليب ، والغرف من عُلوم الكلام، وغير ذلك.

وكان لبني أُميَّة خُطباء مفوهون وهم: مُعاوية بن أبي سُفيان ، وعبد الملك بن مروان ، والحجَّاج بن يوسف ، وزياد بن أبيه[7] . وكان زياد خطيباً لا يبارى يَعْرِف كيف يصوغ كلامه ضوعاً تطرب له

---

[1] شوقي ضيف " الفن ومذاهبه في النثر العربي " دار المعارف مصر ط5 ، ص15

[2] قُدامة بن جعفر (نقد الشِّعر) تحقيق: مُحمد عبد المنعم خفاجي، دار الكُتب العلِمية ،بيروت، 7

[3] طه حُسين " مكانة النثر في الأدب العربي " دار المعارف، ط12، ص16

[4] لسان العرب وتاج العروس ، مادة (خطب)

[5] عبد الجليل شلبى " الخطابة و إعداد الخطيب " مُؤسسة الخليج العربي القاهرة ط5 ، 1991م، ص11

[6] شوقي ضيف " العصر الإسلامي " ص405

[7] أمير من دهاة العرب، وُلِدَ سنة 1هـ، وقِيل اسمه عُبيد الثقفي، وقِيل غير ذلك، كان كاتباً للمُغيرة بن شُعبة في العِراق، ألحقه مُعاوية بنسبه سنة 44هـ، اشتهر بالخطابة والفصاحة والشِّدة على الرعيَّة، تولى البصرة والطائف، مات سنة 53هـ، ينظر، الأعلام، 3/ 53

الأسماع وتصغى له القلوب . قال الشَّعبيُّ في وصفه : " ما سمعتُ مُتكلماً على مِنبر قط تكلم فأحسن ، إلَّا أحببتُ أنْ يسكت ؛ خوفاً من أنْ يُسئ إلَّا زياداً ؛ فإنَّه كُلَّما أكثر كان أجود كلاماً"[1]
وله خُطبة عُرِفَتْ (بالبتراء) وسُمِّيتْ بذلك ؛ لأنَّها لم تبدأ بالتحميد والتمجيد" [2]

وجاء في خُطبته البتراء : " أيُّها النَّاس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادةً ، نسوسكم بسلطان الله الَّذي أعطانا ، ونذود عنكم بِفَيْءِ الله الَّذي خَوَّلنا فلنا عليكم السَّمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل والإنصاف فيما وُلِّينا ..."[3]

" وزياد في هذه الفقرة يستلهم فِكرة التفويض الإلهي المعروفة عند الفرس، إذ كانوا يُؤمنون بأنَّ مُلوكهم مُفوَّضون لحكمهم من قِبْلِ ربّهم، وفي ذلك دلالةٌ واضحةٌ على تأثر الخُطباء بالأفكار الأجنبية"[4]
وجنوح الخطابة لأساليب الأمم الأخرى هذا سبب لازدهارها، كما هو الحال في الكِتابة.
وربَّما كانت الخُطبة كُلّها قرءانا من أولها إلى آخرها كخُطبة مُصعب بن الزُّبير ، لَمَّا بعث أخوه عبد الله بن الزُّبير والياً على البصره فبعد أنْ حمد الله وأثنى عليه قال : بسم الله الرحمن الرحيم طسم، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ، نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ، إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (وأشار بيده نحو الشَّام) " وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (وأشار بيده نحو الحِجاز) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (وأشار بيده نحو العِراق) [5]
اختار مُصعب الآيات الَّتي عبرت عمَّا في نفسه.
ومن أنماط تأثير القرآن في الخطابة مُحاكاة بعض الخُطباء لألفاظ القرءان الكريم وتراكيبه ، ونظمه كقول الحجَّاج بعد موقعة " دير الجماجم " : " ثُمَّ يوم الزَّاوية وما يوم الزَّاوية ... ، ثُمَّ يوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم ..."[6]

---

[1] البيان والتبين، 65/2
[2] المرجع نفسه، 62/2
[3] أحمد زكي صفوت (جمهرة خُطب العرب في عصور العربيَّة الزاهرة) مطبعة البابلي الحلبي بمصر، ط1، 1933م، 206
[4] شوقي ضيف " العصر الإسلامي " ص427
[5] البيان والتبين، 300/2 وعنى بأهل الشَّام بني أُميَّة ، وعنى بالحجاز أخاه عبد الله وبأهل العِراق المُختار الثقفي . الآيات من سورة القصص "1 – 6 "
[6] أحمد زكي صفوت (جُمهرة خُطب العرب في عصور العربيَّة الزاهرة) 280

وفي هذا مُحاكاة لقوله تعالى : "الْقَارِعَةُ ، مَا الْقَارِعَةُ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ"[1]

وأَعْجَبُ الخُطبِ خُطْبَةُ الحجَّاج لأهل الكُوفة ، الَّتي بدأها بالشِّعر ولم يبدأها بالحمد والثناء على الله ، و هي بذلك تكون بتراء كخُطبة زياد غير أنَّ المشهور في كُتب الأدب أنَّ (البتراء) هي خُطْبَةُ زياد . ومن خُطْبَةِ الحجَّاجِ الَّتي استهلها بالشِّعر قائلاً [2]

أنَـــا ابْـــنُ جَـــلَا وَطَـــلَّاعُ الثَّنايـــا مَتـــى أَضَـــعِ العِمَامَـــةَ تَعْرِفُـــوْنِي

أما والله إنِّي لأحملُ الشَّر بحمله وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله ، وإنِّي لأرى رءوساً قد أينعتْ وحان قطافها ، وإنِّي لَصاحبها .... " [3]

خطابة المحافل :

سالت وفود الخُطباء إلى أبواب القصور بخُطبٍ مُنقحةٍ عُرِفَ هذا النوع من الخطابة بخُطب (المحافل) " وكان ممَّا أذكى جذوتها في نفوس الخُطباء أنَّ الأمويين وولاتهم فتحوا أبوابهم للعرب ؛ كي يطمئنوا إلى حُسن ولائهم لدولتهم ، .... وكانوا يُغْدقون عليها إغداقاً واسعاً . ومُعاوية هو أوَّل من فتح أبوابه على مصاريعها لتلك الوفود ..... " [4]

ومن هذا الضَّرب من الخطابة خُطبة عبد العزيز بن زرارة الكلابي، حين وفد على مُعاوية يستجديه ويستمطر نواله بقوله: " يا أمير المؤمنين، لم أزل أستدل بالمعروف عليك، وأمتطي النَّهار إليك، فإذا ألْوَى [5] بي اللَّيل فقُبِضَ البصر و عُفى الأثر أقام بدني وسافر أملي، والنَّفس تلوم والاجتهاد يَعْذر ، وإذ قد بلغتك فَغَطْني" [6]

الخطابة الدِّينية:

ينطوى تحت الخطابة الدِّينية (خُطب الوعظ والقصص" نشط هذا الضرب من الخطابة في هذا العصر في كُلِّ قطر من أقطار الجزيرة العربيَّة ، فالقصاص كانوا وعاظاً ، بل هم يقصون من أجل

---

[1] سورة القارعة، الأية:1-3
[2] البيت لسُحيم بن وثيل الرياحي من قصيدة أوردها الأصمعي في (الأصمعيات) 17
[3] جمهرة خُطب العرب في عصور العربيَّة الزاهرة، 275
[4] شوقي ضيف (العصر الإسلامي) 428
[5] ألوى : أستأثر.
[6] جمهرة خُطب العرب في عصور العربيَّة الزاهرة، 353- 354

الوعظ . ومن أشهر الوعاظ ابن حيوة[1] والأوزاعي[2] ومالك بن دينار[3] ومُعاوية قاضي البصرة ، والحسن البصري[4]" [5] وكان واصل بن عطاء[6] – رأس المُعتزلة – من أبرز الخُطباء ، وكانت أكثر قصصهم عن الأمم البائدة والدُّول الزائلة ، وكيف عصت الأمم رسلهم فسلط الله عليهم عذابه . "ولم يكونوا يخطُبون وقوفاً ؛ إنَّما كانوا يخطُبون جلوساً ، ومن حولهم تلاميذ في حلقاتهم وهم يُعدون من هذه الناحية مُحاضرين أكثر من كونهم خُطباء . وهيأ لهم ذلك شيءٌ من التروّى .... " [7]

ومن ذلك خُطبة الحسن البصري الَّتي نذكر منها:

" يا بن آدم ، بِعْ دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبِعْ آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً . يا بن آدم ، إذا رأيتَ النَّاس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الشَّر فلا تغبطهم عليه . الثواء هاهنا قليل قليل والبقاء هناك طويل ..... يا بن آدم ، اذكر قوله : "وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ، اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا" [8] عدَلَ والله عليك من جعلك حسيب نفسك "[9]

لقد شاع في خُطبهم : السجع ، والمُقابلات ، والاستشهاد بالقرءان والحديث ، والبعد عن التكلف والتعقيد ، والاستعارات والتقسيمات الدَّقيقة. وأخذ الكُتاب مِنهم هذا الأسلوب، لا سيما عبد الحميد الكاتب[10].

---

[1]أبو المقداد، شيخ أهل الشَّام كان فصيحاً عالماً ملازماً لعمر بن عبد العزيز، توفي سنة 112هـ، ينظر، الأعلام، 3/ 17

[2]عبد الرحمن بن عمرو الأزواعي، أبو عمرو، إمام الدِيار الشَّامية في الفقه والزهد وأحد الكُتاب المُترسلين، وُلِدَ سنة 88هـ، عرض عليه القضاء فامتنع، مات سنة 158هـ، ينظر، الأعلام، 3/ 320

[3]أبو يحيى، من رواة الحديث، كان ورعاً، يأكل من كسبه، يكتب المصاحف بالأجرة، مات سنة 131هـ، ينظر، الأعلام، 5/ 260

[4]الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، تابعي، إمام أهل البصره، أحد العُلماء الشجعان الفُصحاء النُساك، وُلِدَ بالمدينة سنة 21هـ، ورحل إلى البصره، ووعظ الخُلفاء، كان كلامه أشبه بكلام الأنبياء، مات سنة 110هـ، ينظر، الأعلام، 2/ 226

[5] شوقي ضيف (العصر الإسلامي) 436

[6]رأس المُعتزلة، من الأئمة البُلغاء والمُتكلمين له تصانيف عدة، مات سنة 131هـ، ينظر، الأعلام، 8/ 108- 109

[7] شوقي ضيف (العصر الإسلامي) 400- 443

[8] سورة الإسراء الاية: 13،14

[9] جمهرة خُطب العرب في عصور العربيَّة الزاهرة، 465- 467

[10]عبد الحميد بن يحيى بن سعيد، من الموالي، فارسي الأصل، عُرِفَ بالكِتابة، وكان رئيس الدِّيوان في عصر بني أُميَّة، قُتِلَ مع مروان بن مُحمد سنة 132هـ، ينظر، وفيات الأعيان، 1/ 307

الكِتابة:

أخذ العرب في هذا العصر يكتبون كُلّ الفنون والعُلوم من سِير ، وأخبار ، وآداب ، وفلسفة ، وفقه... والَّذي يهم الباحث في هذا الباب الواسع من الكِتابة "الرسائل"

الرسالة في اللُّغة : " اسم مصدر من الفعل أرسل يرسل إرسالاً . والإرسال: التوجيه. والاسم الرسالة"[1]

والرسالة اصطلاحاً : هي مايكتبه الشخص إلى شخص آخر في أمور الحياة . وهي نوع من أنواع الكِتابة الفنية ، أو النثر الفني " [2]

وللرسالة أضرب وألوان وأقسام وهي : الرسالة الرسمية أو الدِّيوانية ، والإخوانية ، والوعظية .

ومن نماذج الرسالة الرسمية أو الدِّيوانية رسالة يزيد بن المُهلَّب للحجَّاج بن يوسف ، الَّتي كتبها يحيى بن يَعْمر – أحد عُلماء اللُّغة الأوائل – يُخْبِرُ الحجَّاج بالنصر على الروم في خُرسان : " إنّا لقينا العدوَّ ، فمنحنا الله أكتافهم ، فقتلنا طائفة ، وأسرنا طائفة فلحقت طائفة بعرائر [3] الأودية وأهضام الغيطان [4] وبتنا بعرعرة الجبل وبات العدو بحضيضة [5] " [6]

"لَمَّا قرأ الحجَّاح الرسالة أُعْجِبَ بها ، وأمر يزيد أنْ يُشْخِصَ له يحيى بن يَعْمُر ، فَلَمَّا مَثُلَ بين يديه ، سأله : أنّى لك هذه الفصاحة ؟ قال أخذتُها عن أبي " [7]

والحجَّاج نفسه له رسائل كتبها إلى عبد الملك جمع فيها بين رصانة الأسلوب ، وإصابة المعنى ، وحُسْنَ الوصف ، والمُراوحة بين الأساليب ، والجنوح إلى غريب الألفاظ ، وشاهد ذلك رسالته الَّتي أرسلها إلى عبد الملك يخبره فيها بجدب أتى بعده خصب ، قائلاً : " أمَّا بعد ، فإنَّا نُخْبِرُ أمير المؤمنين أنَّه لم يُصِبْ أرضَنَا وابلٌ منذ كتبتُ أخبره عن سُقْيا الله إيانا ، إلَّا مابَلَّ وجهَ الأرضِ من الطش والرش والرذاذ [8] حتَّى دَقِعَتْ الأرض واقشعرّتْ واعبرّتْ [9] وصارت في نواحيها أعاصيرٌ تذرو

---

[1] لسان العرب، 644/3 مادة (رسل)
[2] الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص15
[3] العرائر : الأسافل .
[4] الغيطان : الأرض المنخفة.
[5] الحضيض : أسفله.
[6] البيان والتبين، 377/1
[7] المرجع نفسه، 178/1
[8] الطش والرش والرذاذ : المطر الخفيف.
[9] دَقِعَتْ : خلت من النبات .

دُقاقَ الأرض من تربها ، وأمسك الفلّاحون بأيديهم من شِدَّة الأرض واعتزازها ، .... حتَّى أرسلَ الله بالقبول ، فأثارت زِبْرِجاً مُتمطِراً[1] فطحطحتْ جهامة [2] وجمعتْ متمصِّرة ، حتّى انتضدَ فاستوى ، وطما وطحا [3] وكان جوناً مُرثعنّاً [4] قريبا رواعده ، ثُمَّ عاد وابل مُنسجل يُردف بعضُهُ بعضاً ، كُلَّما أردف شُؤبوبٌ أردفته شآبيبٌ [5] لِشِدَّه وقعه من العِراض [6] وهي ترمى بمثل القُطن الَّذي ملأ اليباب وسدَّ الشِّعاب ، فالحمد لله الَّذي أرسل غيثه ونشر رحمته من بعد ما قنطوا وهو الوليُّ الحميد، والسلام " [7] ولايخفى أثر الاقتباس من القرءان في آخر الرسالة .

مال كُتَّاب الرسائل في هذا العصر للسجع ، وهذا ابن الأشعث يقول لكاتبه " إنِّي أريد أنْ أكتب إلى الحجَّاج كِتاباً مُسجَّعاً ، أُعَرِفُهُ فيه سُوء فعاله ، وأُبَصِرُهُ قَبِيحَ سريرته " [8]

ومن ضروب الرسائل الوعظية ، ما كان يكتبه الحسن البصرى ، وغيلان الدِّمشقي[9] في التذكير بالآخرة والوعظ والإرشاد ، وذِكر الثواب والعِقاب ، ولا تبعد رسائلهم عن خطابتهم من الناحية الفنية ، من حيث المُقابلات ، والطباقات ، وسهولة اللفظ ، وإصابة المعنى ، والاقتباس من القرءان ... كتب غيلان الدِّمشقي إلى عمر بن عبد العزيز يعظه: "اعلم يا أمير المؤمنين أنَّك أدركت من الإسلام خَلَقا بالياً ، ورسماً عافياً ، فيا ميتٌ بين الأموات ، لا ترى أثراً ، ولا تسمع صوتاً فتستمع ، طُفِئَ أمر السُّنة ، وظهرت البدعة ..." [10]

وهنالك ضرب ثالث من الرسائل هو ما عُرِفَ بالرسائل الإخوانية : الَّتي اعتنى فيها الكُتاب بجودة اللفظ وتنقيحه وتناسقه وسجعها ونغمها الموسيقى حتَّى تطرب لها النَّفس ، ويلذها السَّمع ، وكُتبت في الأمور الَّتي لها رَحِمٌ من الحياة كـ" التهاني والتعازي والعِتاب ...." ومن أشهر كُتابها عبد الله بن مُعاوية بن عبد الله بن جعفر ، وكان فطِناً يحوك لفظه حتَّى يصيب به مفصِل المعنى . كتب مُعاتباً

---

[1] زبرجا : سحاب خفيف.
[2] جهام :سحاب لا ماء فيه.
[3] طما وطحا : امتلأ وملأ الأفق.
[4] مرثعناً : سائلاً.
[5] الشؤبوب : مطر شديد.
[6] العِراض : ما وقع على جوانب الأرض.
[7] البيان والتبين، 99/4
[8] شوقي ضيف " العصر الإسلامي " 469
[9] أبو مروان، كاتب من البُلغاء، صاحب فِرقة (الغيلانية) يرى أنَّ الأمامة تَصْلُح في غير قريش، ناظره الأوزاعي في القدر وأفتى بقتله، فصُلِبَ على باب كيسان بدِمشق، سنة 105هـ، ينظر، الأعلام، 5/ 124
[10] المرجع نفسه ، ص463

لأحد إخوانه " أمَّا بعد ، فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك ، ابتدأتني بلطف عن غير خِبْرة ، ثُمَّ أعقبنى جفاء عن غير ذنبٍ ، فأطمعني أوَّلك في إخائك ، وأيأسني آخرك من وفائك ...."[1]

وازدهرت الرسالة على يد عبد الحميد بن يحيى[2] الَّذي جنح بالرسالة نحو التطويل والأخذ من أساليب الأمم الأخرى كالفارسية ، " وقد أجمع كثيرون على أنَّه أوَّل من استخدم التحميدات في فصول الكُتب ، وكأنَّه تأثر في ذلك بتحميدات واصل وغيره من الوعاظ " [3] وكان في الرسالة الواحدة يتحدث عن موضوعات متشعبة مختلفة " من الإخاء ، وقيادة الحروب ، والصَّيد ، مُعتمداً في ذلك على ثقافات مُختلفة أجنبية وعربيَّة " [4]

وخير شاهد يُساق على براعة أسلوبه وجودة معانيه وخلوها من التعقيد والتوعر و الغموض ، ووصفها بالعذوبة والحلاوة ، وحسن النَّغم و المُوسيقى . رسالته الَّتي كتبها إلى أهله يعزيهم فيها عن نفسه ، وهو منهزم مع مروان بن مُحمد[5]، ونأخذ منها : " أمَّا بعد ، فإنَّ الله جعل الدُّنيا محفوفةً بالكُره والسرور ، وجعل فيها أقساماً مُختلفة بين أهلها ، فمن درّت له بحلاوتها وساعده الحظُّ فيها سكن إليها ورضى بها ، وأقام عليها ، ومن قرصته بأظافرها وعَضَّه بأنيابها ، وتوطأته بثقلها ، قلاها نافراً عنها ، وذمَّها ساخطاً لها ، وقد كانت الدُّنيا أذاقتنا من حلاوتها وأرضعتنا من دَرِّها أفاويق [6] استحلیناها ثُمَّ شمَّستْ [7] مِنَّا نافرة ، وأعرضتْ عنَّا مُتنكرة ....."[8]

والحق إنَّ عبد الحميد جدد في أساليب الكِتابه تجديداً أثراها وزادها رفعة، حتَّى آض مُعَلِماً لمن جاء بعده.

---

[1] البيان والتبين، 84/2

[2] عبد الحميد بن يحيى بن سعيد ، من موالى عامر بن لؤي ، فارسي الأصل ، سكن الرَّقَّة ، عُرِفَ بالكِتابة وكان رئيس الدِّيوان في عهد بنى أُميَّة ، قتل مع مروان بن مُحمد سنة 132هـ ، ينظر، وفيات الأعيان، 307/1

[3] شوقي ضيف " أدب العصر الإسلامي " ص474

[4] المرجع نفسه ، ص478

[5]أبو الملك، وُلِدَ سنة 72هـ، آخر مُلوك بني أُميَّة، يلقب بالحمار لجرأته على الحرب، وبالجعدي؛ نسبة لمؤدبه الجعد بن درهم، له حُروب ومعارك وفتوحات، قتله بنو العبَّاس وهو هارب من بطشهم بصحراء مصر سنة 132هـ، ينظر، الأعلام، 7/ 208

[6] أفاويق: ما يجتمع في الضرع من اللبن.

[7] شمست: من شمس البعير إذا جمح ومنع ظهره.

[8]شوقي ضيف، العصر الإسلامي، 478

المبحث الثالث

الحياة الاجتماعية :

عاش المجتمع الأُموي في طبقات متباينة ، بين الغِنى والفقر ، واللَّهو والمُجون ومُعاقرة الخمر ، والزُّهد والصَّلاح .

أمَّا من حيث الأجناس ، فكان السواد الأعظم من العرب ، وطبقة صغيرة من الأجانب والوافدين للبلاد العربيَّة ، للتجارة أو التعليم ، أو الرِّق بسبب الحرب أو لأي سبب آخر ، هذه الطبقة كانت مُحتقرة عند حكام بني أميَّة ، فلم يقيموا لهم وزناً ، بل أبعدوهم عن مناصب الدَّولة وإنْ كانوا أهلاً لذلك ، خلا طائفة منهم كانوا قادةً وكُتاباً كـ طارق بن زياد البربري[1]، وعبد الحميد الكاتب، هذا الاحتقار والذل للموالي والأجانب ، كان من ضمن الأسباب الَّتي أسقطت الدَّولة الأُمويَّة . وقد سبق الكلام عن هذه الطبقة (في الحياة السِّياسية) بما يُغنى أنْ تُفرد لها مساحة في هذا المبحث؛ إنَّما المساحة للطبقات الأخر وهي:

أوَّلاً: طبقة الأغنياء

عاشت طبقة من المجتمع الأُموي في نعيم ورغدٍ من العيش لا سيما مكَّة والمدينة ، وذلك بسبب الأموال الَّتي خلفها الآباء من التجارة إبان عصر الجاهلية ، أو بسبب الحجِّ الَّذي يغمرهم بالأموال ، أو بسبب الفتوحات الإسلامية يقول مُحمد عبد القادر : " وكان قادة الجيوش يعودون من البلاد المفتوحة إلى بلادهم بأموالٍ جمعها المجاهدون من جزية وغنائم في وقت الحرب ، ومن مرتباتهم وقت السِّلم ، ففي حرب عبد الله بن أبي السرح بشمال إفريقيا – في عهد عثمان بن عفَّان – كان نصيب كُلّ فارسٍ من الغنائم ثلاثة آلاف مثقال من الذهب " [2] وتحدث شوقي ضيف عن الأموال الَّتي خلفها الحجُّ قائلاً : " وكان الحجُّ يفئ عليهم كُلَّ سنة بما يسدُّ خَلةَّ كُلّ مُحتاج " [3]

أمَّا من حيث الملبس والمسكن : فلبسوا الحرير والدِّيباج والحجارة الكريمة " كان الوليد بن يزيد يلبس حول عنقه قلائد ذهبية مرصعة بالأحجار الكريمة ، ويغيرها في اليوم مراراً كما يغير ثيابه " [4]

---

[1] فاتح الأندلس أصله من البربر، أسلم على يد موسى بن نصير، توفي سنة 102هـ، ينظر، الأعلام، 3/ 217

[2] دِراسات في أدب ونصوص العصر الأموي ، ص6

[3] أدب ونصوص العصر الإسلامي ، ص145 الخلة : الحاجة.

[4] الأغاني، 59/7

وشُيِدت القصور المُنيفة والدور العالية " قد شيّد مُعاوية بالمدينة دوراً لُقِّبت (بالرِّقطْ) لاختلاف ألوانها أحضر لها بنائين من الفرس " [1] "وكان لأحد الموالي – بالعراق – قصر اسمه (هزاردر) له ألف باب " [2] أمَّا من حيث المأكل فقد أكلوا أشهى الطَّعام على صِحاف الذهب والفِضة .

ثانياً : طبقة الفُقراء : أدى الفقر إلى ظاهرتين هما :

1. ظاهرة اللُّصوصية:

لعل شظف العيش وقِلة الزاد وظلم السُّلطان ، جعلت طائفة من المجتمع يحترفون اللُّصوصية يقول صاحب دِيوان اللُّصوص : " لقد كان الفقر هو أحد الأسباب الَّتي مهدت لظهور هذه الظاهرة ، ولكنَّه لم يكن السبب الوحيد .... لقد كانت طبيعة الظروف الَّتي أحاطت بالمجتمع الإسلامي أحد أهم الأسباب الَّتي أدت إلى ظهور اللُّصوصية واللُّصوص على السَّاحة العامة . ونعنى بطبيعة الظروف مختلف أنواع الاضطهاد الاقتصادي والاجتماعي الَّتي تعرضت لها الفئات المستضعفة "[3] وكان ولاة بني أُميَّة يضربون القبائل المُعارضه لهم بيد من حديد، ويفرضون عليهم الضرائب والجبايات الباهظة، فلجأ أبناء هذه القبائل للسَّرقة، لا سيما في أوقات القحط والجدب، " إنَّ اللُّصوصية ظهرت من أبناء هذه القبائل ، تعارض فساد الأوضاع ، فوظف أفرادها إمكاناتهم، في السعي إلى تغير واقعهم ، وكانت السَّرقة أقرب الطرق لتحقيق ذلك . ولعل خير دليل يجسد ذلك الإحساس بالظلم والقهر أبيات مالك بن الرَّيب: [4]

إنْ تنصِفُونا يا آلَ مروانَ نقتَرِبْ ... إليكُمْ والَّا فأذَنوُا بِبِعادِ [5]

فإنَّ لَنا عَنْكُمْ مَزاحاً ومَذْهَباً ... بعيسٍ إلى رِيحِ الفلاةِ صَوادِ [6]

وفي الجور عنْ ذي الجورِ مَنْأى ومَذْهبُ ... وكلُّ بلادٍ أُوْطِنَتْ كبلادِي [7]

---

[1] الأغاني، 211/1

[2] شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص196

[3] مُحمد نبيل طريفي " دِيوان اللُّصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي " دار الكُتب العِلمية – بيروت لبنان ، ط1 ، 2004م، 16/1

[4] مالك بن الرّيب بن حَوْط بن قرط بن جميل ، كان جميلاً ، عاش في أوَّل العصر الأُموي ، وكان لصاً في أوَّل أمره ثُمَّ ترك ذلك وأصبح مُجاهداً ، مات في خرسان ، دِيوان اللُّصوص، 14/2

[5] الإنصاف : العدل.

[6] المزاح: البعد. المذهب الطريق . العِيس : الإبل. . الصوادي : العطاش.

[7] الجور: الظلم. أوطنت : صارت وطناً.

فأبيات مالك بن الرَّيب تعكس موقف تمرد الأفراد على ولاة بني أَميَّة وعدم السكوت عن مظالمهم"[1] ولم تك السَّرقة قاصرة على أفراد القبيلة ، بل كان الولاة أنفسهم يسرقون ، يقول أنس بن أبي أُناس لحارثة بن بدر التميمي حين ولى على سُرَّاق إحدى كور الأهواز:[2]

أحـــارِ بـــنَ بَـــدْرٍ قَـــد وَلِيـــتَ إمـــارةً فكُـــنْ جُـــرَذاً فيهـــا تَخُـــونُ وتَسْـــرِقُ

2.ظاهرة الشكوى من ظُلْم العُمَّال:

لقد اشتكى شاعرٌ إلى عمر بن عبد العزيز من سوء العُمَّال، قائلاً:[3]

إنَّ الَّـــذين بعثـــتَ فـــي أقطارِهـــا نبـــذوا كِتابَـــكَ واســـتُحِلَّ المَحْـــرَمُ
طُلْـــسُ الثِيـــابِ علـــى مَنَـــابِر أرضـــنا كُـــلٌّ يجـــورُ وكلُّهـــم يـــتظلَّمُ [4]

كان العُمَّال يسلطون سِياطهم – في جمع أموال الزَّكاة – على الرعيَّة، من غير رحمةٍ ، حتَّى وفد الراعي النُميري إلى عبد الملك بن مروان وأسمعه كلمته المجهورة ، الَّتي جمع فيها بين المدح لأمير المؤمنين والتظلّم من عُماله ؛ لعنفهم في جمع الزَّكاة ، وكان العُمَّال لا يميزون بين الأغنياء والفُقراء ، ومن تجب أنْ تُؤْخَذ منه ومن لا تَجِب ، وفي ذلك يقول : [5]

إنَّ الخِلافَـــةَ مِـــنْ رَبِّـــي حَبـــاكَ بِهَـــا لَـــمْ يُصْـــفِهَا لَـــكَ إلَّا الواحِـــدُ الصَّـــمدُ

إلى أنْ يقول:

أَزْرَى بأَمْوَالِنَـــــا قَـــــوْمٌ أمـــــرْتَهُمُ بالعَـــدْلِ فِينَـــا فَمَـــا أَبْقَـــوْا وَمَـــا قَصَـــدُوا
نُعْطِـــي الزَّكَـــاةَ فَمَـــا يَرْضـــى خَطِيـــبُهُمُ حَتَّـــى نُضَـــاعِفَ أَضْـــعَافاً لَهَـــا عُـــدَدُ
أَمَّـــا الفَقِيـــرُ الَّـــذي كَانَـــتْ حَلُوبَتُـــهُ وفْـــقَ العِيَـــالِ فَلَـــمْ يُتْـــرَكْ لَـــهُ سَـــبَدُ
واعتَّـــل ذو المـــال والمثـــرون قـــد بقيـــت علـــى التلاتِـــلِ مـــنْ أَمْـــوَالِهِم عُقَـــدُ
فـــإنْ رَفَعْـــتَ بِهِـــمْ رَأْســـاً نَعَشْـــتَهُمْ وَإنْ لَقُـــوا مِثْلَهَـــا فـــي قابِـــلٍ فَسَـــدُوا

[1] دِيوان اللُّصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، 17/1
[2] الحيوان ، 116/3
[3] البيان والتبين، 395/3
[4] طُلْسُ : غبر ، وهو يكني بغبرة الثياب عن قذارة نفوسهم ، وأنَّهم ليسوا أعفاء .
[5] دِيوان الراعي النُميرى ، ص63،66

هذا خطابٌ قومي، والَّذي يؤكد هذا، الخبر الوارد في الأغاني، يقول صاحب الأغاني: "لَمَّا أنشد عُبيد بن حُصين الراعي عبد الملك بن مروان قوله:

فـــإن رفعـــت بهـــم رأســـاً نعشـــتهم وإن لقـــوا مِثْلَهَـــا فـــي قابِـــلِ فســـدوا

قال عبد الملك: فتريد ماذا؟ قال ترد عليهم صدقاتهم فتنعشهم ، فقال عبد الملك : هذا كثير، قال ، أنتَ أكثر منه ، قال قد فعلتُ ، فسلني حاجة تخصك ، قال : قد قضيتَ حاجتي . قال : سل حاجتك لنفسك ؟ قال : ما كنتُ لأفسد هذه المَكْرَمَةَ"[1] وللراعي قصيدة أخرى على هذا النهج نجتزئ منها:[2]

إنِّـــي حَلَفْـــتُ علـــى يمـــينٍ بَـــرَّةٍ لا أكْـــذِبُ الْيَـــومَ الخَلِيفَـــةَ قِـــيلا
إنَّ السُّـــعاة عَصَـــوْكَ يَـــوْمَ أمَـــرْتَهُم وأتَـــوْ دَوَاهِـــي لَـــوْ عَلِمْـــتَ وغـــولا [3]
أخَـــذُوا الفَصـــيلَ مِـــن المَخَـــاضِ غُلِبَّـــةً ظُلْمـــاً وَيُكْتَـــبُ للأميـــرِ أَفِـــيلا [4]
أَخَـــذُوا العَرِيـــفَ فَقَطَّعـــوا حَيْزُومَـــهُ بالأصْـــبَحِيّةِ قَائمـــاً مَغْلُـــولا [5]
حتَّـــى إذا لـــم يَترُكُـــوا لِعظامِـــهِ لَحْمـــاً ولا لِفُـــؤادِهِ مَعْقُـــولا
جَـــاءُوا بصـــكهِم وأحْـــدَبَ أسْـــأرَتْ مِنـــهُ السِّـــياطُ يَرَاعَـــةً إجْفِـــيلا [6]
أخليفَـــةَ الـــرَّحمنِ إنَّـــا عشـــيرتي أمْسَـــت سَـــوَامُهُم عِـــزين فُلُـــولا [7]
أخليفَـــةُ الـــرَّحْمنِ إنَّـــا مَعْشَـــرٌ حُنفـــاءُ نَسْـــجُدُ بُكْـــرةً وَأصِـــيلا
عَـــربٌ نَـــرى لِلـــهِ فـــي أموالِنـــا حَـــقَّ الزَّكـــاةِ مُنـــزّلاً تَنْـــزِيلا
وأتـــاهُمُ يحيـــى فَشَـــدَّ علـــيهم عَقْـــداً يَـــراهُ المُســـلِمُونَ ثقِـــيلا [8]
كُتُبـــاً تَـــركنَ غنـــيّهم ذا عَيْلَـــةٍ بَعْـــدَ الغِنـــى وَفَقيـــرهُم مَهْـــزُولا
فَتَرَكْـــتُ قـــوْمي يُقسِـــمون أمـــورَهم أ إلّيْـــكَ أمْ يَتَربّصُـــونَ قَلـــيلا

---

[1] الأغاني، 178/24
[2] دِيوان الراعي النُميري، 239، 243
[3] السعاة: عُمال الزَّكاة. غولا: خطوباً.
[4] الفصيل: الصغير من الإبل إذا جاوز الرضاع وفُصِلَ عن أُمِّه. غلبة: ظُلماً وجوراً.
أفيلا: هو الَّذي في أوَّل سنة ويُقال سُقب عند مولده ثُمَّ يصير أفيلا.
[5] حيزومه: صدره وأراد هنا عامة جسمه. الأصبحية: هي السِياط.
[6] أسأرت: أبقت. يراعة اجفيلا: جباناً رِعديداً يجفل من السِياط.
[7] عزين: فِرق وجماعات.
[8] يحيى: رجل من أهل السُلطان كان شديداً في جمع الزَّكاة على قوم الشاعر.

لقد كان لعبد الملك بن مروان موقف تجاه قبيلة الشاعر؛ لمناهضتها الزُّبيرين يقول ابن سلَّام: "وفد الراعي إلى عبد الملك يشكو بعض عماله وكانت قيس زُبيرية، وكان عبد الملك ثقيل النَّفس عليه... فأتاه يعتذر من تزبُّر قومه..."[1]

وَلَمَّا كان أمر قيس وهواها مع الزُّبيرين سلط عليها الخليفة سُعاة أشِدّاء ؛ لينالوا مِنهم وهذا ما يظهر من ثقل النَّفس الَّذي قال به ابن سلَّامٍ، والَّذي يقوّي مذهبه، أنَّ الشاعر لَمَّا أنشد الخليفة قوله :

أخليفَـــةُ الـــرَّحْمنِ إنّـــا مَعْشَـــرٌ حُنفـــاءُ نَسْـــجُدُ بُكْـــرةً وَأصِـــيلا
عَـــربٌ نَـــرى لِلـــهِ فـــي أموالِنـــا حَـــقَّ الزَّكـــاةِ مُنـــزّلاً تَنْـــزِيلا

قال عبد الملك:" هذا شرح إسلام وقراءة آية"[2]

يفيد هذا التعليق بأنَّ عبد الملك لم يقبل مِنه هذا الشِّعر، ولم يرَ له جودة، والحق إنَّ هذين البيتين في قِمة النُضِج الشِّعري؛ وهي تتوافق مع ما قبلها فِكرةً وموضوعاً. فالشاعر يُنْكِر على السُعاة الغِلظة في جمعها، وكيف تقع الغِلظة على من كانت صِفته: الإسلام، والصَّلاة، والعروبة، والاقرار بحقها ونزولها في القرءان. ثُمَّ إنَّ الشاعر نادى الخليفة نداء القريب (بالهمزة) ووصفه (بخليفة الرحمن) وفي ذلك إثارة لصِفة الرحمة الكامنة في قاع نفس الخليفة، ثُمَّ ووصف قومه بالعروبة؛ لحب بني أُميَّة للعروبة ونبذهم للعُجمة. ومن هنا يتجلى أنَّ نقد عبد الملك بن مروان لم يك على أسس فنيه بل يقوم على الحالة النَّفسية.

ويدخل في ضرب الشكوى من العُمَّال قول كعب الأشقر[3] للخليفة:[4]

إنْ كنـــتَ تحفـــظ مـــا يَليـــكَ فإنَّمـــا عُمَّـــالُ أَرْضِـــك بـــالبلادِ ذِئـــابُ
لـــنْ يســـتجيبوا للـــذي تَـــدْعُو لَـــهُ حتَّـــى تَجلَّـــد بالسِّـــيوفِ رِقـــابُ

ثالثاً : طائفة أهل اللهو والمُجون : ويتمثل ذلك في:

1- الغِناء واللهو:

---

[1] ابن سلَّام: مُحمد بن سلَّام الجمحي (طبقات فحول الشُّعراء) تحقيق: محمود شاكر، دار المدني بجدة، ط1، 160
[2] الموشح ، ص207
[3] كعب بن معدان الأشقر، أبو مالك، فارس وشاعر وخطيب، من شعراء خرسان، كان معدوداً في أصحاب المُهلَّب بن أبي صُفره في حُروب الأزارقه، مات سنة 80هـ، ينظر، الأعلام، 5/ 229
[4] البيان والتبين ، 358/3

عاشت بيئة الحجاز حياة ترف وثراء، ولم يك وراءهم أمر يشغلهم، فقد نُقِلت الخِلافة عنهم إلى دِمشق؛ وذلك لعزلهم عن أمور الخِلافة، نتج عنه فراغ عريض، قطعوه باللهو والغِناء والطَّرب، ولا ينكر مُنكِرٌ أثر الجواري في انتشار الغِناء، مثل " عزَّة الميلاء[1] وجميلة وحبابة وسلَّامة القس، واشتهر من المُغنين ابن مسجع وابن سُريج والغريض ومعبد[2] وطويس[3] ..."[4]

وكان للرقيق أثر في الألحان " فكانوا يُغنون الغِناء الفارسي بجانب الغِناء العربي "[5] وقد صنع الشُّعراء أشعاراً غزلية تناسب مجالس الغِناء. وكُتُب الأدب تُحشدُ بكثير منها. وخير مثال لهذا الضَّرب مجلس جميلة الَّتي كانت تُغني فيه، وربَّما أمرت بعض الجوارى والمُغنين أنْ يُغنوا بأبياتٍ قد اختارتها لهم، ثُمَّ تحكم على أدائهم. يروى أنَّها قالتْ – ذات يوم –: لفند ورحمة، هاتوا جميعاً صوتاً واحداً، فإنَّكم متفقون في الأصوات والألحان، فاندفعوا فغنّوا[6]

أشاقَكَ مِن نحو العَقيق بُرُوقُ ... لوا معُ تَخْفَى تَارةً وتَشَوقُ
ومالِيَ لا أهْوَى جَوَاريَ بَرْبَرٍ ... ورُوحى إلى أرواحهنَّ تَتُوقُ
لهنَّ جمالٌ فائقٌ ومَلاحةٌ ... وَدَلٌ على دَلِّ النِّساءِ يَفُوقُ

وكان بَرْبَرٌ حاضراً ، فقال . جواريَّ والله على ما وصفتم. فقالت جميلة: صدق.

ولعزَّة مجلس غِناء يقصده النَّاس من كُلِّ فجٍّ وصوب، وكانت تُغْنِّي الأبيات الغزلية الخفيفة، وأكثر الشُّعراء حظوة عند المُغنين ابن أبي ربيعة، فقد غنَّتْ له عزَّةُ قوله:[7]

تَذَكرْتَ هِنْداً وَأَعْصَارَهَا ... وَلَمْ تَقْضِ نَفْسُكَ أَوْطَارَهَا
تَذَكرْتِ النَّفسُ مَا قَدْ مَضى ... وَهَاجتْ عَلَى العَيْنِ عُوَّارَهَا

---

[1] مُغنية قديمة بالحِجاز، تضرب على العِيدان والمعازف، قطنت المدينة، كانت وافرة السمن، جميلة الوجه، أعلم النَّاس بإمور النِّساء، لُقِبَت بالميلاء؛ لتمايلها في مشيها، ماتت سنة 115هـ، ينظر، الأعلام، 4/ 230

[2] معبد بن وهب، نابغة في الغِناء في العصر الأُموي، من الموالي، عاش في المدينة، وغنى لكبار رجالها، ثُمَّ إنتقل إلى الشَّام، وغنَّى للأمراء والخُلفاء، كان أديباً فصيحاً، عاش طويلاً إلى أنْ انقطع صوته، مات سنة 126هـ، ينظر، الأعلام، 7/ 265

[3] عيسى بن عبد الله، أبو المنعم، مولى بني مخزوم أوَّل من غنَّى بالمدينة غِناءاً يدخل في الإيقاع عالم بتاريخ المدينة وأنساب أهلها، مات بالسويداء سنة 92هـ، ينظر، الأعلام، 5/ 150

[4] دِاسات في أدب ونصوص العصر الأُموي ، ص9

[5] الأغاني طبع دار الكُتب، 38/1

[6] علي مُحمد البجاوى وآخرون " قصص العرب " دار إحياء الكتُب العربيَّة ط4 ، 1962م، 34/1

[7] المرجع نفسه ، 35/1

لِتَمْـــــنَح رَامَـــــةَ مِنَّـــــا الهَـــــوى وَتَرْعَـــــــى لِرَامَـــــــةَ أَسْـــــــرَارَها
إذا لَـــــمْ نَزُرْهَـــــا حِـــــذارَ العِـــــدا حَسْـــــدَنا عَلَـــــى الـــــزَّوْرِ زُوَّرهـــــا

لقد دخل المِزمار كُلَّ بلدٍ أُمويَّة، وكان النصيب الوافر لأهل القُصور والدور الكبيرة ، والحوانيت .

2- المُجون :

يتمثل المُجون في شرب الخمر، وذكرها في أشعارهم على سبيل الاستحباب والوله والشغف لها ، على نحو ما نجده عند طائفة من الَّذين أسرفوا على أنفسهم في شربها وذكرها ، متحررين من قوانين الدِّين ، " وخاصة في البيئات البعيدة الَّتي رحل إليها العرب كخُرسان ، حتَّى اضطر واليها أنْ يُعَاقِب من احتساها من جنده بالقتل ؛ لكثرة تفشيها " [1]

وكان نفرٌ من الشُّعراء يُعاقرونها ، كسُحيم بن وثيل ، الَّذي كانت زوجته تراجعه فيها كثيراً ، ويردّ عليها قائلاً : [2]

تَقُـــوْلُ حَـــذْراءُ لَـــيْسَ فِيْـــكَ سِـــوْى الـــ خَمْـــــرِ مَعِيْـــــبٌ يَعِيْبُـــــهُ أحَـــــدُ
فَقُلْـــتُ : أَخْطَـــأتِ بَـــلْ مُعَـــاقَرَتِي الـــ خَمْـــرَ وَبَـــذْلِى فِيْهَـــا الَّـــذي أجِـــدُ
هُـــو الثنـــاءُ الَّـــذي سَـــمِعْتِ بِـــهِ لا سَـــــبَدٌ مُخْلـــــدي وَلاَ لَبَـــــدُ[3]
وَيْحَـــكِ لَـــوْلَا الخُمُـــوْرُ لَـــمْ أَحْفِـــلْ الـــ ـــــعَيْشَ وَلاَ أَنْ يَضُـــــمّنِي لَحْـــــدُ[4]
هِـــي الحَيـــا وَالحَيَـــاةُ واللَّهـــو لَا أَنْـــــتِ وَلاَ ثَـــــرْوَةٌ وَلاَ وَلَـــــدُ

فالخمر حياته الَّتي لاتزاحم معها النِّساء ولا الولد ولا المال.

يقول حارثة بن بدر فيها : [5]

يَعِيْـبُ عَلَـيَّ الـرَّاحَ مَـنْ لَـوْ يَـذُوْقهَا لَجُـنَّ بِهَـا حتَّـى يُغَيَّـبَ فـي القَبْـرِ
عَـلامَ تَـذمُّ الـرَّاحَ وَالـرَّواحُ كاسْـمِهَا تُـرِيْحُ الفتـى مِـنْ هَمِّـه آخِـرَ الـدَّهْرِ

[1] شوقي ضيف " العصر الإسلامي " بتصرف 377
[2] المرجع نفسه ، ص 377 – 379
[3] سبد ولبد : قليل ولا كثير وهو مثل.
[4] لحد : شق في جانب القبر.
[5] الأغاني (طبع ساسى) 13/21

فَلُمْنـــى فـــإنَّ اللـــومَ فِيْهَـــا يَزِيْـــدُنِي غَرَامـــاً بِهَـــا إنَّ المَلامَـــةَ قَـــدْ تُعْـــرِى

وممَّن أجاد وصفها وعُرِفَتْ به أبو الهند[1] يقول ابن المعتز عنه[2] " كان جماعة مثل أبي نواس[3] والخليع وأبي هفّان وطبقتهم إنَّما اقتدروا على وصف الخمر بما رأوا من شِعر أبي الهند وبما استنبطوا من معانيه " [4]

لقد وجد في الخمر لذة وطمأنينة جعلته يتمنى أنْ يضمها إلى صدره حال موته ووضعه في رمسه، قائلاً [5]

اجعلـــوا – إنْ مِـــتُّ يَوْمـــاً – كفنـــي وَرَق الكَـــــرمْ وقبـــــري مَعْصَـــــرَهْ

وادْفنـــونى وادفِنـــوا الـــرَّاحَ معـــي واجعلـــوا الأقـــداحَ حَـــوْلَ المَقْبَـــرهْ

هذان البيتان يُشبهان قول أبي محجن الثقفي[6] في الخمر إذ يقول [7]

إذا مِـــتُ فـــادفنى إلـــى جنـــبِ كَرْمـــةٍ تـــروى عِظـــامي بَعْـــدَ مـــوتي عروقهـــا

فـــــلا تـــــدفننى بـــــالقلاةِ فـــــإنني أخـــــاف إذا مـــــا مِـــتُ أنْ لا أذوقهـــا

والَّذي ساعد على انتشارها وفشوها؛ معاقرة طائفة من الخلفاء لها مثل: يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد بن يزيد، الَّذي أكب على الخمر إكباباً كما أكبَّ على نظم الخمريات"[8] ومن ذلك قوله:[9]

علِّلانـــــــــــي واسْـــــــــــقِياني مـــــــن شـــــــرابٍ أصْـــــــبهاني

مِـــــنْ شَـــــرابِ الشَّـــــيخِ كِسْـــــرى أَوْ شـــــــــــرابِ القَيْـــــــــــروانِ

إنَّ فـــــــي الكـــــــأسِ لَمِسْـــــــكاً أَوْ بِكفّـــــــي مَـــــــنْ سَـــــــقَانِي

---

[1] غالب بن ربعيّ الرياحى التميمي ، اشتهر منذ أوئل حياته بالفسق وفساد الأخلاق ومُعاقرة الشراب ، مات في خِلافة المنصور ، ينظر ،الشِّعر والشُّعراء، 633/2

[2]عبد الله بن المعتز، أبو العبَّاس، ابن المتوكل العبَّاسي وُلِدَ سنة 247، شاعر كبير وُلِعَ بالأدب وصنع فيه كتباً، شِعره عذب وله دِيوان شِعر تولى الخِلافة يوماً وليلةً، ثُمَّ قُتِلَ، قتله مؤنس خادم المقتدر العبَّاسي سنة 296هـ، ينظر، الأعلام، 1/ 184

[3]الحسن بن هانئ، شاعر عبَّاسي، وُلِدَ سنة 146هـ في الأهواز وعاش في العِراق، مدح الخُلفاء، أشتهر بالخمريات وشِعر الغزل الفاحش، له ديوان شِعر، مات سنة 196هـ، ينظر، الأعلام، 2/ 225

[4] شوقي ضيف " العصر الإسلامي " 384

[5] المرجع نفسه ، 385

[6]شاعر مُخضرم، أدرك الإسلام فأسلم له غزوات وحروب، كان فارساً، لكنَّه كان مُسرفاً في شرب الخمر، له أشعار في شرب الخمر والمفاخر، ينظر، الأعلام، 5/ 76

[7] دِيوان أبي محجن الثقفي ، شرح أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ، مطبعة الأزهار البارونية مصر ، ص 23

[8] شوقي ضيف "العصر الإسلامي" ص380

[9] المرجع نفسه، ص 383

إنَّمـــــــا الكَـــــــأْسِ ريِيْـــــــعٌ يُتَعَـــــــــــاطَى بالِبَنَـــــــــــانِ
وحُميَّـــــــا الكـــــــأْسِ دَبَّـــــــتْ بَـــــــيْنَ رِجْلـــــــي وَلِسَـــــــانِي

يُعَدُّ الوليدُ – بحق – رائد العبَّاسيين من أمثال أبي نواس في هذا الفن من فنون الشِّعر ، ولاحظ ذلك النُّقاد ، فقال أبو الفرج " وللوليد في ذِكر الخمر وصِفتها أشعار كثيرةٌ ، قد أخذها الشُّعراء فأدخلوها في أشعارهم ، وسلخوا معانيها ، وأبو نواس خاصة ، فإنَّه سلخ معانيه كُلّها وجعلها شِعره"[1]

رابعاً: طائفة أهل الزهد والصَّلاح:

قابل حركة المُجون والخمور واللهو حركة زهد شاعت وسط أفراد هذا المجتمع، وكانت تقوم على نبذ الدُّنيا والإقبال على الآخرة ، وممَّن تنسَّكوا وزهدوا في الحياة الدُّنيا : " الحسن البصري، وسابق البربري، وعبد الله بن عبد الأعلى ، وأبو الأسود وغيرهم " وقد تأثر الزهاد بخُطب الوعاظ وما كان يُنْشَد فيها من أشعار تُذَكِر بالآخرة كشِعر لبيدٍ والنَّابغة الجَّعدي وغيرهم ، وكان للرجاز أشعار وأدعية وابتهالات تدل على الوعظ والإرشاد، كقول ذي الرُّمة –مناجياً ربه قبل موته–:[2]

يَـا ربِّ قَـدْ أشـرفتْ نفسـى وَقـدْ عَلِمـتْ عِلْمَـــاً يَقِيْنَـــاً لَقَـــدْ أحصـــيتَ آثـــاري
يَـا مَـارِجَ الـروحِ مِـنْ جِسْـمِي إِذَا احْتَضَـرَتْ وَ فَـــارِجَ الكَـــرْبِ زَحْزِحْنِـــى عَـــنْ النَّـــارِ

ويُذَكِرُنَا عبد الله بن عبد الأعلى بالقبر والآخرة، فيقول : [3]

مَـنْ كَـانَ حِـيْنَ تُصـيب الشَّـمسُ جَبْهَتَـهُ أَوْ الغُبَـــارُ يَخَـــافُ الشَّـــيْنَ والشَّـــعَثَا
وَيَـــألفُ الظِّـــلَّ كَـــىْ تَبْقَـــى بَشَاشَـــتُهُ فَسَـــوْف يَسْـــكُنُ يَوْمَـــاً رَاغِمـــاً جَـــدَثا[4]

وهذا أبو الأسود الدؤلي[5] يَحُث النَّاسَ على سؤال الله وحده وترك ما بيد العِباد، قائلاً: [6]

وإذا طَلَبْـــتَ مِـــنْ الحَـــوَائِجِ حَاجَـــةً فَـــادْعُ الإِلَـــهَ وَأَحْسِـــنْ الأَعْمَـــالَا

---

[1] المرجع نفسه ، ص 383
[2] دِيوان ذي الرّمة (طبعة كمبريدج) ص667
[3] أمالي القالي، 323/2
[4] الجدث: القبر.
[5] ظالم بن عمرو ، وَلِيَ قضاء البصرة ، عاش في العصر الأُموي ، وكان مُتشيعاً لعليٍّ ابن أبي طالبٍ –رضي الله عنه- ، وهو أوَّل من وضع نقط الإعراب في المُصحف ، توفى سنة 69هـ، ينظر، الشِّعر والشُّعراء، 707/2 والخِزانة، 136/1
[6] شوقي ضيف "العصر الإسلامي " ص 374

وَدَعِ العِبَـــــادَ وَلَا تَكُـــــنْ طَلَّابَهُـــــمُ لَهِجَـــاً تَضَعْضَـــعُ لِلْعِبَـــادِ سُـــؤَالَا
إِنَّ العِبَـــــادَ وَشَـــــأْنَهُمْ وأُمُـــــوْرَهُمْ بِيَـــــدِ الإِلَـــــهِ يُقَلِّـــــبُ الأَحْـــــوَالا

وقال مُحذراً الأغنياء الَّذين يجمعون المال ولا ينفقونه في سبيل الله ، ويتركوا العِلم:[1]

قَـــدْ يَجْمَـــعُ المـــرءُ مَـــالاً ثُـــمَّ يُحْرَمُـــهُ عمَّـــا قَلِيْـــلٍ فَيَلْقَـــى الـــذُّلَّ وَالحَرَبَـــا[2]
وَجَـــامِع العِلْـــمِ مَغْبُـــوْطٌ بِـــهِ أَبَـــداً وَلا يُحَـــاذِرُ مِنْـــهُ الفَـــوْتَ والسَّـــلَبَا

[1] المرجع نفسه ، ص 375
[2] الحرب : سلب المال.

الفصل الثاني

الشِّعر والنَّقد في مجالس خُلفاء بني أُميَّة

المبحـــــث الأوَّل: مُعاويـة بـن أبـي سُـفيان

المبحــث الثــاني: الوليـد بـن عبـد الملـك
سُـليمان بـن عبـد الملـك
عمـر بـن عبـد العزيـز

المبحــث الثالــث: يزيـد بـن عبـد الملـك
هشـام بـن عبـد الملـك
الوليـــد بـــن يزيـــد

المبحث الأوَّل:

الأدب والنَّقد في مجالس مُعاوية بن أبي سُفيان:

قبل الخوض في موضوع الأدب والنَّقد في مجالس مُعاوية، نُعرج أوَّلاً على:

عناية الخلفاء بالأدب والشِّعر والنَّقد:

اهتم خُلفاء بني أُميَّة بالشِّعر اهتماماً كبيراً ؛ لاعتمادهم عليه في دعوتهم وإقامة دعائم دولتهم. وظهر هذا الاهتمام في مجالسهم، الَّتي أمّها الشُّعراء والنُّقاد، ينشدون الخُلفاء جيد أشعارهم، ويحكم عليها الخُلفاء بالجودة أو الرداءة، ويهبون الجوائز والعطايا لمن أحسن، وكل هذا يدل على تحسسهم مواطن الجمال وإلابداع الأدبي، وحسهم المرهف، وسلامة فطرهم. "وصارت بذلك قصور الخُلفاء منتدى للشُّعراء والنُّقاد..."[1]

وأوَّل الخُلفاء اهتماماً بالأدب والنَّقد هو مُعاوية بن أبي سُفيان.

مُعاوية:

"هو مُعاوية بن أبي سُفيان بن صخر بن حرب بن أُميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف الأُموي القرشي، وهو صحابيّ روى الحديث عن النَّبيِّ ﷺوكان من كُتاب الوحي .

من أُسرة كريمةٍ عريقةٍ عُرِفت بالقِيادة في الجاهلية والإسلام، نشأ في بيت شِعر فجدّه من قِبَلِ أبيه شاعرٌ وكذلك جدّه من قِبل أُمّه (عتبة بن ربيعة) شاعرٌ وأمَّا والد مُعاوية (صخر بن حرب) وأُمّه هند بنت عُتبة كانا من أشعرِ النَّاسِ ، ولهما أشعارٌ كثيرةٌ في سِيرة ابن هشام"[2]

لقد أيقظت هذه النشأة حِسه الشِّعري، فقرض الشِّعر وأحسن، غير أنَّه لم يُعْرَفُ بالشِّعرِ، بل عُرف بالذكاءِ والدهاء والحنكة السِّياسية، وكان شِعره يدل على ذلك، وله دِيوان مطبوع.

---

[1]حفنى مُحمد "النَّقد الأدبي عند العرب" ص242

[2]دِيوان مُعاوية بن أبي سُفيان: جمعه وحققه وشرحه: فاروق أسليم بن أحمد، دار صادر بيروت – لبنان، ط1، 1996م، ص 10، 23

لم يكتفِ بالمنظوم بل طرق المنثور بالخُطب الطِوال واشتهر بها "وكان بنو أُميَّة يُفاخرون بها"[1] وَذَكَرَه الجاحظ في الخُطباء، وأورد قول سعيد بن المُسيب[2]، وقد سُئِلَ: من أبلغُ النَّاس؟ قال رسول الله ﷺ فقِيل: ليس عن هذا نسألك، قال: مُعاوية وابنه"[3]وهو أوَّل من خطب قاعداً، وذلك حين كَثُر شحمه وعَظُمَ بطنه"[4] وهو أوَّل ملك للعرب، وكان عمر بن الخطاب مُعْجَباً به ويقول عنه: هذا كِسرى العرب"[5] "وكانت مُدّة خِلافته نحو عشرين سنة، مات في رجب سنة ستين"[6]

حثه على رواية الشِّعر:

لقد حث مُعاوية على أخذ الشِّعر وتعليمه للأبناء ومنه قوله: "رووا أولادكم الشِّعر، واجعلوه أكبر هَمّكم، وأكثر آدابكم"[7] ويعلل ذلك في موضع آخر، حين قال للحارث بن نوفل[8] أن يُعلِّم ولده الشِّعر "روّه من فصيح الشِّعر؛ فإنَّه يفتح العقل ، ويُفصّح المنطقَ ، ويُطلقُ اللسانَ ، ويدل على المروءة والشَّجاعة "[9]

وكان يفضِّل الشِّعر الَّذي يدل على المكارم الَّتي تنسجم مع شخصيته كقائد محنك أرسى قواعد دولة عربية، لذلك فضل طُفيلاً الغنوي[10]، قائلا: "دعوا لي طُفيلاً ؛ فإنَّ شِعره أشبه بشِعر الأولين"[11] وفي رواية الأغاني: "خلّوا لي طُفيلاً ، وقولوا ما شئتم في غيره من الشُّعراء"[12]

---

[1]المصدر نفسه، ص18

[2]أبو مُحمد، سيد التابعين، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة المنورة، جمع بين الحديث والزهد والفقه والورع، مات سنة 94هـ، ينظر، الأعلام، 3/ 103

[3]البيان والتبين ،314/1

[4]السيوطي: جلال الدِّين عبد الرحمن (تاريخ الخلفاء) دار ابن حزم – بيروت لبنان - ط1 ، 2003م ، ص160

[5]المرجع نفسه، ص160

[6]المرجع نفسه، ص159

[7]دِيوان مُعاوية، ص24

[8]الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، استعمله النَّبيُّ ﷺ على بعض أعمال مكَّة وكذلك استعمله أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، روى الحديث عن النَّبيِّ ﷺ مات في خِلافة عثمان بن عفَّان رضي الله عنه، ينظر، مغلطاي بن قليج بن عبد الله (إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرِجال) تحقيق: أبو عبد الله عادل بن أحمد، دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ط1، 2001م، 3/ 324

[9]المصدر نفسه، ص24

[10]طُفيل بن عوف بن مالك، شاعر جاهلي فحل، من الشجعان، وهو أوصف العرب للخيل، سُمّي ب(طُفيل الخيل) و(المحبِّر) لتحسينه شِعره عاصر زُهيراً بن أبي سُلمي والنَّابغة الجعدي، له دِيوان شِعر، ينظر، الأعلام، 3/ 228

[11]الأصمعي: عبد الملك بن قريب (فُحولة الشُّعراء) تحقيق: المستشرق، ض نوّري ، دار الكِتاب الجديد، بيروت- لبنان - ط2 1980م ،ص10

[12]الأغاني، 350/15

وكان طفيلٌ يُنْعتُ بالمُحَبّر؛ لحُسْنِ وصفه للخيل. وكان يَسْتَحْسِن (شِعر زُهير بن أبي سُلمى[1] وابنه كعب[2]، ومعن بن أوس[3]"[4] وكلهم من عبيد الشِّعر.

روايته للشِّعر:

روى الشِّعر واستشهد به وتمثل به في مواقف من حياته، ومنها استشهاده بأبيات لعمرو بن الإطنابة[5] وهو بصِفين[6] إذ يقول: (فلقد رأيتني – وأنا بصِفين – وقد أوتيت بفرس أغر محجّل ، بعيد البطن من الأرض ، وأنا أريد الهرب لشدّة البلوى ، فما حملني على الإقامة إلّا أبيات عمرو بن الإطنابة:[7]

أبَـــتْ لـــي عِفّتِـــي وأَبَـــى بَلائِـــي ... وأَخْـــذِي الحَمْـــدَ بـــالثمنِ الـــرَّبيحِ

وإقْـــدامِي علـــى المكْـــرُوهِ نَفْسِـــي ... وضَـــربِي هَامَـــةَ البَطَـــلِ المُشِـــيحِ[8]

وقَـــوْلِي كُلَّمـــا جَشَـــأتْ ، وجاشَـــتْ ... مَكانَـــكِ تُحْمَـــدِي ، أوتَسْـــتَرِيحِي

لأُكْسِـــبَها مـــآثِرَ صـــالِحاتٍ ... وأَحْمِـــي بَعْـــدُ عـــنْ عِـــرْضٍ صَـــحِيحِ

وفي رواية (لأدفع عن مآثر صالحات) ولعلها أصح الروايات لمقابلتها الشطر الثاني، وأحمي بعد عن عرضٍ صحيحِ.

لقد أثرت هذه الأبيات في سلوك مُعاوية ، وحثته على الثبات. ولَمَّا رأى عبد الله بن بُديَلاً بن الورقاء[9] قتيلا بصِفين ، وأنشد مُتمثلاً ومبيناً عِظَم القَتِيل:[10]

---

[1]شاعر جاهلي حكيم، من أسرة شاعرة، وهو أحد أصحاب المُعلقات، كان يُنَقِح شِعره حولاً كاملاً، حتَّى عُرِفَ بحولياته، له دِيوان شِعر، ينظر، الأعلام، 3/ 52

[2]شاعر مُخضرم، ورث عن أبيه ملكة الشِّعر، كان مشركاً في أوَّل أمره يهاجي النَّبيَّ ﷺ فأهدر دمه، ثُمَّ جاءه معتذراً ومدحه بقصيدته البردة وأسلم وحسن إسلامه، ودافع بعد ذلك عن الإسلام، ينظر، الشِّعر والشُّعراء، 68

[3]شاعر فحل، من مُخضرمي الجاهلية والإسلام، له مدائح في جماعة من الصَّحابة، مات بالمدينة سنة 64هـ، ينظر، الأعلام، 7/ 273

[4]الخِزانة ، 261/7 دِيوانه ، ص31

[5] عمرو بن عامر بن زيد مناة الخزرجي ، والإطنابة أُمّه ، شاعر قديم ، من فرسان قومه وسادتهم ، ملك الحجاز وكان على قومه في بعض حُروبهم مع الأوس ، الأغاني ،121/11

[6]معركة معروفة في التاريخ، سُميت بالمكان الَّذي جرت فيه، وصفين موضع بقرب الرِّقة، على شاطئ الفرات من الجانب الغربي، ينظر، معجم البلدان، الياقوت الحموي، 3/ 414

[7]الحماسة البصرية ،7/1

[8]المشيح: المُجِد في الأمر. جشأت وجاشت: ارتفعت من خوفٍ وفزع.

[9]عبد الله بن بديل بن الورثاء، شاعر شجاع، شَهِدَ صِفين وحمل فيها على أصحاب مُعاوية وقُتِلَ فيها، قال مُعاوية عنه: (هذا كبش القوم وربِّ الكعبة) ينظر، البدايَة والنهاية، 2/ 73

[10]دِيوان مُعاوية ، ص27

أخو الحربِ إنْ عَضّتْ به الحربُ عضّها وإن شَـمّرتْ يومـاً بـه الحـربُ شـمّرا

كليـثِ هِزبـرٍ كـان يَحْمِـي زِمـارَهُ رَمَتْـهُ المنايـا قصـدها فَتَقَطـرا[1]

وقد سأل يوماً ابن الزُّبير عن حال الحسن بن علي[2] فأجابه : والله لو شاء حسنٌ أن يضربك بمائة ألف سيف ضربك . فقال مُعاوية: أردتْ أن تغرين به، والله لأصِلنّ رحمه، ثُمَّ تمثّل ببيتين :[3]

ألا أيُّهـا المـرءُ المُحَـرِّشُ بَيْننـا أَلَا اَقْتُـلْ أخـاكَ، لسـتُ قاتـلَ أرْبَـدِ

أبـى قُرْبُـه مِنّـي وحُسْـنُ بلائِـه علـيّ بمـا يـأتي بـه الـدهرُ فـي غـدِ

يُظْهِر حبه لبعض النَّاس مُتمثلاً بأبيات تناسب الموقف، ومن هذا النوع أنَّ عرابة الأوسي[4] دخل عليه يوماً ، فقال مُعاوية: لقد صدق الشمَّاخ[5] حين قال فيك:[6]

رأيـتُ عَرابَـةَ الأوسِـيّ يَسْـمُو إلـى الخيـراتِ مُنَقطِـعَ القَـرِينِ

إذا مـا رَايـةٌ رُفِعَـت لمجْـدٍ تَلَقَّاهـا عَرَابَـةُ بـاليمنِ

البيتان في غاية المدح ، حيث جعله يسمو في الخيرات بعيد الشأو والمكان عن الأخلاء، ثُمَّ جسد المجد وجعله رايةً ، وجعل الممدوح يمسك هذه الراية باليمين، وخصّ اليد اليُمنى لِمَا فيها من معنى البركة والخير. وكانت العرب تتمدّح بالمجد وباليُمن فجمع الشاعر بينهما ، الأمر الَّذي جعل مُعاوية – هو عربي قح – يُعجب بهذا الضَّرب من المدح.

ولَمَّا أحس بدنو أجله، تمثّل بقول الأشهب بن رميلة النهشلي[7]:[8]

إذا مِـتُ مـاتَ الجـودُ، وانقطـعَ النـدى مـن النَّـاسِ إلّا مـنْ قَليـلٍ مُصَـرَّدِ[9]

ورُدّتْ أكـفُّ السـائلينَ وأمْسَـكُوا مِـنَ الـدِّين والـدّنيا بخُلـفٍ مُجَـدَّدِ

---

[1]تقطرا: أي تهيأ للقتال.

[2]الحسن بن علي بن أبي طالب، سيد شباب أهل الجنة، وُلِدَ سنة 3هـ، كان فاضلاً عابداً، اعتزل الفتنة، مات سنة 50هـ، ينظر، الأعلام، 2/ 199

[3]دِيوان مُعاوية ، ص28 ، الأغاني ، 173/9

[4]من سادات المدينة الأجواد المشهورين، أدرك الإسلام فأسلم، وفد الشَّام أيام مُعاوية وله أخبار معه، مات سنة 60هـ، ينظر، الأعلام، 4/ 222

[5]الشماخ بن ضرار القطفاني، شاعر مُخضرم، وهو من طبقة لبيد والنَّابغة، كان أرجز النَّاس على البديهة، له شِعر حسن، شَهِدَ القادسية، مات سنة 22هـ، ينظر، الأعلام، 3/ 175

[6]دِيوان الشمَّاح بن ضرار ، تحقيق : صلاح الدِّين الهادي ،دار المعارف ،مصر، ص335-336

[7]أبو ثور، من الشُّعراء المجيدين، وُلِدَ بنجد قبل الإسلام ثُمَّ أسلم وشَهِدَ صِفين كان معاصراً لجرير وبينهما تهاجي وله هجاء مع الفرزدق، توفى سنة 86هـ، ينظر، الأعلام، 1/ 333

[8]دِيوان مُعاوية، ص29 ،الكامل لابن الأثير، 8/4

[9]المصّرد من العطاء: ما يعطى قليلاً قليلاً.

وتمثل أيضاً بقول أبى ذؤيب الهذلي:[1]

وتَجَلُّـــــدي للشَّـــــامتين أُريهـــــمُ أنِّـــي لريـــبِ الـــدَّهْرِ لا أتَضْعَضـــعُ
وإذا المنيّـــــةُ أنشـــــبتْ أظفارهـــــا ألفيـــتَ كُـــلَّ تميمـــةٍ لا تَنْفَـــعُ

وله مواضع كثيرة تمثل فيها بالشَّعر يضيق المبحث لسردها جميعاً، وبذلك يقع الاستدلال على أنَّه كان من رواة الشِّعر العربي.

حبه للشِّعر:

لم يكن مُعاوية راوية للشِّعر فحسب، بل كان مُحباً له شغوفاً به وبرهان ذلك أنَّ هُدْبة[2] لَمَّا قَتل زياداً وجِيّء به إلى مُعاوية ، سأله مُعاوية عن قصته، فقال هُدْبة: أتحب أن أقصها شِعراً أم نثراً؟ فقال: شِعراً، فقال هُدبة مرتجلاً:[3]

ألا يـــا لقـــومي للنَّوائـــبِ والـــدَّهرِ وللمـــرءِ يُـــردِى نفسَـــهُ وهـــو لا يـــدري

حتَّى قال:

رُمِينـــا فرامَينْـــا فصـــادفَ رَمْيُنَـــا مَنايَـــا رِجـــالٍ فـــي كِتـــابٍ وفـــي قَـــدْرِ
فـــإن تـــك أموالنـــا لا نضـــق بهـــا ذراعـــاً وإن صـــبرٌ فنصـــبر للصَّـــبرِ

فقال مُعاوية أراك يا هُدبة قد أقررت بقتل صاحبهم، فحكم عليه فقُتِل.

وفادة الشُّعراء إليه:

له أخبار مع وفود الشُّعراء، تتجلى فيها تجربته النَّقدية ونظره في إصابة المعنى. وكان الأحنف بن قيس[4] يَفد على مُعاوية ويحاوره في الأشعار والآداب. يُروى (أنَّ الأحنف دخل على معاوية ذات يوم

---

[1] دِيوان مُعاوية، ص29
[2] هُدبة بن الحشرم العذري، شاعر فصيح يرتجل، من أهل بادية الحجاز، كنيته أبو عُمير، كان راوية للحطيئة، قُتِلَ في خبرٍ طويل سنة 50هـ، ينظر، الأعلام، 1/ 78
[3] الخِزانَة،9/337-338
[4] أبو بحر، سيد تميم وأحد الفصحاء الشجعان، يُضربُ به المثل في الحِلم والحكمة، وُلِدَ في البصرة وأدرك النَّبيَّ ﷺ ولم يره، وكان إذا غَضِبَ غَضِبَ له مائة ألف سيف لا يدرون فيما غَضِبَ، مات سنة 72هـ، ينظر، الأعلام، 1/ 276- 277

فأشار مُعاوية إلى الوساد أن اجلس ، فجلس الأحنف على الأرض، فقال له مُعاوية: وما منعك من الجلوس على الوساد؟ فقال يا أميرَ المؤمنين ، إنَّ فيما أوصى به قيس بنُ عاصمٍ المِنقريُّ[1] وَلَده أن قال: "لا تَغْشَ السُّلطانَ حتَّى يَمَلَّكَ ، ولا تقطعه حتَّى ينساكَ ، ولا تجلس على فِراش أو وِسادٍ ، واجعل بينك وبينه مجلس رجلٍ أو رجلين ، فإنَّه عسى أن يأتي من هو أولى بذلك المجلس مِنكَ فَتُقامُ لهُ ، فيكون قيامك زيادةً له ونقصاناً عليك" فقال مُعاوية: "لقد أُوتِيتَ تميمٌ الحِكمةَ مع رقّةِ حواشي الكَلِم" وأنشأ يقول:[2]

يـــا أيُّهـــا الســـائلُ عَمّـــا مضـــى ... وعِلْـــمِ هـــذا الـــزَّمنِ العائـــبِ
إن كنـــتَ تبغِـــي العلـــمَ أو أهلـــه ... أو شـــاهداً يخبِـــرُ عـــن غائـــبِ
فـــاعتبرِ الأرض بسُـــكانِها ... واعتبـــر الصّـــاحِبَ بالصّـــاحبِ

في القصة جمع بين التاريخ المتمثل في أخبار قيس والإفادة من وصيته وتطبيقها في مجالس المُلوك، وكان في الخطاب تلطف ، الأمر الَّذي جعل مُعاوية يُعجبُ بهذا النظم من الكلام ويحكم عليه : بالرقة والحكمة ، ويردف ذلك بالشِّعر لقد جمع الخبر بين (الشِّعر والنثر والنَّقد) وكل ذلك كان في قصر الخليفة.

وللأحنف أخبار أخرى مع مُعاوية ، تدور حول التعريض بالشِّعر ، ومنها أنَّ مُعاوية سأل الأحنف عن (الشئ الملفف في البجاد) من بيتي يزيد بن عمرو بن الصَّعِق[3]:[4]

إذا مـــا مـــاتَ ميـــتٌ مِـــنْ تمـــيمٍ ... فَسَـــرَّكَ أنْ يَعِـــيْشَ فَجِـــئْ بِـــزادِ
بخبـــرٍ أو بسَـــمْنٍ أو بتَمـــرٍ ... أو الشـــئِ المُلفَّـــفِ فـــي البجـــادِ[5]

[1]أبو علي، شاعر فارس شجاع، كان سيداً في الجاهلية والإسلام، صَحِبَ النَّبيَّ ﷺ في حياته وعاش بعده زمناً، تعلَّم من الأحنف بن قيس الحِلم ، ينظر، البيان والتبين، 1/ 218
[2]البيان والتبين،1/54،53
[3]يزيد بن عمرو بن خُويلِد بن الصَّعق الكِلابي، فارس وشاعر جاهلي لُقِبَ جده بالصَّعق؛ لأنَّ صاعقة أصابته فمات، ينظر، الشِّعر والشُّعراء، 618
[4]خِزانة الأدب، 1/207،206
[5]الشئ الملفف في البجاد: وطب التمر.

قال الأحنف: السخينة يا أمير المؤمنين . أراد مُعاوية أن يُعَرِض ببنى تميم ، لأنَّ الأحنف تميمى، وأراد الأحنف أن يُعَرِض بقريش، لأنَّ مُعاوية قرشي. السخينة لقب لقريش تتألم منه؛ لأنَّهم اتخذوا حِساءً من دقيق عند الجدب وأكلوه، قال حسَّان:[1]

زعمـــتْ ســـخينةُ أنْ ســـتغلبَ ربَّهـــا ولَيُغْلَـــــبَنَّ مُغَالِـــــبُ الغـــــلاَّبِ

وعيّر خداش بن زُهير قُريشاً بهذا اللقب قائلاً:[2]

يـــا شَـــدّةً مـــا شـــددنا غيـــرَ كاذبـــةٍ علـــى سَـــخِينَةَ لـــولا اللَّيـــلُ والحـــرمُ

إنَّ الشُّعراء أصحاب ألسنةٍ حداد، وجوابٍ مفحِمٍ، إذا لمحوا في الحديث هدماً لمنزلتهم أو منزلة آبائهم، أو تعريضاً بهم، وإن وقع هذا الأمر من خليفة، هذه السمة تفرّد بها العرب عن غيرهم من الأمم، وليس خبر عمرو بن كلثوم[3] مع عمرو بن هند[4] بغائب عن الأذهان.

على هذا النحو من الكبرياء دارت أخبار الشُّعراء مع مُعاوية – لاسيما – إذا كانوا ينتسبون إلى حِزبٍ مُعارض للأُمويين. ومن أمثلة ذلك، (دخل شريك بن الأعور – وكان من أنصار عليّ – على مُعاوية، فقال له مُعاوية: إنَّك لشريك، وما لله من شريك، وإنَّك لابن الأعور والصحيح خير من الأعور، وإنَّك لدميمٌ، فكيف سُدتَ قومك؟ فقال شريك: أنتَ مُعاوية وما مُعاوية إلَّا كلبةٌ عوت، وإنَّك لابن صخر والسهل خير من الصخر، وإنَّك لابن حرب والسِلم خيرٌ من الحرب، وإنَّك لابن أُميَّة وما أُميَّة إلّا أمَةٌ صُغِّر بها، فكيف سُمِّيت أميرَ المؤمنين؟ فقال مُعاوية واحدة بواحدةٍ والبادي أظلم، وأنشد شريك:[5]

أَيَشْـــتُمُنِى مُعاوَيـــةُ بـــنُ حَـــرْبٍ وَسْـــيفي صَـــارِمٌ ومَعِـــي لِســـانِي

---

[1]الحُصري: أبو الحسن علي (زهر الآداب وثمر الألباب) دار الحلبي مصر، 1953م ،5/1

[2]الحماسة البصرية، 1344/3

[3]عمرو بن كُلثوم بن مالك التغلبي، أبو الأسود، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان من أعز النَّاس نفساً، وهو من الفتاك الشجعان ساد قومه وهو فتى، عُمِرَ طويلاً، وهو الَّذي قتل عمرو بن هند، له دِيوان شِعر، ينظر، الأعلام، 5/ 84

[4]عمرو بن المنذر اللخمي، ملك الحِيرة في الجاهلية، وهند أمه، ذُكِرت ليتميز عن أخيه الأصغر عمر بن أمامه، كان شديد البأس، كثير القتل، وهو صاحب صحيفة المتلمس، وقاتل طرفة بن العبد، قتله عمرو بن هند أنفةً وغضباً لأمه، ينظر، الأعلام، 5/ 86- 87

[5]الحماسة البصرية، 227/1

وحَـــوْلي مـــنْ بنِـــي يَمَـــنٍ لُيـــوَثٌ ضَـــرَاغِمَةٌ تَهَـــشُّ إلـــى الطِّعـــانِ
فـــلا تَبسُـــطُ لِســـانكَ يـــا بْـــنَ حَـــرْبٍ فإنّـــكَ قَـــدْ بلغـــتَ مَـــدَى الأمَـــانِ
فـــإنْ تَـــكُ مِـــنْ أُميَّـــةَ فـــي ذُراهـــا فـــإنِّي فـــي ذُرى عَبْـــدِ المَـــدانِ[1]
وإنْ تَـــكُ للشَّـــقاءِ لنـــا أميـــراً فإنّـــا لا نُقـــيمُ عَلَـــى الهَـــوانِ
مَتَـــى مَـــا تَـــدْعُ قَوْمَـــكَ أدْعُ قَـــوْمِي وتَخْتَلِـــفُ الأسِـــنّةُ بالطّعـــانِ

فتراضاه مُعاوية.

جمع النَّص بين الفخر و الهجاء والحماسة، وقابل الشاعر بين الطائفتين طائفة بني أُميَّة وعبد المدان، ونصر قومه على بني أُميَّة، وجاءت اللُّغة المعجمية شديدة دامية الألفاظ حيث قال: "سيفي، صارم، ليوث، ضراغمة، الطِّعان، الشقاء، الأسنة" وكان أسلوب النهي رادعاً حيث يقول: (لا تبسط لسانك، لا نقيم على الهوان) لقد افتتح الشاعر القصيدة بالاستفهام التعجبي من صنيع مُعاوية، هذا المطلع يشبه قول امرئ القيس:[2]

أيقتُلُنـــي والمشـــرفيُّ مُضـــاجِعي وَمسْـــنونةٌ زُرْقٌ كَأنيـــابِ أَغْـــوالِ

عَلِم مُعاوية ما وراء هذه الكلمات من الشر فراضاه في الأمر حتَّى أرضاه.

ومن الأجوبة المُسْكِتَة لِمُعاويةَ ‘خبره مع عبد الله بن أبي مِحجن الثقفي، حيث سأله مُعاويةُ أليس أبوك الَّذى يقول:[3]

إذَا مِـــتُّ فـــادْفِنِّي إلـــى جَنْـــبِ كُرْمَـــةٍ تُـــرَوِّى عِظَـــامِي بَعْـــدَ مَـــوْتِى عُروقهـــا
ولا تَـــــدْفِنَنِّي بـــــالفَلاةِ فـــــإنَّنِى أخَـــافُ إذامـــا مِـــتُ أن لا أذُوقهـــا

يُعيِّرَه بما عُرِف عن أبيه من ولعٍ بالخمر. فقال عبد الله: لو شئتَ لذكرتُ أحسن من هذا من شِعره، فقال مُعاوية: وما ذاك؟ قال له:

---

[1]عبد المدان: هو عمر بن الديان بن قطن، من مذحج. وكان من أكابر ساداتها.
[2]دِيوان امرئ القيس، ضبطه وصححه مصطفى عبد الشافي، دار الكُتب العِلمية بيروت لبنان، ط5، 2004م، ص125
[3]الحماسة البصرية،32/1

لا تَسـألِ النّـاسَ عـن مَـالِي وَكثْرتِـهِ وسـائلِي النّـاسَ عـن فِعْلـي وعـن خُلُقِـي
وأكْشِـفُ المـأْذِقَ المُكْـرُوبَ غُمَّتُـهُ وأكُـتُمُ السَّـرَّ فيـهِ ضَـرْبَةُ العُنُـقِ
وقَـدْ أجُـودُ ومـا مـالي بـذي قَنَـعٍ وقـد أكُـرُّ وراءِ المُحْجَـرِ البَـرِقِ

وقال مُعاوية: (لئن كُنّا قد أسأنا لك القول لنحسنن لك الصَّفَد[1])[2]

هذا النَّص والَّذي قبله يؤكدان أنَّ مُعاوية كان يرجع إلى الصواب إذا حاد عنه ثُمَّ قُوّم. وذلك من خلال تعليقاته بعد الكشف عن نفسية الوافِدِ، عندما غضب شريك راضاه، وعندما وجّهه عبد الله لأحسن القول توجّه واعتذر وأجزل له العطاء، وهذا يدل على سياسة مُعاوية الرشيدة، الَّتي تفرد بها عن خُلفاء بني أُميَّة عَلِمَ الشُّعراء لينه فجاء خِطابهم حاداً له في النُصح والإرشاد يُروى (أنَّ عُقبة بنُ هُبيرة الأسديّ[3] أنشده:

فهَبْنـا أمّـةً ذهبـتْ ضـياعاً يزيـدُ أميرُهـا وأبـو يزيـدِ
أكلْـتُم أرضـنا فجرَدْتُموهـا فهـل مِـن قـائمٍ أوْ مِـن حَصـيدِ
ذرُوا خَـونَ الخلافـةِ، واسـتقيموا وتـأميرَ الأراذلِ والعبيـدِ
وأعطونـا السَـويَّةَ لا تَـزرْكُمْ جنـودٌ مردَفـاتٌ بـالجنودِ

فقال له مُعاوية ما جرّاكَ عليَّ؟ قال: نصحتُكَ إذ غشّوك، وصدَقتكَ إذْ كذَبوك! فقال: ما أظنّك إلّا صادقاً! فقضى حوائجه)[4]

والَّذي يظهر أنَّ يزيد بن مُعاوية كان غير مرضي عند الشُّعراء والعُلماء في مسألة الخِلافة، وكانت ولايته بشيءٍ من الحِيلة الَّتي عمد إليها مُعاوية، أنَّه قال لمِسكين الدَّارمي[5] أنشدني أبياتاً –وأنا في المجلس– تُعْلِي فيها من شأن يزيد، وأنَّه أهل للخِلافة، وأنشده:

إذا المِنبـرُ الغَربـيُّ خـالاه ربّـه فـإنَّ أميـرَ المـؤمنينَ يَزِيْـدُ

---

[1] الصَّفد: العطاء والنوال.
[2] الأغاني، 142/9
[3] شاعر مُخضرم، عاش في الجاهلية والإسلام، مات سنة 50هـ، ينظر، الأعلام، 4/ 242
[4] الخِزانة، 260/2، 261
[5] مِسكين الدَّارمي: لقبه واسمه ربيعة بن عامر بن أنيف بن زيد التميمي، من شعراء الدَّولة الأُمويَّة له أخبار مع مُعاوية وزياد بن أبيه، مات سنة 89ه ،ينظر، الخِزانة، 69/3

فقال مُعاوية: سننظر في الأمر يا مِسكين، وفرض له أعطية"[1]

لم تقتصر الوفادة على الرجال فحسب، بل وفد إليه النِّساء وحججنه بالشِّعر وأذعن لِمَا ذهبن له، ومن هذا الضَّرب: أنَّ ليلى الأخيلية وفدت إليه، فسألها عن توبة بن الحُمَيِّر، فقالت: "كان أبسط البنان، حديد اللسان، شجى الأقران، كريم المخبر، عفيف المئزر، جميل المنظر، فقال يا ليلى يزعم النَّاس أنَّه كان عاهراً فاجراً. فقالتْ مرتجلة:

مَعـــاذَ إلهـــي كـــانَ وَاللهِ سَـــيِّداً ... جَـــواداً عَلـــى العِـــلّاتِ جَمّـــاً نوافِلُـــهْ
أَغَـــرَّ خَفاجيـــاً يَـــرى البُخْـــلَ سُـــبَّةً ... تَحَلَّـــبُ كَفّـــاهُ النَّـــدى وأنامِلُـــهْ
عَفِيفـــاً بعِيـــدَ الهـــمِّ صُـــلباً قناتُـــهُ ... جَمـــيلاً مُحَيَّـــاهُ قَلِـــيلاً غَوْائِلُـــهْ
وكـــانَ إذا مـــا الضَّـــيفُ أرْغـــى بَعِيـــرَهُ ... لَدَيْـــهِ أتـــاهُ نَيْلُـــهُ وفواضِـــلُهْ
وَقَـــدْ عَلِـــمَ الجـــدبُ الَّـــذي كـــانَ سَـــارِيَا ... عَلـــى الضَّـــيفِ والجيـــرانِ أنَّـــك قاتلُـــهْ

فقال مُعاوية: ويحك يا ليلى! لقد تخطيتي به قدره. فقالت يا أميرَ المؤمنين، ما قلتْ شيئاً إلّا والَّذي فيه من خصال الخير أكثر، ولقد أجدت حين قلت:

جَـــزَى اللهُ خَيْـــراً وَالجـــزاءُ بِكفّـــهِ ... فَتـــىً مِـــن عُقيـــلٍ ســـادَ غَيْـــرَ مُكلّـــفِ
فتـــىً كانـــتِ الـــدّنْيَا تَهُـــونُ بأسْـــرِهَا ... عَلَيْـــهِ فَلَـــم يَنْفَـــك جَـــمَّ التَصّـــرفِ
يَنـــالُ عَلِيّـــاتِ الأمُـــورِ بِهُوْنَـــةٍ ... إذا هِـــي أَعْيَـــتْ كُـــلَّ خَـــرِقٍ مُســـوّفِ

وأمر لها بجائزة"[2]

أحسنتْ الشاعرة في ارتجالها حيث وصفته (بالجُود على عِلاته) ونظرتْ في ذلك إلى بيت زُهير في مدح هَرِمِ بن سِنانٍ[3]، حيث قال:[4]

مَـــنْ يَلْـــقَ يومـــاً علـــى عِلّاتِـــهِ هَرِمـــاً ... يَلْـــقَ السَّـــماحَةَ مِنـــهُ والنَّـــدى خُلُقـــا

---

[1] الخِزانة، 68/3
[2] دِيوان ليلى الأخيلية، تحقيق: وضاح الصّمد، دار صادر بيروت ط2، 2003م، ص76، 77، 65
[3] من أجواد العرب في الجاهلية، مدح هرم بن سنان، اشتهر هو وابن عمِّه الحارث بن عوف بدخولهما في الإصلاح بين عبس وذبيان، مات قبل الإسلام في أرض بني أسد وكان متوجها للنُّعمان بن المنذر، ينظر، الأعلام، 8/ 82
[4] الحماسة البصرية، /63

وجعلته (جمّاً نوافله) وأضافت إلى ذلك العِفة وبعدالهمّ، وجعلت قناته صُلبةً، وهي استعارة للقوة، ومن ذلك قول عمرو بن كُلثوم في المُعلقة:[1]

فـــإنَّ قَنَاتَنـــا يـــا عَمْـــرو أعْيَـــتْ عَلَـــى الأَعْـــدَاءِ قَبْلَـــكَ أَنْ تَلِينَـــا

وجعلته جميلاً، وتكون بذلك قد جمعت له بين (العفاف وبعد الهم والشَّجاعة والجمال) في بيت واحدٍ، وأحسب أنَّها نظرت إلى قول الخنساء[2] في رثاء أخيها صخر[3] جامعةً له بين الشَّجاعة وجمال الشكل حين قالت:[4]

أَلا تبكِيـــانِ الجَـــرِيءَ الجَميـــلَ أَلا تَبْكِيَـــانِ الفتـــى السَـــيّدا

ولو قالت (عديماً غوائله) لكان أجود وأظهر في المدح من قولها: قليلاً قوائله.

وجعلته كريماً إذا سمع رُغاء الإبل نحر للضِّيفان، وزادتْ على ذلك بأن جعلته يقتل الجدب بكرمه، فأحسنتْ.

أعادت المعاني نفسها في أبياتها الأخرى، غير أنَّها لم تُحْسِن في آخر شطر حيث قالتْ: (إذا هي أعيت كل خَرقٍ مسوّف) ولو جعلته غير خَرِق لكان أحسن وأظهر لهمّة الممدوح، فالخرق–حتما– لا يُحْسِن شيئاً فكيف تقارنه به؟ قال الشنفري[5] واصفاً الخرق:[6]

وَلَا خَـــرِقٍ هَيْـــقٍ كـــأنّ فُـــؤَادَهُ يَظَـــلُّ بِـــهِ المُكَّـــاءُ يَعْلُـــو وَيَسْـــفُلُ[7]

---

[1]أحمد أمين ، شرح المُعلقات العشر، ص237

[2]تماضر بنت عمر بن الشريد، السلمية، أشهر شاعرات العرب، من أهل نجد، عاشت أكثر عمرها في الجاهلية، وأدركت الإسلام فأسلمت، وفدت على النَّبيَّ ﷺ مع قومها وسَمِعَ منها فأُعجِبَ بِشعرها، أشهر شعرها في رثاء أخويها صخر ومعاوية، لها دِيوان شِعر ماتت سنة 24هـ، ينظر، الأعلام، 2/ 86

[3]صخر بن عمر بن الشريد، أحد فرسان العرب في الجاهلية، كان كثير الغارات، جُرِحَ جرحاً قاتلاً ظل بعده عاماً ثُمَّ مات، فرثته الخنساء، ينظر، مُحمد صادق مُحمد الكرباسي (دِيوان القرن الحادي عشر) المركز الحُسيني للدِّراسات لندن، ط1، 2009م، 2/ 104

[4]دِيوان الخنساء شرحه: حمدو طمّاس، دار المعارف ،بيروت ،لبنان، ط2، 2004م، ص31

[5]عمرو بن مالك الأزدي، شاعر جاهلي يماني، من فحول الطبقة الثانية، أحد فتاك العرب وعدائيها، من الشُّعراء الصَّعاليك، قتله بنو سلامان، له دِيوان شِعر، أشعر شعره اللاميَّة، ينظر، الأعلام، 5/ 85

[6]عبد الحليم حنفي (شرح ودراسة لاميَّة الشنفري) مكتبة دار الآداب القاهرة، ط1، 2008م، ص13

[7]الخرق: المضطرب من الخوف. الهيق: ذَكَرَ النَّعَام. المكاء: نوع من الطَّير.

وممَّن وفد إليه الرَّبيع بن ضبع[1]، الَّذي عاش في الجاهلية عُمراً وأدرك الإسلام ولم يُسلم، فَلَمَّا دخل على مُعاوية سأله مُعاوية عن سِنّه فقال:[2]

أَصْـــبَحَ هَـــذا الشَّـــبابُ قَـــدْ حَسَـــرَا ... إنْ يَنْـــأ عَنِّـــي فَقَـــدْ ثَـــوَى عُصُـــرْا
ودّعَنـــــاَ قَبْـــــلَ أنْ نُودِّعَـــــهُ ... لَمَّـــا قَضَـــى مِـــنْ جِمَاعِنَـــا وَطَـــرْا
هـــا أنـــا ذا آمُـــل الخُلُـــوْدَ وَقَـــدْ ... أَدْرَكَ عَقْلِـــي وَمَوْلِـــدِي حُجُـــرْا
أَبـــا امْـــرِئِ القَـــيْسِ، هَـــلْ سَـــمِعْتَ بِـــهِ ... هَيْهَـــات هَيْهَـــات طَـــالَ ذَا عُمُـــرْا
أَصْـــبَحْتُ لَا أَحْمِـــلُ السِّـــلاحَ ولا ... أَمْلِـــكُ رَأْسَ البَعِيْـــرِ إنْ نَفَـــرْا
والـــذِئبَ أَخْشَـــاهُ إنْ مَـــرَرْتُ بِـــهِ ... وَحْـــدِي وَأَخْشَـــى الرِّيَـــاحَ وَالمَطَـــرا
مِـــنْ بَعْـــدِ مَـــا قُـــوّةٍ أُسَـــرُّ بِهَـــا ... أَصْـــبَحتُ شَـــيْخاً أُعَـــالِجُ الكِبَـــرا

فقال مُعاوية: (وَمَنْ نُعمره نُنكسه في الخلقِ)[3]

وكان مُعاوية يستحسن قصص العرب في الجاهلية، يروى صاحب الخِزانة (أنَّ مُعاوية قال لجلسائه يوماً أخبروني بخبر الزبّاء[4] وماوية[5] وحاتم[6]، فقص عليه رجل من القوم القصة)[7]

له مجالس مع المُغنين يجزل لهم العطاء إذا أحسنوا في اختيار الأبيات الشِّعرية، هذا الأمر يدل على قُوة تذوقه للأدب أينما كان، ويروى أنَّ سائباً المُغنّى[8] قام على باب مجلسه وغنَّى:[9]

---

[1]الرَّبيع بن ضبع بن وهب بن بغيض الفزاري، كان من الشُّعراء الخُطباء الفرسان، عاش في العصر الجاهلي حتَّى أدرك الإسلام وقد كبر وخرف فلم يسلم، ينظر، الزركلي، ترتيب الأعلام على الأعوام، تحقيق: زُهير ظاظا، دار الأرقم، 1/ 90

[2]الخِزانة، 384/7، 386

[3]سورة (يس) الأية: 68

[4]الزباء بنت عمرو بن الظرب، ملكة مشهورة في العصر الجاهلي، صاحبة تدمر وملكة الشَّام و الجزيرة، واسعة العِلم، بديعة الجمال، قتلت جزيمة الوضاح ملك العِراق، فاحتال عليها ابن أخته عمرو بن عدي فدخل قصرها فقتلها، ينظر، الأعلام، 3/ 41

[5]ماوية بنت عبد الله زوجة حاتم الطآئي وله معها أخبار كثيرة، ينظر، السيد محمود شكري الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق: مُحمد بهجت الأثري، 1/ 75

[6]حاتم بن عبد الله الطآئي، أبو عدي، فارس وشاعر جاهلي، جواد، يُضرَبُ المثل به في الجود، تزوج ماوية بنت عبد الله، توفى في السنة الثامنة من مولد النَّبيّ ﷺ وله دِيوان شِعر، ينظر، الأعلام، 2/ 151

[7]الخِزانة، 212/4 والقصة طويلة وردت في دِيوان حاتم، 131-134

[8]أبو جعفر، أحد أئمة الغناء والتلحين، أصله من فيء كسرى انقطع إلى عبد الله بن جعفر وعُرِفَ به وآل أن لا يغني أحداً غيره كان تاجراً يبع الطَّعام في المدينة، قُتِلَ يوم الحرَّة سنة 63هـ، ينظر، النويري (نهاية الأرب في فنون العرب) تحقيق: يوسف الطويل، دار الكُتب العِلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، 5/ 43- 44

[9]تاريخ الرسل والمُلوك، 337/5

لمـــــن الـــــدِّيارُ رُسُـــــومُها قَفْـــــرُ لَعِبَـــــتْ بهـــــا الأرواحُ والقَطْـــــرُ
وخَـــــلَا لهـــــا مِـــــنْ بَعْـــــدِ سَـــــاكِنِها حِجَـــــجٌ خَلَـــــوْنَ ثمـــــانِ أَوْ عَشـــــرُ
والزَّعفـــــــرانُ علـــــــى تَرائِبهـــــــا شـــــــرِقاً بِـــــــهِ اللّبّـــــــاتُ والنَّحْـــــــرُ

فقال له مُعاوية: أحسنتَ، وقضى حوائج المُغنّي.

نقده للشِّعر:

له آراء نقدية مع الشُّعراء، فكان يُرشد الشُّعراء أنْ يُجددوا في معاني المدح، يُروى أنَّ الأخطل قال له: إنِّي امتدحتُك بأبياتٍ، فقال له: إنْ كنتَ شبهتني بالحيّة أو الأسد، أو الصقر، فلا حاجة لي بها، وإن كنتَ كما قالتْ الخنساء:[1]

فَمَـــا بَلَـــغَ المُهْـــدُونَ للنّـــاسِ مِدْحَـــةً وَإِنْ أَطْنَبُـــوا إلّا الـــذي فِيْـــكَ أَفْضَـــلُ
وَمَـــا بَلَغَـــتْ كَـــفٌ امْـــرِئٍ مُتَنَـــاولاً مِـــنْ المَجْـــدِ إلّا والَّـــذى نِلـــتَ أَطْـــوَلُ

فقل. وسكتت الرواية عن تعليق الخليفة بعد ذلك.

ومن نقده الأدبي أنَّه كان يُخضع الأشعار لمِقياس الصِّدق أو الكذب، وربَّما سأل جلساءه يوماً عن أحسن بيتٍ قالته العرب، ويصدقهم في جوابهم أو يكذبهم، ومن هذا القبيل أنَّه قال لجلسائه: (أخبروني بأشجعِ بيتٍ وصف به رجلٌ قومه، فقال روح بن زنباع[2]: قول كعب بن مالك[3]:

نَصِـــلُ السِّـــيوفَ إذا قَصُـــرْنَ بخُطْوِنـــا قِـــدْماً، ونُلحِقُهـــا إذا لَـــمْ تَلْحَـــقِ

فقال له: صدقتَ)[4]

وكان يحب البيت الَّذي يقوم بمعناه دون أنْ يحتاج إلى بيتٍ آخر، يُروى أنَّ مُعاوية قال: (لجلسائهِ أنشدوني ثلاثة أبيات لرجل من العرب كُلّ بيتٍ قائم بمعناه، فسكتوا، ثُمَّ طلع عبد الله بن الزَّبير، فقال

---

[1] زهر الآداب، 93/2 دِيوانها، ص31
[2] أبو زرع، أمير فلسطين، سيد اليمامة في الشام، وخطيبهم وقائدهم، له دهاء وفقه، وقيل له صحبة، مات سنة 84هـ، ينظر، الأعلام، 3/ 34
[3] صحابي جليل من الخزرج، أحد شعراء الرسولﷺ، أيد الدعوة بسيفه ولسانه، وهجى المشركين بالمثالب والأيام، له دِيوان شِعر، ينظر، الإصابة، 3/ 302
[4] الأغاني، 234/16

له: أنشدني ثلاثة أبيات لرجل من العرب كُلّ بيت قائم بمعناه، ولك ثلاثمائة ألف درهم، فأنشده قول الأفوه الأودي[1]:

بَلَـــوْتُ النَّـــاسَ قَرنـــاً بَعْـــدَ قَـــرنٍ فَلَـــمْ أرَ غَيْـــرَ خَتَّـــالٍ وَقَـــالِ

فقال مُعاوية: صدقتَ. قال:

وَلَـــمْ أرَ فـــي الخُطُـــوبِ أشَـــدَّ وقعـــاً وَكيـــداً مِـــنْ مُعَـــاداةِ الرِّجـــالِ

فقال مُعاوية: صدقتَ. قال:

وذُقـــتُ مَـــرارةَ الأشـــياءِ طُـــرَّاً فَمَـــا طَعْـــمٌ أمـــرُّ مِـــنْ السُـــؤالِ

فقال مُعاوية: صدقتَ وأعطاه الجائزة)[2]

يتغافل –أحياناً– عن الخصوم من الشُّعراء إذا خاضوا في أعراض بناته؛ لكي لا يعلو شأنهم، وذلك لحِنكته، ويحكم عن أشعارهم بالكذب أو الصِّدق، قال يزيد ابنه (يا أبي، أقتل أبا دهبلٍ[3]؛ لأنَّه شبب ببنتك رملة، فقال مُعاوية وماذا قال؟ قال:

هـــي زهـــراءُ مثـــل لؤلـــؤةِ الغـــ وّاصِ مِيـــزتْ مـــنْ جـــوهرٍ مَكْنُـــونِ

قال: صدق قال يزيد، لقد قال:

وإذا مـــا نسَـــبتْهَا لـــم تجـــدها فـــي سَـــناً مِـــنْ المَكَـــارِمِ دُوْنِ

قال: صدق، قال يزيد، لقد قال:

ثُـــمَّ خاصـــرتُها إلـــى القُبّـــةِ الخضـــ راءِ تَمِشـــى فـــي مَرمـــرٍ مســـنونِ

---

[1]صلاءة بن عمرو بن مالك، المشهور بالأفوه الأودي، شاعر جاهلي، كان غليظ الشفتين، لذلك لقب بالأفوه، كان سيداً وقائداً وفارساً وحكيماً، ينظر الأعلام، 3/ 207

[2]البداية والنهاية، 166/9، دِيوان الأفوه الأودي، شرح وتحقيق: مُحمد التونجي، دار صادر بيروت لبنان، ط1، 1998م، 119

[3]وهب بن زمعة الجمحي، من أشراف قومهم، أحد الشُّعراء العشاق المشهورين من أهل مكَّة، له مدائح في مُعاوية بن أبي سُفيان، وعبد الله بن الزُّبير، وله أخبار مع عمرة وعاتكة بنت مُعاوية، شِعره رقيقٌ وله دِيوان شِعر، مات سنة 63هـ، ينظر، الأعلام، 8/ 125

فقال مُعاوية: كذب)[1]

وكان يُهدّي روع من يهرع إليه شاكياً من الهجاء، ويجد له مخرجاً حين يحكم على الأبيات بالصِّدق أو الكذب، ويكون بذلك قد ساهم في تسكين النُّفوس الثائرة، وخير شاهد يساق ،الخبر المروى عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، أنَّه جاء إلى مُعاوية شاكياً من هجاء عُقبة الأسدي له، فقال مُعاوية وما قال لك؟ قال:

فما أنا من حُدَّاثِ أُمِّكَ بالضُحى

قال مُعاوية: صدق. قال وقال لي:

ولا مَنْ يُزَكِّيها بَظْهرِ مَغِيبِ

فقال مُعاوية: لكنَّ الله ورسوله والمهاجرين والأنصار يُزكّونها؛ وكانت تخدم رسول الله ﷺ قال: وقال لي:

وأنتَ وامرؤٌ في الأشعرينَ مقابل

قال: صدق. قال وقال لي:

وفي البيتِ والبَطْحاءِ حَقٌّ غريبِ

قال: صدق. ليس لك في البيت ولا البطحاءِ حق)[2]

لقد كان مُعاوية ذواقاً للأدب، ناقداً حصيفاً، يتأثر بالشِّعر الرقيق إذا طرق في دواخله عاطفة تفاعل معه، وربَّما فك الأسِير من قيده وجعله طليقاً لسماعه أبياتاً تكشف عن ضعف، وإن كان القائل قد أجرم جرماً عظيماً، ومنه أنَّ مُعاوية لَمَّا بلغته أبيات خالد[3] قاتل ابن أُثال الطَّبيب والأبيات هي:[4]

إمّـــــا خُطـــــايَ تقارَبـــــتْ مَشَـــــى المقيَّـــــد فـــــي الحِصـــــارِ

[1]الخِزانة،7/315-316 وتروى بطرق مختلفة، وينسب التشبيب لعبد الرحمن بن حسَّان.
[2]الخِزانة، 2/261
[3]هو خالد بن المهاجر بن الوليد المخزومي، قتل ابن أُثال الطَّبيب ثاراً لأخيه، فسجنه مُعاوية وضربه مائة سوط، ولَمَّا بلغه شِعره في الحبس أطلق صراحه، ينظر ،أبوزيد القرشي (جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام)دار صادر،بيروت، 142
[4]الخِزانة، 2/235-236

فيمـــــا أُمَشـــــيّ فـــــي الأبـــــا ... طـــــحِ يَفْتتـــــــى أثـــــرى إزاري
دَعْ ذا، ولكـــــنْ هَـــــلْ تـــــرى ... نـــــاراً تُشَـــــبُّ بِـــــذِي مِـــــرارِ
مـــــا إنْ تُشَـــــبُّ لِقـــــرَّةٍ ... للمُصـــــــــطلين ولا قُتـــــــــارِ
مـــــا بـــــالُ ليلـــــك لَـــــيْسَ ينـــــ ... قـــــصُ طُولَـــــهُ طُـــــولَ النَّهـــــارِ

وكان خالداً في حبس مُعاوية فرق مُعاوية له وأطلق صراحه.

المبحث الثاني:

أوَّلاً: الوليد بن عبد الملك:

هو (الوليد بن عبد الملك بن مروان، بُوْيِعَ بالخِلافة سنة ست وثمانين، ومات سنة ست وتسعين، كان –عند أهل الشَّام– أفضل الخُلفاء، وذلك لأنَّه بنى المساجد ومنها مسجد دِمشق، ومسجد المدينة، ووضع المنار، وأعطى الفُقراء والمجذّمين وأفردهم وقال(لا تسألوا النَّاس) وفتح الأمصار، وفي عهده فتح موسى بن نصير الأندلس، وبلغ قتيبة بن مُسلم الصّين، وفتح مُحمد بن القاسم الهند، وكان صاحب بناء وضياع)[1]

لم يكن فصيحاً بل كان لحاناً، وصفه الشعبيّ قائلاً: "كان أبواه يُترفانه فشب بلا أدب"[2]

الشِّعر في مجلسه:

قصد مجلسه الشُّعراء يُحبرون القصائد الطِوال في مدحه، وهو يستحسن ذلك ويهب الجوائز، ويبدي رأيه النَّقدي في القصيدة أو الأبيات الشِّعرية، مُفاضلاً ومُقارناً كما يفعل النُّقاد، بل بلغ الشِّعر من نفسه مبلغاً عظيماً، فأصبح يعزل إذا سَمِعَ أبياتاً تحث على ذلك. يروي صاحب العُمدة "أنَّ الأحوص كان شديد التعصب على ابن حزمٍ أمير المدينة، فأنشد الوليد قصيدة يمتدحه فيها، فَلَمَّا سَمِعَ الوليد قوله:

لا تَـــرْثِينَّ لِحزْمِـــيٍّ ظَفِـــرتَ بِـــهِ ... يَوْمـــاً وَلـــو أُلْقِـــىَ الحزْمِـــيُّ فـــي النَّـــارِ
النَّاخِسِـــينَ لِمَـــرْوانٍ بـــذِى خُشُـــبٍ ... والـــدَّاخِلِينَ علـــى عُثْمَـــانَ فـــي الـــدَّارِ

قال: صدقتَ، والله أغفلنا عن حزمٍ وآل حزمٍ، ثُمَّ كتب عهداً لعثمان ابن حيان المرى على المدينة، وعزل ابن حزمٍ، وأمر باستقصاء أموالهم واسقاطهم جميعاً في الدِّيوان"[3]

---

[1]مسكويه: أحمد بن يعقوب (تجارب الأمم وتعاقب الهِمم) تحقيق: سيِّد كسروى حسن، دار الكُتب العِلمية بيروت – لبنان - ط1، 2003م، 280/2
[2]السيوطي: (تاريخ الخُلفاء) ص178
[3]ابن رشيق القيرواني: أبو علي الحسن (العُمدة في محاسن الشِّعر وآدابه) تحقيق: مُحمد عبد القادر أحمد، دار الكُتب العِلمية –بيروت- لبنان ط1، 2001م، ص69

ذَكّرتْ الأبياتُ الخليفةَ موقف قبيلة الشاعر الثائر على عثمان بن عفَّان – رضى الله عنه– وقتله يوم الدار، ولذلك عزله وحجر على ماله.

ومن تفضيله للأغراض الشِّعرية، ما رواه المرزباني (أنَّ الوليد بن عبد الملك تشاجر مع أخيه مسلمة في امرئ القيس والنَّابغة الذُّبياني في وصف طول اللَّيل أيّهما أجود، فرضيا بالشَّعبيِّ فَأُحضِر، فأنشد الوليد قول النَّابغة الذُّبياني:

كِلِينِـــي لِهَـــمٍّ يـــا أمَيْمَـــةَ ناصِـــبٍ وَلَيـــلٍ أُقاسِـــيهِ بِطَـــيءِ الكواكـــبِ
تطَـــاوَلَ حتّـــى قُلْـــتُ: لـــيس بِمُـــنْقَضٍ وَلَـــيس الـــذي يَرعَـــى النُّجُـــوَم بآيـــبِ
وصَـــدْرٍ أراحَ اللَّيـــلُ عـــازِبَ هَمِّـــهِ تَضـــاعَفَ فيـــه الحُـــزْنُ مِـــن كُـــلِّ جَانِـــبِ

وأنشده مسلمة[1] قول امرئ القيس:

وليـــلٍ كَمَـــوْجِ البحـــرِ، أَرْخَـــى سُـــدُولَهُ علـــيَّ بـــأَنْوَاعِ الهُمُـــومِ لِيَبْتلـــى[2]
فَقُلْـــتُ لَـــهُ، لمّـــا تَمَطَّـــى بِصُـــلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجـــازاً وَنَـــاءَ بِكَلْكَـــلِ
أَلَا أيُّهـــا اللَّيـــلُ الطَّوِيـــلُ، أَلَا انْجَلـــي بِصُـــبْحٍ، وَمـــا الإصْـــبَاحُ مِنـــكَ بأَمْثَـــلِ

فضرب الوليد برجله طرباً! قال الشَّعبيُّ: بانت القضية!"[3]

اكتفى الشَّعبيُّ في حكمه بالأثر الانطباعي المتمثل في، اهتزاز الوليد لأبيات امرئ القيس، فإنَّ طرب الوليد يعود؛ لحسن التشبيهات عند امرئ القيس الَّتي أعطت صورة واضحة لطول اللَّيل، بينما خلت أبيات النَّابغة من هذه التشبيهات.

وكان مجلسه قِبْلَة للشُّعراء النُّقاد يقومون الأشعار وفقاً للمعاني، ورد في الأغاني "أنَّ عدى بن الرّقاع أنشد الوليد قصيدته الَّتي أولها:

عَرف الدِّيَارَ تَوْاهُاً فَاعْتَادَهَا مِنْ بَعْدِ مَا شَمِلَ البِلى أَبْلادَها

[1]مسلمة بن عبد الملك بن مروان يُلَقَبُ بالجرادة الصفراء، له فُتُوحٌ مشهورة، ولاه أخوه يزيد على العِراقين وأرمينيا، كان أولى بالخِلافة من سائر اخوته، مات سنة 120هـ، ينظر الأعلام، 8/ 122
[2]سدوله: الأثواب وعنى ظلامه. ناء بكلكل: أي :تهيأ لينهض.
[3]المُوشح، 31، الخِزانة، 2/325-326

وعنده كُثيِّر عزَّة –وقد بلغه أنَّ عديّاً يطعن في شِعره– ويقول: هذا شِعر حِجازي مقرور إذا أصابه قر الشام جمد وهلك. فأنشده حتَّى أتى إلى قوله:

وَقَصِـــيدةٍ قَـــدْ بـــتُّ أَجْمَـــعُ بَيْنَهَـــا حَتَّـــى أُقـــوِّمَ مَيْلَهَـــا وَسِـــنَادَهَا[1]

فقال كُثيِّر: لو كنتَ مطبوعاً أو فصيحاً أو عالماً، لم تأت بميل ولا سناد فتحتاج إلى أن تقوّم. ثُمَّ أنشد:

نَظَـــرَ المُثَقِّـــفُ فِـــي كُعُـــوْبِ قَنَاتِـــهِ حَتَّـــى يُقِـــيْمَ ثِقَافُـــهُ مُنْادَهَـــا[2]

فقال كُثيِّر: لا جرم أنَّ الأيامَ إذا تطاولت عليها عادت عوجا، ولأن تكون مُستقيمة لا تحتاج إلى ثِقاف أجود لها. ثُمَّ أنشد:

وَعَلِمْـــتُ حَتَّـــى مَـــا أُســـائِلُ واحـــداً عَـــنْ عِلْـــمِ وَاحِـــدَةٍ لِكَـــيْ أَزْدَادَهَـــا

فقال كُثيِّر: كذب وربِّ الكعبة، فليمتحنك أمير المؤمنين بأن يسألك عن صِغار الأمور دون كِبارها حتَّى يتبين جهلك، وضحك الوليد ومن معه وقطع على عدي فلم يَنْطِق"[3]

في هذا النَّقد شيءٌ من التحامل على الشاعر؛ لأنَّ الفِكرة المُسبقة عند كُثيِّر أنَّ الشاعر ينتقص شِعره؛ ولذلك بحث عن عُيوبٍ في قصيدته وتكلف في ذلك شططاً.

شفع الوليد نقده بعصبية قرشية لا يخفى أثرها، على كل من خاصمه في الشِّعر، وإن كان مُناصراً لدولتهم، هذا التعصب انعكس على الأدب "وذلك عندما تناشد الأخطل وجرير، في مجلسه، فأنشد الأخطل كلمة[4] عمرو بن كُلثوم:

أَلَا هُبِّـــي بِصَـــحْنِكِ فَاصْـــبَحِينَا وَلَا تُبْقِـــي خُمُـــورَ الأَنْـــدَرِينَا

فتحرك الوليد، وقال مُغرياً جريراً، يريد قصيدة أوس بن مغراء السَّعْدىّ[5]:

---

[1]أقوّم: أصوّب. ميلها: ما أصابها من خلل. السناد: عيب شِعري.
[2]الثقف: الَّذي يُهذب الرمح. الكُعوب: العُقد. القناة: الرمح. منادها: معوجها.
[3]الأغاني، 360/9
[4]كلمة عمرو بن كُلثوم أي قصيدة عمر. قال أبو هلال: (الكلمة هي الواحدة من جملة الكلام، ثُمّ سُمّيت القصيدة كلمة؛ لأنَّها واحدة من جملة القصائد) ينظر، أبو هلال العسكري (الفُروق اللُّغوية) تحقيق: مُحمد إبراهيم سليم، دار العِلم والثقافة – القاهرة، ص36
[5]شاعر مُخضرم، يكنى بأبي المغراء، شَهِدَ الفتوح، وبقي إلى أيام مُعاوية مدح النَّبيَّﷺ وكان يهاجي النابغة الجعدي، ينظر الإصابة، 1/ 115

مَـــاذَا يَهِيْجَـــكَ مِـــنْ دَارٍ بفيحانـــا قَفْـــرٍ تَوهمـــتُ مِنْهَـــا اليَـــوْمَ عِرْفَانَـــا
مِنّـــا النّبـــيُّ الَّـــذي قَـــدْ عَـــاشَ مُؤْتَمَنـــاً وَصَـــاحِبَاه وَعُثْمـــان بـــنَ عَفّانَـــا
تحـــالفَ النَّـــاسُ ممَّـــا يعملـــون لَنَـــا ولا نُحَـــــــالِفُ إلَّا الله مَوْلَانَـــــــا
مُحمّـــدٌ خَيْـــرُ مَـــنْ يَمْشِـــي عَلَـــى قَـــدَمٍ وَكَـــــاَن صَـــــافِيَةً للهِ خلصـــــانَا

فقال الأخطل: (أعليَّ تتعصب يا أمير المؤمنين، وعليَّ تعين؟! وأنا صاحب ابن حسَّان، وصاحب قيس وصاحب كذا)[1]

وهذا يدل على أنَّ استعانة بني أُميَّة بالأخطل لا تعدو أنْ تكون استعانة بالشِّعر على الخصوم.

يشير الأخطل بقوله: (وأنا صاحب ابن حسَّان) إلى نصرته للأُمويين وهجاء عبد الرحمن ابن حسّان، الَّذي كان يشبب ببنات مُعاوية بن أبي سُفيان، وأصل الخبر قال الفرزدق: "كُنَّا في ضِيافةِ مُعاوية بن أبي سُفيان، ومعنا كعب بن جُعيل، فقال له يزيد: إنَّ عبد الرحمن بن حسَّان قد فضحنا فاهج الأنصار، قال: أرادي أنتَ إلى الإشراك بعد الإيمان! لا أهجو قوماً نصروا رسول اللهﷺ ولكنِّي أدلك على غُلامٍ مِنّا نصراني، كأنَّ لِسَانه لِسَان ثور يعني الأخطل"[2]

فكان من هجائه للأنصار ما كان حتَّى أتى النُّعمان بن بشير[3] إلى مُعاوية وألقى عمامته وحسر عن رأسه، قائلاً: أترى لؤماً؟ مُشيراً إلى قول الأخطل:

ذَهَبَـــتْ قُـــريشٌ بالسَّـــماحَةِ والنّـــدى واللـــؤمُ تَحْـــتَ عَمـــائمِ الأنْصَـــارِ

فقال مُعاوية: بل أرى كرماً. فأنشد النُّعمان قصيدته الَّتي منها:[4]

فمـــاليَ ثَـــأرٌ دُونَ قطـــعِ لِســـانِهِ فـــدونَكَ مَـــنْ يُرْضِـــيهِ عنـــكَ الـــدراهِمُ
وإنِّـــي لأُغْضـــى عـــن أُمـــورٍ كثيـــرةٍ سَـــتُرْقَى بِهَـــا يَوْمَـــاً إليـــكَ السَّـــلالِمُ
فَمَـــا أَنْـــتَ والأمـــرُ الَّـــذي لَسْـــتَ أهلَـــهُ وَلَكِـــنْ وَلِـــيُّ الحـــقِّ والأَمْـــرِ هَاشِـــمُ

فَلَمَّا سَمِعَ مُعاوية تهديده، أظهر لهم أنَّ الأخطل فعل ذلك من عند نفسه، وأمر بقطع لِسانه، لكنَّ الأخطل استجار بيزيد بن مُعاوية فأجاره وأرضى النُّعمان.

---

[1] طبقات فحول الشُّعراء، 476/1
[2] البيان والتبين، 237/1
[3] أبو عبد الله، أمير وخطيب وشاعر، وُلِدَ سنة 2هـ، روى الحديث عن النَّبيِّﷺ تولى القضاء بدِمشق نسبت إليه معرة النُّعمان، بلد الشاعر الأعمى أبو العلاء المعري، ينظر، الأعلام، 8/ 36
[4] جرجي زيدان (تاريخ آداب اللُّغة العربيِّة) دار الهلال، بدون تاريخ طبع، 237/1 دِيوان الأخطل، 7، 10، 11

ثانياً: سُليمان بن عبد الملك:

هو (سُليمان بن عبد الملك بن مروان، أبو أيوب، وُلِدَ سنة ستين، وولى الخِلافة سنة ست وتسعين، مات سنة تسع وتسعين)[1] (كان فصيحاً مُفوهاً، وهو من خيار بني أُميَّة، كان ينهي عن الغِناء، اتخذ عمرَ بن عبد العزيز كالوزير، كتب كِتاباً عند مرضه يستخلف فيه عمرَ بن عبد العزيز قال رجاء بن حيوة: (قلتُ له في مرضه الَّذي مات فيه: إنَّ ممّا يحفظ الخليفة في قبره أنْ يستخلف على المُسلمين الرجل الصالح)[2]

نقده للشِّعر:

اتصل ببلاطة شعراء عِظام، غمرهم بجوده وغمروه بنظمهم، وكان يستحسن ويستقبح الأشعار وفقاً لمعاير نقدية ومن ذلك، أنَّ الفرزدق أنشده – يوماً– مُفتخراً بأبيه–:

وَرَكْـبٍ كـأنَّ الـرِّيحِ تَطْلُـبُ عِنْـدَهُم ... لَهَـا تِـرَةٌ مِـنْ جَـذْبِهَا بالعَصَـائِبِ
سَـرَوا يَخْبِطُـونَ الـرِّيحَ، وهْـيَ تَلَفُّهُـم ... إلـى شُـعَبِ الأكـوارِ مـن كُـلِّ جانِـبِ
إذا مـا رَأَوْا نـاراً يَقُوْلُـوْنَ: لَيْتَهَـا ... وَقَـدْ خَصِـرتْ أَيْـديهم نـارُ غَالِـبِ

وكان نُصيبٌ حاضِراً، فأنشده:

أقـولُ لرَكْـبٍ قـافِلينَ لقيـتُهم ... قَفَـا ذَاتِ أوْشَـالٍ ومَـوْلاَكَ قَـارِبُ
قفـوا خَبِّرُونـي عَـنْ سُـلَيْمَانَ إنَّنـي ... لِمَعْرُوْفِـهِ مِـنْ أهْـلِ وَدَّان طَالِـبُ
فَعَـاجُوا فـأثْنَوا بالَّـذي أنْـتَ أهلُـهُ ... وَلَـوْ سـكَتُوا أثْنَـتَ عَلَيْـكَ الحَقَائِـبُ

فقال: يا غُلام، أعط نُصيباً خمس مائة دينار، وألحق الفرزدق بنار أبيه، فخرج، الفرزدق مُغضباً يقول:[3]

وَخَيْـرُ الشِّـعرِ أشـرفُهُ رِجـالاً ... وَشَـرُ الشِّـعرِ مَـا قَـالَ العَبِيْـدُ

لقد أخطأ الفرزدق حين فَخِرَ بأبيه أمام أمير المؤمنين، وأحسن نصيب بأن جعل مديحه كله لأمير المؤمنين، وجدد في معاني المدح، بحيث جعل الجمادات تُثْنِي على فعال الخليفة. وبذلك يفوز بجائزة

[1] تاريخ الخُلفاء، ص180
[2] تجارب الأمم، 303/2
[3] شِعر نُصيب بن رباح، داود سلوم، مكتبة الارشاد بغداد، 1967م، ص59

الخليفة، لكنَّ الفرزدق لم يُعْجِبه هذا فراح ينشد بيته الَّذي ينتقص فيه نُصيباً ويرميه بالسَّواد، وكان كثيراً ما يُرْمى بالسَّواد من قِبَلِ الشُّعراء والنُّقاد على سبيل السخرية. وقد قال مرّة:

وَكِـدْتُ وَلَـمْ أُخْلَـقْ مِـنْ الطَّيـرِ أنْ بَـدا لَهَـــا بَـــارِقٌ نَحْـــو العِـــراقِ أَطِيْـــرُ!

فسمعه ابن أبي عتيق فقال: يا ابن أُمّ قُلْ غاقٍ فإنَّك تطير يعني أنَّه غُراب أسود!"[1]

وله أخبار مع الشُّعراء في حسن الوصف، ومن هذا الضَّرب، أنَّه قال لعدي بن الرّقاع العاملي، أنشدني قولك في الخمر:

كُمَيـــتٌ إذَا شُـــجَّتْ وَفـــي الكَـــأْسِ وَرْدَةٌ لَهَـــا فِـــي عِظَـــاْمِ الشَّـــارِبِيْنَ دَبِيْـــبُ[2]

تُرِيْـكَ القَـذَىْ مِـنْ دُوْنِهَـا وَهْـيَ دُوْنَـهُ لِوَجْـــهِ أَخِيْهَـــا فـــي الإنَـــاءِ قُطُـــوْبُ[3]

فقال الخليفة له: شربتها وربِّ الكعبة.

قال عدي: والله يا أمير المؤمنين، لئن رابك وصفي لها رابني معرفتك بها، فتضاحكا وأخذا في الحديث"[4]

تدل هذه القصة على روايته للشِّعر، واستحسانه لبعض القصائد والأغراض، وله موقف آخر مع الشاعر نفسه يدل على حفظه للشِّعر. لمَّا وَلِيَ سُليمان وفد إليه عدي، فقال له سُليمان: ألستَ القائل في الوليد:

مَعَـــاذَ ربـــي أَنْ نبقـــى ونَفْقِـــدَهُ وأَنْ نَكُـــوْنَ لِـــرَاعٍ بَعْـــدَهُ تَبَعَـــا

عندها استحضر عدي ذكاءه وقال بنباهة على الفور: لا والله يا أمير المؤمنين، ما هكذا قلتُ وإنَّما قلتُ:

مَعَـــاذَ ربـــي أَنْ نبقـــى ونَفْقِـــدَهُم وأَنْ نَكُـــوْنَ لِـــرَاعٍ بَعْـــدَهُ تَبَعَـــا

فنظر له سُليمان واستضحك وأمر له بصِلة"[5]

---

[1] المرجع نفسه، ص5 العمدة، ص80

[2] كُميت: من أسماء الخمر فيها حمرة وسواد. شُجت: أي: مُزِجَتْ بالماء. دبيب: سريان

[3] قطوب: يقال قطب الشراب إذا مزجه.

[4] دِيوان عدي بن الرِّقاع العاملي، ص13 ذكرت بعض المصادر أنَّ هذه القصة وقعت مع الوليد بن يزيد، وهذا الأمر بعيد؛ لأنَّ الوليد وُلِدَ سنة88هـ ويوم توفى عدي كان عُمر الوليد سبع سنوات لا تمكنه من الحُكم على الشُّعراء.

[5] المصدر نفسه، ص14

ثالثاً: عمر بن عبد العزيز:

هو (عمر بن عبد العزيز بن الحكم بن أبي العاص بن أُميَّة بن عبد شمس بن مناف، كُنيته أبو حفص، يقال له: أشج بني مروان، وُلِدَ سنة إحدى وستين، وبُوْيِع بالخِلافة بعد ابن عمِّه سُليمان)[1] (كان زاهداً، ولُقِبَ بالخليفة الصالح)[2] (رحل إلى المدينة وتعلَّم من عُلمائها، وروى عن أنس بن مالك)[3] (مات سنة إحدى ومائة له حينئذ تسع وثلاثون سنة وستة أشهر)[4] (صَلُح في نفسه وصَلُحتْ معه الرعيَّة، يقول عنه مسكوية: "فَلَمَّا تولى عمر بن عبد العزيز كان النَّاس يلتقون فيقول بعضهم لبعض: ماوردك؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى تختم؟ وكم تصوم من الشهر؟"[5]

روايته للشِّعر وتمثله به:

أحبَّ عمر الشِّعر الَّذي يدل على مكارم الأخلاق، وتمثل به في مواقف مُختلفة من الحياة، وكان أكثر تمثله بالشَّعر الَّذي يُذكِرُ بالآخرة، قال أبو بكر الصولي عن المُبرِّد: كان عمر بن عبد العزيز يتمثل بقول الشاعر:[6]

فَمَا تزودَ مِمَّا كانَ يَجْمَعُهُ ... سِوى حَنُوْطٍ غَداةَ البينِ في خِرَقِ
وغيرَ نَفْحةِ أعوادٍ تُشبُّ لَهُ ... وقلَّ ذلِكَ مِنْ زادٍ لِمُنْطلقِ
بأيِّما بَلدٍ كانَتْ منيتُه ... إنْ لا يَسِرْ طَائِعاً في قَصْدِهاَ يُسَقِ

سأله رجلٌ قائلاً: يا أمير المؤمنين، تفرّغ لنا، فانشأ يقول:[7]

قدْ جَاءَ شُغلٌ شَاغِلٌ ... وعَدْلتُ عَنْ طُرقِ السلامةْ
ذَهبَ الفراغُ فَلَا فَراغَ ... لنا إلى يَوْمِ القِيَامةْ

اقتبس البيت الأخير من الأية القرآنية "فإذا فرغت فنصب وإلى ربك فرغب"[8]

---

[1] البداية والنهاية، 10/7-11
[2] تاريخ الخُلفاء، ص190-195
[3] البداية والنهاية، 10/9
[4] تاريخ الخُلفاء، 192
[5] تجارب الأمم وتعاقب الهمم، 2/181
[6] البداية والنهاية، 10/25
[7] المرجع نفسه، 10/15
[8] سورة (الشرح) الآية: 7، 8

يضيق البحث عن سرد المواقف التي تمثل فيها بالشِّعر.

نقده للشِّعر:

اتخذ المِقياس الأوَّل في نقده للشِّعر (الدِّين والأخلاق) أساساً في قرب الشاعر من بلاطه أو بعده عنه، وربَّما اشترى من الشاعر أعراض النَّاس شريطة ألا يُعرّض أو يهجو أحداً، يُروى أنَّه اشترى من الأحوص الأنصاري عرض أبي بكر بن عبد العزيز، وذلك أنَّ أبابكر وعد الشاعر بعطية وأخلفه، ولَمَّا عَلِمَ عمر بذلك أعطاه مائة دينار وكساه ثياباً، وقال له: هب لي عِرض أخي. فقال هو لك وأنشده:

فَـــلأ شـــكُرَنَّكَ حُسْـــنَ مَـــا أَوْلَيْتَنـــي ... شُـــكْراً تَحُـــلُّ بِـــهِ المَطِـــيُّ وَتَرْحَـــلُ
مِـــدَحاً يَكُـــوْنُ لَكُـــمْ غَرائِـــبُ شِـــعْرِها ... مَبْذُولـــــــةً وَلِغيْـــــــرِكُمْ لا تُبْـــــــذَلُ
وَأَرَاك تَفْعَـــلُ مَـــا تَقـــولُ وبَعْضُـــهم ... مَـــذِقُ اللِّســـانِ يَقُـــوْلُ مَـــالا يَفْعَـــلُ[1]
إنَّ امْـــرأً قَـــدْ نَـــالَ مِنْـــكَ قَرَابَـــةً ... يَرْجُـــو مَنـــافِعَ غَيْرِهـــا لمُضَـــلَّلُ

وَلَمَّا سَمِعَ عمر هذا المدح قال: ما أراك أعفيتني ممَّا استعفيت منه؛ لأنَّه عرَض بأبي بكر"[2]

لقد صنع عمر بن عبد العزيز مع الأحوص كما صنع عمر بن الخطاب مع الحطيئة[3]، حيث اشترى العُمران أعراض المُسلمين من الشاعرين.

كان يُبعد الشاعر عن مجلسه إذا وقع في الأعراض وتغزل غزلاً مكشوفاً؛ ولهذا الأمر "أبعد الأحوص وقرب زيداً بن أسلم[4]، قال الأحوص في ذلك:

ألسْـتَ أبـا حفـصٍ –هُـدِيتَ – مُخَبِّـري ... أفـي الحـقِّ أنْ أُقصـى وتُـدْنِي ابْـنَ أسْـلَمَا

فقال عمر: ذلك هو الحق"[5]

"وَلَمَّا نُفِي الأحوص إلى دهلك كتب إلى عمر يتشفع له أن يُقدِمه إلى المدينة فقال من القائل:

---

[1]مذق فلان الود: إذا لم يحفظه.
[2]الأغاني، 196/18، 197
[3]جرول بن أوس بن مالك العبسي، أبو مليكة، شاعر مُخضرم، كان هجاءً عنيفاً لم يسلم أحداً من لسانه، هجا أُمَّه وأباه ونفسه، مات سنة 45هـ، ينظر، الأعلام، 2/ 118
[4]أبو أمامة، فقيه ومفسر للقرآن، من أهل المدينة، كان مع عمر بن عبد العزيز أيام خِلافته، ثِقة كثير الحديث الشريف، مات سنة 136هـ، ينظر، الأعلام، 3/ 56
[5]الخِزانة، 339/3

فَمَـــا هـــو إلَّا أنْ أراهـــا فُجـــاءةً فأُبْهـــتُ حتَّـــى مَـــا أكـــادُ أُجِيْـــبُ

قالوا: الأحوص. قال: فَمَنْ القائل:

أدُورُ وَلَـــــوْلا أنْ أَرَى أمَّ جَعْفَـــــرٍ بأبيـــــاتِكُمُ مَـــــا دُرْتُ حَيْـــــثُ أدورُ

قالوا: الأحوص: قال فَمَنْ الَّذي يقول:

سَـيَبْقى لَهـا فـي مُضْـمَرِ القَلـبِ والحَشَـا سَـــرِيرةُ حُـــبٍّ يَـــوْمَ تُبْلَـــى السَّـــرائرُ

قالوا: الأحوص: قال فَمَنْ الَّذي يقول:

اللهُ بَيْنِـــــي وَبَـــــيْنَ سَـــــيِّدها يَفِـــــرُّ مِنِّـــــى بِهَـــــا وأتّبـــــعُ

قالوا: الأحوص. قال لا جَرَم ما رددتُهُ ما كان لي سُلطانُ!"[1]

وظل الأخوص يكتب إلى عمر مِراراً وعمر لا يلتفت إليه، وكان ممَّا كتبه:[2]

أيـــا رَاكِبـــاً، إمَّـــا عَرضْـــتَ فـــبلِّغنْ هُـــدِيتَ، أمِيْـــرَ المُـــؤْمِنينَ رَســـائلي
وقُـــلْ: لأبـــي حَفْـــصٍ إذا مـــا لَقيتَـــهُ لَقَـــدْ كُنْـــتَ نَفّاعـــاً قَلِيْـــلَ الغَوائِـــلِ
فَكَيْـــفَ تَـــرَى للعـــشِ طِيْبـــاً ولَـــذَّةً وَخَالُـــكَ أَمْســـىَ مُوْثَقـــاً فـــي الحَبَائِـــلِ

اتخذ عمر القِيم الخُلُقيه معياراً في تفضيله بين الشُّعراء، وذلك لَمَّا وَلِيَ الخِلافة ولم يُفْسَح للشُّعراء حتَّى قَدِمَ عون بن عتبه الثقفي[3] ففسح له، وكان قد أرخى عمامته والشُّعراء بالباب لا يفسح لهم، فأنشد جرير قائلاً:

يـــا أيُّهـــا الرّجـــلُ المُرْخِـــي عِمَامَتَـــهُ هـــذا زمانـــك إنِّـــي قَـــدْ مَضَـــى زَمَنِـــي
أبلـــغ خليفتنـــا إنْ كنـــتَ لا قيـــه إنّـــي لـــدى البـــابِ كالمصـــفودِ فـــي قَـــرَنِ
وحـــش المكانـــةِ مـــنْ أهلـــي ومـــنْ ولـــدي نـــائي المَحَلّـــةِ عـــنْ داري وعـــنْ وطنـــي

---

[1] عادل سُليمان جمال (شِعر الأحوص الأنصاري) ص56

[2] المرجع نفسه، ص57

[3] أبو عبد الله عون بن عتبة الهذلي الكوفي الزاهد، وهو أخو عبد الله بن مسعود. قال ابن سعد "إنَّ عمر بن عبد العزيز لَمَّا وَلِيَ الخِلافة رحل إليه عون وآخرون فناظروه في الإرجاء فزعموا أنَّه وافقهم" تشيع بعد ذلك توفي بين سنة 110- 120، ينظر، البيان والتبين، 1/ 328، المعارف، 110

فَلَمَّا دخل على أمير المؤمنين قال: إنَّ الشُّعراء ببابك وأقوالهم باقية، وسِنانهم مسنونه. قال ياعون، مالي وللشُّعراء؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنَّ النَّبيَّﷺ قد مُدِحَ وأعطى، وفيه أُسْوة لكلِّ مُسلم قال ومَنْ مدحه؟ قال: عبَّاس بن مِرداس فكساء حُلةً قطع بها لِسانه، قال: وتروى قوله؟ قال: نعم، وأنشده. فَلَمَّا سَمِعَ عمر شِعر عبَّاس قال: صدقتَ. فَمَنْ بالباب؟ قال جميل بن مَعْمَر، قال: هو القائل[1]

ألا ليتنَـــا نَحْيـــا جميعـــاً، فـــإنْ نمُـــتْ، يُـــوافِي لـــدى المـــوتى، ضَـــريحي ضَـــريحُها
فَمـــا أَنـــا فـــي طُـــولِ الحيـــاةِ براغِـــبٍ إذا قِيـــلَ قَـــدْ سُـــوّي عليهـــا صَـــفيحُها
أظـــلُّ نَهـــاري لا أراهـــا ويلتقـــي مَـــع اللَّيـــلِ رُوحـــي فـــي المَنـــامِ وروحُهـــا

أبعده الله، فوالله لا يدخل عليَّ أبداً، فَمَنْ غيره ممَّن ذكرتَ؟ قال: كُثيِّر عَزَّة، قال: هو الَّذي يقول: [2]

رُهْبـــانُ مَـــدْينَ والـــذينَ عهِـــدتُهُمْ يَبْكُـــوْنَ مِـــنْ حَـــذْرِ العَـــذَابِ قُعُـــوْدا
لَـــو يَسْـــمعونَ كَمَـــا سَـــمِعْتُ حَـــدِيْثَهَا خَـــرُّوا لِعـــزّةَ راكعـــين سُـــجُوْدا

أبعده الله، فَمَنْ بالباب غيره؟ قال: همَّام بن غالب، قال: أليس القائل يفخر بالزنا:[3]

هَمَـــا دَلَّتَـــانِي مِـــنْ ثمَـــانِينَ قَامَـــةً، كَمَـــا انْقَـــضَّ بَـــازِ أَقـــتُمُ الـــرِّيشِ كَاسِـــرُه
فَلَمَّـا اسْـتَوَتْ رِجْـلَايَ فـي الأرضِ قالتـا: أَحـــيُّ يُرجـــى أمْ قتيـــلٌ نُحَـــاذرُهْ
فَقُلْـتُ: ارْفَعَـا الأسْـبابَ لا يشـعُرُوا بِنَـا وَوَلَّيْـــتُ فـــي أَعْقَـــابِ لَيْـــلٍ أُبَـــادِرُهْ

أبعده الله، فوالله لا يدخل عليّ أبداً، فَمَنْ بالباب غيره؟ قال: الأخطل قال: أليس القائل:[4]

ولسْـــتُ بصـــائمٍ رَمَضـــانَ عُمـــري ولسْـــتُ بآكـــلٍ لَحْـــمَ الأضـــاحي
وَلسْـــتُ بزاجـــرٍ عنْســـاً بَكـــوراً إلـــى بطحـــاء مَكَّـــة للنَّجـــاحِ
وَلسْـــتُ بِقـــائمٍ كـــالعيرِ يَـــدْعُوا قُبَيْـــلَ الصـــبحِ حـــيَّ علـــى الفَـــلاحِ

[1]ديوان جميل، ص29
[2]دِيوان كُثيِّر عَزّة، ص441، 442
[3]دِيوان الفرزدق، ص189
[4]دِيوان الأخطل، ص72

ولكنِّـــــي سأشـــــربها شـــــمولاً وأَسْـــجُدُ قَبْـــلُ مُنْـــبَلَج الصَّـــباحِ

أبعده الله، فوالله لا وطئ لي بساطاً أبداً، وهو كافرٌ، فَمَنْ بالباب غيره؟ قال: جرير بن عطية، قال: أليس القائل:

طَرَقَتْـــكَ صَـــائِدَةُ القُلُـــبِ وَلَـــيْسَ ذا وَقْـــتَ الزِّيَـــارَةِ، فـــارْجِعي بسَـــلامِ

فإن كان لا بُدّ فهذا، فأذن له، فخرجتُ إليه، فقلتُ: ادخل أبا حزرة، فدخل وهو يقول:[1]

إنَّ الَّـــذي بَعَـــثَ النَّبـــيَّ مُحَمّـــداً جَعَـــلَ الخِلافَـــةَ فـــي إِمَـــامٍ عَـــادِلِ
وَسِـــعَ الخَلائِـــقَ عَدْلُـــهُ ووفـــاؤُهُ حَتَّـــى ارْعَـــوَى وَأَقَـــامَ مَيْـــلَ المَائِـــلِ
واللهُ أَنْـــزَلَ فـــي الكِتـــابِ فَريضَـــةً لا بُـــنِ السَّـــبيلِ وَللفَقِيـــرِ العَائِـــلِ
إِنِّـــي لأرجُـــو مِنْـــكَ خَيْـــراً عَـــاجِلاً، وَالـــنَّفْسُ مُولَعَـــةٌ بِحُـــبِ العَاجِـــلِ

فَلَمَّا مَثُلَ بين يديه، قال، اتق الله يا جرير، ولا تقل إلَّا حقاً فأنشأ يقول:[2]

كَـــمْ باليَمَامَـــةِ مِـــنْ شَـــعْثَاء أَرْمَلَـــةِ وَمِـــنْ يَتِـــيمٍ ضَـــعِيْفِ الصَّـــوْتِ وَالنّظَـــرِ
مِمَّـــنْ يَعُـــدْكَ تَكْفِـــي فَقْـــدَ وَالِـــدِهِ كَـالفَرخِ فـي العُـشِّ لَـمْ يَـنْهَضْ وَلَـمْ يَطِـرِ
يَـــدْعُوكَ دَعْـــوَةَ مَلْهُـــوفٍ كَـــأَنّ بِـــهِ خَـــبْلاً مِـــنَ الجِـــنِّ أَوْ مَسّـــاً مِـــنْ البَشَـــرِ
إِنّـــا لَنَرْجُـــو، إذا مَـــا الغَيْـــثُ أَخْلَفَنَـــا مِـــنَ الخَلِيْفَـــةِ مَـــا نَرْجُـــو مِـــنَ المَطَـــرِ
نَـــالَ الخِلافـــةَ إِذْ كانَـــتْ لَـــهُ قَـــدَراً كَمَـــا أَتَـــى رَبَّـــهُ مُوسَـــى عَلَـــى قَـــدَر
هَـــذِي الأَرَامِـــلُ قَـــدْ قَضَـــيْتَ حَاجَتَهَـــا فَمَـــنْ لِحَاجَـــةِ هـــذا الأَرْمَـــلِ الـــذَّكَرِ؟

فقال: ياجرير، والله لقد وَلِيْتُ هذا الأمر ولا أملك إلَّا ثلاثمائة؛ فمائة أخذها عبد الله ومائة أخذتها أُمّ عبد الله، يا غُلام، أَعْطِهِ المائة الباقية. فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّها لأحب مال إليَّ كسبتُه ثُمَّ خرج فقالوا له: ما وراءك؟ قال: ما يسوءكم، خرجتُ من عند أمير المؤمنين يُعطي الفُقراء، ويمنع الشُعراء، وإنّي عنه لراضٍ ثُمَّ أنشد يقول:[3]

---

[1] دِيوان جرير، ص2100- 211
[2] المصدر نفسه، ص331
[3] عبد العزيز عتيق (تاريخ النَّقد الأدبي عند العرب) دار النهضة ، بيروت –لبنان- ط2، 1972م، ص245- 246

رَأَيــــتُ رُقَـــــي الشَّـــــيطان لاتَسْـــــتَفِزُهُ وَقَــدْ كَــانَ شَــيْطَانِي مَــنْ الجِــنِّ راقِيَــا

لقد كان لعمر موقف من الشِّعر والشُّعراء، يرضاه الإسلام ، إذ نجده يرفض شِعر الغزل اللاهي، ويرفض الشِّعر الخارج عن القِيم الخُلقية، ويرفض تبذير الأموال في سبيل المدح، فقد أذن لجرير بالدخول عليه وأكرمه لفقره لا لشِعره، لأنَّ الشاعر ذَكَرَ مُوجبات العطاء الَّتي حثَّ عليها الإسلام، فهو فقير وصاحب عِيال.

لقد كان يُوَجِّهُ الشُّعراء إلى صِدق الحديث في نظم الشِّعر، فهو يرى أنَّ أحسن الشِّعر أصدقه، وله أخبار متفرقه في بطون الكُتب، منها الخبر الَّذي رواه (صاحب الجَّليس الصَّالح والأنيس النَّاصح) والخبر هو،

قال كُثيِّرعزَّة: "قدمتُ أنا ونُصَيْبٌ والأحْوَص على عمر بن عبد العزيز –لَمَّا وَلِي الخِلافة– ولقينا مسلمة بن عبد الملك على الباب، وسألناه أنْ يُدخلنا عليه فقال: أو ما علمتُم أنَّه لايُعْطِي الشُّعراء شيئاً؟ فَلَمَّا دخلنا عليه سلمنا عليه بالخِلافة، ثُمَّ استأذنتُه في الإنشاد فقال: قُلْ ولا تقل إلَّا حقاً، فإنَّ الله يسألك فقلتُ:

وَلِيْــتَ وَلَــمْ تَشْــتِمْ عَلِيّــاً وَلَــم تُخِــفْ بَرِيــــاً وَلَــــمْ تَتْبَــــعَ مَقَالَــــةَ مُجْــــرِمِ
وَقُلْــتَ فَصــدّقتَ الَّــذي قُلْــتَ بالَّــذي فَعلــــتَ فَأمســـــى رَاضِـــيْاً كُـــلُ مُسْـــلِمِ
لَقَــدْ لَبِســتْ لُــبْسَ الهَلُــوكِ ثِيابَهــا وَأبــدتْ لــكَ الــدُّنيا بكــفٍّ وَمِعْصَــم[1]
وَتُــوْمِضُ أَحيانــــاً بِعــــينٍ مَريضَــــةٍ وَتبسِــمُ عَــنْ مِثْــلِ الجُمْــانِ المُــنَظَّمِ[2]
فَأعرضــــتَ عَنْهَــــا مُشــــمئزاً كَأنَّمــــا ســــقتكَ مَــــدوفاً مِــــنْ سِــــمَامٍ وَعلقَــــمِ
فَمــا زِلــتَ سَــبَّاقاً إلــى كُــلِّ غايــةٍ صَــدعتَ بِهَــا أعلــى البِنَــاءِ المُقَــدَّمِ
فَلَمَّــا أتــاكَ المُلــكُ عَفْــواً ولَــمْ يَكُــن لِطَالِــبِ دُنْيَــا بَعْــدهُ مِــنْ تَكلُّــمِ
تركْــتَ الَّــذي يَفْنــى وإنْ كــان مُوْنِقــاً وآثَــرْتَ مَــا يَبقــى بــرأيٍ مُصَــمِّمِ
فَمَــا بَــيْنَ شَــرْقِ الأَرْضِ والغَــربِ كُلِّهــا مُنــادٍ يُنَــادِي مِــنْ فَصِــيْحٍ وَأَعْجَــمِ
يَقُــولُ: أَمِيْــرَ المــؤمنينَ، ظَلَمْتَنــي بأخْــذٍ لِــدِيْنَارٍ، ولا أَخْــذِ دِرْهَــمِ
ولا بَسْــطِ كَــفٍّ لامْــرىءٍ ظَــالِمٍ لــه ولا السَّــفكِ مِنْــهُ ظَالِمــاً مِــلءَ مِحْجَــمِ

[1]الهلوك: هي المرأة الفاجرة المتساقطة على الرجال ورويت (لبس الملوك)
[2]الجمان: الفضة.

فَلَـــوْ يَسْـــتَطِيعُ المُســـلمونَ لَقسَّـــموا لَـــكَ الشِّـــطْرَ مِـــنْ أعْمَـــارِهِم غَيْـــرَ نُـــدَّمِ

فقال: يا كُثيِّر، إنَّ الله سائلك عمَّا قلتَ كُلَّه. ثُمَّ تَقدّم الأحوصُ فاستأذنه فقال: قُلْ ولا تقل إلَّا حقاً فإنَّ الله سائلك، فأنشده:

وَمَـــا الشِّـــعرُ إلّا خُطْبَـــةٌ مِـــن مُؤلِـــفٍ بِمَنْطِـــقٍ حَـــقٍّ أوْ بِمَنْطِـــقِ بَاطِـــلِ
وَلا تَقـــبلنْ إلَّا الَّـــذي وَافـــقَ الرِّضَـــا ولا تَرْجِعَنَّـــــا كالَنِّســـــاءِ الأرَامِـــــلِ
رأينـــاك لَـــمْ تَعْـــدِلْ عَـــنْ الحَـــقِّ يَمْنَـــةً ولا يَسْـــرَةً فَعْـــلَ الظَّلُـــومِ المُخَاتِـــلِ
وَلَكِـــنْ أَخَـــذتَ القَصْـــدَ جَهْـــدَكَ كُلَّـــهُ وتَقْفُـــو مِثَـــال الصّـــلحينَ الأَوْائِـــلِ
فَقُلْنَـــا وَلَـــمْ نكْـــذبْ لِمَـــا قَـــدْ بـــدالنا ومَـــنْ ذا يَـــرُدُّ الحَـــقَّ مِـــنْ قَـــوْلِ قائِـــلِ

فقال: يا أحوص، إنَّ الله سائلك عمَّا قلتَ، ثُمَّ تَقدَّم نصيبٌ، فأبى أنْ يُأذن له، فغضب غضباً شديداً، وأمر لكُلِّ واحد بثلاثمائة درهم وأمر لنُصيب بمائة وخمسين"[1]

مُدِحَ الخليفة بالقِيم الَّتي حضّ عليها الإسلام، من زهدٍ وعدلٍ وتقوى وصلاح...، وكان الخليفة يُقوّم ألسنة الشُّعراء بأنْ لا تجنح إلى الكذب حِيال هذا المدح فالصِّدق عنده مُهم في كُلِّ الأمور ، ويُعضض ذلك الخبر المروى عنه من استأذان نُصيب له بالانشاد فقال عمر: أنشدني (قفا أخويّ) فإنَّ شيطانك كان لك فيها ناصحاً حين لقنك إياها، فأنشده:[2]

قفـــا أخـــويّ إنَّ الـــدَّارَ لَيْسَـــتْ كَمَـــا كَانـــتْ بِعَهْـــدٍ كَمَـــا تَكُـــوْنُ
ليـــــالي تَعْلَمَـــــانِ وآل ليلـــــى قطـــين الـــدَّارِ فاحتمـــل القَطِـــيْنُ[3]
فَعُوْجَـــا فَـــانْظُرا أ تُبِـــيْنُ عَمَّـــا سَـــــألْنَاها بِـــــهِ أمْ لا تَبِـــــيْنُ
فَظَـــلا وَقِفـــين وظَـــلَّ دَمْعِـــي عَلَـــى خَـــدْي تَجُـــوْدُ بِـــهِ الجُفُـــوْنُ
فَلَـــوْلا أنْ رأيَـــت اليـــأسَ مِنْهَـــا بـــدا أنْ كِـــدْتَ تَرْشُـــقُكَ العُيُـــوْنُ
بَرِحْـــتَ فَلَـــمْ يملـــك النَّـــاسُ فِيْهَـــا وَلَـــمْ تَعْلَـــق كَمَـــا عَلِـــقَ الـــرهِينُ

[1]سبط بن الجوزي (الجَّليس الصَّالح والأنيس النَّاصح) تحقيق: فواز صالح فواز، دار رياض الريش للكُتب والنشر، 1989م، ص171- 173
[2]شِعر نُصيب بن رباح، ص135
[3]القطين: ساكن الدَّار.

المبحث الثالث

أوَّلاً: يزيد بن عبد الملك:

هو (يزيد ين عبد الملك بن مروان، كُنيته أبو خالد، وُلِدَ سنة إحدى وسبعين ومات بأرض دِمشق سنة خمس ومائة، وله من العُمر ثمان وثلاثون سنة، وَلِيَ الخِلافة بعد عمر بن عبد العزيز)[1] (وكانت مُدّة ولايته أربع سنين و شهراً)[2]

وكان صاحب لهو وطرب، وكانت عنده حبابة[3] وسلَّامة[4][5]

روايته للشِّعر:

تمثل بالشِّعر في مواطن كثيرة ومختلفة من حياته، ممَّا يدل على أنَّ مخزونه الأدبي كان غزيراً، وخير شاهد على ذلك، إنشاده الشِّعر لَمَّا وَلِيَ الخِليفة واشترى سلَّامة وحبابة، قال: أنا اليوم كما قال البارقي:[6]

فَألقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقرتْ بِهَا النَّوى كَمَا قَرَّ عَيْناً بالإيابِ المُسَافِرُ

وله مُساجلات مع أخيه هشام استشهد كُلّ منهما بالأشعار، وذلك لَمَّا بلغه أنَّ هشاماً أخاه يتنقصه، فكتب إليه: أنَّ مثلي ومثلك كما قال الأوَّل:

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ وإنْ أَمُتْ فَتِلْكَ سَبيلٌ لَسْتُ فِيهَا بَأَوْحَدِ

لَعَلّ الَّذي يَبْغي رَداي وَيَرْتجي بِهِ قَبلَ مَوْتِي أَنْ يَكونَ هُو الرّدي

فكتب إليه هشام أنَّ مثلي ومثلك كما قال الأوَّل:

---

[1]تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، 311/2

[2]ابن قتيبة: أبي مُحمد عبد الله بن مُسلم (المعارف) تحقيق: عُكاشة مُحمد ، دار المعارف المصرية ط4، ص364

[3]حبابة: مُغنية من أحسن النَّاس وجهاً، وأفضلهم أدباً، وُلِدَت بالمدينة وأخذت الغِناء عن جماعة من المُغنّين منهم: ابن سُريج، ومعبدٍ وجميلة وعزَّة...، ينظر، تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، 346/2

[4]مُغنية اشتراها يزيد بن عبد الملك بعشرين ألف دينار، أخذت الغِناء عن معبد وابن عُكاشة، ومالك، وجميلة...، ينظر، تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، 346/2

[5]تاريخ الخُلفاء، 196

[6]الحسن اليوسي (زهر الأكم في الأمثال والحكم) تحقيق: مُحمد حجي ومُحمد الأخضر، دار الثقافة المغربية، ط1، 1981م، ص74/3

وَمَـنْ لـم يُغْمِّـضْ عَيْنـهُ عَـنْ صَـديقِهِ وَعَـنْ بَعْـضِ مَـا فيـهِ يَمُـتْ وَهُوَعَاتِـبُ
وَمَـنْ يَتَتَبّـعْ جَاهِـداً كُـلَّ عَثْـرَةٍ يَجِـدْهَا وَلا يُبْقِـي لَـهُ الـدَّهْرَ صَـاحِبُ

فكتب إليه يزيد: نحن مغتفرون ما كان منك، ومكذّبون ما بلغنا عنك، وإنّي لأعلم أنَّك كما قال معن بن أوس:[1]

لَعَمـرُك مـا أدري وإنِّـي لَأَوْجَـلُ عَلَـى أيِّنـا تَعـدو المَنِيـةُ أَوَّلُ
وإنِّـي عَلَـى أشـياءَ مِنْـكَ تريبنـي قَـدِيْمَاً لـذو صَـفْحٍ عَلـى ذاك مُجْمِـلُ
سَـتقطعُ فـي الـدُّنيا إذا مَـا قطعتنـي يَمينـكَ فـانظر أيَّ كَـفٍّ تَبـدَّلُ
إذا أَنْـتَ لَـمْ تُنْصِـف أخـاكَ وَجدْتـهُ عَلـى طَـرَفِ الهجـران إنْ كـانَ يَعْقِـلُ

الشِّعر والغِناء في مجلسه:

أوشك أنْ يكون مجلسه الأدبي حِكراً على الأحوص وحبابة وسلَّامة، فالأحوص ينظم الأشعار، وحبابة وسلَّامة تُغنيان له. وكان يستحسن الشِّعر وفقاً لمعانيه أولَّاً، ثُمَّ بعد ذلك تأخذه خِفة الطَّرب الَّتي أنكرها مسلمة أخوه، حتَّى أعرض عن حبابة زمناً، فاحتالتْ عليه – يوماً– وغنَّتْ للأحوص[2]

إذا كُنْـتَ عِزْاهـاً عَـنْ اللَّهْـو والصِّـبا فَكُـنْ حَجَـراً مِـنْ يـابسِ الصَّـخْرِ جَلْمَـدا[3]
هَـلْ العَـيْشُ إلَّا مـا تَلَـذُّ وتَشْـتَهِي وَإنْ لامَ فِيْـهِ ذو الشِّـنانِ وفَنَّـدا[4]
وَمَـا كَـانَ مـالِي طَارِفـاً عَـنْ تِجَـارةٍ وَمَـا كَـانَ مِيْراثـاً مِـنْ المَـالِ مُتْلَـدا
وَلكَـنْ عَطـاءٌ مِـنْ إمـامٍ مُبَـاركٍ مَـلا الأَرْضَ مَعْرُوفـاً وَعْـدَلاً وسُـؤْدُدا

لقد كان مُكْرِماً للأحوص، يهب له الجوائز والهبات، حكى الزهري، قال: "دعاني يزيد بن عبد الملك، وقد مضى شِطر اللَّيل، فغنَّت جاريته حبابة:

إذا رُمـتُ عنهـا سُـلْوَةً قـالَ شـافعٌ مِـنْ الحُـبِ مِيعـادُ السُّـلُوِّ المَقَـابِرُ

---

[1] العِقد الفريد، 443/4
[2] دِيوان الأحوص الأنصاري، ص26
[3] عزِاها: الرجل الَّذي لا يرغب في النِّساء. جلمد: صخرٌ كبير.
[4] الشِّنان: العيب والحقد. فنّدا: كذب وفي القرءان (لولا أن تفندون)

سَـيَبْقَى لهـا فـي مُضْـمَرِ القَلْـبِ والحَشَـا سَـــرِيرةُ حُـــبٍّ يَـــوْمَ تُبْلـــىَ السَّـــرَائِرُ

فقال: لِمَنْ هذا الشِّعر؟ قلتُ: الأحوص، قال ما صنع الله به؟ قلتُ: هو محبوس (بدهلك) فكتب من ساعته بإطلاقه، وأمر له بأربعمائة دينار، وقدم إليه فأحسن جائزته"[1]

إنَّ هذا الفعل من الخليفة يدل على تقديره للشُّعراء، ولم يك الأمر طرباً للغِناء فحسب، ولو كان طرباً للغِناء لَمَا تكلَّف وأرسل إليه وأخرجه من منفاه وأجزل له العطاء. وذلك حفظاً للجميل فقد أنشده الأحوص قبل هذا اليوم:

وإنِّـــي لأســـتحيكُمُ أنْ يقـــودَني إلـــى غَيْـرِكُمْ مِـنْ سـائرِ النَّـاسِ مَطْمَـعُ
وأنَ اجْـــتَدي للنَّفـــعِ غَيْـــرَكَ مِـــنْهُم وأنْـــتَ إمـــامٌ للبريَّـــةِ مَقْنَـــعُ

ويهبه الخليفة ثلاثين ألف دِرهمٍ"[2]

إنَّ طرب يزيد لم يكن للغناء الفاتر المعاني، بل كان ينظر إلى معاني الأبيات أولَّاً، ثُمَّ يستحسن الشِّعر أو يستقبح ومن هذا الضَّرب أنَّ حبابة غنَّتْ:

وإنِّـــي لأهَوْاهَـــا وأهـــوَى لِقاءهَـــا كَمَـا يَشْـتَهِي الصَّـادِي الشَّـرَابَ المُبَـرَّدَا

فراسلتها سلَّامةُ، فغنَّتْ:

عَلَاقَـةَ حُـبٍّ لَـجَّ فـي سَـنَنِ الصِّـبَا فَـــأَبْلَى ومـــا يَـــزْدَادُ إلّا تَجَلُّـــدَا

فغنَّتْ حبابة:

كَـــرِيْمُ قـــرَيْشٍ حِـــيْنَ يُنْسَـــبُ والّـــذِي أَقَـــرَّت لَـــهُ بالفَضْـــلِ كَهْـــلاً وأَمـــرَدا

فغنّت سلَّامة:

تَـــروّى بمَجْـــدٍ عَـــنْ أبيـــهِ وَجَـــدِّه وَقَـــدْ أوْرَثَـــا بُنْيَـــانَ مَجْـــدٍ مُشَـــيّدا

[1] المصدر السابق، ص82
[2] المصدر السابق، ص58

فطرب يزيد وشق حُلّة وشيٍّ كانت عليه، وقال: أحسنتما، أفتأذنان لي أنْ أطير؟ فقالتْ له حبابة: فعلى مَنْ تَدْعُ الأُمّةُ؟ قال عليكِ"[1]

وهذا الفعل من يزيد هو الَّذي عابه أبو حمزة حين خطب بالمدينة، عائباً خُلفاء بني أُميَّة واحداً واحداً، حتَّى انتهى إلى يزيد، فقال: (ثُمَّ وَلِيَ يزيد لم يُؤنس به رُشْداً، شَرِبَ الخمرَ المُحرمةَ صراحاً، حتَّى إذا دبت حُميّا الكأس في رأسه ضرب بيده وشق الحُلَّةَ ، فقال لهما: أتأذنان لي أنْ أطير؟! نعم ، طر إلى لعنة الله، لا ردّك الله تعالى)[2]

قصص العرب، 267/4

[2]المرجع نفسه، 267/4

ثانيا: هشام بن عبد الملك:

هو (هشام بن عبد الملك بن مروان، كان يُكنى أبا الوليد وكان أحولاً[1] وُلِدَ سنة نيف وسبعين، ومات سنة خمس وعشرين ومائة)[2](وَلِيَ الخِلافة سنة خمس ومائة وكانت مُدّة خِلافته تسع عشرة سنة)"[3]

الشِّعر والنَّقد في مجلسه:

وفد إليه الشُّعراء وأنشدوه في المدح والأغراض الأخر، وربَّما جنح الشاعر إلى الفُكاهة وهو يَعْرِضُ حاجته ويستمطر نوال الخليفة، فَيُغْدِغ عليه الخليفة الشيء الكثير من الجوائز ويضحك حتَّى تظهر نواجذه، والشاهد على ذلك قصَّته مع أبي النَّجم[4]، لَمَّا سأله عن حال ماله وولده فقال: (أمَّا المال فلا مال لي، وأمَّا الولد فلي ثلاث بنات وبُنَيَّ يقال له: شَيْبان.

فقال: هل زوّجتَ من بناتك؟ قال: نعم، زوّجتُ اثنتين، وبقيتْ واحدة تَجْمِزُ[5] في أبياتنا كأنَّها نعامة. قال: وما وصيتَ به الأولى؟ فقال:

أوْصَـــيْتُ مـــن(بَـــرَّةَ)[6] قلبـــاً حُـــرَّا ... بالكَلـــبِ خَيْـــرَاً والحَمـــاةِ شَـــرَّا
لا تَسْـــامِي ضَـــرْباً لَهَـــا وَجَـــرّا ... حتَّـــى تَـــرَى حُلْـــوَ الحَيـــاةِ مُـــرّا
وإنْ كَســـــــتكِ ذَهبـــــــاً ودُرّا ... والحـــيَّ عُمّـــيهم بِشـــرّ طُـــرّا

فضحك هشام: وقال: فما قلتَ للأخرى؟ قال: قلتُ:

سُـــبّي الحمـــاةَ وابهتـــي عليهـــا ... وإنْ أبـــتْ فـــازدلِفي إليهـــا
وأوجعـــي بـــالفِهْرِ[7] ركبتيهـــا ... ومِرْفقيْهَـــا واضْـــرِبي جَنْبَيْهَـــا

---

[1]المعارف، ص365
[2]تاريخ الخُلفاء، ص197
[3]تجارب الأمم وتعاقب الهمم 347/2، 458
[4]الفضل بن قُدامة العجلي، أبو النَّجم الراجز، نبغ في العصر الأُموي، كان يحضر مجالس الخُلفاء، وهو أبلغ من العجَّاج في النعت، مات سنة 130هـ، ينظر، الأعلام، 5/ 151
[5]تجمز: تجري وتركض.
[6]بَرَّة: اسم ابنته.
[7]الفهر: حجر أملس.

فضحك هشام، وقال ويحك! ما هذه وصيّة يعقوب لولده! فقال: وما أنا كيعقوب يا أمير المؤمنين. قال: فما قلتَ في الثالثة: قال قلتُ:

أُوْصِـــيكِ يـــا بنتـــي، فـــإنِّي ذاهـــبُ أُوْصِـــــيكِ أنْ تَحْمَـــــدَكِ القرائـــــبُ
والجـــارُ والضَّـــيفُ الكَـــرِيمُ الســـاغِبُ لا يَرْجِـــعُ المِسْـــكِينُ وَهـــو خائـــبُ
ولا تنـــــي أظْفَـــــارُك السَّـــــلاهب[1] مِـــنْهُنّ فـــي وَجْـــهِ الحمـــاةِ كَاتِـــبُ

والـــزَّوجَ إنَّ الـــزَّوجَ بئـــس الصَّـــاحـــبُ

وضحك هشام وأعطاه خمس مائة دينار"[2]

قارن الخليفة بين وصيّة يعقوب ووصية أبي النَّجم، ليقوّم الرعيَّة والشُّعراء وفقاً للأخلاق الفاضلة والمنهج الإسلامي الرشيد.

وكان يُعْجِبُهُ الشِّعر الخُلقِي الرفيع، وإنْ صدر ممَّن لم يرضَ الإسلام ديناً كالأخطل التغلبي، وذلك لَمَّا أنشده مادِحاً:

وإذا افْتَقَـــرْتَ إلـــى الـــذَّخائرِ لَـــمْ تَجِـــدْ ذُخْـــــراً يكـــــونُ كَصـــــالحِ الأَعمـــــالِ

فقال: هنيئاً لك أبا مالك الإسلام، أو قال أسلمتَ"[3]

وكان يُعْجِبُهُ المدح ويهب الجوائز له، يُروى أنَّ نُصيبا أنشده يوماً:

إذا استبق النّاسُ العُلا سبقتهم يمينك عفواً ثُمَّ صلّت شمالها[4]

فقال له هشام: (يا أسودُ بلغتَ غاية المدح فسلني، فقال: يدك بالعطيَّة أجود وأبسط من لساني، فقال :هذا والله أحسن من الشِّعر، وحباه وكساه وأحسن جائزته)[5]

---

[1]السلاهب: الطويلة ومنها السلهوب
[2]قصص العرب، 2/390-392، دِيوان أبي النَّجم العجلي، جمعه وشرحه وحققه: مُحمد أديب عبد الواحد، مطبوعات مجمع اللُّغة العربيَّة –دمشق- 2006م، 184، 407، 91
[3]طبقات فحول الشُّعراء، 493/1
[4]صلت: المصلى هو الفرس الَّذي يأتي عقب السابق، وسُمِّى مُصلى ؛لأنَّه يأتي في صِلاه.
[5]الأغاني، 325/1

اتخذ هشام الصِّدق في الشِّعر مقياساً يفضِّل به الشُّعراء، إذا طابق قوله مقاله وحاله مطابقة تامة، ولذلك أنكر على عُروة بن أُذنيه– لَمَّا وفدإليه طالباً النوال– قوله:

لَقد عَلِمْتُ وَمَا الإسْرافُ من خُلُقِي ... أَنَّ الَّذي هُو رِزْقِي سَوْفَ يَأتيني
أسْعَى لَهُ فَيُعَنِّيني تَطَلُّبُهُ ... وَلَوْ جَلْستُ أتاني لا يُعَنِّيني

فقال عروة: نعم أنا قائلها، قال: أفلا قعدتَ في بيتك حتىَّ يأتيك رزقك؟ ..."[1]

وعاب علي أبي النَّجم تشبيهه الشَّمس بعين الأحول، وكان هشام أحولاً، وذلك لَمَّا اجتمع الشُّعراء عنده فقال هشام: (صفوا لي إبلاً فقِّطروها وأصدروها وأوردوها، حتَّى كأنِّي أنظر إليها، فأنشده أبو النَّجم أُرْجُوة طويلة"[2] قال ابن قتيبة: "هي أجود أُرْجُوزة للعرب، وهشام يُصفق بيديه استحساناً لها، حتَّى إذا بلغ قوله في وصِفة الشَّمس

حتَّى إذا الشَّمسُ جَلاها المُجْتَلِى ... بَيْنَ سِمْاطَىْ شَفَقٍ مُرَعْبِلِ
صَغْوا قَدْ كَادَتْ وَلَمَّا تَفْعَل ... فَهْي عَلَى الأُفْقِ كَعَيْنِ الأَحْوَلِ

أمر هشام بإخراجه"[3]

[1] العِقد الفريد، 205/3 الأغاني، 233/18 شِعر عُروة بن أُذنية، ص19
[2] العُمدة، 73/1
[3] الشِّعر والشُّعراء، 2/ 604، الخِزانة، 391/2 ، دِيوان أبي النَّجم،359

ثالثاً: الوليد بن يزيد:

هو (الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، أبو العبَّاس، وُلِدَ سنة تسعين، تولى الخِلافة سنة خمس وعشرين ومائة، فسار إليه يزيد بن الوليد بن عبد الملك فقتله سنة ست وعشرين ومائة)[1] (وكانت مُدّة ولايته سنة وشهرين، وقد بلغ من العُمر اثنين وأربعين سنة كان ماجناً فاجراً يقول أشعار المُغنين ويعمل فيها الألحان)[2] قال عنه الذَّهبي: (لم يصح عن الوليد كُفرٌ ولا زندقة، بل اشتهر بالخمر فخرجوا عليه لذلك)[3]

الوليد شاعراً:

قرض الوليد الشِّعر الرقيق الَّذي يناسب مجالس الطَّرب واللهو، وله أشعار في الخمر والغزل متفرقة في بطون الكُتب، لم يك شِعره قاصراً على الغرضين السابقين بل له أشعار في عِتاب عمِّه هشام، إذ صرف ولاية العهدِ وأضاع وصية أبيه يزيد، فكان من أمره أنْ أصبح ماجناً فاجراً، يقول مُعاتباً عمَّه:[4]

رأيتك تبني جاهداً في قطيعتي ... ولو كُنتَ ذا أدبٍ لهدَّمْتَ ما تَبْنِي

كفرتَ يداً مِنْ مُنْعِمٍ لَوْ شَكَرْتَهَا ... جزاك بِهَا الرّحمن ذو الفَضْلِ والمنِّ

وله أشعار تدل على رِقة في دِينه، رُمِي فيها بالزندقة والكُفر، ومنها: (أنَّه لَمَّا وَلِيَ الخِلافة– وكان مُنهمكاً في اللهو– استفتح المُصحف فخرج له قوله تعالى: (.وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جبارٍ عَنِيد)[5] فألقاه ونَصبه غَرضاً ورماه بالسِّهام، وقال:[6]

تُهَدِّدُني بجبّارٍ عَنيدٍ ... فها أنا ذاكَ جَبَّارٌ عَنِيْدُ

إذا مَا جِئْتَ رَبَّكَ يَوْمَ حَشْرٍ ... فَقُلْ: يَاربِّ مَزَّقنِي الوَلِيْدُ

---

[1] تجارب الأمم، وتعاقب الهمم ، 472/2

[2] المعارف، ص366

[3] تاريخ الخُلفاء، ص199

[4] تجارب الأمم تعاقب الهمم ، ص465

[5] سورة (إبراهيم) الأية: 15

[6] الخِزانة، 277/2 الأغاني،98/6

بل تزيد عن ذلك الروايات وتجعله لا يرضى بدِين الإسلام، ويهم أن ينسلخ عنه ليدخل في دِين النَّصارى، بسبب غانية نصرانية وقع سواده على سوادها في يوم عيد – وهي تُقَبِلُ الصَّلِيب– وأنشد:[1]

أَضْحَكْ فُؤادَكَ يَا وليدُ، عَمِيدا ... صَبّاً قَدِيماً للحسانِ صَيُوْدا
في حُبِّ واضحةِ العَوارضِ طَفْلَةٍ ... بَرزَتْ لنا نحو الكنيسةِ عِيْدا[2]
ما زلتُ أرمُقُهَا بعيني وامِقٍ ... حَتّى بَصُرْتُ بها تُقبّلُ عُوْدا[3]
عُوْدَ الصَّليبِ فويح نفسي مَنْ رَأى! ... مِنْكُمْ صَلِيْباً مِثْلَهُ مَعْبُوْدا
فَسَألتُ رَبيّ أنْ أكُوْنَ مَكَانَهُ ... وأكونَ في لَهَبِ الجَحِيْمِ وَقُوْدا

الوليد ناقداً:

أنشده الشُّعراء واستحسن أشعارهم، وأثابهم عليها، ومن جوائزه الَّتي أفرغها عليهم، أنَّ ابن مَيَّادة[4] أنشده:

ألا لَيْتَ شِعْري هَلْ أبيتنَّ لَيلةً ... بِحَرَّةِ لَيْلَى حَيْثُ رَبَّتنِي أهْلِي[5]
بِلادٌ بِهَا نِيْطَتْ عَليَّ تَمَائِمِي ... وقُطّعْنَ عَنِّى حَيْنَ أَدْرَكَنِي عَقْلي
فإنْ كُنْتَ عَنْ تِلْكَ المواقِفِ حَابِسي ... فأفشِ عَلَيَّ الرِّزقَ واجْمَعْ إذَنْ شَمْلِي
وهَلْ أسْمَعَنَّ الدَّهرَ أَصْواتَ هَجْمَةٍ ... تَطالَعُ مِنْ هَجْلٍ خَصِيْبٍ إلى هَجْلِ

فقال الوليد: كم الهجمة؟ فقال ابن ميَّادة: مائة ناقة، فقال: قد صَدَرْتَ بها كُلُّها عشراء"[6] وله أشعار كثيرة في مدح الوليد بن يزيد.

ومن طرائفه في النَّقد، أنَّه كان يسأل جلساءه عن أفضلِ بيتٍ وأرق بيتٍ وأفخر بيتٍ، ونحوها، أو عن وصف أشياء في المجلس شريطه أنْ تكون شِعراً، فَمَنْ وافق ذلك فله الجائزة. وفي ذلك تحفيز

---

[1] البداية والنهاية، 218/10
[2] واضحة العوارض: جميلة الوجه. طفلة: حسنة الجسم ناعمة الملمس.
[3] أرمقها: أنظر إليها. وأمق: مُحب.
[4] الرماح بن يزيد وميادة أُمَّه، وهو من بني مرة بن عوف، شاعر رقيق هجاء، من مُخضرمي الدَّولتي الأُمويَّة والعباسيَّة، كان يفد على الأمراء والخُلفاء، مات سنة 149هـ، ينظر، الأعلام، 3/ 31
[5] حرَّة ليلى: اسم موضع من بلاد قيس.
[6] شرح شِعر بن ميَّادة، جمع وتحقيق: حنّا جميل حداد، مجمع اللُّغة العربيَّة – دِمشق، 1982م، ص199

للإبداع الأدبي، يُروى أنَّه قال يوماً لجلسائه: (أنشدوني شِعراً يوافق صِفة هذه الجارية، فَمَنْ وافق شِعره ذاك فهي له، وكان حمَّاد حاضراً، فأنشده قول ربيعة[1] بن مقروم الضَّبّيِّ:

شَـــمّاءُ واضـــحةُ العـــوارضِ طَفلـــةٌ ... كالبـــدرِ مِـــنْ خَلَـــل السَّـــحابِ المُنْجَلـــي

وَكـــانَّ فاهـــاً بَعْـــدَ مَـــا طَـــرَقَ الكـــرى ... كـــأسٌ تُصـــفَّقُ بـــالرَّحِيْقِ السَّلسـلِ[2]

لَـــوْ أنَّهَـــا عَرَضَـــتْ لأشـــمطَ رَاهِـــبٍ ... فـــي رأسِ مُشْـــرِفِهِ الـــذُّرا مُتَبَتِّـــلِ[3]

لصَـــبَا لِبَهْجَتِهَـــا وطِيْـــبِ حَـــدِيْثِها ... ولَهَـــمَّ مِـــنْ نَامُوْسِـــهِ بِتَنـــزُّلِ

فقال الوليد: أصبتَ صِفتها، فاخترها أو ألف دينار، فختار الألف دينار"[4]

إنَّ هذه الأبيات من أجود ماقِيْلَ في وصف الجواري، فقد أخذ ربيعة هذه المعاني من مُعاصريه، واشترك مع حسَّان ابن ثابت –رضي الله عنه– في عجز البيت الثاني، قال حسَّان:[5]

يَسْـــقُونَ مَـــنْ وَرَدَ البـــرِيصَ عَلَـــيهِمِ ... بَـــرَدَى يُصَـــفَّقُ بِـــالرَّحِيقِ السَّلَسَـــلِ[6]

وافقت معانيه في البيتين الآخَيرين معاني النَّابغة الذُّبياني، حيث يقول:[7]

لَـــوْ أَنَّهـــا عَرَضَـــتْ لأَشْـــمَطَ راهـــبٍ ... عَبَـــدَ الإلـــهَ صَـــرُورَةٍ مُتَعَبِّـــدِ

لرَنَـــا لِرُؤيتهـــا وحُسْـــنِ حَـــدِيثِها ... ولَخَالـــه رَشَـــداً وإنْ لَـــمْ يَرْشُـــدِ

أمَّا بيته الأخير يشبه بيت سويد بن أبي كاهل اليشكري[8] في عينيته الَّتي يقول فيها واصِفاً محبوبته:[9]

---

[1] ربيعة بن مقروم بن قيس بن جابر، وهو شاعر مُخضرم وفارس، عاش قرابة مائة سنة وفد على كِسرى في الجاهلية ،وقِيل حبسه كِسرى ، مات سنة16ه، له دِيوان شعر، ينظر ،دِيوانه. تحقيق: تماضر عبد القادر فياض، دار صادر، ط1، 1999م، ص11

[2] تصفق: تمزج.

[3] الشمط: بياض يُخلط السَّواد في الرأس.

[4] دِيوان ربيعة بن مقروم، ص13، 42، 43

[5] دِيوان حسَّان، ص184

[6] البريص: نهر يتشعب من بردى. الرحيق: الخمر. السلسل: العذب.

[7] دِيوان النَّابغة الذُّبياني، ص95، 96

[8] اسمه عطيف بن حارثة، شاعر مقدم ومُخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، عدَّه ابن سلَّام في الطبقة السادسة، وقرنه بعنترة بن شداد، كانت هذه القصيدة تفضلها العرب في الجاهلية وسمتها اليتيمة لِمَا اشتملت عليه من الأمثال، ينظر، خِزانة الأدب، 6/ 125- 126

[9] المفضليات، 192

فَتَنَتْنِـــي بِرُقَاَهـــا إنَّهـــا تُنْـــزِلُ الأَعْصَـــمَ مِـــنْ رَأْسِ اليَفـــعْ

فصاحبة ربيعة طيبة الحديث، وصاحبة سويد حديثها ارتقى درجات في الطيب حتَّى بلغ إلى منزلة الفتنة. وصاحبة ربيعة تجعل الراهب الكهل يهم بالنزول من صومعته طرباً لحديثها، وأمَّا صاحبة سويد فتنزل من اعتصم برأس الجبل إلى الأسفل؛ لحسن حديثها، وهي أعلى رتبة من تلك؛ لأنَّها تجعل الهمَّ حقيقةً وفعلاً، وتُنْزِلَهُ من مسافة أعلى لشدة الفتنة.

ومن نقده ما رواه أبو عُبيدة عنه: (أنَّه قال لأصحابه–ذات يوم– أي بيت قالته العرب أغزل؟ فقال بعضهم: قول جميل:

يَمُـــوْتُ الهَـــوَى مِنِّـــى إذا مَالقيتُهـــا وَيَحْيَـــــا، إذَا فَارقتُهـــــا فَيَعُـــــوْدُ

وقال آخر قول عمر بن أبي ربيعة:[1]

كأنَّـــهُ يَـــوْمَ يُمْسِـــى لا يُكَلِّمُهَـــا ذُو بِغْيَـــةٍ يَبْتَغِـــي مَـــا لَـــيْسَ مَوْجُـــودَا

فقال الوليد: حسبك والله بهذا)[2]

البيت دقيق في تصوير الحالة النَّفسية الَّتي تنتاب المُحب حِيال الصَّد والإعراض من قِبَلِ المحبوبة. وأثر العاطفة فيه أوضح من سابقه، ولذلك فضَّله الوليدُ.

ومِنْ أحكامه المُتعلقة بتفضيل الأبيات –لاسيما– أبيات الغزل. أنَّه قال: (لم تقل العرب بيتاً أغزل من بيت جميل بن معمر:[3]

لِكُـــلِّ حَـــديثٍ بَيْـــنَهُنّ بَشَاشَـــةٌ وَكُـــلُّ قَتيـــلٍ عِنْـــدَهُنّ شَـــهِيْدُ

وبلغ إعجاب سُكينة بنت الحُسين بهذا البيت حين قالتْ: جعلتَ حديثنا بشاشة وقتلانا شُهداء.

هذي المعاني لا يَفْطِن لها إلَّا ناقدٌ كبيرٌ، دَرُبَ لِسَانُهُ على الأدبِ وتذوقِهِ.

انتهى الفصل الثاني الَّذي وقف الباحث فيه، على بعض الماجلس الأدبيَّة والنَّقدية عند بعض الخُلفاء وفقاً للترتيب الزَّمني للخِلافة، وترك الباحث بعض الخُلفاء؛ لِقله الأدب والنَّقد في مجالسهم، وأخر عبد الملك بن مروان إلى الفصل القادم؛ لوفرة الأدب والنَّقد في مجالسه؛ ولأنَّه مِحور الدِّراسة؛ لذا أفرد الباحث له فصلاً كاملاً.

---

[1] شرح دِيوان عمر بن أبي ربيعة، 312

[2] الأغاني، 14/1

[3] العُمدة، 2/ 121

الفصل الثالث

الشعر والنقد في مجالس عبد الملك بن مروان

المبحث الأوّل: نشأة عبد الملك بن مروان

المبحث الثاني: شاعرية عبد الملك بن مروان ورواينه للشعر

المبحث الثالث: إعجاب عبد الملك بن مروان بالشعر ومشاركته في نقده بحسب أغراضه

المبحث الأوَّل:

نشأة عبد الملك بن مروان:

يُقَسَّمُ هذا المبحث إلى:

اسمه:

(هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أُميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب)[1]

كُنيته ولقبه:

كان يُكنى (بأبي الوليد)[2] ويُقال له: (أبا الذَّبان؛ لبخره، وهي كُنية الأبخر ويُلقب ب (رشح الحجارة) لبخله)[3] وكان يُلقب (بأبي الأملاك؛ لأنَّه أبو أربعة من خُلفاءِ بني أُميَّة تعاقبوا على الخِلافة، وهم: الوليد، وسُليمان، ويزيد، وهُشام)[4]

مولده

(وُلِدَ بالمدينة سنة 23هـ)[5] (وقِيل سنة 26هـ)[6]

صِفته:

(كان أبيض اللون، طويل القامة، أعين رقيق الوجه، أنوه الفم وأبخر مُشبك الأسنان بالذَّهب، مقرون الحاجبين، ومُشرف الأنف، ليس بالنحيل ولا البدين، أبيض الرأس واللحية، نقش على خاتمه (آمنتُ بالله مُخْلِصاً)[7]

---

[1]السيوطي (تاريخ الخُلفاء) 171
[2]المرجع نفسه، 171
[3]النويري، 183/10
[4]العِقد الفريد، 398/4
[5]ابن سعد: مُحمد بن سعد بن منيع الزهري (الطبقات الكبرى) تحقيق: علي مُحمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 2001م، 221/7
[6]العِقد الفريد، 5/ 138
[7]الأعلام، الزركلي، 4/ 165

عمله:

(استعمله مُعاوية على المدينة وهو ابن 16 سنة)[1] قَبل الخِلافة

(وعَمِل كاتباً على دِيوان المدينة زمن مُعاوية)[2] وولِي الخِلافة بعد موت مروان بن الحكم سنة 65هـ فضبط الأمور وظهر بمظهر القوى: فكان جباراً على معانديه)[3]

وكان الإمام الذَّهبي لا يُقِر خِلافة مروان بن الحكم كُلياً ولا خِلافة ابنه عبد الملك إلَّا بعد مَقتلِ بن الزُّبير قائلاً (إنَّ مروان لا يُعد في أمراء المؤمنين، بل هو باغٍ خارج على ابن الزُّبير، ولا عهده إلى ابنه بصحيح، وإنَّما صحت خِلافة عبد الملك من حين قُتِل ابنُ الزُّبير، سنة 73هـ)[4]

عقله:

كان عبد الملك وافر العقل غزير العِلم، قال الشَّعبيُّ: (ما جالستُ أحداً إلَّا رأيتُ لي عليه الفضل إلَّا عبد الملك بن مروان، فإنني ما ذكرته حديثاً إلَّا وزادني فيه، ولا شِعراً إلَّا وزادني فيه)[5]

وكان من الفقهاء المُحدِّثين، قال أبو الزناد: فقهاء المدينة هم: (عبد الملك بن مروان، وعُروة بن الزُّبير، وسعيد بن المسيب، و قبيضة بن ذؤيب)[6]

وكان يروي الحديث النَّبوي (حَفِظَ عن عُثمان، وسَمِعَ من أبي هريرة، وأبي سعيد الخُدري، وجابر بن عبد الله وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ)[7]

وكان لرجاحة عقله يأخذ بالخِصال المحمودة، (رُوي أَنَّ مُعاوية بن أبي سُفيان كان جالساً مع عمرو بن العاص فمرّ، عبد الملك بن مروان، فقال مُعاوية: ما آدب هذا الفتى وأحسن مروّته! فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين إنَّ هذا الفتى أخذ بخصالٍ وترك خِصالاً، أخذ بِحُسنِ الحديث إذا

---

[1]ابن سعد (الطبقات الكبرى) 221/7
[2]الأعلام، الزركلي، 4/ 165
[3]ابن سعد (الطبقات الكبرى) 223/7
[4]السيوطي (تاريخ الخُلفاء) 169، 170
[5]الأعلام للزركلي، 165/4
[6]السيوطي (تاريخ الخُلفاء) 172
[7]ابن سعد (الطبقات الكُبرى) 231/7

حَدَّث، وحُسنِ الاستماع إذا حُدِّث، وحُسنِ البِشْر إذا لَقِي، وترك من القول ما يُعْتَذر مِنه، وترك مخالطة اللئامِ من النَّاسِ، وترك ممازحة من لا يُوثَق بعقله ولا مروّته)[1]

عبادته وورعه:

كان عابداً وَرِعاً قَبْلَ الخِلافة قال ابن سعد: (كان عابداً زاهداً ناسكاً بالمدينة قَبْلَ الخِلافة، قال يحيي الغساني: كان عبد الملك بن مروان كثيراً ما يجلس إلى أمِّ الدرداء، فقالتْ له مرّةً: بلغني أنَّك شربتَ الطِلاء[2] بعد النُسك والعبادة، قال: إي والله، والدِّماء قد شربتها)[3]

قال نافع: لقد رأيتُ المدينة وما بها شباب أشد تشميراً ولا أفقه ولا أنسك ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان)[4] وهذا قَبْلَ الخِلافة أَمَّا بَعْدَ الخِلافة فقد ساءتْ أحواله الدِّينية وهجر القرءان، وهو نفسه الَّذي يقول– لمَّا آل إليه أمر الخِلافة–: (هذا آخر العهد بك– يعني المُصحف– وكان في يده)[5] وفي رواية الأعلام أنَّه قال: (هذا فِراق بيني وبينك!)[6]

قال الطبري وابن الأثير عنه (سفك الدِّماء، وفعل الأفاعيل)[7]

مناقبه:

قال مُصعب بن عبد الله: أوَّل من سُمِّي في الإسلام عبد الملك، عبد الملك بن مروان)[8]

(وهو أوَّل من ضرب الدنانير وكتب عليها القرءان كتب (قل هو الله أحد) وعلى الوجه الآخر (لا إله إلَّا الله)[9]

قال أبو هلال العسكري: (وعبد الملك أوَّل من نقل الدِّيوان من الفارسية إلى العربيَّة)[10]

---

[1]المرجع نفسه، 222/7
[2]الطِلاء: نوع من أنواع الخمر يُشْبِه النبيذ
[3]السيوطي (تاريخ الخُلفاء) 172
[4]السيوطي (تاريخ الخُلفاء) 172
[5]المرجع نفسه، 173
[6]الأعلام للزركلي، 165/4
[7]تاريخ الطبري، 56/8
[8]السيوطي (تاريخ الخُلفاء) 174
[9]المرجع نفسه، 174
[10]أبو هلال العسكري (الأوائل) تحقيق: مُحمد السيد الوكيل، دار البشير للثقافةِ والعلوم الإسلامية- القاهرة،ط1، 1987م، ص 256

وهو أوَّل من كسا الكعبة بالدِّيباج، وإنَّ من أدرك ذلك من الفقهاء قالوا: أصاب، ما نعلم لها كسوةً أوفق منه)[1]

وهو (أوَّل من نهى عن الكلام بحضرة الخُلفاء)[2]

ونهيه عن الكلام بحضرة الخُلفاء يعني خُلفاء الإسلام، وإلَّا فإنَّ كُليب وائل[3] الملك الجاهلي، كان ينهى عن الكلام في مجلسه إلَّا بعد إذنه للمُتحدث، وقد ذكر أخوه المهلهل هذه الصِّفة الَّتي تفرد بها في إحدى مراثيه له، قائلاً:[4]

نُبِّئْتُ أَنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أُقِدَتْ وَاسْتَبَّ بَعْدَكَ يَاكُلَيْبُ المَجْلِسُ
وَتَنَازَعُوا فِي كُلِّ أَمْرِ عَظِيْمَةٍ لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهُمْ إذن لَمْ يَنْبِسُوا

وبهذا يكون كُليباً أوَّل من نهى عن الكلام في مجلسه زمن الجاهلية، ويكون عبد الملك أوّل خليفة نهى عنه في الإسلام.

وفاته:

توفى "بدِمشق يوم الخميس للنِّصف من شوال سنة 86هـ، وله من العمر 60 سنة، مُدَّة خِلافته 21 سنة وشهراً ونصف، مات وهو ابن 58 سنة"[5]

وقِيل كان عمره لَمَّا مات "57 سنة، وقِيل 61 سنة، وقِيل 64 سنة"[6]

---

[1]المرجع نفسه، 254
[2]المرجع نفسه، 252
[3]كُليب بن ربيعة بن الحارث بن مرة التغلبي، سيد الحيين بكر وتغلب، في الجاهلية ومِنْ الشجعان الأبطال، كانت منازله في نجد وأطرافها، قتله جساس بن مرّة، ينظر، الأعلام، 232/5
[4]دِيوان المهلهل، ص44
[5]ابن سعد (الطبقات الكبرى) 232/7
[6]البغدادي: أبو بكر الخطيب البغدادي (تاريخ بغداد) القاهرة، 1931، 388/10- 389

المبحث الثاني:

شاعرية عبد الملك بن مروان وروايته للشعر: يُقَسَّمُ هذا المبحث إلي:

أ- شاعريته:

هل كان عبد الملك بن مروان شاعراً؟ قبل الجواب عن هذا السؤال يجب معرفة الشاعر أوّلاً قال ابن وهب: (الشاعر من شعر يشعر شعراً فهو شاعر: ولا يستحق الشاعر هذا الاسم حَتَّى يأتي بما لا يشعر به غيره،... ومن كان خارجاً عن هذا الوصف فليس بشاعر، وإن أتى بكلام موزونٍ مقفى)[1]

والشاعر عند السكاكي: (هو الفطن المتعمد للوزن، فالشِّعر إذن هو القول الموزون عن تعمد)[2]

تَطرَّق التعريفان إلى وصف الشاعر والشِّعر: من: وزن، وقافية، وتعمد لذلك، وفطنة، وتفرد بقوة الشعور عن بني جنسه. وقد عَلِقَ عبد الملك بن مروان ببعض هذه الصفات، ونُسِبَ شِعرٌ يسيرٌ له، ومن ذلك ردّه علي ابن دعبل[3] وكان بن دعبل أنشده[4]

يَالَيْتَ شِعْري وليت ربما نفعت ... هَلْ أُبْصِرَنَّ بَني العَوَّامِ قَدْ شُمِلُوا
بالذُّلِ والأسْرِ وَالتَشْرِيْدِ إنَّهُمُ ... عَلَى البرّيةِ حَتْفٌ أَينما نَزلوا
أَمْ هَلْ أَراكَ بأكْنَافِ العِراقِ وَقَدْ ... ذلّتْ لِعِزِّكَ أَقْوامٌ وَقَدْ نُكِلوا

فقال عبد الملك- ويروى أنَّه قائل هذا الشِّعر -:

إنْ يُمْكِنِ اللهُ مِنْ قَيْسٍ وَمِنْ جَدَسٍ ... وَمِنْ جُذَامٍ ويُقْتَلْ صَاحِبُ الحَرَمِ
نَضْرب جَمَاجِمَ أَقْوامٍ عَلَى حَنَقٍ ... ضَرْباً يُنَكِّلُ عَنّا سَائِرَ الأُمَمِ

وكان كثيراً ما يكتب للحجَّاج رسالة يُذيلها بأبيات من قريحته، ويرد الحجَّاج عليه بنحو ما صنع له، ويكون حكم الحجَّاج كحكم عبد الملك بن مروان في الشِّعر، ومن الشواهد على، ذلك، قال ابن دُريد عن أبي حاتم السجستاني، عن أبي عُبيدة معمر بن المثنى قال: لَمَّا قتل الحجَّاج بن الأشعث وسّع

---

[1] أحمد مطلوب (مُعجم النَّقد العربي القديم) دار الشؤون الثقافية العامه- بغداد، ط1، 1989م، 55/2
[2] السكاكي: يوسف بن أبي بكر (مِفتاح العُلوم والحكم) تحقيق: عبد الحميد الهنداوي، دار الكُتب العِلمية، بيروت، 2000م، 619
[3] ابن دعبل بن الحكم بن عبدل بن جلبة الأسدي، أحد شُعراء الكُوفة المبرزين في العصر الأُموي، اشتهر بالهجاء، ينظر، الأغاني، 411/2، 412
[4] الأغاني، 2/ 391، تاريخ دِمشق، 27/15 تجريد الأغاني، 305

على النَّاس في العطاء، فكتب إليه عبد الملك: أَمَّا بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين أنَّك تنفق في اليوم ما لا ينفقه أمير المؤمنين في الأسبوع، وتنفق في الأسبوع مالا ينفقه أمير المؤمنين في الشَّهر، ثُمَّ أنشد قائلاً:[1]

عليك بتقوى اللهِ في الأمرِ كُلِّه ... وكن يا عبدَاللهِ تَخْشَى وَتَضْرَعُ
وَوَفّرّ خَرَاجَ المُسْلِمِيْنَ وفيهم ... وكن لَهمُ حِصْناً تجيز وتمنعُ

فكتب إليه الحجَّاج:

كِتَابٌ أتاني فِيْهِ لينٌ وغلظةٌ ... وذُكِرتُ والذكرى لدى اللبِّ تنفعُ
وكانت أمورٌ تعترينِي كثيرةٌ ... فأرضخ أو اعتل حيناً فأمنعُ
وكانت بلادٌ جئتُها حَيْنَ جِئتُها ... بِهَا كلُّ نيرانِ العداوةِ تلمعُ
فقاسيتُ منهَا ما علمتَ ولم أزلْ ... أصَارعُ حَتَّى كِدتُ بالموتِ أُصْرَعُ
وكم أرجفوا مِنْ رَجْفةٍ قَدْ سمعتَها ... ولو كان غيري طارَ ممَّا يُروعُ
وكنتُ إذا هموا بإحدى هناتهم ... حسرتُ لهم رأسي ولا أتقنعُ
فلو لم يزد عنّي صناديدُ منهم ... تقسم أعضائي ذُبابٌ وَأَضْبُعُ

فكتب إليه عبد الملك: أن اعمل برأيك.

لخصت الأبيات سياسة الحجَّاج لأهل العِراق، الَّتي تقوم على الحزم واللين وفقاً للمواقف، إذ كان في بادئ أمره فردٌ لا ناعق خلفه ولا ظهير، وشهيةُ، القومِ فُتحت نحو الفتن، ولا غنيمة لهم إلَّا السلطان، فاحتال عليهم واستعبدهم بالدرهم والدينار؛ ليدفن الفتنه في مهدها وتكون له الشوكة والمنعة، ونال ما رمى إليه، ولو أراد الحجَّاج إعمال السَّيف دون المال لأعمله، فهو صاحب عقل لا تنقصه شجاعة، ورأي باتك، وكانت ظروف الساعة تُملي عليه إدّخار السَّيف وإتلاف المال، هذا الصنع لم يُعْجِبب الخليفة، وظنه هدراً للمال، فكتب معاتباً له، وكان ردّ الحجَّاج مقنعاً ينحو للتعليل والبرهان، فأرضى الأمير واسكن هواجسه.

وهناك كتاب آخر كتبه عبد الملك إلي الحجَّاج ذيله بالشِّعر، معاتباً له في اسرافه للمال، قائلاً: (إنّما المالُ مالُ اللهِ ونحن خزنته، وسيان منع حقٍ أو إعطاء باطلٍ، وكتب في أسفلِ الكتاب:[2]

---

[1] البداية والنهاية، 9/ 311- 312

[2] المسعودي: أبي الحسن علي بن الحُسين بن علي (مُروج الذَّهب ومعادن الجوهر) اعتنى به وراجعه: كمال حسن مرعي، المكتبه العصرية بيروت، ط1، 2005م، 3/ 112، 113

إذا أنْــتَ لَــمْ تتــرك أمــوراً كرهتمــا ... وتطلــب رضــائي فــي الَّــذي أنــا طالبــهْ
وتخشــى الَّــذي يخشــاه مثلــك هاربــاً ... إلــى اللهِ منــهُ ضَــيّعَ الــدُّرَّ جالبــهْ
فــإنْ تَــرَ مِنّــي غَفلــةً قرشــيةً ... فيــا ربمــا قَــدْ غــصَّ بالمــاءِ شــاربهْ
وإنْ تــرَ مِنّــي وَثْبَــةً أُمَويَّــةً ... فهــذا وهــذا كُــلُّ ذا أنــا صــاحبهْ
فــلا [لا] تلمنــي والحــوادثُ جمــةٌ ... فإنَّــك مجــزيٌّ بمــا أنــتَ كاســبهْ
ولا تَعْــدُ مــا يأتيــك مِنّــي، فــإنْ تَعُــدْ ... تَقُــوم بهــا يومــاً عليــك نوادبــهْ
ولا تنقصــنْ للنَّــاسِ حقــاً علمتــه ... ولا تعطــين مــا لــيس للهِ جانبــهْ

فكتب الحجَّاج (أَمَّا بعد، فقد جاءني كتاب أمير المؤمنين، يذكر فيه اسرافي في الأموال والدِّماء، فوالله ما بالغتُ في عقوبةِ أهل المعصيةِ ولا قضيت حقّ أهل الطاعة، فإنْ كان ذلك سرف فليحد لي أمير المؤمنين حداً لا أتجاوزه، وكتب في أسفل الكِتاب:

إذا أنَــا لَــمْ أَطْلُــبْ رِضــاكَ وأَتّقــي ... أَذاكَ فَيْــومِي لا تُــوارى كَواكِبُــهْ
إذا قــارَفَ الحَجَّــاجُ فِيــكَ خَطِيــةً ... فقامَــتْ عليــه فــي الصَّــباحِ نَوادِبُــهْ
أُســالِمُ مَــنْ سَــالمتَ مِــنْ ذِي هَــوادةٍ ... ومَــنْ لا تُســالِمْهُ فــإنِّي مُحارِبُــهْ
إذا أَنــا لَــمْ أُذْنــي الشَّــفِيقَ لِنُصْــحِهِ ... وَأُقْصِــي الَّــذي تَسْــرِي إِلــيَّ عَقارِبُــهْ
وَأُعْطــى المُواســي فــي الــبلادِ عَطِيَّــةً ... تَــرُدُّ الَّــذي ضــاقتْ عليــه مَذاهِبُــهْ
فَمَــنْ يَتَّقِــي يَــوْمِي، ويَرْجُــو إذا عــدى ... علــى مــا أرى والــدَّهرُ جَــمٌّ عجْائبُــهْ
وإلَّا فَــذَرْني والأمُــورَ فــإنَّني ... شَــفيقٌ دَقيــقٌ أَحْكَمَتْــهُ تَجارِبُــهُ

وعلق المسعودي قائلاً (هذه الأبيات من جيد ما اخترناه من شِعِر الحجَّاج، وكذلك القول في شِعر عبد الملك)[1]

وله شِعر في آخر عمره ينحو فيه منحى الوعظ، قائلا:[2]

لَعَمْــرِي لَقَــدْ عُمِــرتُ فــي الــدَّهرِ بُرْهَــةً ... وَدآنــتْ لِــي الــدُّنْيَا بِوقْــعِ البَــواتِرِ
فَأَضْــحَى الَّــذي قَــدْ كَــانَ ممَّــا يَسُــرني ... كَلَمْــحٍ مَضَــنى فِــي المُزمِنَــاتِ الغَــوابِرِ

[1]المسعودي (مُروج الذَّهب) 3/ 112، 113
[2]السيوطي (تاريخ الخُلفاء) 176

فَيَــا لَيْتَنِــي لَــمْ أُعْــنَ بالمُلْــكِ سَــاعَةً وَلَــمْ أَلْــهُ فِــي لــذَّاتِ عَــيْشٍ نَواضِــرِ
وَكُنْــتُ كَــذِي طِمــرينِ عَــاشَ ببلــدَةٍ مِــنْ الــدَّهْرِ حَتَّــى زَارَ ضَــنْكَ المَقَــابِرِ

والَّذي يظهر أنَّ الخليفة وأميره الحجَّاج لهما أشعارُ مبعثرة في بطون الكتب، ولو قُيّض لها التدوين في كُتيبٍ واحدٍ لم يبلغ منزلة الدِّيوان؛ لقلتها، ومن هنا يَحصلُ لهما التأخر عن رتبة الشاعر الفحل، كما عند ابن سلَّام والأصمعي؛ لأنَّهما اشترطا وفرة الشِّعر.

يقول الأصمعي: (لو قال ثعلبة بن صُعير المازني[1] مثل قصيدته خمساً كان فحلاً)[2] وكذلك قال في الحويدرة[3] (لو قال مثل قصيدته خمس قصائد كان فحلاً)[4] وقال عن سلَّام بن جندل[5]: (ولو كان زاد شيئاً كان فحلاً)[6] ولم يكن عبد الملك وصاحبه الحجَّاج من أصحاب المطولات، بل كانا من أصحاب المقطعات الَّتي يغلب عليها جانب الصنعة أكثر من جانب البداهة والتمكن، وهي أشبه بالنظم وأبعد عن الشِّعر الحقيقي، وكان ابن رشيف لا يُسمي الشاعر شاعراً إلَّا إذا تميز حيث يقول: (إنّما سُمى الشاعر شاعراً؛ لأنَّه يشعر بما لا يشعر به غيره، فإن لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استظراف لفظ وابتداعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني، أو نقض ممّا أطاله سواه من الألفاظ، أو حرف معنى إلى وجه عن وجه آخر، كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة، ولم يكن له إلَّا فضل الوزن، وليس بفضل عندي مع التقصير)[7]

إنَّ التصرف في المعاني من إمارات ملكة الشاعر، كما أنَّ الشاعر الحقيقي هو الَّذي يتنقل بين أغراض الشِّعر المختلفة، وتكون له مزية على غيره كما قال الأصمعي لَمَّا سأله أبو حاتم

---

[1]ثعلبة بن صعير التميمي، شاعر جاهلي، ومطلع قصيدته في المفضليات هو:
هَلْ عِنْدَ عَمْرَةَ مِنْ بتاتِ مُسَافِرِ ذي حَاجةٍ مُتروحِ أوْ بَاكِرِ
وهي قصيدة مطولة جيدة، ينظر (المفضليات) 128
[2]الأصمعي (فحولة الشُّعراء) 42
[3]قطنة بن محصن بن جرول، شاعر جاهلي مُقل، الحادرة لقبه، ويُقال له: (الحويدة) على التصغير، ومعناها الضخم. ينظر، المفضليات، 43
[4]الأصمعي (فحولة الشُّعراء) 39
[5]سلَّامة بن جندل بن عمرو بن عبيد، شاعر جاهلي قديم وكان من فرسان العرب المعدودين، وكان أحد من يصف الخيل فيحسن، ينظر (المفضليات) ص119
[6]الأصمعي (فحولة الشُّعراء) 52
[7]العمدة، 1/ 116

السجستاني[1] عن معنى الفحل؟ قال: (يراد أنَّ له مزية على غيره كمزية الفحل على الحِقاق، قال: وبيت جرير يدل على ذلك:[2]

وَابْـنُ اللَّبُـونِ إذا مـا لُـزَّ فـي قَـرَنِ لَـمْ يَسْـتَطِعْ صَـوْلَةَ البُـزْلِ القنـاعِيسِ[3]

إنَّ كُلَّ ما سبق يقود الباحث إلى أنْ يؤخر عبد الملك والحجَّاج عن منزله الشاعر الفحل الخنديد، ولا ينفي عنهما صفة الشِّعر فهما شاعران ولهما طبقة يحلان بها كما درج عند النُّقاد أن يضعوا الشُّعراء في طبقات، ويرى الباحث أنَّهما لا يحلان في الطبقة الأولى أو الثانية عند من جعل الشُّعراء أربع طبقات وهم: (الفحل الخنديد، والشاعر المفلق، والشاعر، والشعرور)[4] وبعضهم وضعهم ثلاث طبقات وهم: (شاعر، وشويعر، وشعرور)[5]

وقسم القرطاجني الشُّعراء إلى ثلاث مراتب:

(الأولى: أهل المرتبة العليا، الشُّعراء في الحقيقة. الثانية: أهل المرتبة السفلى، وهم غير الشُّعراء في الحقيقة. الثالثة: أهل المرتبة الوسطى، وهم شعراء بالنسبة إلى من دونهم غير شعراء بالنسبة إلى من فوقهم)[6]

وكذلك لا يزاحمان على القسم الأوَّل عند القرطاجني.

---

[1] أبو حاتم سهل بن مُحمد بن عثمان السجستاني، المُقرئ، اللُّغوي، صاحب التصانيف منها (إعراب القرآن، وما يلحن فيه العامة) بصري المذهب، عاش 53 سنة ومات في أواخر سنة 255هـ وقِيل مات سنة 250هـ ينظر (سِير أعلام النبلاء) 12/ 269- 270

[2] الأصمعي (فحولة الشُّعراء) 30

[3] ابن اللبون: الناقة التي بلغت سنتين من عمرها. لُزَّ: رُبِطَ. قرن: حبل. صولة: حركة. البزل: البازل من الإبل الفحل الَّذي بلغ السنة التاسعة من عمره. القناعيس: الشديدة القوية.

[4] أحمد مطلوب (مُعجم النَّقد العربي القديم) 2/ 78

[5] البيان والتبين، 2/ 9 العُمدة، 1/ 110

[6] المِنهاج، 201، مُعجم النَّقد العربي القديم، 2/ 58

ب- روايته للشِّعر:

تغلغل حُبّ الشِّعر في دمه وروحه وقطع به وقته، وأنشده في مواقف حياته كُلّها، ومن ذلك الضرب: تمثله بالشِّعر إذا جلس للقضاء، قائلاً:[1]

إِنَّـــا إِذَا مَالـــتْ دَوَاعِـــي الْهَـــوَى وَأَنْصَـــتَ السَّـــامعُ لِلْقَائِـــلِ
وَاصْـــطَرَعَ الْقَـــومُ بأَلبَـــابِهِمْ يَقْضـــي بِحُكـــمٍ فَاصِـــلٍ عَـــادِلِ
لَا نَجْعَـــل البَاطِـــلَ حَقّـــاً وَلَا نَلُـــطُّ دُونَ الحَـــقِّ بالبَاطِـــلِ
نَخَـــافُ أَنْ تَسْـــفَه أَحْلامُنَـــا فَنَخْمَـــلَ الـــدَّهْرَ مَـــعَ الخَامِـــلِ

تصور الأبيات ما يدور في مجلس القضاء من اصطراع الألباب إزَاء قضيةٍ ما، وإنَّ الخليفة لا يحيف عن الحق، خوفاً من سفه العقول، وخمول الذِّكر، وكانت العرب تنفر من الوقوع فيهما، وجاء القرآن على طرائقهم في التعبير رامياً مَنْ مال عن دِين إبراهيم بالسَّفه في قوله تعالى (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)[2] وفي موقف آخر تمثَّل بأبيات لكثيِّر عَزَّة، وذلك عندما أراد الخُروج لِحرب مصعب بن الزُّبير بالعراق، وتمسكتْ به زوجته وَلَمَّا لم تجد بُغيتها بكتْ وتبعها الخادمات باكيات، وحينئذ أنشد قول كُثيِّر:[3]

إذا مَـــا أرادَ الغَـــزْوَ لَـــمْ يـــثن هَمّـــهْ حَصَـــانٌ عَلَيْهَـــا نَظْـــمُ دُرٍّ يَزِيْنُهَـــا
وَلَـــمْ يَثْنِـــهِ عِنْـــدَ الصَّـــبابَةِ نَهْيُهـــا غَـــداة اســـتَهلَّتْ بالـــدِّمُوعِ شُـــؤونُهَا
نَهَتـــهُ فَلَمَّـــا لَـــمْ تَـــرَ النَّهـــي عَاقَـــهُ بَكَـــتْ فَبَكـــى مِمَّـــا شَـــجاهَا قَطِيْنُهَـــا[4]

وكان يتمثل في سُوحِ الوغى، بأبياتٍ لشبيب بن البرصاء[5] وكان مُعْجَباً بشِعره:[6]

دَعـــانِي حِصْـــنٌ لِلفِـــرارِ فســـاءني مَـــواطِنُ أَنْ يُثْنـــي عَلَـــيَّ فأشْـــتَما
فَقُلْـــتُ لِحِضـــني: نـــجِّ نَفْسَـــكَ، إِنَّمـــا يَـــذُود الفتـــى عَـــنْ حَوضِـــهِ أَنْ يُهـــدَّما

---

[1]الأغاني، 19/ 101، الخِزانة، 8/ 440
[2]سورة البقرة، الأية: 130
[3]ديوان كُثيِّر، ص 241
[4]القطين: هم الخدم.
[5]شبيب بن يزيد بن عوف بن حارثة المري، ابن البرصاء، والبرصاء أمَّه؛ لُقِبت بذلك لشدة بياضها، شاعر هجاء، عاش في بادية قطفان، في العصر الأموي، وكان سيداً في قومه، ينظر، مُنير البعلبكي (مُعجم أعلام الموارد) دار العِلم للملايين، بيروت- لبنان، ط1، 1992م، ص258
[6]الأغاني، 12/ 327 الوافي بالوفيات، 16 / 61

تَـــأخَّرتُ أسْـــتَبْقِى الحيـــاةَ فَلَـــمْ أَجِـــدْ لِنَفْسِـــــي حَيـــــاةً مِثـــــلَ أَنْ أَتَقَـــــدَّما
سَـــيكْفِيْكَ أَطْـــرَافَ الأسِـــنَّةِ فَـــارِسٌ إذا رِيْـــــعَ نـــــادى بِـــــالجَوادِ وَبِـــــالحِمى
إذا المـــرءِ لَـــمْ يَغـــشَ المكـــاره أوشـــكَتْ حِبـــــالُ الهـــــوينى بـــــالفتى أن تَجَـــــدَّما

لا يخفى أثر الحماسة في هذه الأبيات، الَّتي تدعو إلى الثبات، جرياً على عادة العرب في الملاحم الحربية، كما تمثل مُعاوية بن أبي سُفيان في (صِفين) بأبياتٍ حثته على الثبات، وساهمت في قيام الدَّولة الأُموية.

لقد استشهد عبد الملك بالشِّعر وهو يَخْطُب، ويكون بذلك قد جمع بين الصناعتين، ومن ذلك أنَّه صَعِد المِنبر وخطب في أهل الكُوفة، بعد مَقْتَل مُصعب بن الزُّبير قائلاً: (أَيُّها النَّاسُ إنَّ الحربَ صعبةٌ مُرّةٌ، وإنَّ السِّلم أَمنٌ ومسرة، وقد زبنتنا الحرب وزبناها، فعرفناها وألِفناها، فنحن بنوها وهي أُمنا.... ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظةِ إلَّا شرّاً، ولم نزداد بعد الاعذار إليكم والحُجّة عليكم إلَّا عُقوبةً، فمن شاء منكم أنْ يعود لمثلها فليعد، فإنَّما مَثلي ومثلكم، كما قال قيس بن رفاعة[1] لقومه:[2]

مَـــنْ يَصْـــلَ نـــاري بـــلا ذَنْـــبٍ ولا تِـــرَةٍ يَصْـــــلَ بنـــــارِ كَـــــريمٍ غَيْـــــرِ غَـــــدَّارِ
أَنَـــا النَّـــذِيرُ لَكُـــمْ منِّـــي مُجـــاهَرَةً كَـــــيْ لا أُلَامَ علـــــى نَهْـــــي وإنْـــــذَارِ
فـــإنْ عَصَـــيْتُمْ مَقـــالِي اليَـــوْمَ فـــاعْتَرِفُوا أنْ سَـــوْفَ تَلْقَـــوْنَ خِزْيـــاً ظـــاهِرَ العَـــارِ
مَـــنْ كـــانَ فـــي نَفْسِـــهِ حَوْجـــاءُ يَطْلُبُهـــا عِنْـــدِي فـــإنِّي لَـــهُ رَهْـــنٌ بإصْـــحَارِي[3]
وَصَـــاحِبُ الـــوِتْرِ لَـــيْسَ الـــدَّهْرَ مُدْرِكَـــهُ عِنْـــــدِي فـــــإنِّي لَـــــدَرَّاكٌ بأَوْتـــــارِي

جاءت عبارات عبد الملك النثرية والشِّعرية قوية، يغلب عليها التهديد والوعيد، والتخويف؛ لأنَّهم عنده بمنزلة الخُصوم. ولذلك وصف لهم الحرب بأنَّها: صعبة مرّة. وأنَّها تزين البشر أي تدفعهم. وكانت العرب تصفها بالعبارات المُنفرة. وهذا عمرو بن مَعْدي كَرِب الزّبيديُ يصِف الحرب عندما سأله عنها عمر بن الخطاب، قائلاً:[4]

الحـــــرْبُ أوَّلُ مـــــا تكُـــــونُ فَتِيّـــــةً تَسْـــــعَى بِزِينَتِهـــــا لِكُـــــلِّ جَهُـــــولِ

---

[1]قيس بن رفاعة من بني واقف ابن امرئ القيس الأوسي، أدرك الإسلام وأسلم وكان أعوراً ، ينظر، مُعجم الشُّعراء 197، الإصابة 5/ 252

[2]عبد المنعم أبوزيد (نصوص نثرية من صدر الإسلام وبني أُميَّة) 2002م، ص 101- 102

[3]العوجاء: الأمر غير المستقيم. الإصحار: البروز إلى الصحراء، أي: لا يستتر مني بستر.

[4]الحماسة البصرية، 1/ 66، الشِّعر والشُّعراء، 1/ 372- 373

حتَّـــى إذا حَمِيَـــتْ، وشُـــبَّ ضِـــرامها عـــادَتْ عَجُـــوزاً غَيْـــرَ ذاتِ حَلِيـــلِ
شَـــمْطاءَ، جَـــزَّتْ رَأْسَـــها وتَنَكّـــرتْ مَكْرُهَـــــــةً للِشّـــــــمِ والتَّقْبِيـــــــلِ

وكانت العرب تستعير لها (الرحى) تنفيراً عنها، قال عمرو بن كلثوم:[1]

مَتـــى تَنْقُـــلْ إِلـــى قَـــوْمٍ رَحَانَـــا يَكُونُـــوا فـــي اللِّقـــاءِ لَهَـــا طَحِينَـــا

يقول زُهير بن أبي سُلمى:[2]

فَتَعْـــرُكُمُ عَـــرْكَ الرَّحَـــى بِثِفَالَهَـــا وَتَلْقَـــحْ كِشَـــافاً ثُـــمَّ تُنْـــتِجْ فَتُتْـــئِمِ[3]

إنَّ عبد الملك يظفر بالعبارات الَّتي تنهض بالمعاني، لسعة اطلاعه على الأدب العربي.

وتمثل لَمَّا وُضِعَ رأس مصعب بن الزُبير بين يديه، قائلاً:[4]

لقـــد أردَى الفـــوارسُ يـــومَ عـــبسٍ غُلامـــاً غَيـــرَ مَنَّـــاعِ المتـــاعِ
ولا فَرِحـــاً بِخَيْـــرٍ إِنْ أَتَـــاهُ وَلا جَزِعـــاً مِـــنَ الحَـــدَثَاب لاعِ
ولا وَقَّافَـــةٌ والخَيـــلُ تَـــردِي وَلا خـــالٍ كـــأنبُوبِ اليـــراعِ

توشحت الأبيات بمعاني المدح، فهو غُلام كريمٌ، عارف بضُرب الحياة وتقلباتها، لا يفرح بخيرها ولا يهاب شرها، ولا ينتبذ عن صفوف المقاتلين مكاناً قصيّا. فهو مُجرب للأمور رغم حدث سِنه، وكانت العرب تقول: (فلان قد حلب الدَّهر أشطره) أي: قاسى الشِّدة والرخاء، قال عبد العزيز بن زرارة في هذا المعنى:[5]

قَد عِشْتُ فـي النَّـاسِ أَطْـواراً علـى طُـرُقٍ شَـتَّى، وقاسَـيْتُ فِيهـا اللِّـينَ والفَظَعـا
كُـلَّا بَلَـوْتُ، فـلا النَّعْمـاءُ تُبْطِرُنِـي ولا تَجَشَّـمْتُ مِـن لأْوَائِهـا جَزَعـا

إنَّ عبد الملك بهذا الاستشهاد الشِّعري يُقدِّر الخَصم ويُنصِفُهُ، والإنصاف أقرب للتقوى. وحقاً كان مُصعبٌ كذلك جامعاً للمروءة.

---

[1] شرح المُعلقات السبع، ص 112
[2] المرجع نفسه، ص 76
[3] الثفال: خِرقة يقع عليها الطحين. الكشاف: أنْ تلد النعجة في السنة مرتين.
[4] البداية والنهاية، 9/ 90، ونُسِبت الأبيات لطُفيل الغنوي، ينظر، دِيوانه، ص145
[5] المُبرد: أبو العبَّاس مُحمد بن يزيد (الكامل في اللُّغة والأدب) تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار الفِكر العربي- القاهرة- ط3، 1997م، 1/ 155

وأنشد مُتمثلاً بعد مَقْتَلِ مُصعب:[1]

ولكنَّـــــه رام الَّتـــــي لا يرومهـــــا مِـــنْ النَّـــاسِ إلَّا كـــل خِـــرْقٍ مُعَمَّـــمِ

لقد حَرَّك القتل روايته للشِّعر واستشهاده به، روى المُبرد في الكامل: "أنَّ الحجَّاجَ بن يوسف لَمَّا قتل ابن الأشعث بعث رأسه إلى عبد الملك بن مروان مع عرار بن عمرو الأسدي، وكان أسوداً دميماً، فلمَّا رأه عبد الملك تقحمه، وجعل عبد الملك لا يسأله عن شيءٍ من أمر الوقيعة إلَّا أنبأه بها في أصح لفظ، وأشبع قول، فشفاه من الخبر، وملأ أذنه صواباً، وعبد الملك لا يعرفه، فقال متمثلاً:

أرادَتْ عَـــرَاراً بـــالهَوَانِ ومَـــنْ يُـــرِدْ لَعَمـــرِي عَـــرَاراً بـــالهَوَانِ فَقَـــد ظَلَـــمْ

وإنَّ عَـــرَاراً إنْ يَكُـــنْ غَيْـــرَ وَاضِـــحٍ فـإنّي أُحِـبُّ الجُـوْنَ ذا المَنْكِـبِ العَمَـمْ

فقال له عرارٌ: أتعرفني يا أمير المؤمنين؟ قال لا، قال: فأنا والله عرار، فزاد عبد الملك في سروره، وأضعف له الجائزة"[2]

تكشف هذه الحادثة عن شخصية الأمير الَّذي يُعْجَبُ بالمطلع الحسن، فهو أوَّل ما تقع عليه العين، وربَّما تقحّمت عينُه الدميمَ الخَلقِ، وانتقش في ذِهنه أنَّ بيانه بمنزلة مظهره، وإذا تكلم أخلف الظن وكذّب المظهر، وأسفر عن عقل وافر استهش الأنفس، وهزّ القرائح، وأصاب المحزّ، فرضى الخليفة بذلك وضاعف له الجائزة، واتهم نفسه في فراسته للرجال. كما حصل هذا الأمر مع كُثيِّر عَزَّة لَمَّا دخل على عبد الملك، وكان كُثيِّر أسوداً دميماً قصيراً، فَلَمَّا رآه قال (تَسمعَ بالمعيدي لا أنْ تراه) فقال: مهلاً يا أمير المؤمنين؛ إنَّما المرءُ بأصغَرْيه قلبِهِ ولسانِهِ، إنْ نطقَ نَطْقَ ببيان، وإنْ قاتل قاتل بجَبانٍ، وأنا الَّذي أقول:

وجربـــــتُ الأُمـــــورَ وَجرَّبتْنِـــــي وَقَـــدْ أبـــدَتْ عَرِيْكتـــي الأمُـــورُ

ومـــا يخفـــي الرجـــال علـــيَّ أنـــي بهـــمْ لأخـــو مُثاقَفَـــةٍ خَبيـــرُ

تَـــرَى الرَّجُـــلَ النَّحيـــفَ فَتَزْدَرِيـــهِ وَفـــي أَثْوابِـــهِ أسَـــدٌ هَصُـــورُ

بُغـــاثُ الطَّيـــر أَطْوَلُهـــا رِقَابـــاً وَلَـــمْ تَطُـــلِ البُـــزاةُ ولاَ الصُـــقورُ[3]

[1] الأغاني، 16/ 327، الإصابة، 534/4

[2] الكامل في اللُّغة والأدب، 1/ 355

[3] بغات الطير: صغارها وَقِيل شرارها.

خَشـــاشُ الطَّيـــرِ أكثرُهـــا فِراخـــاً وأمُّ البـــــازِ مقْـــــلاةٌ نَـــــزُورُ[1]
ضِـــعَافُ الأُسْـــدِ أكْثرُهـــا زَئِيـــراً وَأَصْـــــرَمُها اللَّـــــواتِي لا تَزِيـــــرُ[2]
وَقَـــدْ عَظُـــمَ البعيـــرُ بِغيْـــرِ لُـــبٍ فَلـــم يَسْـــتَغْنِ بـــالعِظَمِ البَعيـــرُ
يُنَـــوَّخُ ثُـــمَّ يُضْـــرَبُ بـــالهراوَى فـــلا غَـــيظٌ لَديـــهِ ولا نَكِيـــرُ[3]
يُقَـــوِّدُه الصّـــبيُّ بِكُـــلِّ أرْضٍ وينحـــره علـــى التـــرُبِ الصـــغيرُ
فَمَـــا عِظَـــمُ الرّجـــالِ لَهُـــمْ بِـــزَيْنٍ وَلكِـــنْ زَيْـــنُهم حَسَـــبٌ زَخيـــرُ

فقال عبد الملك: قاتله الله! ما أطول لسانه، وأمد كِنانَه، وأوسع جَنانه؛ إنِّي لأحسبه كما وصف نفسه"[4]

ولَمَّا وفد عبد الملك حاجاً إلى المدينة –وكان أهل المدينة يُناصِرون ابن الزُّبير– خطبهم قائلاً: (إنِّي والله يا أهل المدينة قد بلوتكم، فوجدتكم تنفسون القليل، وتحسدون على الكثير، وما وجدتُ لكم مثلاً إلَّا ما قال لكم الأحوص:[5]

وَكَـمْ نَزَلـت بـي مِـنْ خُطـوبٍ مُهِمّـةٍ خَـــذَلتُمْ عَليهَـــا ثُـــمَّ لَـــمْ أَتخَشـــعِ
فَـأدبر عَنِّـي شَـرُهَا لَـمْ أبـل بِهَـا وَلَـــم أدْعُكُـــمُ فـــي كَربِهَـــا المتطلـــعِ

يدل هذا الاستشهاد على كثرة معينه الشِّعري، وَحُسْنَ توظيفه له في المواقف المختلفه، فهو يشتدُّ على الخُصوم كما في هذا الموقف.

ويخاطب أهل المدينة قائلاً: يا أهل المدينة، والله لا تحبوننا ولا نحبكم أبداً وأنتم أصحاب عُثمان، إذ نفيتمونا عن المدينة، ونحن أصحابكم يومَ الحَرَّةِ، وإنَّما مثلُنا ومثلكم كما قال النَّابغة:[6]

فَـإنِّي لأَلقـى مِـنْ ذَوي الضَّـغن مِـنْهُمُ بـــلا تِـــرةٍ، والـــنَّفسُ لا بُـــدَّ عـــاثره
كَمَـا لقيـت ذاتُ الصَّـفا مِـنْ حَليفهـا وَكَانـــتْ تديـــهِ المـــالَ غِبّـــاً وظـــاهره[7]

---

[1]خشاش الطَّير: ضعافها. المقلاة النزور: قليلة الولد.
[2]تزير: أي: تزأر.
[3]يُنوّخ: أي: يُبرّك. الهراوى: العصا.
[4]الحُصري: لأبي إسحاق بن إبراهيم بن علي القيرواني (زهر الآداب) قدم له وشرحه ووضع فهارسه: صلاح الدِّين الهواري، المكتبة العصرية –بيروت، ط1، 2002م، 2/ 82 البداية والنهاية، 10/ 85 ونُسِبت القصيدة للعبَّاس بن مرداس دِيوانه، ص172
[5]دِيوان الأحوص، 196، 197
[6]الخِزانة، 8/ 415، 416
[7]ذات الصفا: اسم الحيَّة. الغب: العطاء يوماً وتركه يوماً.

فَلَمَّـــا رأى أن ثمَّـــرَ اللهُ مالَـــهُ وأتَّـــلَّ مَوْجُـــوداً وسَـــدَّ مَفـــاقِرَه[1]
تـــذكر أنَّـــي يجعـــل اللهُ جُنَّـــةً فيصـــبح ذا مـــالٍ ويقتـــلَ واتـــره[2]
أكـــبَّ علـــى فَـــأْسٍ يُحِـــدُّ غُرابَهـــا مُـــذكَّرةٍ مـــن المَعَـــاولِ بَـــاتِرَه[3]
وَقَـامَ لَهَـا مِـنْ فَـوقِ جُحْـرٍ مُشـيدٍ لِيَقْتُلَهـــا أَوْ تُخْطـــئَ الكـــفُّ بـــادرَه
فلمَّـــا وقاهـــا الله ضـــربةَ فأسِـــهِ وللبـــرِّ عـــينٌ لا تغمِّـــض نَـــاظِرَه
تنـــدَّم لَمَّـــا فاتـــه الـــذَّحل عنـــدها وكانـــتْ لـــه إذ خـــاسَ بالعهـــدِ قـــاهِرَه[4]
فقـــال: تعـــالَيْ نجعـــلِ اللهَ بينَنـــا علـــى مالِنـــا أو تُنْجِـــزي لـــي آخـــرَه
فقالـــتْ: يمـــينُ الله أفعـــلُ، إنَّنـــي رأيتُـــكَ مَســـحوراً يمنُـــك فـــاجِرَه
أبـــى لِـــيَ قبـــرٌ، لا يـــزالُ مُقـــابِلي وضـــربةُ فَـــأْسٍ، فـــوقَ رأســـيَ فـــاقره[5]

يوظف عبد الملك قصة الحيَّة الَّتي لقيتْ مِنْ مكر الإنسان أمراً يَصْعُبُ معه الثِقة والتفاوض مرّة أخرى على أمر ما، وأحسن في ذلك إحساناً كبيراً، فقد ظل عبد الملك يتمثل بالشِّعر إلى أن حضرته الوفاة، متمثلاً بقول عمرو بن قميئة:[6]

كـــأنِّي وَقَـــدْ حـــاوزتُ تســـعين حجَّـــةً خَلعـــتُ بهـــا عنِّـــي عـــذار لجـــامِ
رمتنـــي بنـــاتُ الـــدَّهرِ مِـــنْ حَيْـــثُ لَا أرى فكيـــف بمـــن يُرمـــى ولـــيس بـــرامِ
فلـــو أنَّهـــا نَبْـــلٌ إذاً لا تّقيتُهـــا ولكنَّمـــا أُرمـــى بغيـــرِ سِـــهامِ
وأهلكنـــي تأميـــل يـــومٍ وليلـــةٍ وتأميـــلُ عـــامٍ بَعْـــدَ ذاك وعـــامِ

تدل هذه الأبيات على ضعف الحيلة وكثرة المصائب والخطوب، وكنَّى الشاعر عن المصائب ب(بنات الدَّهر) ورمز للموت بالنبل. فهو نَبلُ لا يُعلمُ له جِهةٌ فيتقى. قال زهير في هذا المعنى:[7]

رأَيْتُ المنَايَا خَبْطَ عَشْواءَ مَنْ تُصِبْ تُمِتْـــهُ ومَـــنْ تَتْـــرُكْ يُعَمَّـــرْ فَيَهْـــرَمِ

---

[1]ثمَرَّ: أي زاد ماله.
[2]الجُنَّة: الوقاية.
[3]الغُراب: رأس الفأس. المذكرة: أي: حديدة قوية قاطعة. باترة: قاطعة.
[4]الذّحل: الثأر والحقد. خاس: غدر بالعهد.
[5]فاقره: قاطعة.
[6]دِيوان عمر بن قميئة، تحقيق: إبراهيم خليل، دار صادر –بيروت، ط2، 1994م، ص37، 38
هو عمر بن قميئة بن ذريح البكري، شاعر جاهلي مُقدم، صاحب امرأ القيس إلى قيصر الروم، ينظر، الشِّعر والشُّعراء، 141.
[7]شرح المعلقات السبع، ص 80 العشواء: الناقة الَّتي لا تُبْصِر.

قال لبيدِ:[1]

ومـــا المَـــرْء إلَّا كالشِّـــهابِ وضَـــوْئِهِ يَحُـــورُ رَمـــاداً بَعْـــدَ إذْ هُـــوَ سَـــاطِعُ

قال طرفة:[2]

لَعَمْـرُكَ إنَّ المْـوتَ مَـا أَخْطـأ الفَتَـى لكـــالطولِ المُرْخَـــى وَثُنَيْـــاهُ باليَـــدِ

لقد حار القدماء في حقيقة الموت ومصدره، وأمر ذلك كله لله.

ولَمَّا مات عبد العزيز، ونعى إلى أخيه عبد الملك بن مروان تمثل بأبيات الخارجي، وجعل يرددها ويبكي:[3]

يَـا أَيُّهـا المُتَمنّـي أَنْ يَكـونَ فَتـىً مِثْـلَ ابـنِ ليلـى لَقَـدْ خَلَّـى لَـكَ السُّـبُلا

إن ترحـل العِـيسُ كـي تسـعى مسـاعيه يُشـفَقَ عليـك وتعمـل دون مـا عمـلا

لَـوْ سِـرْتَ فـي النَّـاسِ أقصـاهم وأقـربهم فـي شُـقَّةِ الأرضِ حَتَّـى تحسـرَ الإبـلا

تبغى فتى فوقَ ظَهْرِ الأرضِ مَا وَجدوا مِثْـلَ الَّـذي غيبـوا فـي بَطْنِهَـا رَجُـلا

أُعْـدُدْ ثـلاث خـلالٍ قـدْ عُـرفنَ لَـهُ هَـلْ سَـبَّ مِـنْ أَحـدٍ أَوْ سُـبَّ أَوْ بَخِـلا

تزدحم معاني المدح في هذه الأبيات، حيث استهل الشاعر الأبيات (بالنداء) لينبه السامع لمعانيه وجعل مَنْ يروم مرامه ضربٌ من التمني الَّذي يستحيل إدراكه وفي القرءان: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)[4]

وعبَّر عن موت ابن ليلى ب(خلو السبيل) ليدل على أنَّ مكانه خالي لا أحد يسده وإن حاول ذلك، وخلو المكان والسبيل كثير التناول في أشعار الرثاء، قال دُريد بن الصِّمة يرثي أخاه عبد الله[5]

وإن يَـكُ عَبْـدُ اللهِ خَلَّـى مَكَانَـهُ فَمَـا كَـان وَقَّافـاً وَلَا طَـائِشَ اليـدِ

يدل البيت على تفرد الممدوح، وأن لا نظير له في أقارب الأرض وأقاصيها وعبّر عن الضرب في الأرض ب(شقّه الأرض، وحسر الإبل) قال تعالى: (لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ

---

[1]دِيوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر بيروت، ص80

[2]شرح المُعلقات السبع، ص 60

[3]السيد محمود شكري الألوسي (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب) تحقيق: مُحمد بهجت الأثري، 1/ 56

[4]سورة البقرة، الأية: 11

[5]دِيوان دُريد بن الصِمة، تحقيق: عمر عبد الرسول، دار المعارف المصرية، 1980، 65

بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ) [1] إنَّ وصف الإبل بالجهد والحسر والحفا ونحو ذلك من دلائل التعب، وقطع المهامه والصحاري، كثير الدوران في الشِّعر العربي القديم قال الأعشى في مدح النَّبيِّﷺ [2]

فَآلَيْتُ لَا أَرْثِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ وَلَا مِنْ حَفًى حَتَّى تَزُورَ مُحَمَّدا

انظر إلى تصوير الراعي النُميري لإبلهِ الهزيلة لكثرة أسفارها، إذ يقول:[3]

فِي مَهْمَهٍ قَلِقَتْ بِهِ هَامَاتُهَا قَلَقَ الفُؤُسِ إذَا أَرَدنَ نُصُولَا
فَسَقَوا صَوَادِيَ يَسْمَعُونَ عَشِيَّةً لِلمَاءِ فِي أَجْوَافِهِنَّ صَلِيْلَا
جَاءَتْ بِذي رَمَقٍ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ قَدْ مَاتَ أَوْ حَبَّ الحَيَاةَ قَلِيلَا

إنَّ هذه الإبل مضطربة رؤوسها، ومات جنينها الَّذي لم يكتمل لشدة تعبها، انظر إلى تصوير صليل الماء في جوفها.

ختم الخارجي أبياته يتقسم حسن إذ جعل مرثية لا يسب أحداً، لحسن أدبه. وإنَّ النَّاس لا يسبوه؛ لأنَّه لا يقع فيما يُوجِب ذلك، وإنَّه كريم غير بخيل. إنَّ عبد الملك كان يأخذ الحكمة والأدب حَتَّى من الأعداء، وأخذ هذه الأبيات من الخارجي المعارض لسياسة بني أُميَّة.

وتمثل بقافية تعلوها الحكمة وتجارب الأيام، قائلاً:[4]

هَلْ الدَّهرُ والأيامُ إلَّا كَمَا تَرى رزيئةُ مالٍ أوفِراقُ حَبيبِ
وَلَيس بعيدٌ مَا يَجِئُ كَمُقْبِلٍ وَلا مَا مَضى مِن مُفْرِحٍ بقريبِ

ولم تغب عنه هذه الحكمة، بَلْ شفعها بتضمين الأمثال والفخر بالنفس، مُجيباً على الخصوم، حيث أجاب ابن الأشعث قائلاً:[5]

ما بال من أسعى لأجبر عظمه حِفاظاً وينوي من سفاهته كسرِ
أظن خطوب الدّهر بيني وبينه ستحملهم منّي على مَركب وعرِ
وإنِّي وإياهم كمن نبّه القطا ولو لم تنبه باتت الطَّيرُ لا تسري

---

[1] سورة التوبة، الأية: 42
[2] دِيوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، شرح: مُحمد حُسين، مكتبة الآداب بالجماميزت، ص135
[3] دِيوان الراعي النُميري، 222، 223، 226
[4] تاريخ الطبري، 6/ 185
[5] عبد الملك بن مروان النَّاقد الأديب، 165، الأغاني، 19/ 140

وكان يتمثل إذا وفد عليه قوم بأبيات لشاعر منهم، وربَّما سألهم عن نسبتها لصاحبها، رُوِى عن سعيد بن خالد الجدلي، قال: (لَمَّا قَدِمَ عبد الملك بن مروان الكوفة بعد مَقْتَل مُصعب بن الزُّبير، ودعا النَّاس إلى فرائضهم، فأتيناه. فقال: ممّن القوم؟ فقلنا: من جديلة. فقال جديلة عدوان؟ قلنا: نعم، فتمثل:

عَـــذِيْرَ الحـــيِّ مِـــنْ عَـــدْوا نَ كَـــــــانُوا حَيَّـــــــةَ الأَرْضِ
بَغَـــى بَعْضُـــهُمْ بَعْضـــاً فَلَـــمْ يُرْعَـــوا عَلَـــى بَعْـــضِ
وَمِـــنْهُمْ كَانَـــتْ الســـادا تُ والمُوْفُـــوْنَ بـــالقَرْضِ

فقال: أيكم يقول هذا الشِّعر؟ قالوا لا ندري، فقلتُ: يقوله ذو الإصبع العدواني، ثُمَّ قال: وما كان اسمه؟ قالوا: لا ندري، فقلتُ: كان اسمه حُرثان، فقال: وَلِمَ سُمِي ذا الإصبع؟ قالوا: لا ندري، فقلتُ: نهشته حيَّة في إصبعه..... فقال صدقتَ)[1]

تقودنا الرواية هذه بأن، نقول إنَّ عبد الملك كان راوية عالماً بأخبار الشُّعراء، محققاً في الأدب والشِّعر.

وَلَمَّا وفد إليه وهب بن نباتة الفهمي سأله عن هذه الأبيات:

رَأَيْـــتُ النَّـــاسَ مُـــذْ خُلِقُـــوا وَكَـــانُوا يُحِبُّـــونَ الغنـــيّ مِـــنَ الرِّجـــالِ
وإِنْ كَـــانَ الغَنـــيّ قَلِيـــلَ خَيْـــرٍ بَخِـــيْلاً بِالقلِيـــلِ مِـــنَ النَّـــوالِ
فَـــلَا أَدْرِي عَـــلام وَفِـــيْمَ هـــذا وَمَـــاذَا يَـــرْ تَجُـــونَ مِـــنَ البخِيـــلِ
أَ للـــدُّنيا فَلَـــيْسَ هُنـــا دُنْيـــا؟! وَلَا يُرْجَـــى لِحَادِثـــةِ اللَّيـــالي

من القائل؟ فأجابه: أنا)[2]

هذه الأشعار تورد أحوال طبائع النَّاس، الَّتى لا يكشفها إلَّا من عاشرهم وعاش فيهم أعواماً مديدة، ولذلك اهتم عبد الملك بأشعار المعمرين، لِمَا فيها من جنوح للحكمة، وعمق التجربة، حَتَّى تعينه على سياسة الرعيَّة، وله خبر مع الرَّبيع بن ضبع –وهو من الشُّعراء المُعمرين– رُوِي أنَّ الرَّبيع بن ضبع

[1] خِزانة الأدب، 5/ 285، 286
[2] تاريخ الرسل والملوك، 3/ 668

دخل على عبد الملك بن مروان، فقال عبد الملك: أخبرني يا ربيع عمّا أدركتَ من العُمر، ورأيتَ من الخطوب، فقال: أنا الَّذي أقول:

هـــا أنـــا ذا آمُـــلُ الخُلـــودَ وَقَـــدْ أَدْرَكَ عَقْلِـــــي ومَولِـــــدي حُجُـــــرْا

فقال عبد الملك: قد رويتُ هذا وأنا صَبيٌّ. قال: وأنا القائل:

إذا عَـــاشَ الفتـــى مـــائتي عامـــاً فَقَـــدْ ذَهَـــبَ اللَّـــذاذةُ والفتـــاءُ

قال وقد رويتُ هذا من شِعرك وأنا غُلام، وأبيك يا ربيع لقد طار بل جدّ غير عاثِر)[1]

هذا البيت هو سادس أبيات الرَّبيع الَّتي يلخص فيها حياته، والأبيات هي:[2]

ألا أبلـــغ بَنـــيَّ بنـــي ربيـــعٍ فـــأنزال البنـــين لكـــم فـــداءُ
بـــأنِّي قَـــدْ كبـــرتُ ودَقَّ عَظْمِـــي فـــلا نشـــغلكم عَنِّـــي النِّســـاءُ
فـــإنِّ كنـــائنَّي نِســـاءُ صِـــدْقٍ ومـــا ألَّـــى بَنّـــي وَمَـــا أســـاءوا[3]
إذا كـــان الشِـــتاءُ فـــأدفئوني فـــإنَّ الشَّـــيخَ يَهدمُـــهُ الشِـــتاءُ
فأمـــا حَـــيْنَ يَـــذْهبُ كُـــلَّ قُـــرٍّ فســـربالٌ خفِيـــفٌ أو رداءُ[4]
إذا عـــاش الفتـــى مـــائتي... .....

وكان يسأل من تقادم عهده في الدُّنيا عن حاله، قال للهيثم بن الأسود[5] (كيف تجدك؟ فأجابه: قد ابيض مِنّي ماكنتُ أُحب أن يسود، واسود مني ماكنتُ أحب أن يبيض، وأنشد):[6]

سَـــوْفَ أُنْبِيـــك بآيـــاتِ الكِبَـــر نَـــوْمُ العِشـــاءِ وَسُـــعَالٌ بِالسَّـــحَرْ
وَقِلـــةُ النَـــومِ إِذَا اللَّيـــلُ اعتكَـــر وَقِلـــةُ الطَّعْـــمِ إِذَا الـــزَّادُ حَضَـــرْ
وَحـــذراً أَزدادُهُ إلـــى حَـــذَرْ وَالنَّـــاسُ يَبْلَـــوْنَ كَمَـــا يَبْلـــى الشَّـــجَرْ

---

[1] خزانة الأدب، 7/ 385
[2] المرجع نفسه، 7/ 381
[3] الكنائن: جمع كنّة، وهي امرأة الابن والأخ، أراد أنهنَّ نِعْمَ النِّساء. ألّى: أي ما قصروا.
[4] القر: البرد. السربال: القميص.
[5] الهيثم بن الأسود النخعي، أبو العُريان، خطيب شاعر، من الشرفاء المُعمرين، كان بليغاً فصيحاً، توفى سنة 100هـ، ينظر (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام) الذهبي: تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتب العربيَّة، بيروت –لبنان. ط1، 1987م، 4/ 208
[6] البيان والتبين، 399/1 العِقد الفريد، 2/ 350

وتمثل عبد الملك لَمَّا قَتَلَ ابن عَمِّه عمرو بن سعيد[1] غدراً بشِعرِ الضَبّي بن أبي رافع قائلاً:[2]

أُدنيـــه مِنِّـــي ليســـكن روعـــه فأصـــولُ صَـــولةَ حـــازمٍ مســـتمكِنِ
غضـــباً ومحميـــة لـــديني إنَّـــهُ لـــيس المســـئُ ســـبيلهُ كالمُحســـنِ

وقِيل إنَّ عبد الملك ظفر به وأوثقه كِتافاً وذبحه بيده وهو يتمثل:[3]

يـا عمـرو إلَّا تـدع شَـتْمِي ومنقصـتي أضـربك حَتَّـى تقـولَ الهامـةُ اسـقوني

وكان يتمثل لأبنائه بأبياتٍ يتنخلها ربَّما خالها توافق المقام وهي ليست كذلك، ومن ذلك ما رواه صاحب قصص العرب "أنَّ عبد الملك بن مروان سابق بين سليمان ومسلمة أبنائه، فسبق سليمانٌ مسلمة، فتمثل عبد الملك قائلاً:

أَلـــم أَنْهَكُـــم أَنْ تَحْمِلُـــوا هُجَنـــاءَكُم عَلَـــى خَـــيْلِكُم يَـــوْمَ الرِّهـــانِ فَتُـــدْرَك[4]
وَمَـا يَسْـتَوِي الـرجلان هَـذا ابْـنُ حُـرَّةٍ وَهَـــذا ابْـــنُ أُخـــرى ظَهْرُهـــا مُتَشْـــرَك[5]
فَتعْثُـــرُ كَفَّـــاهُ وَيســـقط سَـــوْطُهُ وَتْقصُـــرُ رِجَـــلاه فَمَـــا يَتَحـــرك
وَأَدْرَكنَـــــهُ خَالاتُـــــهُ فَنَزْعَنَـــــهُ أَلا إنَّ عِـــرقَ السُّـــوءِ لَا بُـــدَّ يُـــدْرَك

فقال مَسْلمة: يغفر اللهُ لك يا أمير المؤمنين، ليس هذا مثلي ولكن كما قال حاتم الطائي:

فَمَـــا أَنْكَحُونـــا طَـــائِعْين بنـــاتِهِم وَلَكِـــنْ خَطبنـــاهم بأســـيافِنا قَسْـــرَا
فَمَـــا زَادنـــا فِيهـــا السِّـــباء مَذَلَّـــةً وَلَا كلَّفـــتْ خُبْـــزاً وَلَا طَبخَـــتْ قِـــدْرَا
وَلَكـــنْ خَلطْنَاهَـــا بِخيـــرِ نِســـائِنا فجـــاءتْ بِهـــم بِيْضـــاً وُجُههـــم زُهْـــرَا
وَكـــائِن تَـــرى فِيْنَـــا مِـــنْ ابْـــنِ سَـــبيِّةٍ إِذَا لَقِـــى الأبطـــالَ يَطْعَـــنُهُم شـــزْرَا[6]
ويأخـــذ رايـــاتِ الطِّعـــان بِكَفِّـــهِ فَيُوْرِدُهَـــا بيْضـــاً وَيُصـــدِرُهَا حُمْـــرَا

---

[1] عمرو بن سعيد بن أُميَّة بن عبد شمس، أبوه أمير وخطيب، وُلِدَ سنة 3هـ كان والي مكَّة والمدينة لمُعاوية وابنه يزيد، ولمَّا تولى عبد الملك أراد خلعه عن ولاية العهد، ففر عمرو، فخرج عبد الملك لقتال مصعب، فاستولى عمرو على دمشق وبائعه النَّاس، ولُقِب بالأشدق لفصاحته، فقتله عبد الملك بن مروان غدراً. ينظر (البداية والنهاية) 8/ 307، وفيات الأعيان، 2/ 111

[2] البداية والنهاية، / 74

[3] عبد الله الطَّيب (المُرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها) 4/ 424

[4] الهجين: من كانت أمه غير عربية وأبوه عربي.

[5] متشرك: يشترك فيها عُدَّة رجال.

[6] شزراً: ينظر بطرف عينه.

أَغـــرُّ إِذَا اغْبَـــرَّ اللِّئـــامُ رأَيْتَـــه إِذَا سَـــرَى لَيْـــلُ الـــدُّجَى قَمَـــراً بَـــدْرَا

فقبل رأسه وعينيه وقال: أحسنتَ يا بني، وذلك والله أنتَ، وأمر له بمائة ألف درهم"[1]

وقِيل إنَّه: تمثّل كالمستحي بقول عمرو بن كلثوم:[2]

وَمَـــا شَـــرُّ الثَّلاثَـــةِ أُمَّ عَمْـــرو بِصَـــاحِبِكِ الَّـــذِي لَا تُصْـــبحينَا

إنَّ الَّذي دفع الخليفة لمقالته الشوهاء في ابنهِ مسلمة هو هُجنة نسب ابنه، وكان ابن أمَةٍ. ولذلك صُرِفت ولاية العهد عنه وإن كان هو الأحق بها، وكان بنو أميَّة لا يولون العهد لابن أمَةٍ، وإن كان أرشد إخوته، وعبد الملك نفسه يَعْلم من ابنه مسلمة رجاحة عقله وأنَّه أفضل بنيه، ولذلك أوصى بنيه لَمَّا حضرته الوفاة قائلاً: "انظروا مَسْلمة، واصدروا عن رأيه، فإنَّه مِجنكم الَّذي به تستجنون[3] ونابكم الَّذي عنه تفترّون"[4]

ولعلّ مسلمة لم يكن بدعاً في هذا، بل لَقِي فضلاءُ مِن هُجْنةِ الأم قدحاً وطعناً شنيعاً، انظر إلى قول هشام بن عبد الملك لزيد بن علىّ بن الحسين: "بلغني أنَّك تُريد الخِلافة، ولا تصلح لها؛ لأنَّك ابنُ أمَةٍ. فقال زيدٌ: فقد كان إسماعيل بن إبراهيم ابنَ أمَةٍ وإسحاق بن إبراهيم ابن حُرَّة، فأخرج اللهُ من صُلب إسماعيل خيرَ وَلد آدم محمد ﷺ، فعندها قال له: قم. فقال زيدٌ: إذَنْ لا تراني إلَّا حيث تكره!"[5]

---

[1]قصص العرب، 2/ 171- 172

[2]أحمد الأمين (المُعلقات العشر وأخبار شعرائها) دار الكِتاب العربي، بيروت، 2009م، 88

[3]المِجن: هو الترس.

[4]ابن الأثير "الكامل في التاريخ" 4/ 237

[5]الجاحظ "البيان والتبين" 1/ 310

المبحث الثالث:

إعجاب عبد الملك بن مروان بالشعر ومشاركته في نقده بحسب أغراضه:

يُقَسَّمُ إلى:

أوَّلاً: الوصف: أُعجب عبد الملك بأشعار الوصف أيّما إعجاب، سواء كان هذا الوصف لبيت من الأبيات أو لحيوان أو لصحراء أو لخمر أو لمجلس شرب، ومن الأوَّل أنَّه قال –لولده وأهله –: (أيّ بيتٍ ضربته العرب على عصابةٍ ووصفته أشرف حواءٍ وأهلٍ وبناءٍ؟ فقالوا فأكثروا، وتكلّم من حضر فأطالوا. فقال عبد الملك: أكرمُ بيتٍ وصفته العربُ بيتَ طُفيل الَّذي يقول فيه:[1]

وَبَيْـــتٍ تَهُـــبُّ الـــرِّيحُ فـــي حَجَراتِـــهِ ... بـــأَرْضِ فَضَـــاءٍ، بَابُـــهُ لَـــمْ يُحْجَّـــبِ[2]

سَـــــمَاوَتُهُ أَسْـــــمَالُ بُـــــرْدٍ مُحَبَّـــــرٍ ... وَصَـــــهْوَتُهُ مِـــــنْ أَتْحَمِـــــيٍّ مُعَصّـــــبِ[3]

وَأَطْنَابُـــــهُ أَرْســـــان جُـــــرْدٍ كَأَنَّهـــــا ... صُـــدورُ القنـــا مِـــنْ بـــادِئٍ ومُعْقَّـــبِ[4]

نَصَـــبْتُ عَلـــى قَـــوْمٍ، تُـــدِرُّ رِمَـــاحُهُم ... عُـــرُوقَ الأَعـــادِي مِـــنْ غَرِيـــرٍ وأَشْـــيَبِ[5]

الأبيات محملة بمعاني المدح، فلا حاجب على البابِ، وهذا أبلغ في المدح، وأَمَّا البيت فقد حظى بشئ من جمالٍ وقوة وإحكام، وأمَّا سكانُهُ فشجعان فرسان يغشون المعارك والحروب بلا خوف ووجل، فجمع لهذا البيت أصنافاً من المدح.

ويسأل أحيانا –جلساءه عن أحسن النَّاسِ وصفاً، فيقول قائلهم: الَّذي يقول:

كـــأَنَّ قُلُـــوْبَ الطَّيـــرِ رَطْبـــاً وَيَابِســـاً ... لَـــدَي وَكْرِهَـــا العُنـــابُ وَالحَشَـــفُ البَـــالِي

والَّذي يقول:

---

[1] دِيوان طُفيل الغنوي، شرح: الأصمعي، تحقيق: حسَّان فلاح، دار صادر بيروت لبنان، ط1، 1997م، 23، 25، الأغاني، 15/ 353

[2] حجراته: نواحيه.

[3] سماوته: أعلاه. أسمال: أخلاق. مُحبّر: مزين. صهوته: ظهره. الأتحمي: ضرب من البرُود المزينة. معصّب: العصب: برد يمني يُعصبُ غزلها أي: يُجمع ويُشد ثُمَّ يُصبغ ويُنسج.

[4] أطنابه: حباله. أرسان جرد: حبال خيل جرد. القنا: الرماح. البادئ: الَّذي غزا أوَّل غزوة. المعّقب: الَّذي غزا غزوة بعد غزوة.

[5] نصبت على قوم: أي: نصبت هذا البيت على قوم منهم. الغرير: الشَّاب الَّذي لم تحكمه الأمور. الأشيب: الكهل الَّذي نجده مراسِ الأمور

كـــأَنَّ عُيُـــوْنَ الـــوَحْشِ حَـــوْلَ خِبَائِنَـــا وَأَرْحُلِنَـــا الجـــزعَ الَّـــذي لَـــمْ يُثْقَـــبِ

والَّذي يقول:

وتعـــرف فيـــه مـــن أبيِـــه شـــمائلاً ومـــن خالِـــه ومـــن يزيـــد ومـــن حجـــر

ســـماحة ذا، مـــع بـــرّ ذا، ووفـــاء ذا ونائلـــــــه إذا صـــــــحا وإذا سَـــــــكِر

يريد امرأ القيس)[1]

إنَّ امرأ القيس بارع في التشبيه والوصف، حيث شبه في البيتين الأولين الطَّير والوحش، ووصف شمائل الممدوح في البيتين الآخرين، فجمع بين عبارات البادية الَّتي اكتسبها من انتجاعه وترحاله فيها طلباً لثأر أبيه المتمثلة في قوله: (قلوب الطَّير، عيون الوحش) ورقة الحضر الَّتي اكتسبها من مجالس السادات بعبارات موفقة وهي (السماحة، والبر، والوفاء) ويكون بذلك قد غرف من ألفاظ البادية و الحاضرة، وجمع بين غرضي الوصف والتشبيه عند من عدّ (التشبيه) غرضاً من أغراض الشِّعر.

وفي مجلس آخر يقع منه السؤال لِجُلسائه –محركاً ذاكرتهم الشِّعر– عن أرق المناديل، فتتباين أجوبتهم على غير الَّذي أكنه في خَلده، فَلَمَّا رآهم بعدوا عن الصواب أجابهم، وأصل الخبر (أنَّ عبد الملك قال لجلسائه: أيّ المناديل أفضل؟ فقال قائلهم مناديل اليمن، وقال آخر: مناديل مصر... فقال عبد الملك: أفضل المناديل منديل عَبْدَة بن الطبيب[2] حيث قال:[3]

لَمَّـــا وَرَدْنـــا ضَـــرَبْنا ظِـــلَّ أَخْبِيَـــةٍ وفـــارَ لِلَّحْـــمِ للقَـــوْمِ المراجِيـــلُ[4]

وَرْدٌ وَأَشْـــقَرُ مـــا يُؤْنِيـــه طَابخُـــهُ مـــا غَيَّـــرَ الغَلْـــي مِنْـــهُ فَهْـــوُ مَـــأكُولُ[5]

ثُمَّـــتَ قُمْنَـــا إلـــى جُـــرْدٍ مُسَـــوَّمَةٍ أَعْـــــرَافُهُنَّ لأَيْـــــدِينا مَنادِيـــــلُ[6]

أخذ عبدة معانِي أبياته من بيت امرئ القيس الَّذي يقول فيه:

---

[1]الحُصري (زهر الآداب) 821

[2]عَبْدَة بن الطَّبيب، اسمه يزيد بن عمرو بن وعله بن أنس، شاعر مُخضرم، شَهِدَ مع المثنى بن حارث قتال هرمز، كان كريم الخُلق، يرتفع عن الهجاء ويراه ضعة ويرى تركه مروءة، شاعر مُقل مُجيد، ينظر (الإصابة) 5/ 101، 102

[3]الحماسة البصرية- 4/ 1483

[4]المراجل: جمع مرجل وهو القدر الَّذي يُطبخ فيه الطَّعام.

[5]شبَّه ما أخذ فيه النضج بالورد. وما لم ينضج بالأشقر. يؤنيه: ينتظره.

[6]الجرد: الخيل قصيرة الشَّعر. الأعراف: شَعر في مقدمة العُنق.

نَمُـــشّ بـــأَعْرافِ الجيـــادِ أَكُفَّنـــا إِذَا نَحْـــنُ قمْنَـــا عَـــنْ شِـــوَاءٍ مُصَـــهَّبِ[1]

(وهذا إنَّما يكون في حال السِّفار لا في غير، ... وإذا كان ذلك في جميع أحواله، يكون بالذَّمِّ أشبه، لأنَّه إذا فعل ذلك في حال الطمأنينة وحين لا يُجدُّ به سَيرٌ، فإنَّما يفعله لِفرط الجشع وشِدة الحرِص على الطعام وهذا مَذْمومٌ)[2]انظر إلى قول الشماخ في هذا المعنى:[3]

وَأَشْـــعَتُ قَـــدْ قَـــدَّ السِّـــفارُ قميصَـــهُ يَجُـــرُّ شِـــواءً بالعَصَـــا غَيْـــرَ مُنْضَـــجِ

أَمَّا في حالة الإقامة فالمذهب والحال عندهم التريث والتأني، انظر إلى وصف الأعشى لطابخ الطَّعام في مجلس الشرب واللهو، كيف ارجاءه حَتَّى النضج:[4]

وَقَـــدْ غَـــدَوْتُ إِلـــى الحَـــانُوتِ يَتْبَعنـــي شـــاوٍ مِشَـــلٌّ شَـــلُوْلٍ شَلْشَـــلٍ شَـــوِلُ[5]

والحق إنَّ بيت امرئ القيس حاز على فضل التقدم وقِلة الكَلِم من أبيات عبدة، ولعلَّ الخليفة لم يذكره؛ لأنَّه لم يصل إليه، ورُبَّما وصل إليه ولكنَّه لم يستحضره في هذا المجلس.

وكان يسأل عن الأشعار الَّتي تميزت بحسن الوصف "قال يوماً للأخطل وعنده عامر الشَّعبيُّ: أتحبُّ أَنَّ لك قياضاً بشِعرِك شِعر أحدٍ من العرب أنَّك قلته؟ قال: لا، يا أمير المؤمنين، إلَّا أَنَّي وددتُ أَنِّي قلتُ أبياتاً قالها رجلٌ مِنَّا: مُغدفُ القِناع، قليل السَّماع، قصير الذراع، قال: وما قال؟ فأنشد قول القُطامي[6]

إِنَّـــا نُحَيِّـــوكَ فَاسْـــلَمْ أَيُّهـــا الطَّلَـــلُ وَإِنْ بَلِيـــتَ وَإِنْ طَالَـــتْ بِـــكَ الطِّيَـــلُ[7]

لَـــيْسَ الجَدِيـــدُ بـــه تَبْقَـــى بَشَاشَـــتُهُ إِلَّا قَلِـــــيلاً وَلَا ذو خُلَّـــــةٍ يَصِـــــلُ

والعـــيْشُ لَا عَـــيْش إِلَّا مَـــا تَقَـــرُّ بِـــهِ عَـــيْنٌ وَلَا حَـــالَ إِلَّا سَـــوْفَ تَنْتَقِـــلُ

---

[1]نمش: نمسح. مُصَّهب: لم ينضج.

[2]عبدالله بن عبد العزيز البكري (التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه) مطبعة دار الكُتب المصرية –القاهرة، ط1، 2000م، ص82، 83

[3]دِيوان الشمَّاخ بن ضِرار، شرح أحمد الأمين الشنقيطي، مطبعة السعادة. مصر.

[4]أحمد بن الأمين الشنقيطي (شرح المُعلقات العشر وأخبار شعرائها) 142

[5]الحانوت: بيت الخمَّار. الشاوي: الَّذي يشوي اللحم. المِشل الَّذي يُشل اللحم في السفود. الشلول: الَّذي يأخذ اللحم من القدر وقِيل: هو مثل المِشل.

الشلشل: الخفيف اليد في العمل. الشول: قِيل مثل الشلشل وقِيل: هو الَّذي يحمل الشئ.

[6]عُمير بن شُيحيم الملقب بالقُطامي، أبو سعيد، شاعر عزل فحل، كان من نصاري تغلب بالعِراق، أسلم، جعله ابن سلَّام في الطبقة الثانية من الإسلامين، وهو أوَّل من لُقِبَ (بصريع الغواني) له دِيوان شِعر مطبوع، مات سنة 130هـ، ينظر، الأعلام، 5/ 88

[7]الطِّيل: العُمر.

والنَّـــاسُ مَـــنْ يَلْـــقَ خَيْـــراً قَـــائِلُونَ لَـــهُ مَـــا يَشْـــتَهِي وَلأُمِّ المُخْطِـــئِ الهَبَـــلُ
قَـــدْ يُـــدْرِكُ المُتَـــأَنِّي بَعْـــضَ حَاجَتِـــهِ وَقَـــدْ يَكُـــونُ مَـــعَ المُسْـــتَعْجِلِ الزَّلَـــلُ

حَتَّى أتى على آخرها، فقال الشَّعبيُّ: قد قال القُطاميُّ أفضل من هذا، وقال: وما قال؟ قلتُ: قال:

طَرَقَـــتْ جَبُـــوبُ رِحَالَنَـــا مِـــنْ مَطْـــرَقِ مَـــا كُنْـــتُ أَحْسَـــبُها قَرِيـــبَ المُعْنَـــقِ[1]
قَطَعَـــتْ إِليـــكَ بمثـــلِ جَيْـــدِ جِدَايـــةٍ حَسَـــنٍ مُعَلَّـــقُ ثَوْمَتَيْـــهِ مُطَـــوَّقِ[2]
وَمُصَـــرَّعِينَ مِـــنْ الكَـــلالِ كَأَنَّمَـــا بكـــروا الغبـــوقَ مِـــنْ الرحيـــقِ المُعتـــقِ
مُتَوَسِّـــدِينَ ذِراعَ كُـــلِّ شِـــملةٍ ومُعـــرّجٍ عِـــرقِ المقـــذِّ مُنـــوّقِ[3]
وَحَثَـــتْ علـــى رُكـــبٍ تُهـــدُّ بِهَـــا الصَّـــفا وعلـــى كلاكـــلَ كالنْقيـــلِ المُطـــرقِ
وَإذا سَـــمِعْنَ إلـــى هَمَـــاهِمَ رُفْقَـــةٍ وَمِـــنْ النُّجُـــومِ غَـــوَابِرٌ لَـــمْ تَخْفِـــقِ
جَعَلَـــتْ تُمِيْـــلُ خُـــدُودَهَا آذَانُهـــا طَرَبـــاً بِهِـــنَّ إِلَـــى حُـــدَاءِ السُّـــوَّقِ
كَالمُنْصـــتَاتِ إِلـــى الزُّميـــرِ سَـــمعْنَهُ مِـــنْ رَائِـــعٍ لِقُلُـــوبِهِنَّ مُشَـــوِّقِ
فـــإذا نَظـــرنَ إِلـــى الطريـــقِ رَأَيْنَـــهُ لَهَقـــاً كَشَـــاكِلَةِ الحِصَـــانِ الأَبْلَـــقِ[4]
وَإِذَا تَخَلَّـــفَ بَعْـــدَهُنَّ لِحَاجَـــةٍ حَـــادٍ يُشَسِّـــعُ نَعْلَـــهُ لَـــمْ يَلْحَـــقِ[5]
وَإِذَا يُصـــيبك –والحَـــوَادِثُ جَمَّـــةٌ– حَـــدَثٌ حَـــدَاكَ إِلَـــى أَخِيـــكَ الأَوْثَـــقِ
لَيْـــتَ الهُمُـــومَ عَـــنْ الفُـــؤادِ تَفَرَّجَـــتْ وَخَـــلَا الـــتكلُّمُ لِلِّسَـــانِ المُطْلَـــقِ

فقال عبد الملك: ثكلتْ القُطامي أُمَّه، هذ والله الشِّعر!"[6]

إنَّ الأبيات الَّتي اختارها الأخطل من قصيدة طويلة انتقى بعضها، ولعمري إنَّه استخلص أنفس أبياتها، الَّتي تصب في مصب الحِكمة ووصف الزَّمان وأهله وتقلب الدَّهر، فلا غرابة في ذلك فقد توفر للشاعر مقومات شِعر الحكمة، قال عنه محمود الربيعي: (عاش القُطامي في البادية الَّتي يعتمد

[1] المُعنق: مصدر ميمي من أعنق أي: سار سيراً سريعاً. وهو مكان الأعناق الَّذي اعتنق فيه.
[2] جداية: أي: غزالة. تومتيه: التومة حبَّة من فضة.
[3] الشملة: الناقة الخفيفة السرعة. المقذّ: ما بين الأذنين من خلف.
[4] اللهق: الأبيض. الشاكلة: الحاضرة.
[5] يشسع نعله: يُصلح سير نعله.
[6] وليد محمود خالص (النَّقد الأدبي في كتاب الأغاني) 773

الإنسان فيها على نفسه؛ كي يعيش وعاش حتَّى شاب، إذاً فقد توفر له قدر كبير من مقومات شِعر الحكمة... واتسعت تجاربه فكان يُلخص راية في الأحداث والنَّاس لطول عمره)[1]

أمَّا وصف الزَّمان فنجده في البيت الثاني، ووصف الحال والنَّاس نجده في البيتين الثالث والرابع. وأروع شيءٍ في القصيدة أوقل الأبيات استهلالها. فقد خاطب الطلل مخاطبة العُقلاء، ودعا له بالسلامة، فلا ينسخ تقادم العهد وعبث السنين به حبه القديم له إذ يقول:

إنَّـــا مُحَيْـــوُكَ فأســـلم أيُّهـــا الطلـــلُ وإنْ بلِيْـــتَ وإنْ طالـــت بـــكَ الطِيَـــلُ

لقد أجمع النُّقاد على أنَّ القُطامي أحسن الإسلاميين مطلعاً، قال الأصفهاني (سمعتُ من لا أحصي عددهم من الرواة يقولون: أحسن النَّاس ابتداءً في الإسلام القُطامي وذكروا البيت)[2]

أمَّا الأبيات الَّتي فضلها الشَّعبيُّ، فهي من قصيدة طويلة أيضاً استحسن بعضها، فقد تداخلتْ فيها الأغراض الشِّعرية، من نعت صاحبته، ومجالس الشُرب ونعت الإبل، وأحسب أنَّ النصيب الأوفر كان من حظ سفينة الصحراء، فكانتْ تباشر قلبه، فهي حرية أن تُوْصَف، وهذا كِتاب ربنا يدعو إلى التأمل فيها قائلاً: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)[3] والتأمل يستلزم النظرة تلو النظرة حتَّى تتمخض صورتها واضحة في الذاكرة، فيرسل الأديب لسانه ناعتاً لها، فتعالى أن يحيط بها نظم من الشِّعر أو نثر من الخطب، فلا أحد يوفيها حقها وإن أنفق من نفسه فوق طاقتها؛ لأنَّها موضع إعجاز، ومع ذلك فقد تواضع الشُّعراء على أن يوشحوا قصائدهم بنعتها، فلا تجد قصيدة قديمة إلَّا وللإبل فيها نصيب. " ولعلَّ في وصف طرفة في معلقته للناقة في نحو ثلاثين بيتاً، أي ثلث معلقته، شاهداً ينبئ عن ايغال العرب وعنايتهم العجيبة بالأخيلة والصور الَّتي تتعلق بالإبل وتناول أعضاءها بالتصوير الدقيق... فإذا عمد طرفةُ إلى وصف إنسان أو إنسانة أكان يستغرق قوله مثل هذا العدد من الأبيات؟!"[4]

---

[1] دِيوان القُطامي دراسة وتحقيق: محمود الربيعي، الهيئة المصرية العامة للكِتاب، 2001م، 431
[2] المصدر نفسه، 590، الأغاني، 3/ 125
[3] سورة الغاشية، الأية: 17
[4] عبد السلام هارون، قطوف أدبية دراسات نقدية في التراث العربي حول التحقيق، مكتبة السنة، ط1، 1988م، 121

ولعلّ العرب عموماً لم يعجبهم شيء من الحيوان مثل الإبل قال عبد السلام هارون "العربي ينظر إلى ما حوله من ضروب الحيوان فلا يعجبه شيء مثل ما تروقه الإبل، فهي أجدى عليه من كل حيوان وأعظم فائدة..."[1]

افتتن القُطامي بالوصف على وجه العُموم، ونعت الإبل على وجه الخصوص، فلم يدع فيها موضعاً ترمقه العين وتنعته الشفاه إلَّا أصابه، حتَّى قال عنه محمود الربيعي:

"أمَّا الناحية الَّتي ركز فيها القُطامي تركيزاً غريباً وفصلها تفصيلاً شاملاً فهي وصف الإبل، فهو مولع بها كل الولع، لا يدع فرصةً تمر دون أن ينفذ منها إلى ناقته والإبل عموماً، فيصفها وصفاً تفصيلياً، ويستوعب جوانبها المختلفة... فهو ينفذ من الغزل إليها، ومن الفخر إليها، وهو حين يفخر يُشبه نفسه بفحل منها"[2]

وأحسب أنَّ الَّذي زاد في وصفه رواءً؛ أنَّه أصبغ على الإبل صفات الإنسان النفسية، فالإبل عنده (تطرب إلى الحُداء) انظر إلى البيت السابع:

جَعَلَتْ تُمِيلُ خُدُوَدها أذانُها طَرَباً بِهِنَّ إلَى حُدَاءِ السُّوَّقِ

فهي تُميل أذنها لتسمع صوت الحادي الطروب، هذا كله من قبيل الحفاوة بها، فالإنسان إذا احتفى بشئ رفعه عن رتبته إلى مكان أسمق ممَّا هو عليه، وهذا مذهب موجود عند الشُّعراء فلا غرابة في أن نجده عند القُطامي، انظر إلى قول المثقب العبدي مُشبهً ناقته بإنسان يتأوه:[3]

إذَا مَا قُمْتُ أَرْحَلُهَا بِلَيْلٍ تَأوَّه آهةَ الرَّجُلِ الحَزِينِ

وعند عمرو بن كلثوم الناقة تحن وتحزن على فِراق ولدها، قائلاً:[4]

فَمَا وجَدتْ كوجدِي أمَّ سَقْبٍ أضلته فرجعتْ الحَنِيْنَا[5]

والناقة تطرب وتشتاق، قال أحد بني ربيعة:[6]

---

[1] المصدر نفسه، 109
[2] دِيوان القُطامي، 238
[3] المفضليات، 291
[4] أحمد الأمين الشنقيطي (المُعلقات العشر وأخبار شعرائها) 89
[5] السقب: ولد الناقة.
[6] عبد السلام هارون (قطوف أدبية حول تحقيق التراث) 123

وَحَنَّـــتْ نـــاقتِي طَربـــاً وشَـــوْقاً إلـــى مَـــنْ بـــالحنينِ تشـــوِّقيني

بل إنَّ الحفاوة بالضيف تجعل القدر طَرِباً لِقُدومه، قال دِعبل الخزاعي[1] مخاطباً زوجته وفاخراً بذبحه الشاه الحلوب لضيفه:[2]

قالـتْ سُـلامةُ دع هـذِي اللبـونَ لَنَـا لصـبيةٍ مثـل أفـراخِ القطـا زُغُبَـا[3]

قلـتُ: احبسـيها ففيهـا مُتعـةٌ لهـم إنْ لـم يُـنِخ طـارقٌ يَبْقِـى القِـرى سَـقِبَا[4]

لَمَّـا احتبـى الضَّـيفُ واعتلـتْ حَلوبَتُهَـا بَكْـى العِيـالُ وغَنَّـتْ قِـدْرُنَا طَرَبـا[5]

انظر إلى نعت القُطامي لسرعتها حيث يقول:

وإذا تَخلَّـفَ بعـدهنَّ لحاجـةٍ حـادٍ يُشَسِّـعُ نَعْلَـهُ لـمْ يَلْحَـقِ

لقد أبدع القُطامي في هذا الوصف إبداعاً يتجدد الشغف به بتجدد القراءة ونمَّت الأبيات عن تجربة عميقة في وصف الحيوان، ولله در الشعبيّ إذ نبه الخليفة إليها ولله در الخليفة إذ أُعْجِب بها قائلاً: هذا والله الشِّعر! نعم هذا والله الشِّعر!

ويسأل جلساءه –أحياناً – عن من هو أشعر منهم قائلاً للفرزدق: "أتعرف أحداً أشعر منك؟ قال: لا، إلَّا غلاماً[6] من بني عقيل يركب أعجاز الإبل وينعت الفلوات فيجيد، ثُمَّ سأل جريراً فأجاب بجواب الفرزدق. ثُمَّ سأل ذا الرمّة فقال: أشعر مِنّي غُلامٌ من بني عقيل، فقال عبد الملك أنشدنِّي بعض ما تحفظ. فأنشده:

خَلِيْلَـيَّ عُوْجَـا بِـي عَلَـى الرَّبْـعِ نَسـأَلِ مَتَـى عَهْـدُهُ بِالظَّـاعِنِ المُتَحمِّـلِ[7]

فَعُجْـتُ وَعَاجَـا فَـوْقَ بَيْـدَاءَ أَصْـفَقَتْ بِهَـا الـرِّيحُ جَـوْلَانَ التُّـرابِ المُنخَّـلِ[8]

---

[1] دِعبل بن علي بن رزين الخُزاعي، أبو علي، شاعر هجاء وُلِدَ سنة 148هـ أصله من الكُوفة أقام ببغداد له أخبار مع الخُلفاء، طال عمره، له دِيوان شِعر مات سنة 246هـ، ينظر، ترتيب الإعلام على الأعوام، الزركلي، 234

[2] دِيوان دِعبل بن علي الخُزاعي صنعه: عبد الكريم الأشتر، مجمع اللُّغة العربيَّة دمشق، ط2، 1983م، 56

[3] سلامةُ: اسم زوجته. اللبون: الشاة الَّتي تُدِر اللبن. زغبا: صغاراً.

[4] سقب جائع.

[5] احتبى: جلس محتبياً وهو أن يجمع رجليه إلى بطنه في الجلوس. الحلوبة: الشاة الَّتي تحلب.

[6] مُزاحم بن الحراث بن مُصَرِّف، شاعر بدوي فصيح، صاحب قصيد ورجز، عاصر جرير والفرزدق، جعله ابن سلَّام في الطبقة العاشرة من الإسلاميين وقال عنه: "كان رجلاً غزلاً، وكان شجاعاً، وكان شديد أسر الشِّعر حلوه، وكان مع دقة شِعره صعب الشِّعر هجّاءً وصافاً ينظر، طبقات فحول الشُّعراء، 769- 770

[7] عُوجا: ميلا. الظاعن: الراحل. الرَّبع: المنزل.

[8] أضفقت: اختلفت عليها الريح. جولان التراب: ما تجول به الريح على وجه الأرض.

حَتَّى أتى على آخرها، فقال عبد الملك: ما أعرف أحداً يقول قولاً يواصل هذا"[1]

والقصيدة كلها في نعت الدِمن والديار وذكر الشباب ووصف النِّساء، بمفردات فخمة، الأمر الَّذي جعل الشُّعراء والخليفة نفسه يُجمعون على أنَّه أشعر النَّاس في هذا الغرض.

[1]خِزانة الأدب، 6/ 275، الأغاني، 19/ 11

قوله في صِفة الخمر:

لم يُكْثِر الخليفة في هذا الغرض الشِّعري نقداً وأخباراً، اكثاره في الغزل، ولعل الغزل هو الأقرب إلى النفوس كما قال ابن رشيق، ومن أخباره في الخمر أنَّه قال للأخطل: صف لي السُّكر؟ فقال الأخطل: أوله لذَّة وآخِره صُداعٌ، وبين ذلك حالة لا أصف لك مبلغها، فقال: ما مبلغها؟ قال: لملكك يا أميرَ المؤمنين، عندها أهون عليَّ من شسع نعلي، وأنشأ يقول:[1]

إِذَا مَـــا نَـــدِيمي عَلَّنِـــي ثُـــمَّ عَلَّنـــي ... ثَـــــلاثَ زُجَاجَـــــاتٍ لَهُـــــنَّ هَـــــديرُ

خَرَجْـــتُ أَجُـــر الـــذَيلَ تِيهـــاً كـــأنني ... عَليـــــكَ أَمِيـــــرَ المـــــؤمنين أَميـــــرُ

إنَّ الخمرَ إذا دَبَّت في الجسد –لا سيما ثلاث مرات– أحدثت تغيراً في العقل يظهر في التيه والكِبر الَّذي وَلدته الكأس، حَتَّى تسقط المسافات المنطقية بين الراعي والرعيَّة، فيجر الفقير زيله تيهاً، ويبطر ويبخس مُلكَ غيره ويرى عليه الفضل، مِنْ حيث لا يملك قِطميراً، والشاعر نفسه يدخل على الخليفة –في مجلس آخر– وينشده:[2]

وَكَـــأْسٍ مِثْـــلِ عَـــيْنِ الـــدِّيكِ صِـــرْفٍ ... تُنســـــي الشـــــاربين لَهَـــــا العُقـــــولا

إِذَا شَـــرِبَ الفتـــى مِنْهَـــا ثَلاثـــاً ... بِغَيْـــــر المـــــاءِ حَـــــاولَ أَنْ يَصـــــولا

مشـــــى قرشـــــيةً لاَ شـــــك فِيهَـــــا ... وَأَرْخَـــــى مِـــــنْ مَـــــآزِرِهِ الفُضُـــــولا

ويطرب الخليفة لذلك، نعم إنَّ الخمر تُنْسِي الرجل وضعه الاجتماعي كما قال المنخل اليشكري:[3]

فَـــــإِذَا انتَشَـــــيْتُ فـــــإِنَّنِي ... رَبُ الْخَوَرْنَـــــــــقِ والسَّـــــــــديرِ[4]

وَإِذَا صَـــــــــحَوْتُ فـــــــــإِنَّني ... رَبُّ الشُـــــــــوَيْهةِ وَالبَعِيـــــــــرِ

ونجده –أحياناً– يستدرك على القدماء معنى من معاني البيت لتستقيم صفة الخمر، وذلك لَمَّا سمع قول الأعشى فيها:

أَتَـــاني يُغَـــامِرني فِـــي الشـــمو ... لِ لَـــيْلاً، فقلـــتُ لَـــهُ: غَادِهـــا

---

[1] السيوطي (تاريخ الخُلفاء) 177

[2] مُحمد بن الحسن البغدادي(التذكرة الحمدونية) دار صادر –بيروت- 1417هـ، 5/ 190

[3] الأصمعيات: 60- 61

[4] الخورنق والسدير: قصران في العراق.

غادها: أي: إئتني بالخمر غدوة. أي: صباحاً فلا أشربها ليلاً، فقال عبد الملك: (أساء ألا قال هاتها[1] نعم إنَّ الليل بساط الهوى والسُكر، ومسرح السمر والتكشف، وهذا نقد حسن من خليفةٍ حاذِقٍ. والتعجل بها ليلاً خير من تأخيرها إلى صباح الغد. حيث يفضح الصبحُ شاربها، فالليل آية ممحوة والنهار آية مُبْصِرة كما قال تعالى: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً)[2] فمع الابصار يكون الاخطار والإنكار، من الراعي أو الرعيِّة، وربَّما يقع حد الله فيها.

[1] الوافي بالوفيات 17/ 123
[2] سورة الإسراء، الأية: 12

ثانياً: الفخر

يُقْسَّم الفخر حسب تذوق الخليفة ونقده له إلى:

1- تداخل الفخر مع المدح:

دأب الشُّعراء أن يفخروا بأنفسهم وقومهم، خِلافاً للمدح الَّذي يكون للغير كمدح الخُلفاء والكُرماء والوجهاء ونحوه، وكان عبد الملك يُحب أن يسمع أروع ما أنتجته القرائح من هذا الضرب، وفي بعض الأشعار يمتزج الفخر بالمدح، ومن أنصع الشواهد على هذا قول أعشى ربيعة لَمَّا وفد على عبد الملك بن مروان –وهو شيخ كبير– فقال له عبد الملك: (ما الَّذي بقي منك؟ قال يا أمير المؤمنين، وماذا أُخِذ مِنِّي وأنا الَّذي أقول:

وَمَا أَنا فِي أمرِي وَلَا فِي خُصومتي ... بمهتضِمٍ حَقّى وَلَا قارعٍ سِنِّي

وَلَا مسلمٌ مَوْلَاي عِنْدَ جِنَايةٍ ... وَلَا خائف مَوْلاي مِنْ سُوء ما أَجْنِي

وَإِنَّ فُؤاداً بَيْنَ جَنْبِي عَالِمٌ ... بِمَا أَبْصرت عَيْنِي وَمَا سَمِعتْ أُذْنِي

وَفضلني فِي الشِّعرِ وَاللهِ أَنَّنِي ... أقولُ علَى عِلْمٍ وَأَعْرِفُ مَا أعْنِي

فَأَصْبحتُ إِذْ فَضّلتُ مَرْوانَ وَابنه ... عَلَى النَّاسِ قَدْ فَضلتُ خَيْرَ أبٍ وابنِ

فقال عبد الملك: مَنْ يلومني على هذا؟ وأمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة تخوت ثياب وعشرة فرائض من الإبل"[1]

الأبيات كلها فخر بالنفس وما عَلِق بها من خِلال الحمد، خلا البيت الأخير فهو مدح للخليفة وأبيه.

2- المفاضلة بين الشُّعراء في الفخر:

كان يفاضل بين الشُّعراء إذا فَخِرَ أحدهم بخصال الحمد والكرم رغم عمل السنين فيه، يُروى أنّه قال: "كان شاعر ثقيف في الجاهلية أحسن من شاعرهم في الإسلام، فَقِيل له: من يعني أمير المؤمنين. فقال لهم أمّا شاعرهم في الإسلام فيزيد بن الحكم بن العاص حيث يقول

فَمَا مِنْكَ الشبابُ وَلَسْت مِنْهُ ... إِذَا سَألتك لِحْيَتُكَ الخِضَابا

عَقَائِلُ مِنْ عَقَائِلِ أَهْلِ نَجْدٍ ... وَمكَّةَ لَمْ يَعقلن الرِّكابا

[1] ابن عساكر (تاريخ دِمشق) المكتبة الظاهرية –دمشق- 7/ 51

وَلَـــم يَطْـــرُدَنَ أَيْقَـــعَ يَـــوْم ظعْـــنٍ وَلَا كَلْبَـــــاً طَـــــــردنَ وَلَا غُرَابـــــا

وقال شاعرهم في الجاهلية:[1]

وَالشـــــيبُ إِنْ يَـــــنْهَض فـــــإِنَّ وَرَاءَهُ عَمْـــــراَ يَكُـــــونُ خِلاَلَـــــهُ مُتْـــــنَفَسُ

لَـــمْ يَنْـــتَقِص مِنِّـــي المَشِـــيْبُ قُلامَـــةً وَلِمَـــا بَقَـــى مِنِّـــي أَلَـــبُ وَأَكْـــيَسُ

إِنَّ عبد الملك ناقد كبير يعلم مواضع الحسن في الشِّعر فيستحسنها، وذلك في تفضيله الشاعر الجاهلي على الإسلامي؛ لحسن نعته المشيب وتجلده أمام السنين رغم عملها فيه، وهذا موضع الفخر الَّذي ارتفع به سهم الشاعر عند الخليفة، ولقد دأب الشُّعراء –لاسيما المعمرين منهم– بالتمسك بمعاني الفضيلة في أشعارهم، غير محتجين بالشيخوخة ووهن الأعضاء، يقول المرّار بن منقذ في هذا المعنى:[2]

عَجـــــبٌ خَولَـــــةُ إِذْ تُنْكِرُنـــــي أَمْ رَأَتْ خَوْلَـــــةُ شَـــــيْخاً قَـــــدْ كَبِـــــرْ

وكســـــاه الـــــدَّهرُ سِـــــبَّاً نَاصِـــــعَاً وَتَعَنَّـــــى الظَّهْـــــرُ مِنْـــــهُ فـــــأُطِرْ

إِنْ تَـــــرَىْ شَـــــيْخَاً فَـــــإِنِّي مَاجِـــــدٌ ذو بَـــــلاءٍ حَسَـــــنٍ غَيْـــــرُ غُمِـــــرْ

مَـــا أَنـــا اليَـــوْمَ عَلَـــى شـــيءٍ مَضَـــى يابنـــــةَ القَـــــوْمِ تَـــــوَلي بِحَسِـــــرْ

لقد كان منهج الخليفة في المفاضلة الفخرية هو الغرف من بحر الفضائل فمتى ما غرف الشاعر من هذا نال حظه من الإعجاب والتفضيل، يُروى أنَّ الأخطل أنشده:

بكـــرَ العـــواذلُ يبتـــدرن ملامتـــي والعـــــاذلون فَكُلّهـــــم يَلْحَـــــانِّي

فـــي أنْ ســـبقتُ بشـــربةٍ مقذيـــةٍ صُـــرِفَتْ مُشَعْشَـــعَةً بمـــاءِ شِـــنانِ

فقال عبد الملك: شبيب بن البرصاء أكرم منك وصفاً لنفسه حيث يقول:[3]

إِنِّـــي لســـهلُ الوجـــهِ يَعْـــرِفُ مَجْلِسِّـــي إذا أحـــــزنَ القـــــاذورة المُتَعَنْـــــبِسُ

يُضِـــيءُ سنا جـودي لِمَـنْ يَبْتَغِـي القِـرى وليـــلُ بخيـــلِ القـــوم ظلمـــاءُ حنْـــدسُ

ألـــين لـــذي القربـــى مـــراراً وتلتـــوي بأعنـــــاقِ أعـــــدائي حبـــــالٌ تمـــــرسُ

---

[1] الأغاني، 12/ 290

[2] الحماسة البصرية، 1/ 298

[3] الأغاني، 12/ 280

فَخِرَ الأخطل بشربه الخمر المشعشعة الَّتي مُزِجَت بالماء، وصوَّر حديثه مع العاذلات من النساء في هذا الأمر، وهذا فخر لا يشق طريقه إلى العقلِ أمّا شبيب بن البرصاء فقد فَخِرَ بطلاقة الوجه، وبسط اليد بالعطاء، ولين الجانب لذي القربى، وشدته على الأعداء، فطابق في أبياته بين(الضِّياء والظَّلام، والجود والبخل، واللين والقوى) وأتى بمعاني الفخر الأخلاقية، فنالتْ إعجاب الخليفة.

ومن قبيل المُفاضلة سأله أسلم بن الأحنف عن أحسن ما مُدِحَ به فقال: قول القائل:

ألا أيُّهـــا الركَّـــبُ المُخِبـــوُّن هَـــلْ ... بســـيِّدِ أهَـــلِ الشَّـــامِ تُحْبَـــوْا وترجِعـــوا[1]

أُسَـــيلمُ ذاكـــم لاخَفـــاً بمكانـــهِ ... لعـــينٍ تُرَجّـــى أَمْ لأُذنٍ تَسَـــمَّعُ

مـــن النّفـــرِ البِـــيْضِ الَّـــذين إذا انتمـــوا ... وهـــابَ الرّجـــالُ حَلْقـــةَ البـــابِ قعقعـــوا[2]

جَـلا الأذَفَـرُ الأحـوَى مِـنَ المسـكِ فَرْقَـه ... وطيـــب الـــدِّهانِ رأسَـــه فهـــو أنْـــزَعُ[3]

إذا النّفَـــرُ السُّـــودُ اليمـــانونَ حـــاوَلوا ... لـــه حَـــوْكَ بُرديـــه أرقُّـــوا وأوســـعُوا

فقال عبد الملك: ما قال أخو الأوس –يعني أبو قيس بن الأسلت[4] أحسن ممّا قِيل لك: حيث يقول:[5]

قَـــدْ حَصَّـــتْ البَيْضَـــةُ رأســـي فَمـــا ... أَطْعَـــمُ نَوْمـــاً غَيْـــرَ تَهْجَـــاعِ[6]

أسْـــعَى علـــى جُـــلِّ بَنِـــي مَالِـــكٍ ... كُـــلُّ امْـــرِئٍ فـــي شَـــأْنِهِ ســـاعِ

قال الجاحظ مُعلقاً على الأبيات الَّتي قِيلتْ في مدح أُسيلم بن الأحنف الأسدي (وهذا الشِّعر من أشعار الحفظ والمذاكرة)[7]

إنَّ هذه الأبيات تدور حول السيّد المُقدّم المُنعَّم، غير المدفوع بالأبواب بل يلج على المُلوك، في قصورهم، وأحسن الشاعر في توظيف المفردات الَّتي تذخر بالمعاني حيث جعله (من النفر البيض)

---

[1]المخبون: المسرعون.
[2]النفر: الجماعة من الثلاثة إلى العشرة.
[3]الأحوى: الضارب إلى السواد. الأنزع: الَّذي انحسر الشَّعر عن جانبي رأسه.
[4]الحارث، وقِيل صيفي وقِيل عبد الله بن الأسلت، كان سيد قومه و قائدهم ورئيسهم، كان يتأله في الجاهلية ويدعى الحنيفية، أسلم وحسن إسلامه، وهو شاعر مجيد، ينظر، للإصابة ، 7/ 158- 159 طبقات ابن سلَّام، 189- 190 ،الحماسة البصرية، 1/ 171
[5]الخِزانة، 6/ 86- 87 ، الكامل في اللُّغة، ص 103
[6]حصّت: قللت شَعر رأسي. البيضة: ما يلبسه الفارس على رأسه في الحرب.
[7]البيان والتبين، 1/ 396

أي: القلة الشريفة المُقدمة، وهذه الجملة لا تستخدم إلَّا في مدح السادة الأشراف، قال الكُميتُ الأسدي مادحاً بني هاشم:[1]

مـــن النّفـــرِ البـــيضِ الَّـــذِيْنَ بُحِـــبِّهِمْ إلـــــى اللهِ فِيَمْـــــا نـــــابَنِي أ تَقَـــــرَّبُ

وزاد في المعنى أنْ جعله لا يُحْجبُ عن المُلوك، وكانت العرب تفخر بذلك فتقول: (فلان رديف المُلوك ونديم المُلوك...) قال العُجَيْر السَّلُوليّ، مفتخراً بشدِة صوته، ودخوله على الملوك:[2]

ومْـــنهنَّ قَرعِـــي كُـــلَّ بـــابٍ كأنَّمـــا بـــهِ القـــومُ يَرجُـــونَ الأَذِيـــنَ نُسُـــورُ

وقال همّامٌ الرَّقاشيِّ معاتباً أبا مِسْمَعٍ في تأخيره له بالأبواب، وتقديم من كان حقه التأخير:[3]

أَبْلِـــغ أَبَـــا مِسْـــمَعٍ عَنِّـــي مُغَلغَلَـــةً وفـــي العِتـــابِ حيـــاةٌ بـــينَ أقـــوامِ[4]

قـــدّمتَ قبلـــي رِجـــالاً لـــمْ يكـــن لَهُـــمُ فـــي الحـــقِّ أنْ يَلِجُـــو الأبـــوابَ قُـــدّامي

وصف الشاعر ممدوحه بصفات حسنةٍ كان المُلوك يُمْدَحون بها وهي (الطيب، ودهن الرأس، ولبس البردة الرقيقة الواسعة)

قال النَّابغة الذُّبياني مادحاً مُلوك غسان بهذه الصفات:[5]

رقـــاقُ النِّعـــالِ طَيِّـــبٌ حُجُـــزاتُهُم يُحيّـــون بالرّيحـــانِ يَـــوْمَ السّباسِـــبِ[6]

تُحيّـــيهمُ بِـــيْضُ الولائِـــدِ بيـــنهم وأكْســـيَةُ الإضْـــريجِ فَـــوْقَ المشـــاجِب[7]

يَصـــونونَ أجْســـاداً قـــديماً نعيمُهـــا بخصـــالةِ الأردانِ خُضْـــرِ المناكِـــبِ[8]

يدور موضوع البيتين الأخرين حول (الحماسة، وعلو الهمَّة، والنفع العام) في قوله: (قد حصّتْ البيضة رأسي) حماسة وشجاعة. وفي قوله: (فما أطعم نَوْماً غير تهجاعِ) علو هِمّة، فهو لا ينام إلَّا

---

[1]دِيوان الكُميت بن زيد الأسدي، ص 514
[2]البيان والتبين، 1/ 123
[3]المرجع نفسه، 2/ 316
[4]المغلغلة: الرسالة تُحْمَل من بلدٍ إلى بلدٍ.
[5]شوقي ضيف (تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي) دار المعارف –مصر، ط24، 2003م، 285
[6]الحجزات: معاقد الثياب. طيب حجزاتهم: كناية عن عفتهم.
[7]الإضريج: الحرير الأحمر.
[8]الأردان: الأكمام.

يسيراً وذلك من معارج الهمّة ومخائلها، وهكذا كانتْ القادة، قال لقيط بن إياد[1] واصفاً لِقومه القائد الحقيقي:[2]

مُسَـــهَّدُ النَّـــومِ، تَعْنِيـــهِ أُمُـــورُكُمُ يَـــرُومُ فيهـــا إلـــى الأعـــداءِ مُطَّلَعـــا
لا يَطْعَـــمُ النَّـــومَ إلَّا رَيْـــثَ يَحْفـــزُهُ هَـــمٌّ يكَـــادُ شـــباهُ يَخْطِـــمُ الضِّـــلعا

وقلّة النوم ظاهرة بينة عند الشُّعراء الصَّعاليك لعلو همتهم، قال تأبط شرّاً:[3]

قليـــلُ غِـــرارِ النـــومِ أكبـــر همّـــه دَمُ الثـــأرِ أنْ يلقـــى كَمِيَّـــاً مُسَـــفْعا

قال أبو كبير الهذلي، واصِفاً تأبط شراً:[4]

فَأتَـــتْ بـــهِ حُـــوشَ الجَنـــانِ مُبطَّنـــاً سُـــهُداً إذَا مَـــا نَـــامَ لَيْـــلُ الهَوْجَـــلِ[5]

قال عمرو بن برَّاقة[6]

ألـــمْ تعلمـــي أَنَّ الصَّـــعاليكَ نَـــوْمُهمْ قليـــلٌ إذا نـــامَ الخَلِـــيُّ المُســـالِمُ

وقولـه: (أسعى على جل بني مالك) يعني سعيه لإدراك المصلحة العامة لا المصلحة الخاصة الفردية، وتشى هذه الجملة بمعنى السِّيادة فالسيد كان يُصلِح أمر الرعيَّة والقبيلة، فلا يكون سيداً إلَّا إذا آثر المصلحة العامة على الخاصة، انظر إلى قول عامر بن الطُفيل في هذا المعنى:[7]

إنِّـــي وإنْ كُنْـــتُ ابـــنَ سَـــيِّدِ عـــامِرٍ وَفَارِسَـــهَا المشـــهودِ فـــي كُـــلِّ مَوْكِـــبِ
فَمَـــا سَـــوَّدَتَنِي عَـــامِرٌ عَـــنْ وِراثَـــةٍ أَبَـــى اللهُ أَنْ أَسْـــمُو بـــأُمٍّ وَلَا أَبِ
وَلَكِنَّنـــي أَحْمِـــى حِمَاهـــا وَأَتَّقَـــى أَذَاهَـــا وأَرْمِـــي مَـــنْ رماهَـــا بِمَنْكِـــبِ

ولهذا فضَّل الخليفة أبيات الثاني على الأوَّل.

---

[1] لقيط بن معبد بن خارجة من إياد، جاهلي قديم من سادات قومه، كان كتاباً لكِسرى، قطع كِسرى لسانه لإنذاره قومه غزو كِسرى لهم، شاعر مُقل. ينظر، المؤتلف والمختلف، 266، الشِّعر والشُّعراء، 1/ 199

[2] الحماسة البصرية، 1/ 183

[3] حماسة أبي تمام شرح المرزوقي، 492/2، وهو ثابت بن جابر سفيان، من مضر، شاعر جاهلي من الشُّعراء الصَّعاليك، عدّاء، قُتِل في بلاد هذيل وألقى في غار يُقال له (رخمان) ينظر، الأعلام، للزركلي، 2/ 96

[4] دِيوان الهذليين، الدَّار القومية للطباعة والنشر –القاهرة، 1965م، 2/ 93

[5] حوش الجنان: ذكي الفؤاد. السهد: السهر. الهوجل: الثقيل.

[6] الحماسة البصرية، 1/ 340، وعمرو بن البراقة: البراقة أمّه، وهو شاعر مُخضرم كان لصاً فتاكاً مُقدماً، وهو أحد العدائين، كانت الخيل لا تلحقهم، ينظر (المؤتلف والمختلف) 88، والإصابة 5/ 114- 115

[7] دِيوان عامر بن الطُفيل، دار صادر –بيروت- 1979م، 13

3- التشجيع على الفخر:

حث الخليفة الشُّعراء على الفخر، وبذل لهم الهباة في سبيل هذا الغرض، وربَّما سماه مدحاً، وهو في الحقيقة فخر، يُروى "أنّ جريراً والفرزدق والأخطل قد اجتمعوا في مجلسه، فقال: ليقل كل واحدٍ منكم بيتاً في مدح نفسه، فأيكم غلب فله هذا الكيس، وكان في الكيس خمسمائة دينار، فقال الفرزدق:

أنـــا القطـــران والشُّـــعراء جربـــى وفـــي القطـــرانِ للجربـــى الشـــفاء

فقال الأخطل:

فـــإنْ تَـــكْ زقَ زاملـــةٍ فـــإنِّي أنَـــا الطـــاعونُ لَـــيْسَ لَـــهُ دواءُ

فقال جرير:

أنـــا المـــوتُ الَّـــذي آتـــي علـــيْكُمْ فَلَـــيْسَ لهـــاربٍ مِنِّـــي نَجـــاءُ

فقال عبد الملك لجرير: "خذ الكيس فلعمري إنَّ الموت يأتي على كل شيء"[1]

إنَّ الموت -كما قال الخليفة- يأتي على كل شيءٍ فهذا نقد صائب، يصدر من صاحب لُبّ وفطنة، وعقل نابه.

وفي مجلس آخر يستمع إلى قصة فخرية بين عمر بن أبي ربيعة واللهبي، ويتفاعل معها بحكم نقدي، ويهب الجوائز والعطايا والقصة هي: "أنَّ عمر بن أبي ربيعة وفد على عبد الملك بن مروان، فقال له: أخبرني عن منازعتك اللهبي في المسجد الجامع، فقد أتاني نبأ ذلك، وكنتُ أحب أن أسمعه، فقال عمر: نعم يا أمير المؤمنين، بينما أنا جالس في المسجد الحرام في جماعة قريش، إذ دخل علينا الفضل بن العبَّاس بن عتبة، فسلم وجلس ووافقني وأنا أتمثل:

وَأصـــبحَ بَطـــنُ مَكَّـــةَ مُقْشَـــعِراً كـــأنَّ الأرضَ لَـــيْسَ بِهَـــا هُشـــامُ

فأقبل عليّ وقال: يا أخا مخزوم، والله إنَّ بلدةً تَبخبخَ بها عبد المطلب، و بُعِثَ فيها رسوله الله ﷺ، واستقر بها بيت الله عز وجل لحقيقة ألا تقشعر لهشام. وإنَّ أشعر من هذا البيت وأصدق منه قول من يقول:

إنَّمَـــا عبـــد مَنَـــافٍ جَـــوْهَرٌ زَيْـــنُ الجـــوهرِ عبـــد المطلـــب

[1] مُحمد زغلول سلَّام (تاريخ النّقد العربي إلى القرن الرابع الهجري) دار المعارف المصرية، 79

وتناشدوا الأشعار، إلى أن قال لي:

نَحْـــنُ الَّـــذين إِذَا سَـــمَا لِفخـــارهم ذُو الفخـــرِ أَقْعَـــدَهُ هُنَـــاكَ القَصْـــدَدُ
افخـــر بِنَـــا إِنْ كُنْـــتَ يَوْمـــاً فَـــاخِراً تَلْـــقَ الأُلَـــى فَخِـــروا بِفخـــرِكَ أفْـــرَدوا
قُـــلْ يـــا ابـــنَ مَخْـــزومٍ لِكُـــلِ مُفَـــاخِرٍ مِنَّـــا المُبَـــاركُ ذُو الرِّســـالةِ أَحْمَـــدُ
مَـــاذَا يَقـــولُ ذوو الفخـــارِ هُنَـــالِكُم هَيْهـــات ذَلِـــكَ هَـــلْ يُنـــالُ الفَرْقَـــدُ

فحصِرتُ والله وتبلدتُ، وقلتُ له: إنَّ لك جواباً، فانظرني. ثُمَّ فكرتُ مَلياً وأنشدتُ قائلاً:

لَا فَخْـــرَ إِلَّا قَـــدْ عَـــلاهُ مُحمَّـــدُ فَـــإِذَا فَخِـــرتَ بِـــهِ فَـــإِنِّي أَشْـــهَدُ
أَنْ قَـــدْ فَخِـــرت وفقـــت كُـــلَّ مُفـــاخِرٍ وَإِليـــكَ فـــي الشَّـــرَفِ الرَّفيـــعِ المُعْمَـــدُ
وَلَنَـــا دعـــائمُ قَـــدْ بَنَاهـــا أوّل فـــي المَكرُمَـــاتِ جَـــرَى عَليهـــا المَوْلِـــدُ
مَـــنْ رامَهَـــا حَـــاش النَّبـــيّ وأهلـــه بِـــالفَخرِ غطمطـــة الخلـــيجِ المُزبـــدُ
مَـــعَ فِتْيَـــةٍ تَتْـــدى بُطـــونُ أَكُفهـــم جُـــوْداً إِذَا هَـــزَّ الزَّمـــانُ الأَنْكَـــدُ
يَتَنَـــاولونَ سُـــلافَةً عَانِيـــةً طَابـــتْ لِشـــارِبها وَطَـــابَ المَقْصَـــدُ

فأجابني بجوابٍ أشد عليّ من الشِّعر. قال لي: يا أخا مخزوم، (أُرِيك السُها وتُرِيْنِي القمر)[1]

أي: أدلك على الأمر الغامض وأنت لم تبلغ أن ترى الأمر الواضح.

فقلتُ لـه: أمـا علمـتَ –أصـلحك الله– أنَّ الله عـز وجـل يقـول فـي الشُّـعراء: (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ)[2] قال صدقتَ. وقد استثنى الله قوماً منهم، فقال: (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)[3] فإن كنتَ منهم فقد دخلتَ تحت الاستثناء، وقد استحققتَ العقوبة بدعائك إليها، وإن لم تك منهم، فالشرك بالله أعظم من شُرب الخمر فقلتُ: لا أجد شيئاً أصلح من السكوت. فضحك، وقال: استغفر الله، وقام عنّي. قال:

[1] الميداني: أحمد مُحمد (مجمع الأمثال) تحقيق: مُحمد أبو الفضل إبراهيم، دار عيسى البابلي الحلبي، القاهرة، ط2، 1345هـ، ص 153
[2] سورة الشُّعراء، الأية: 226
[3] سورة الشُّعراء، الأية: 227

فضحك عبد الملك حتَّى استلقى، وقال يا بن أبي ربيعة أما علمتَ أنَّ لبني عبد المطلب ألسنة لا تطاق؟ ارفع حوائجك. قال: فرفعتها فقضاها، وأحسن جائزتي وصرفني"[1]

في القصة شيءٌ من تكلف وعصبية تجعل القارئ يتردد في الحكم بصحة روايتها، لا سيما أنَّ أشعارها مصطنعة بعيدة عن الإبداع الأدبي، لا تجد فيها روح الشِّعر، ولا تجد أبياتها مثبتة في دواوين الشُّعراء المذكورين في القصة، وللأمانة العلمية نقلها الباحث من كتاب الأغاني، الَّذي تضطرب فيه الرواية أحياناً. وإنْ صحت الرواية فهي قمة في الفخر فحق لعبد الملك أنْ يستمع إليها ويثب عليها الجوائز.

[1] الأغاني، 16/ 185

ثالثاً: الحماسة:

هي شِعر يهتم بوصف الحرب وما يتعلق بها من فخر بالشَّجاعة وامتشاق السلاح ونحو ذلك، وكانت الحماسةُ رائجة في العُصور القديمة، وشائعة عند الأدباء والنُّقاد فنجدهم يختارونها عنواناً لكتبهم مثل: حماسة أبي تمام، وحماسة البحتري، والحماسة المغربية والبصرية والحماسة الصغرى والكبرى...

ولَمَّا كان هذا الفن شائعاً كان للخليفة نصيب منه، سواء كان بالإعجاب أو الاستهجان، ويدخل في إعجابهِ قوله لجلسائه: "أشجع العرب في شِعره عبَّاس بن مرداس حيث يقول:

أَشُـــدُّ عَلَـــى الكتِيبَـــةِ لَا أُبَـــالِي أَحَتْفِـــي كَـــانَ فِيْهَـــا أَمْ سِـــوَاهَا

وقيس بن الخطيم حيث يقول:

وَإِنِّـــي فـــي الحَـــرْبِ العَـــوَانِ مُوَكَّـــلٌ بإِقْـــدَامِ نَفْـــسٍ لَا أُرِيـــدُ بَقَاهَـــا

والمُزيني حيثُ يقول:[1]

دَعَـــوْتُ بَنـــي قُحَافَـــةَ فَاسْـــتَجَابُوا فقلـــتُ: رِدُوا فَقَـــد طَـــالَ الـــوُرودُ

كلها أبيات حماسية مُقدمة في بابها.

وقريب من هذا قوله لأهل بيته وجاريته، "أيُّ بيتٍ قالته العرب أشجع؟ قال الوليد: قول عنترة:

إِذْ يَتْقـــونَ بـــي الأســـنةِ لَـــمْ أخـــم عَنْهَـــا ولـــو أنِّـــي تَضَـــايقَ مَقْـــدمِ

قال سليمان: بل قوله:

وأنَـــا المنيـــةُ فـــي المَـــواطنِ كُلّهـــا فـــالموتُ منِّـــي سَـــابِقُ الآجـــالِ

فقالتْ الجارية: بل بيت كعب بن مالك

نَصِـــل السّـــيوفَ إذا قَصَـــرْنَ بِخطونَـــا قِـــدْماً وَنُلْحِقَهَـــا إذا لَـــمْ تَلْحَـــقِ

فقال عبد الملك: أحسنتِ، وما نرى شيئاً في الإحسان إليك من ردك إلى أهلك، فأحسن كسوتها وصلتها، وردها إلى أهلها"[2]

---

[1] العسكري: أبي الحسن أحمد بن عبد الله (المصون في الأدب) تحقيق: عبد السلام هارون، ط2، 1402هـ، 21

[2] الحُصري (زهر الآداب) 2/ 186

اتفق أبناؤه على عنترة، فهو فحل من فحول هذا الغرض، لكنَّ الجارية تخيرتْ بيت كعب فنال إعجابه لإقدام الشاعر الشديد على الموت، فإن قَصُرَ سيفه زاد خطوه نحو سيوف الخصوم بشيء من السعي إلى الموت مختاراً لا فاراً هلعاً، ولذلك وقع في نفسه موقعاً حسناً.

وللخليفة طريقة ثانية وهي المفاضلة بين الشُّعراء في تفوقهم الشِّعري، فمن كان صائباً في الغرض، وقع عليه التفضيل، وأكثر الشُّعراء رضاً في نفسه هم القُدماء وقلّ أن يُفْضِّل شاعراً معاصراً على شاعر قديم إذا وقعا في غرضٍ واحدٍ؛ ويرجع ذلك إلى تقديسه للموروث القديم، ومن هذا النوع ما رواه المرزباني في الموشح (أنَّ عبد الملك عاب على كُثيِّر عزَّة قوله فيه يمدحه:

على ابن أبِي العَاصِي دِلاصٌ حصينةٌ أجَادَ المُسدّى سَرْدَهَا وأَذَالَهَا[1]

أفلا قلتَ كما قال الأعشى لقيس بن معد يكرب:

وإذَا تَجِيءُ كَتِيْبَةٌ مَلْمُومَةً شَهْبَاءُ يَخْشَى الذَّائِدونَ نِهَالَهَا[2]

كُنتَ المُقَدَّمُ غَيْرَ لابِسِ جُنَّة بالسَّيْفِ تَضْرِبُ مُعْلَمَا أَبْطَالَهَا[3]

فأجابه كُثيِّر (يا أمير المؤمنين، وصف الأعشى صاحبه بالطيش والخرق والتغرير، ووصفتك بالحزم والعزم، فأرضاه"[4]

لم يرض المرزباني بهذا التعليق من كُثيِّر قائلاً: (رأيتُ أهل الشِّعر بالشِّعر يُفضلون قول الأعشى في هذا المعنى على قول كُثيِّر؛ لأنَّ البالغة عندهم أحسن من الاقتصار على الأمر الوسط، والأعشى بالغ في وصف صاحبه بالشَّجاعة حَتَّى جعله شديد الإقدام بغير جُنّةٍ، وإن كان لبس الجُنّةِ أولى بالحزمِ وأحق بالصواب، وقول كُثيِّر يقصر عن الوصف"[5]

يرجع تفضيل عبد الملك للأعشى، لإصابته معاني الشَّجاعة في المدح، ثُمَّ لتقديس الخليفة الشِّعر القديم عموماً، وعنايته بشِعر الأعشى على وجه التحديد. قال عبد الملك لمؤدب ولده: "أدبهم برواية

---

[1] الدلاص: درع ملساء براقة. المسدى: الَّذي نسج سداها ولحمتها. السرد: النسج وإدخال الحلقات بعضها ببعض. أذالها: أطال زيلها.

[2] الكتيبة: الجماعة من الجند. ملمومة: مجتمعة إلى بعضها. نهالها: عطشها أراد الرماح تعطش إلى دمائهم.

[3] الجُنّة: الدرع يُلبس ليقي المحارب. معلماً: متخذاً علامات تميزه عن غيره.

[4] المُوشح، 179

[5] المرجع نفسه، 179

شِعر الأعشى؛ فإنَّ لكلامه عذُوبةً، قاتله الله، ما كان أعذب بَحْرِه، وأصلب صخرة! فَمَنْ زعم أنَّ أحداً من الشُّعراء أشعر من الأعشى، فليس يعرف الشِّعر"[1]

أمَّا استهجانه لهذا الغرض فلم يكن كثيراً، بل استهجن شاعراً واحداً وبيتاً واحداً، وذلك حين سَمِعَ قول دريد بن الصِّمة يقول:

قَتَلَنَـــا بِعَبْـــدِ اللهِ خَيْـــرَ لِدَاتِـــهِ ذَوابَ بْـنَ أَسْـمَاءَ بْـنِ زيـدِ بـنِ قَـارِبِ

قال –كالمتعجب–: "لولا القافية لبلغ به آدم"[2]

هذا نقد حَصِيف، إذ إنَّ كثرة الأنساب في البيت أمر مشين، فالشاعر عدّ من الأسماء ما يجعل البيت سِجلاً للأنساب، ليس هذا من الشِّعر في شيء، فالشاعر إن ألجأته الضرورة لذكر النسب فلا يزيد على اسمين؛ لا أن يذكر أربعة من الأسماء، انظر إلى قول الدَّعجاء بنت المُنتشِر ترثي أباها وتلوم قاتله هند بن أسماء قائلة:[3]

أَصَـبْتَ فـي حَـرَمٍ مِنَّـا أَخَـا ثِقَـةٍ هِنْـدَ بـن أَسْـمَاءَ، لَا يَهْنـئِ لَـكَ الظَّفَـرُ

وإذا زحفنا إلى العصر العبَّاسي فنجد الشُّعراء لا يزيدون على اسم الأب اسماً آخر، قال أشجع السُّلَمِي[4] في رثاءِ يزيد[5] بن مزيد:[6]

حَلَفْـتُ لَقَـدْ أَنْسَـى يَزِيَـدُ بـنُ مَزْيَـدٍ رَبيعـــةَ مِنْهَـــا فَقْـــدَ كُـــلِّ فَقِيْـــدِ

فَتَـــىً يَمْـــلأُ العَيْنَـــيْنِ حُسْـــنَاً وَبَهْجَـــةً وَيَمْـــلأُ هَمّـــاً قَلْـــبَ كُـــلِّ حَسُـــوْدِ

قال ابن رشيق عن تتابع الأسماء في الشِّعر: "من حُسن الصنعة أن تَطَّردَ الأسماءُ من غير كُلْفَة ولا حشو فارغ"[7]

---

[1]جمهرة أشعار العرب، 67

[2]ابن رشيق (العُمدة) 2/ 17

[3]الحماسة البصرية، 2/ 705

[4]أشجع بن عمر السلمي من ولد الشريد، يكنى أبا الوليد، وُلِدَ باليمامة، ونشأ بالبصرة، مدح البرامكة وانقطع إلى جعفر بن يحيى وأصفاه مدحه فأعجب به، فقدمه إلى الرشيد فأحسن صلته، كان شاعراً مُقدماً يُعد في الفحول، فخرتْ به قيس، يُنظر، الشِّعر والشُّعراء، 2/ 881- 885

[5]يزيد بن مزيد الشيباني، ابن أخي معن بن زائدة، ولاه الرشيد أرمينية وأذربيجان، كان شجاعاً، مُقدماً، جواداً، كان معن يحبه ويقدمه على أولاده، مات سنة185هـ، يُنظر، تاريخ بغداد، 14/ 334- 337

[6]الحماسة البصرية، 2/ 750

[7]ابن رشيق (العُمدة) 2/ 71

لقد اشترط ابن رشيق عدم الكلفة والحشو الفارغ لكي يصبح البيت جميلاً، وهذا ما وقع فيه ابن الصِّمة، فأصبح البيت ثقيلاً مستوخماً عند عبد الملك والنُّقاد من بعده. وإلَّا فإنَّ هنالك بعض الأبيات الَّتي تجاوزت الاسمين إلى الثلاثة أسماء، ولم يُشِر ناقد بقبحِها، وذلك لبرأتها من الكلفة، ولِخفتها في البيت، ومن ذلك قول جُنْدب بن خارجة، وقِيل هي لبشر بن أبي خازم في مدح أوس بن لامة:[1]

إِلَـــى أَوْسِ بْـــنِ حَارِثَـــةَ بْـــنِ لَأْمٍ لِيَقْضِـــيَ حَـــاجَتِي فِـــيْمَنْ قَضَـــاهَا
فَمَـا وَطِـئَ الحَصَـى مِثْـلُ ابْـنِ سُـعْدَى وَلَا لَـــبِسَ النِّعَـــالَ وَلا احْتَـــذَاهَا

[1]الحماسة البصرية، 1/ 376

رابعاً: المدح:

استهش المدح الخليفة، وكان موضعه في نفسه أجل من كل الأغراض وأجدى عنده من غيرها، به يحصل رَفعُ الذِكر وتثبيت دعائم الحكم، وله فيه مع الشُّعراء وقفات، استفرغتْ أفواه المعابر، وسالتْ بها ألسنة الأقلام، ودبجها كتبة الأدب والتاريخ في بطون مطولاتهم، وَيُقْسَّمُ حسب تعامل الخليفة معه إلى:

1- إعجابه به:

لقد أُعْجِبَ الخليفة بمعانيه وطفق يهب العطايا لمن أحسن، ومن ذلك أَنَّ جريراً أنشده:

تَعَـــزَّتْ أَمُّ حَـــزْرَةَ ثُـــمَّ قَالَـــتْ رَأَيْـــتُ المُـــوْرِدينَ ذَوِي لِقَـــاحِ
ثِقِـــي بـــاللهِ لَـــيْسَ لَـــهُ شَـــرِيكُ وَمِـــنْ عِنْـــدَ الخَلِيفَـــةِ بالنَّجَـــاحِ
سَأَشْـــكُرُ إِنْ رَدَدْتَ عَلَـــيَّ رِيْشِـــي وَأَنْبَـــتَّ القَـــوَادِمَ مِـــنْ جَنَـــاحِي
أَلَسْـــتُمْ خَيْـــرَ مَـــنْ رَكِـــبَ المَطايَـــا وَأنـــدى العـــالمينَ بُطُـــونَ رَاحِ

وكان الخليفة متكئاً فاستوى جالساً، وقال: من مدحنا منكم فليقل مثل هذا أو ليسكت! ثُمَّ قال: يا جرير، أترى أمَّ حزرة ترويها مائة ناقة من نعم كلب؟ قال: إن لم تروها يا أمير المؤمنين، فلا أرواها الله. فأمر له بمائة ناقة من نعم كلب)[1]

لقد جاءه جرير بفوق ما توسم، فمجد فضائله، حتَّى تهللت أسرة وجهه، وألجأته المعاني السامقة إلى طرب يَصْعُبُ معه تمالك النفس، وطفِق يقول ما قال. لعلَّ جرير نظر في بيته الثالث إلى قول يزيد بن مفرِّغ الحميري، في مدح عبيد الله بن أبي بكرة، قائلاً:[2]

إِلَـــى أَنْ دَعـــانِي زَانَـــهُ اللهُ بـــالعُلا فأَنْبَـــتَ رِيشـــي مِـــنْ صَـــمِيْمِ القـــوادِمِ

وفي مجلس آخر أنشده الأخطل أبياتاً تشي بعمق التجربة في هذا الباب، مُعظِّماً بني أُمَّية في كلمته الَّتي يقول فيها:

شُـــمْسُ العَـــدَاوَةِ حَتَّـــى يُسْـــتَفادَ لَهُـــمْ وأعظـــمُ النَّـــاسِ أَحْلامـــاً إِذَا قَـــدَرُوا[3]

---

[1] العِقد الفريد، 1/ 278
[2] دِيوان يزيد بن مُفرغ الحِميري، ص204
[3] شمس العداوة: كناية عن ظهور عداوتهم، وشمس البعير: إذا منع ظهره.

قال أبو عُبيدة: "لَمَّا أنشد الأخطل كلمته لعبد الملك –يعني هذا البيت– قال عبد الملك: خذ بيده يا غُلام فأخرجه، ثُمَّ ألق عليه الخلع ما يغمره، ثُمَّ قال: إنَّ لكلِّ قوم شاعراً، وشاعر بني أُميَّة الأخطل"[1]

والرجل نفسه يمدح الخليفة –في موضع آخر– بالمعاني الدِّينية الَّتي هي آثر في نفس الخليفة، قائلاً:[2]

خف القطين فراحو منكم أو بكروا

فأنشده القصيدة كاملة فقال الخليفة: (ويحك يا أخطل، أتريد أنْ أكتب إلى الآفاق أنَّك أشعر النَّاس)[3]

لقد حوت القصيدة المعاني الَّتي يُمْتَدَحُ بها من عدل، وكرم، وجود،...

وكان الخليفة يحكم على الشُّعراء بأغراضهم الشِّعرية فيقول: (أمدح بيت قالته العرب قول زُهير:[4]

عَلَى مُكْثِرِيْهِمْ حق مَنْ يَعْتَرِيْهِم وعند المُقلينَ السَّماحةُ والبذلُ

مدحهم بالسَّماحة والبذل.

بل إنَّ إعجابه بزُهير جعله يُفضل بيته في مدح هرِم بن سنان:[5]

تَرَاهُ إذا مَا جِئْتَهُ مُتَهلِلاً كأنَّك تُعْطِيْهِ الَّذي أَنْتَ سَائِلُهْ

جعل فرحته بالإنفاق كفرحته بالأخذ، فأتى بمعنى جديد بديع لم يسبق لشاعر أن طرقه؛ ولذلك نال إعجاب الخليفة.

وكان يسأل أهله وبنيه عن أمدح بيت قالته العرب؟ روى الحصري "أنَّه سأل ابنيه الوليد وسليمان وجاريته، أيُّ بيت قالته العرب أمدح؟ قال الوليد: قول جرير:

ألسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا وأَنْدى العَالمِيْنَ بُطُوْنَ رَاحِ

قال سُليمان: قول الأخطل:

---

[1] السيوطي (تاريخ الخُلفاء) 206
[2] ديوان الأخطل، 100
[3] المصدر نفسه، 100
[4] زهر الآداب، 4/ 11
[5] الشِّعر والشُّعراء، 1/ 135

شُـــمْسُ العَـــدَاوةِ حَتَّـــى يُسْـــتفادَ لهـــم وأعظـــمُ النَّـــاسِ أحْلامـــاً إذا قَـــدروا

فقالتْ الجارية: بل بيت حسَّان بن ثابت:

يُغْشَـــوْنَ حتَّـــى مَـــا تَهِـــرُّ كِلابُهُـــمْ لا يَسْـــأَلُوْنَ عَـــنْ السَّـــوادِ المُقْبِـــلِ[1]

فقال عبد الملك أحسنتِ، وما نرى شيئاً في الإحسان إليك من ردك إلى أهلك فأجمل كسوتها، وأحسن صِلتها وردها إلى أهلها"[2]

جعل حسَّان ممدوحه يألف الضيف بل إنَّ كلابه أيضاً صارت تستأنس بالأضياف لكثرة قدومهم، فتركت النُباح في وجوههم، فالممدوح متأهب للكرم لا ينتقر من الأضياف، ولا يسأل عن القادم مَنْ يكون؛ ولهذا نال بيت حسَّان حُظوة عند الخليفة.

وكان المدح حاضِراً في المناسبات الاجتماعية كعقد البيعة وعقد القِران ونحوها، وممّا يدخل في الثاني (إنَّ عديِّاً بن الرِّقاع جاء مهنياً الخليفة بزواج عبد العزيز. بن الوليد على أمِّ الحكم، قائلاً:

قَمَـــرُ الســـماءِ وَشَمْسُـــهَا اَجْتَمَعَـــا بالسَّـــعْدِ مَـــا غَابَـــا وَمَـــا طَلَعَـــا

مَـــا وَارَتِ الأَسْـــتَارُ مِثْلَهُمَـــا مِمَّـــنْ رَأَى هَـــذا وَمَـــنْ سَـــمِعَا

دَامَ السُـــرُوْرُ لَـــهُ بِهَـــا وَلَهـــا وَتَهَنَّيَـــا طُـــوْلَ الحَيَـــاةِ مَعَـــا

وكان عبد الملك حاضِراً فأمر له بعشرة آلاف درهم)[3]

وتُرْوَى في موضع غير هذا الموضع (أنَّها قِيلتْ في التهنئة بالعرش لبعض خلفاءِ بني أُميَّة وإنَّ أوَّل من هنأ بالعرش هو عدى بن الرِّقاع)[4]

إنَّ هذه الأبيات في ذروة المدح فالشاعر شبه الممدوح بالقمر وزوجته بالشَّمس على طريقة القرءان الكريم، قال تعالى: (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)[5]

---

[1]تهر كلابهم: تنبح.

[2]زهر الآداب، 2/ 186

[3]الأغاني، 16/ 297 دِيوان عدى بن الرِّقاع، ص 257

[4]الثعالبي، عبد الملك بن محمد إسماعيل (أحسن ما سمعت) وضع حواشيه: خليل عمران المنصور، ط1، 2000م، ص97

[5]سورة يوسف، الأية: 4

(وقد تكلم المفسرون عن تعبير هذا المنام وأنَّ الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلاً سِواه، والشَّمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه)[1]

وقد يحصل توسعٌ وتجوزٌ في العبارات فَيُشبَّه الرجل بالشَّمس والمرأة بالقمر كما عِند الشُّعراء، وتبقى بقية الكواكب لإظهار بون الممدوح عن بقية النَّاس إذ هم الفروع والشَّمس والقمر هما الأصلان، قال النَّابغة في مدح النُّعمان بن المنذر:[2]

بأنَّكَ شَمْسٌ وَالمُلوكُ كَوْاكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

ثُمَّ دعا لهما بالهناء وطول السرور في الحياة، ولهذه المعاني نفحه عبد الملك بالعطيَّةِ.

ومن إعجابه بمعاني المدح (أنَّ رجلاً من بني ضبة وفد إليه، وأنشده:

واللهِ ما نَدْرِي إذا ما فاتَنا طلبٌ إليكَ مَنْ الَّذي نتطّلبُ؟

فلقد ضَرَبْنَا في البِلادِ فَلَمْ نَجِدْ أحداً سِواك إلى المكارِمِ يُنْسَبُ

فاصْبِرْ لِعَادتِنَا الَّتي عَوّدْتَنَا أو لا فَأرشِدْنَا، إلى مَنْ نَذْهَبُ

فقال عبد الملك: إليّ إليّ! وأمر له بألف دِينار، ثُمَّ أتاه في العام المقبل فقال:

يربّ الَّذي يأتي مِنْ الخيرِ إنَّه إذَا فَعَلَ المعروفَ زادَ وتمّما

ولَيس كبانٍ حِيْنَ تَمَّ بنَاؤه تتبعه بالنقصِ حَتَّى تهدّما

فأعطاه ألفي دِينار، ثُمَّ أتاه في العام الثالث، فقال:

إذا اسْتُمْطِروا كانوا مغازير في النّدى يجودون بالمعروفِ عوداً على بدءِ

فأعطاه ثلاثة آلف دِينارٍ)[3]

كان نقده يُعبّر عن انفعاله تجاه ما يسمع من ضروب الشِّعر، يصقلها بذوق مرهف وسليقة عربية أصلية. إنَّ أجمل شِعره بيته الثاني إذ يقول: فلقد ضربنا في البلاد.... فالشاعر لا يرى للممدوح مثيلاً

---

[1] ابن كثير (المِصباح المُنير في تهذيب تفسير ابن كثير) إعداد جماعة من العُلماء بإشراف الشَّيخ صفي الدِّين المُباركفوي، دار السلام للنشر والطباعة، المملكة العربيَّة السعودية، ط2، 2000م، ص 653

[2] دِيوان النَّابغة الذُّبياني، ص74

[3] أبو علي القالي (الأمالي) 2/ 283- 284، عبد الملك بن مروان النَّاقد الأديب، 223، 224

ولا شبيه في أفعاله، ولا أحد يُنْسبُ للمكارم سواه، لقد تأثر الشاعرُ في بيته هذا بقول النَّابغة يمدح النُّعمان:[1]

ولا أرَى فَـــاعِلاً فـــي النَّـــاسِ يُشْـــبِهُهُ وَلَا أُحاشِـــي مِـــنْ الأقْـــوَامِ مِـــنْ أحَـــدِ[2]

أضف إلى ذلك براءته من الاستجداء وطلب النوال. الَّذي يُشم في أبياته الأخرى ممَّا جعلها تتراخى منزلة عنه، ولذلك نجد انفعال الخليفة بالأبيات الأولى أشدّ من غيرها بحيث قال، إليّ إليّ، جواباً عن السؤال الَّذي وقع فيها.

سلك الشاعر طريقة الأعشى في تكسبه بالشِّعر؛ بحيث ألمح بالسؤال في أوَّل أبياته ثُمَّ صرَّح في آخرها، وذلك في قوله (يجودون بالمعروف عوداً على بدء) قال الأعشى في مدح قيس بن معد كرب:[3]

تَيَمَّمـــــتُ قَيْســـــاً وَكَـــــمْ دُوْنَـــــهُ مِـــنَ الأَرضِ مِـــنْ مَهْمَـــهٍ ذِي شَـــزنْ[4]

أَخَـــــا ثِقَـــــةٍ عَالِيـــــاً كَعْبُـــــهُ جَزيـــــلَ العَطَـــــاءِ كَـــــرِيمَ المِـــــنَنْ

فـــــإِنْ يَتْبَعُـــــوا أَمْـــــرَهُ يَرْشُـــــدوا وإِن يَسْـــــأَلُوا مَالَـــــهُ لَا يَضِـــــنْ[5]

وَأَقْـــبَلْنَ يُعْرِضْـــنَ نَحْـــوَ امْـــرِئٍ إِذَا كَسِـــبَ المَـــالَ لَـــمْ يَخْتَـــزِنْ

وَلكـــنْ عَلَـــى الحَمـــدِ إِنْفَاقُـــهُ وَقَـــدْ يَشْـــتَرِيهِ بـــأغلى الـــثَّمَنْ

ثُمَّ صرَّح بتكسبه في المدح في آخر قصيدته قائلاً:

فَهْـــذا الثَّنَـــاءُ وإِنِّـــي امْـــرُؤٌ إِلَيْـــكَ بِعَمْـــدٍ قَطَعْـــتُ القَـــرَنْ

فَجِئْتُـــكَ مُرْتَـــادَ مَـــا خَبَّـــرُوا وَلَـــوْلَا الَّـــذِي خَبَّـــرُوا لَـــمْ تَـــرَنْ

فَـــلا تَحْرِمَنِّـــي نَـــدَاكَ الجَزِيـــل فَـــإِنِّي امْـــرُؤٌ قَـــبْلَكُمْ لَـــمُ أُهَـــنْ

(ابتذل الأعشى نفسه في السؤال حَتَّى اعتبره مُؤرخو الأدب أوَّل من سأل بشِعره)[6] وكان لا يجد غضاضة في جمع المال والترحال له، يقول في ذلك:[7]

---

[1] دِيوان النَّابغة الذُّبياني، 20

[2] ولَا أُحاشِي: أي: لا أقول حاشا فلاناً فهو يشبهه في فعل الخير.

[3] دِيوان الأعشى الكبير، 19، 23، 25

[4] الشزن: المكان الغليظ من الأرض.

[5] يضن: أي: يبخل بماله.

[6] طبقات ابن سلَّام، 30، العُمدة، 1/ 64

[7] دِيوان الأعشى الكبير، 23

وَقَـــــدْ طُفْـــــتُ لِلْمَـــــالِ آفَاقَـــــهُ عُمَـــــانَ فَحِمْـــــصَ فَـــــأُور يَشَـــــلِمْ
أَتَيْـــــتُ النَّجَاشِـــــيَّ فِـــــي أَرْضِـــــهِ وأَرْضَ النَّبـــــــــيطِ وأَرْضَ العَجَـــــــــمْ
فَنَجْـــــرانَ فَالســـــرْوَ مِـــــنْ حِمْيـــــرٍ فَـــــأَيَّ مَـــــرَامٍ لَـــــهُ لَـــــمْ أَرُمْ

لقد بلغ إعجاب الخليفة بمعاني المدح مبلغاً عظيماً، بحيث يَحْكُم على الشاعر بأنَّه أشعر النَّاس، إذا أتى بمعاني يرفع النَّاس إليها أبصارهم، انظر إلى قوله: (أشعر النَّاس خارجة في مديحه لأبي بكر حيث يقول:[1]

مَـــا تُـــدْرِكْ الشَّـــمسُ إلَّا حَـــذْوَ مَنْكِبِـــهِ فـــي حَوْمَـــةٍ تَحْتَهَـــا الهامـــات والقصـــرُ
آل الزُّبيـــرِ نَجُـــومٌ يُسْتضـــاء بِهِـــم إِذَا دُجـــى اللَّيـــلِ فـــي ظُلْمَاتِـــهِ زهـــرو
قَـــوْمٌ إِذَا شمســـوا لَـــج الشَّـــموسُ بِهِـــم ذات العِنَـــــادِ وإِنْ ياســـــرتَهُمْ يُســـــرُ
خَـــصَّ المـــديحَ أَبَـــا بَكْـــرٍ ووالـــده وعمهـــم مِنْـــكَ إِنْ غَـــابوا وإِنْ حَضـــرو

إنَّ الممدوح أعلى من الشَّمس فلو أنَّ الشَّمس أرادت أن تعلو عليه لأعجزها ذلك، ولم تدرك غير منكبه هذا بعد اللأواء والمشقة، ثُمَّ شبه آل الزَّبير بالنجوم في العلو والهداية والجمال، وفي القرءان (وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)[2] ثُمَّ طابق الشاعر بين (الضياء والظلام، والشموس واليسر) في البيت الثالث، فهم أشداء على الأعداء ورحماء على الأصدقاء، قال بعض ولد روح بن زنباع في هذا المعنى:[3]

عَلَـــى أَنَّهُـــمْ يَـــوْمَ اللِّقَـــاءِ ضَـــراغِمٌ وَأَنَّهُـــــمُ يَـــــوْمَ النَّـــــوالِ بُحُـــــورُ

ثُمَّ خص بمدحه أبا بكر ووالده وعمهم، ولم ينسَ أنْ يطابق بين (الغياب والحضور) ليوشح النَّص بجمال اللُّغة كما وشحهم بثوب الثناء والمدح، فجعل الخليفة يحكم هذا الحكم النَّقدي.

وكان إذا شغفه حُبَّ بعض الأبيات المادحة، رددها حَتَّى تستقر في ذهنه محفوظة، وهو مظهر من مظاهر القبول، روى ابن دريد "أنَّ الشعبيَّ دخل على عبد الملك بن مروان وبين يديه رجل أبيض

[1]ثعلب: أبو العبَّاس أحمد بن يحيى (مجالس ثعلب) تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط3، 1/ 235
[2]سورة النحل، الأية: 16
[3]الحماسة البصرية، 2/ 611

الرأس، فسلمتُ فرد عبد الملك، وأومأ لي بالجلوس، ثُمَّ أقبل على الَّذي بين يديه فقال له: من أشعر النَّاس؟

قال: أنا يا أمير المؤمنين، قال الشعبيُّ: فأظلم ما بيني وبين عبد الملك، فلم أصبر حَتَّى قلتُ: من هذا يا أمير المؤمنين، الَّذي يزعم أنَّه أشعر النَّاس؟ قال عبد الملك: هذا الأخطل. فقلتُ: يا أخطل، أشعر والله منك الَّذي يقول:

هَـــذَا غُـــلامٌ حَسَـــنٌ وجهُـــهُ مُسْـــتَقبلُ الخَيـــرِ سَـــريعُ التّمَـــامْ
للحـــارثِ الأكْبَـــرِ والحـــارثِ الـــ أصْـــغَرِ وَالأعْـــرَجِ خَيْـــرِ الأنَـــامْ
ثُـــمَّ لِهْنـــدٍ ولِهنْـــدٍ، فقـــد أَسْـــرَع فـــي الخَيـــراتِ مِـــنْهُم إِمَـــامْ
ســـتةُ آبـــاءٍ هُـــم مَـــا هُمـــو هُـــمْ خيـــرُ مِـــنْ يَشْـــربُ صَـــوْب الغمَـــامْ

فرددها عبد الملك حَتَّى حفظها. فقال الأخطل: من هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا الشَّعبيُّ، قال: صدق والله يا أمير المؤمنين، النَّابغة والله أشعر مِنِّي"[1]

الأبيات في مدح الغساسنة، حيث بدأ الشاعر بأصغرهم سناً وهو الغلام فكيف بالكهول؟ ونعته بنعوت لا توجد في كبار القوم فهو "حسن الوجه، مستقبل الخير، سريع التمام" وكانت العرب تذكر من صغارها ما يعجز عنه الكبار، انظر إلى قول قيس بن عنقاء الفزاري[2] يمدح عُميلة الفزاري، الَّذي أعطاه مالاً بعد فاقةٍ أصابته:[3]

غُـــلامٌ رَمـــاهُ اللهُ بـــالخيرِ يَافِعـــاً لَـــهُ سِـــيمِيَاءُ لَا تشـــقُّ عَلَـــى البَصَـــرْ[4]
كـــأنَّ الثُّرَيّـــا عُلِقَـــتْ فَـــوْقَ نَحْـــرِهِ وَفِـــي خَـــدِّهِ الشِّـــعْرَى وَفِـــي وجهِـــهِ القَمَـــرْ
إِذَا قِيلَـــتِ العـــوراءُ أغضـــى كَأَنَّـــهُ ذَلِيـــلٌ بِـــلا ذُلٍ، وَلَـــوْ شَـــاءَ لَانْتصـــرْ[5]

اشترك ممدوح النَّابغة مع ممدوح قيس بن عنقاء في أمور وهي: إنَّ كِلا الممدوحين غُلامٌ، جميل المنظر قال الأوَّل "حسن وجهه" قال الثاني: (له سيمياء لا تشق على البصر) وشبهه: (بالثريا

[1]أبو زيد القرشي (جمهرة أشعار العرب) 65-66، الأغاني، 11/ 21
[2]قيس بن عنقاء الفزاري، وعنقاء، أمَّه، واسمه أسيلم بن ثعلبة بن عمر، شاعر مُخضرم أدرك الجاهلية والإسلام فأسلم، كان من أكثر أهل زمانه مالاً، وعارضة وبياناً في الشِّعر، يُنظر، الإصابة، 5/ 277، مُعجم الشُّعراء، 199
[3]الحماسة البصرية، 2/ 483
[4]السيمياء: الحُسن والجمال.
[5]العوراء: الكلمة القبيحة الفاحشة.

والشِّعري، والقمر) وكلها من مظاهر الجمال ثُم إنَّ الأوَّل (مستقبل الخير) والثاني (رماه الله بالخير) فأتمَّا جانب الخير، واشتركا كذلك في تمام الأشياء، فالأوَّل (سريع التمام) وأمَّا تمام الثاني فيتمثل في حُسن الخُلق إذ يقول: (إذا قِيلت العوراء): وهي الكلمة القبيحة الفاحشة (أغضى) وهذا من تمام خُلقه، (كأنَّه ذليل) ثُمَّ احترس بقوله: (بلا ذلٍ) ولو كان هذا من قبيل الذل المطلق لكان مُلصقاً بالهجاء لا ينزح نحو المدح، ثمَّ أتمَّ المعنى بقوله: (ولو شاء لانتصر) كل هذا من قبيل تمام الخُلق.

هذه طريقة من طرائق العرب في المدح وهي: ذِكر المرحلة العُمرية الَّتي حلّ بها الممدوح من (غُلام وفتى وصبي وغيرها من المراحل الَّتي تنم عن صغره) ولهم طريقة أخرى وهي عَدّ أعوامه وما تمتع به من تصرف في الأمور عجز عنها أقرانه، بل من كان شيخاً كُبّاره. انظر إلى قول حمزة بن بيض الحنفي[1] في مدح صبي:[2]

بَلَغْتَ لِعَشْرٍ مَضَتْ مِنْ سِنيـ ... كَ مَا يَبْلُغُ السَّيِّدُ الأَشْيَبُ
فَهَمُّكَ فِيْهَا جِسَامُ الأُمُورِ ... وَهَمُّ لِدَاتِكَ أَنْ يَلْعَبُوا

وهذه الخنساء تقول في صخر:[3]

ألا تَبْكِيَانِ الجَرِي الجَمِيْلَ ... ألا تَبْكِيَانِ الفَتَى السِّيِدَا
يُكَلِّفُهُ القَوْمُ مَا عَالَهُمْ ... وَإِنْ كَانَ أَصْغَرَهُمْ مَوْلِدَا

ويرى بشامة بن جزء أنَّ غُلامهم يخلف سيدهم الهالك، حيث يقول:[4]

وَلَيْسَ يَهْلِكُ مِنَّا سَيِّدٌ أبداً ... إلَّا افْتَلَيْنَا غُلامَاً سَيِّدَاً فِيْنَا[5]

ويرى عمرو بن كُلثوم أنَّ فطيمهم تسجد الجبابرة له، قائلاً:[6]

إذَا بَلَغَ الفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ ... تَخِرُ لَهُ الجَبَابِرُ سَاجِدِينَا

---

[1] حمزة بن بيض الحنفي، من شُعراء الدَّولةُ الأُمويِّة، كوفي خليع ماجن، انقطع لمدح المُهلَّب وولده، ثُمَّ إلى أبان بن الوليد، وبلال بن أبي بردة، وتكسب مالاً بشِعره، وهو جيد الشِّعر من فحول طبقته مات سنة 20هـ، ينظر، سير أعلام النبلاء، 5/ 267

[2] الحماسة البصرية، 1/ 414

[3] ديوان الخنساء،31

[4] الحماسة لأبي تمام، شرح المرزوقي،104

[5] افتلينا: رشحنا غلاماً للرِّياسة.

[6] أحمد الأمين (المُعلقات العشر) 97

وللعرب مذاهب في هذا الباب يضيق عنها الحصر والاستقراء، وَمَنْ تأرّت نفسه للمزيد فليراجع كتب الأدب.

ثُمَّ طَفِق النَّابغة يَعُدّ من أبياته ستة آباء مُولعاً بتكرار صِفة الخير وذلك في مواضع وهي: (مستقبل الخير، خير الأنام، أسرع في الخيرات، هم خير من شرب صوب الغمام) لكي يؤكد على خيرهم العميم، ثُمَّ انظر إلى التكرار الَّذي مُزج بالتعجب في قوله: هَمُ ما هم! ...

إنَّ الابيات جميلة تستحق من الخليفة الحِفظ، ومِنَّا كذلك.

2- إعجابه بالمعاني الخُلقية: كان يُعجب بمعاني عُروة بن الورد[1] الخُلقية وقدر رُوِي أَنَّه قال: (ما يسرني أَنَّ أحداً من العرب تمنيتُ أنَّه ولدني ممَّن لم يلدني، إلَّا عُروة بن الورد لقوله:[2]

إنِّـــي امـــرؤٌ عـــافى إنـــائي شِـــرْكَةٌ ... وأنْـــتَ امـــرؤٌ عـــافي إنائـــك واحـــدُ[3]

أَتَهـــزأُ مِنِّـــي أَنْ سَـــمِنْتَ وَ أَنْ تَـــرى ... بِجِسْـــمِي مَـــسَّ الحَـــقَّ والحَـــقِّ جاهِـــدُ

أُقسِّـــمُ جِسْـــمي فـــي جُســـومٍ كَثِيْـــرةٍ ... وأحســـو قِـــراحَ المَـــاءِ والمـــاءُ بـــارِدُ[4]

فقال عبد الملك: (من زعم أنَّ حاتماً أسمح النَّاس فقد ظلم عروة)[5]

حفِلت الأبيات بالمروءة والإباء، فالشاعر نحيف الجسم بسبب قلة الأكل فهو لا يأكل لوحده ويُطْعِم غيره معه؛ لذلك نحل جسمه، وهذه الصِّفة (أي النحول) من الصِّفات الَّتي تَمدَّح بها الشُّعراء لا سيما الصعاليك منهم، قال السُّليك:[6]

فـــلا يَغْـــرُرْكَ صُـــعْلُوكٌ نَـــوْومٌ ... إذا أَمْسَـــى يُعَـــدُّ مِـــن العِيـــالِ

إذا اضْـــحَى تَفَقَّـــدَ مَنْكِبَيْـــهِ ... وأبْصَـــرَ لَحْمَـــهُ حَـــذَرَ الهُـــزالِ

قال أبو كبير الهذلي:[7]

---

[1] عُروة بن الورد العبسي، شاعر من شعراء الجاهلية وفارس من فرسانها، وصعلوك من صعاليكها المعدودين المُقدمين الأجواد. لُقِبَ بعروة الصعاليك؛ لجمعه إيّاهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم. ينظر، الأعلام، 4/ 227

[2] دِيوان عُروة بن الورد، شرح: سعدي ضنّاوي، دار الجيل –بيروت- ط1، 1996م، 122، 124

[3] العافي: ما تبقى في آخر القدر من المرق. شركة: اشتراك الجماعة في الشئ.

[4] أقسم جسمي: أقسم الطَّعام الَّذي يحتاجه جسمي.

[5] الأغاني، 3/ 71

[6] الحماسة البصرية، 1/ 335

[7] دِيوان الهذليين، 2/ 92

ولقـــد سَـــرَيتُ عَلَـــى الظَّـــلامِ بِمِغْشَـــمٍ جَلْـــدٍ مِـــنْ الفِتْيـــانِ غَيْـــرِ مُهَبَّـــلِ[1]

قال الحسين بن مُطَيْر ذامّاً وافر اللَّحم:[2]

رَأَتْ رَجـــــلاً أَوْدى بِـــــوافرِ لَحْمِـــــهِ طِـــــلابُ المَعَـــالِي واكتســـابُ المَكَـــارِمِ

حفيـــفَ الحشَـــا ضَـــرْباً كـــأنَّ ثِيابـــه علـــى قـــاطعٍ مِـــنْ جَـــوهرِ الهِنـــدِ صَـــارِمِ

فقلـــتُ لهَـــا: لا تَعْجَبِـــيَّنَ فـــإنَّني أرى سِـــــمَنَ الفِتيـــــانِ إحـــــدى المَشَـــــاتِمِ

وكان يوجِّه مُعلم بنيه أن يعلمهم من أشعار المدح ما يرفع من أخلاقهم، روُي أنَّه قال –لمؤدب ولده –: روّهم مثل قول ابن العجير السلولي:[3]

يبـــين الجـــارُ حـــينَ يبـــينُ عنّـــي وَلَـــمْ تَـــأنس إلـــيّ كـــلابُ جـــاري

وتطعـــن جـــارتي مِـــنْ جنـــبِ بيتـــي وَلَـــمْ تَســـتر بسِـــترٍ مِـــنْ جِـــداري

وتـــأمن أنْ أطـــالع حِـــيْنَ آتـــي عليهـــا وهـــي واضـــعةُ الخمـــارِ

كـــذلك هـــدي آبـــائي قَـــدِيْما توارثـــه النَّجـــارُ عَـــنْ النَّجـــارِ

مفاد الأبيات حول صيانة الجار وحفظ عرضه إبان غيابه، وهي من المعاني والشيم الَّتي تمدَّح بها الشُّعراء، قالتْ الخنساء في رثاء صخرٍ:[4]

لَـــمْ تَـــرَهُ جَـــارَةٌ يَمْشِـــي بِسَـــاحَتِهَا لِرِيبَـــةٍ حِـــيْنَ يُخْلِـــي بَيْتَـــهُ الجَـــارُ

3- الصِّدق في المدح: كان عبد الملك يُحب الشِّعر الصادق في معانيه، بحيث أن المعاني توافق الواقع المعيش، ولذلك كان يرشد الشُّعراء أن يصدقوا في مدحهم ومن هذا القبيل، (أَنَّه سمع جارية تُغني بشِعر الأقيشر[5] في مدح طلحة[6] وهي تقول:

---

[1]المِغشم: الَّذي يغشم النَّاس ويظلمهم. المهبَّل: الكثير اللَّحم.

[2]البيان والتبين، 2/ 171

[3]الأغاني، 11/ 158

[4]الحماسة البصرية، 2/ 648

[5]المُغيرة بن عبد الله بن مُعَرِّض، شاعر أُموي، والأقيشر لقبه لُقِبَ به؛ لشدة حمرته وقِيل كان أقشر أبرص، اشتهر بالهجاء، تُوفى سنة 86هـ وقِيل غير ذلك، وهو من المُعمرين، ينظر، دِيوان الأقيشر الأسدي، صنعه: مُحمد علي دقّة، دار صادر بيروت، ط1، 1997م، ص (13 -15)

[6]طلحة الملقب بالفياض لجوده، ينظر، تاريخ دمشق، ص 182

وَقَضَـــــى اللهُ بالسَّـــــلامِ وحَيَّـــا زكريَّـــا بـــنَ طَلْحَـــةَ الفَيّـــاضِ[1]
مَعْـــدِنُ الضَّـــيْفِ إنْ أنـــاخُوا إليْـــهِ بَعْـــدَ أيْـــنِ الطّلائِـــحِ الأَنْقَـــاضِ[2]
ســـاهماتُ العُيُـــونِ خُـــوْصٌ رزايـــا قَـــدْ بَرَاهَـــا الكَـــلالُ بَعْـــدَ إيـــاضِ[3]
زَادَهُ خالـــــدُ ابْـــــنُ عَـــــمِّ أبيـــــهِ مَنْصِـــباً كَـــانَ فـــي العُـــلا ذا انتهـــاضِ

فقال عبد الملك للجارية: ويحك لمن هذا الشِّعر؟ قالتْ: للأقيشر. قال: هذا– والله– الشِّعر، لا على طمع ولا فرق، أشعر النَّاس الأقيشر"[4]

يرى أنَّ الصِّدق في المدح مع الإخلاص سبب من أسباب رفعة الشاعر، وبذلك يكون الشاعر أشعر النَّاس في هذا الغرض. إذاً هو يؤكد المدرسة النَّقدية الَّتي تقول (أعذب الشِّعر أصدقه)

ألزم عبد الملك بن مروان الشُّعراء أَنْ يتقيدوا بهذا المقياس، ولَمَّا أنشده أبو النَّجم قوله:

مِنَـــا الّـــذي ربـــع الجيُـــوشَ لظهـــرِهِ عُشـــرون وهـــو يُعْـــد فـــي الأحيـــاءِ[5]

قال عبد الملك: قف إن كنتَ صادقاً في هذا البيت، فلا نريد ما وراءه، فقال الفرزدق: أنا أعرف من ولده ستة عشر، ومن ولد ولده أربعة كلهم قد ربع، فقال عبد الملك: ولد ولده. هم ولده ادفع إليه الجائزة يا غُلام"[6]

كان الخليفة لا يحيد عن هذا المقياس النَّقدي حَتَّى مع الخصوم، يُروى أنَّ عبد الله بن الزَّبير الأسدي دخل على الخليفة واستأذنه بالإنشاد، وذلك بعد مَقتل ابن الزُّبير فقال الخليفة: (قل ولا تقل إلَّا حقاً) فأنشده:

مشـــى ابـــنُ الزُّبيـــرِ القهقـــري فتقـــدمتْ أُميَّـــــةُ حَتَّـــــى أحـــــرزوا القصـــــبَاتِ
وجئـــتَ المُجَلـــى يـــا ابـــنَ مـــروان سَـــبِقاً أَمَـــــامَ قُـــــريشٍ تَـــــنْفضُ العُـــــذرَاتِ[7]
فـــلا زِلْـــتَ ســـبّاقاً إلـــى كـــلِّ غايـــةٍ مِـــنْ المجـــدِ نجـــاءً مِـــنْ الغمـــرَاتِ[8]

---

[1]رواية الأغاني (قرّب اللهُ بالسَّلام) رواية الدِّيوان ص 89 (قضى الله)
[2]معدن الضيف: أي مركز اقامته، يُقال: عدن فلان بالمكان إذا أقام فيه الأين: التعب. الأطلاح: وحده طليح وهو البعير الّذي أتعبه السفر. الأنقاض: الجمل والناقة اللذان هزلا وتعبا.
[3]سمهات: متغيرات. خوص: غائرات. رزايا: مهزولات. الإياض: السير والرجوع.
[4]الأغاني، 11/ 255
[5]الربع: هو ربع الغنيمة، كانت تعطى للسيد وقصد أن أبناءه سادة ملوك.
[6]الأغاني، 10/ 153
[7]المُجَلى: السابق من الخيل. العذرات: الناصية وقِيل: الخُصلة من الشَّعر.
[8]الغمرات: جمع غمرة وهي الشدَّة.

فقال: (أحسنتَ فسل حاجتك، فقال له: أنتَ أعلى عيناً بها، وأرحب صدراً يا أمير المؤمنين، فأمر له بعشرة ألف درهم وكسوة)[1] جمع الشاعر بين هجاء ابن الزبير ومدح الخليفة، حيث شبهه بالخيل على عادة العرب قال بشامة بن حزن[2] فاخراً بسبق قومه:[3]

إنْ تُبْتَدَرْ غَايةٌ يَوْماً لِمَكْرُمَةٍ تَلْقَ السَّوابِقَ مِنَّا والمُصَلِّيْنَا[4]

وأضاف الشاعر صفتين في ضئضئ المدح وهما: السبق وحسن التصرف حيث قال: (نجاءً من الغمرات) ولهذا منحه الجائزة.

وكان يُعْجِبْه المدح الصادق وإن كان في خصم من خصومه، ويتجلى ذلك في خبره مع الرّجل الَّذي جاءه برأس مصعب بن الزُّبير فقال له: (يا أمير المؤمنين، لو رأيته والرَّمح في يده تارة، والسَّيف في يده تارة، يفرى هذا، ويطعن هذا، لرأيتَ رجلاً يملأ القلب والعين شجاعة، لكنَّه لَمَّا تفرغتْ عنه رجاله وبقي وحده ما زال ينشد:

وإنِّي عَلَى المكروهِ عنْدَ حُضوره أُكذِّب نَفْسي والجُفونُ لَهُ تَغْضِي
وَمَا ذَاكَ مِن ذُلٍّ ولكن حفيظةٌ أذبُّ بِهَا عِنْدَ المكارهِ عَنْ عِرضِي
وإنِّي لأهلِ الشَّرِ بالشرِ مَرْصدٌ وإنِّي لذي سِلْمٍ أَذلّ مِنْ الأَرْضِ

فقال عبد الملك: صدق، كان والله كما وصف نفسه)[5]

هذه أبيات حماسة تصلح في سُوح القِتال؛ إذ أنَّها تحث النفس على الإقدام، فقد وصف الشاعر نفسه بالشِّدة على الأعداء واللين على الأصدقاء، وهكذا كانتْ السادة من العرب، انظر إلى قول سعد المازني[6]

وَمَا بِي عَلَى مَنْ لانَ لِي مِنْ فَظَاظَةٍ وَلكنّني فَظٌّ أبِيٌّ عَلَى القَسري

---

[1] الأغاني، 14/ 249

[2] نُسِبَت هذه الأبيت إلى نهشل بن حرَى وهو مخضرم وفاته سنة 45هـ، ينظر، الشِّعر والشُّعراء ص 424. ونُسِبَت لبشامة بن حزن في حماسة أبي تمام.

[3] حماسة أبي تمام رواية الجواليقي، شرح: أحمد حسن، دار الكُتب العِلمية - بيروت، ط1، 1998م ص20

[4] السوابق: الأولى من الخيل. المصلى: الثانية من الخيل.

[5] ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي مكرم (الكامل في التاريخ) تحقيق: عبد الوهاب النجار، إدارة الطباعة المنيرية 4/ 13

[6] حماسة أبي تمام رواية الجواليقي ص 120 البيت لسعد بن ناسب المازني، شاعر أُموي مات سنة 110هـ، ينظر، حماسة أبي تمام، ص 20

4- نقده لشُّعراء المدح: عاب عبد الملك شعراء المدح في جملة أشياء وهي:

أ- المدح بمعاني لا توافق مقام الخليفة:

استوخم عبد الملك بن مروان جملة من الأشعار لعدم موافقتها المقام، وهو ما عُرِفَ عند البلاغيين (بمطابقة الكلام لمقتضى الحال) في إحدى تعريفات البلاغة، وتعارفوا على أنَّ (لكلِّ مقام مقال)[1] لقد أشار السكاكي لضرورة تنوع الكلام وفقاً لتنوع المقام قائلاً: (إنَّ مقامات الكلام متفاوتة: فمقام الشكر يباين مقام الشكية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم والكلام مع الذكي يختلف عن الكلام مع الغبي، ومُخاطبة المُلوك ليست كمخاطبة العامة والسوقة وهلم جرّا) [2]

وممَّا مجَّه عبد الملك قول جرير:

هَـذَا ابـنُ عَمِّـي فـي دِمَشْـقَ خَلِيفَـةٌ لَـوْ شِـئْتُ سَـاقَكُمُ إِلَـيَّ قَطِينَـا[3]

فقال عبد الملك: (جعلتني شرطياً لك، أما لو قلتَ: لوشاءَ ساقَكم إليّ قطينا لسقتهم إليك عن آخِرهم)[4]

واستثقل قول الأخطل:

حَـفَّ القَطِـينُ فَراحـوا مِنْـكَ أَوْ بَكـروا وَأَزْعجَـتْهُمْ نَـوىً فـي صَـرْفِها غَيـرُ

فقال عبد الملك (بل منك إنْ شاء الله) ولذلك عدل الأخطل عن هذه الكلمة الَّتي لم تجد حفاوة عند الخليفة لكلمة هي أرحب منها قائلاً:

خفَّ القطين فراحوا (اليوم) أو بكروا...) [5]

وانزعج لَمَّا خاطبه جريرٌ خطاباً مباشراً لا يحفظ المسافات بين الراعي والرعيَّة قائلاً:

أَتَصْـحوا أَمْ فُـؤادكَ غَيْـرَ صَـاحِ عَشِـيَّةَ هَـمَّ صَـحْبَك بـالرَّواحِ

---

[1] القزويني (الإيضاح في علوم البلاغة) تحقيق: مُحمد عبد القادر، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 2008م، 106

[2] السكاكي (مفتاح العلوم) 73

[3] قطيناً: يعني خدماً.

[4] المرزباني (المُوشح) 192

[5] المرجع نفسه، 226، دِيوان الأخطل، 100

فقال عبد الملك: بل فؤادك يا بن الفاعلة، كأنَّه استثقل هذه المواجهة، وإلَّا فقد علم إنَّما الشاعر يُخاطب نفسه)[1]

وعاب على ذي الرُّمة ما عابه على سابقه إذ يقول:

مَـا بَـالُ عَيْنـكَ مِنْهَـا المـاءُ يَنْسَـكِبُ كَأَنَّـــهُ مِـــنْ كُلَـــىً مَفْرِيّـــةٌ سَـــرِبُ[2]

فقال عبد الملك:- وكانت عينه تدمع- وما سؤالك عن هذا يا جاهل، فمقته وأمر بإخراجه)[3] وأصلح الشاعر الفساد مستبدلاً كلمة (عينك) بكلمة (عيني) وأكبر الظن أنَّ ذا الرُّمة نظر إلى بيت المتنخل[4] إذ يقول:[5]

مَـا بـالُ عَينـكَ أحسَـتْ دَمْعُهـا خَضِـلُ كمـــا وَهـــي سَـــرِبُ الأَخـــرابِ مُنبـــزلُ[6]

ب-الانشغال عن الخليفة بغيره:

وكان يعيب على مادِحه التشاغل عنه بشيءٍ سواه، ولذا عاب على ذي الرُّمة لَمَّا أنشده:

وَكَـــائِنْ تَحَطَّـــتْ نَـــاقَتِي مِـــنْ مَفَـــازَةٍ إِلَيْـــكَ وَمِـــنْ أَحْـــواضِ مَـــآءٍ مُسَـــدَّمِ[7]

بأعْطَانِـــهِ القِـــرْدَانُ هَزْلَـــى كَأَنَّهَـــا نَـــوَادِرُ صِيصَـــاءَ الهَبِيْـــدِ المُحَطَّـــمِ[8]

فقال عبد الملك: (ما مدحتَ بهذه القصيدة إلَّا ناقَتك، فخذ منها الثواب)[9]

إنَّ القصيدة طويلة تربو على الأربعين بيت، راح القدر الأعظم -كما قال عبد الملك -في وصف الناقة ونعت الرحلة ووصف منازل صاحبته مَيّ ولم يذكر فيها الخليفة إلَّا في بيتٍ واحدٍ:[10]

إِلَيْـــكَ أَمِيـــرَ المُـــؤْمِنينَ تَعَسَّـــفتْ بِنَـــا البُعْـــد أَوْلَادُ الجَـــدِيلِ وَشَـــدْقَمِ

---

[1]ابن رشيف (العُمدة) 1/ 22

[2]الكُلى: جمع كُلية بالضم، وهي جُليدة مستديرة تحت عروة المزادة تُخرز مع الأديم.

[3] العُمدة، 1/ 222

[4]المتنخِّلُ لقبه وتنخلته، أي تخيرته، واسمه مالك بن عويمر الهذلي، شاعر جاهلي محسن، ينظر ،الخِزانة، 4/ 150

[5]الخِزانة، 5/ 9

[6]حضِل: ندى. الأخراب: جمع يعنى عروة المزاد. سَرِب: سائل. منبذل: منشق.

[7]المفازة: الصحراء. الماء المسدم: الماء المتغيِّر الرائحة.

[8]الأعطان: مبارك الإبل. القِران: دُويبة متطفلة تعيش على الدواب والطيور، اللسان (قرد) الصيصاء: مهزول حب الحنظل، وهذه القِردان أشبه شيء به. الهبيد: حب الحنظل المتحطم.

[9]الأغاني، 12/ 39 دِيوان ذو الرُّمة، 630

[10]المصدر نفسه، 629

واستقبح على العُجير السلولي قصيداً أنشدها إياه، فوقع المدح فيها للشاعر نفسه دون أن يشرك الخليفة في قافية منها، قائلاً:

وقالتْ تضآءلتَ الغداة، ومن يكن فتى قبلَ عامِ الماءِ فهو كبيرُ[1]
فقلتُ لها إنَّ العجيرَ تقلبتْ به أبطنٌ أبلينه وظهورُ
فمنهن إدلاجي على كلِّ كوكبٍ لَهْ من عماني النُّجوم ظهورُ[2]
وقرعي بكفي بابَ مَلْكٍ كأنَّما بِهِ القومُ يرجون الأذينَ نُسورُ[3]

فقال عبد الملك: (يا عجير، ما مدحتَ بها إلَّا نفسك، ولكن نعطك لطول المقام)[4]

وصف العُجير تقلبات الزّمان، وقرعه أبواب المُلوك، وبلاءه في الحروب، ونسى الممدوح، فوقع في العيب.

ج- تجاهل الخليفة:

وإذا كان الخليفة يمقتُ الانشغال عنه في المدح إلى ما سواه، فكيف بتجاهله والسؤال عنه بصيغة الاستفهام كأنَّه يجهله، هذا أمقت عنده من ذاك، وأَحْظى عنده بالبُعد وعدم القبول، قال أبو قطينة لعبد الملك:

نبئتُ أَنَّ ابنَ القلمسِ عابني وَمَنْ ذَا مِنْ النَّاسِ الصحيحُ المسالمُ
فأبصرَ سبل الرشدِ سيدُ قومه وَقَدْ يُبْصرُ الرُشدَ الرئيسُ المُعممُ
فَمَنْ أنتم ها خبرونا مَنْ أنتم وَقَدْ جعلتَ أشياء تبدو وتُكْتَمُ

فقال عبد الملك: (ما كنتُ أرى أَنَّ مِثلنا يُقال له: مَنْ أنتم؟ أما والله لولا ما تعلم لقلتُ قولاً أُلحقكم بأصلكم الخبيث، ولضربتُكَ حَتَّى الموت)[5]

لقد فَطِن عبد الملك إلى معانٍ نقدية يَكِل العقل في استخراجها إلَّا بعد تحريك الفكر، وتوقد الذهن، وشِدّة الحصافة، وهو ما عُرف عند البلاغيين.

---

[1] عام الماء: كناية عن الخصب.
[2] عماني: منسوب إلى عمان.
[3] الأذين: الآذن، وهو الحاجب.
[4] الأغاني، 132/ 67. طبقات فحول الشُّعراء، 2/ 617
[5] أبو جعفر بن جرير الطبري (تاريخ الطبري) دار المعارف مصر، ط2، 1380هـ، 6/ 421

د- بالإيحاء، والتورية:

ومن الإيحا قوله للرقيّات لَمَّا أنشده مادحاً:[1]

أَنْـــتَ ابْـــنُ مُنْـــبَطِحِ البِطَـــا ... حِ كُـــــــــــدَيِّها فَكَـــــــــــدائِها[2]
وَلِـــــبطنِ عَائِشَـــــةَ الّتـــــي ... فَرعَـــــــــتْ أرومَ نِســــــــــائِهَا
وَلَـــــدَتْ أَعَـــــزّ مُهْـــــذَباً ... كَالشّـــــمسِ عِنْـــــدَ ضِـــــائِها

قال: قل (نسل) ولا تقل (بطن) فهو يستعيض كلمة آثر في نفسه، وأوقع في نفوس السامعين لبعدها عن الإيحاء، وهو أن تتجاوز الألفاظ مدلولها اللُّغوي إلى مدلول آخر عند المتلقي، وربما آض المعنى إلى ضده، ولذلك لم يحب عبد الملك إضافة كلمة (بطن) إلى عائشة.

ولم يتوقف احساسه بمعني الإيحاء فحسب، بل أحسّ بتورية الشاعر بالهجاء إبان حديثه عن المدح، قال عبد الملك لأخيه عبد العزيز: (لم يمدحك كُثيِّر عزَّة عندما قال:

وَمـــا زالـــتْ رُقَـــاكَ تَسُـــلُّ ضِـــغْنِي ... وتُخْـــرِجُ مِـــنْ مَكامِنِهـــا ضِـــبابي[3]
وَيَرْقِينـــي لَـــكَ الحَـــاوُونَ حَتَّـــى ... أَجَابَـــكَ حَيَّـــةٌ تَحْـــتَ الحِجـــابِ

(وإنّما جعلك راقي حيّاتٍ) فَلَمَّا بلغ ذلك كُثيِّراً قال لعبد العزيز: سوف أجعله راقي حيات ثُمَّ لا يُنْكر، فمدحه بقوله:[4]

يُقلّـــبُ عَيْنـــيْ حَيَّـــةٍ بِمَحَـــارَةٍ ... أَضَـــافَ إليهـــا السّـــارِياتِ سَـــبيلُها[5]

والحق أنَّ ذِكر الرقى هي أقرب للهجاء منها للمدح، ولا تصلح في نعت صفات الأمير، ولو قال الشاعر: ومازالت (هُداك) تسل ضغني، ويهديني لك الحاوون أو شيئاً من هذا القبيل لا يكسر الوزن لكان أوقع.

وربما خذلته فطنته وعُمِّيت عليه بعض معاني الهجاء الملفقة بالمدح، فحسبه مدحاً خالصاً، حَتَّى بعث الله إليه مَنْ يُرشِده إلى ذاك. روى المرزباني (أنّ كُثيِّراً أنشد عبد الملك:

---

[1]المزرباني (الموشح) 243
[2]كدى وكداء: موضعان.
[3]الضعن: الحقد. الضباب: الأحقاد. يعني أنَّه تلطف عليه حَتَّى سَلَّ حقده من مكامنه.
[4]طبقات فحول الشُّعراء، 2/ 547 دِيوان كُثيِّر، 38، 261، 280
[5]المحارة: جحر الحيّة. الساريات: المطر.

فَمَـــا تَرَكُوْهَـــا عَنْـــوَةً عَـــنْ مَـــودَّةٍ وَلَكِـــــنْ بِحَـــــدِّ المَشْـــــرِفيّ اسْـــــتقالها[1]

فأعجب عبد الملك بهذا فقال الأخطل: هجاكَ يا أمير المؤمنين، قال: بل حسدته، فقال الأخطل: لقد قلتُ لك أحسن من هذا البيت:

أهلّـوا مِـنْ الشـهرِ الحـرامِ فأصـبحوا مـــوالي مُلْـــكِ لا طريـــفٍ ولا غصـــبِ

فجعلته لك حقاً، وجَعلك اغتصبته)[2]

لقد سكتت الرواية عن تعليق عبد الملك بعد قول الأخطل وتدليله على ما ذهب إليه بهذا البيت: الَّذي هو أوفى مدحاً، وأبرؤ له في غصب المُلك، وجِلاد النَّاس عليها قهراً وقسراً بالسيوف.

و– التجديد في معاني المدح:

نظر الخليفة لمعاني الشُّعراء المعاصرين له في مدحه، فرأها كلها تنزح نحو الحيوان من صقر، وأسد، وحيَّة، وتارة تنزح نحو الطبيعة من جبالها وبحارها، وهي معاني لا ترتفع لها هامة الخليفة، ولم يأخذ أقوالهم على تحيزتها، بل رام القيم الخُلقية في هذا الباب قائلاً لجلسائه: "تشبهوني بالحيَّة ألا قُلتُمْ كما قال كعب بن الأشقر[3] في المُهلَّب وولده:[4]

مُلـــوكٌ ينزلـــون بِكـــلِّ ثغـــر إذا مـــا الهـــامُ يـــومَ الـــروعِ طـــارَ

نجـــومٌ يهـــدى بهـــم إذا مـــا أخـــو الظلمـــاءِ فـــي الغمـــراتِ حـــارَ

ويقول للشُّعراء تارة أخرى: "يا معشر الشُّعراء، تشبهوننا مرّة بالأسد الأبخر، ومرّة بالجبل الأوعر، ومرّة بالبحر الزجاج !! ألا قلتُمْ كما قال أيمن بن خريم في بني هاشم:[5]

نهـــاركم مكابـــدةٌ وصـــومٌ ولـــيكم صـــلاةٌ واقتـــراءُ

وليـــتم القُـــرآن وبـــالتزكي فأســـرع فـــيكم ذاك الـــبلاءُ

---

[1]فما تركوها في رواية الأمالي للقالي (فما أسلموها) وعند الأنباري (فما أخذوها) عنوةً من الأضداد. قال ابن السكيت: عند أهل الحجاز وهم –خذاعة وهذيل –بمعنى الطوع. وفي باقي العرب القسر، وفي سائر الكلام: القهر والقسر. استقالها: أخذها واختارها لنفسه، ينظر، دِيوان كُثيِّر، 80

[2]المُوشح، 182

[3]هو كعب بن معدان الأزدي، أصله من عُمان، سكن خرسان وهو أحد الشُّعراء الشجعان له أخبار في حروب الأزارقة، ينظر، الأغاني، 14/ 274

[4]الأغاني، 14/ 278، الوافي بالوفيات، 24/ 262

[5]الأغاني، 20/ 322- 324

أ أجعلكـــــم وأقوامـــــاً ســـــواءً وبيـــــــنكم وبيـــــــنهم الهـــــــواءُ
وهـــــم أرضٌ لأرجلكـــــم وأنـــــتم لأرؤســـــــهم وأعيـــــــنهم ســـــــماءُ

ونجده يوجِّه الأخطل إلى المعاني السامقة الَّتي تجعل الممدوح قبلة القصاد قائلاً: "إنْ كنتَ شبهتني بالصقر والأسد فلا حاجة لي في مِدحتك، وإن كنتَ كما قالتْ أخت بني الشريد لأخيها صخر فهات، فقال الأخطل: وما قالتْ: يا أمير المؤمنين؟ قال هي الَّتي تقول:

وَمَـــا بَلغـــتْ كَـــفٌ امـــرئٍ مُتنـــاولٍ مِـــنْ المَجْـــدِ إلَّا حَيْـــثُ مَـــا نِلْـــتَ أَطْـــوَلُ
وَمَـا بَلَـغَ المُهْـدُونَ فـي القـولِ مِدْحَـةً وَلَـــو أَطْنَبُـــوا إلَّا الَّـــذي فِيـــكَ أَفْضَـــلُ
وَجَـــارُكَ مَحْفُـــوظٌ مَنِيـــعٌ بِنَجْـــوَةٍ مِـــنْ الضـــيمِ لا يَشْـــكُو وَلَا يَتَعَلَّـــلُ

فقال الأخطل: والله لقد أحسنتُ القول، ولقد قلتُ فيك بيتين ما هما بدون قولها، فقال: هات، فأنشأ يقول:[1]

إذَا مِـتَّ مَـاتَ الجـودُ وَانْقَطَـعَ النَّـدى مِـــنْ النَّـــاسِ إلَّا مِـــنْ قَلِيـــلٍ مُصَـــرَّدِ
وَرُدَّت أَكـــفُّ الســـائلين وَأَمْسَـــكُوا مِـــنْ الـــدِّين والـــدُّنيا بِخُلـــفٍ مُجـــدَّرِ

والحق أنَّه لم يكن أجود من الخنساء؛ لأنَّه ذكر الموت الَّذي يتطير منه، حيث لم تذكره الخنساء في شعرها.

هـ- المدح بالمعاني الخُلقية والإنسانية:

ومن قبيل نقده لمعاني المدح، قصته مع الرقيَّات وذلك لَمَّا قُتِل مُصعبٌ وجاءه ابن الرقيَّات معتذراً فقال عبد الملك لجلسائه: (يا أهل الشام، أتعرفون هذا؟ قالوا: لا. قال: هذا عبيد الله بن قيس الرقيَّات، الَّذي يقول:

كَيْـفَ نَـوْمِي عَلَـى الفِـراشُ وَلَمَّـا تَشْـــــمَلُ الشـــــامَ غـــــارةٌ شَـــــعْواءُ
تُـذهِلُ الشـيخَ عَـنْ بَنيِـه وتُبْـدِى عِـــــنْ خـــــدامٍ العقيلـــــةُ العـــــذراءُ

قالوا: يا أمير المؤمنين، اسقنا دمَ هذا المنافق. قال: الآن وقد أمّنتُه وصار على بساطي وفي منزلي؟! إنَّما أخرتُ الإذن له لتقتلوه فلم تفعلوا فاستأذنه في الإنشاد فأذن له. فأنشده:

[1] المصون في الأدب، 63

(عَادَ له مِنْ كثيرة الطّربُ) حَتَّى وصل إلى قوله:

إِنَّمـــا مُصْـــعَبٌ شِـــهابٌ مِـــنْ اللهِ تَجَلّـــتْ عَـــنْ وَجْهِـــهِ الظُّلْمـــاءُ
مُلْكُـــهُ مُلْـــكُ قُـــوَّةٍ لَـــيْسَ فيـــهِ جَبَـــرُوتٌ وَلَا بِـــهِ كِبْرِيَـــاءُ
يَتَّقِـــي اللهَ فـــي الأمـــورِ وَقَـــدْ أَفْـــ ـــلَحَ مَـــنْ كَـــانَ هَمَّـــهُ الاتِّقَـــاءُ

أَمَّا الأمان فقد سبق لك، ولكن لا تأخذ مع المسلمين عطاءً أبداً!"[1]

إنَّ نفسية الخليفة لم تكن مهيأة لتقبل المدح لِمَا فرط من الشاعر ما قد فرط، من نفض يد الطاعة واتساع لسانه ذماً للخليفة، ثُمَّ إنَّ الشاعر لم يكن صادقاً في مدحه، بل توافت به الأمور إلى بسط السلطان، فوجد المقام ضنكاً والخليفة واجماً وكذا حاشيته؛ لذلك عجز لسانه عن تلخيص صفته الخُلقِية، وطفق يذكر من صفاته الخَليقة، وهو أمر لا يقوم به المدح، وللنُّقاد أقوال وتقسيم في هذا الباب.

قال قُدامة بن جعفر (فإن كان الممدوح ملكاً، فإنَّ مدحه ينبغي أن يكون بتفوقه على أقرانه الملوك والأمراء، وامتيازه عن سائر النَّاس، فيجعله كعبة القُصادِ وموطن الرجاء والرهبة، وشمس الدُّنيا وأفضل الملوك)[2] على نحو ما قال النَّابغة الذُّبياني في النُّعمان بن المنذر:[3]

أَلَـــمْ تَـــرَ أَنّ اللهَ أَعْطَـــاكَ سُـــوْرَةً تَـــرَى كُـــلَّ مَلْـــكٍ دُوْنَهـــا يَتَذَبْـــذَبُ
فإنَّـــكَ شَـــمْسٌ والمُلُـــوكُ كَواكِـــبٌ إِذَا طَلَعَـــتْ لَـــمْ يَبْـــدُ مِـــنهنَّ كَوْكَـــبُ

قال القرطاجني: (فأمَّا مدح الخُلفاء فيكون... بنصر الدِّين وإفاضة العدل وحسن السيرة والسِّياسة والعلم والحلم والتقى والورع والرأفة والرحمة والكرم والهيبة وما أشبه ذلك، ويتخطى في أوصافهم حدود الاقتصاد إلى حدود الافراط)[4]

ويستمر القرطاجني في التفصيل قائلاً: (مدح الامراء يكون بالشَّجاعة ويُمن النقية وسداد الرأي والتيقظ والحزم والدهاء وما ناسب ذلك، ويطمح بهم في الأوصاف حَتَّى تكون رتبة العظماء منهم ثانية عن رتبة الخُلفاء)[5]

---

[1] الخِزانة، 7/ 287، 288
[2] (نقد الشِّعر) 82، 84
[3] دِيوان النَّابغة الذُّبياني، 74
[4] المِنهاج، 170
[5] المِنهاج، 170

لقد أخطأ الرقيَّات بحيث جعل رتبة الخَليفة دون رتبة مصعب بن الزُّبير، انظر إلى قول مروان بن أبي حفص في مدح معن بن زائد حيث وصفه بالتقوى والمحامد وأنَّه شِهاب تخبوا الشُّهب لضوئه، قائلاً:[1]

كَنْـــزُ المحامِـــدِ والتُّقـــوى دَفـــاتِرُهُ ولـــيسَ مِـــنْ كَنْـــزِهِ الأَوْرَاقُ والـــذَّهَبُ
أنْـتَ الشِّـهابُ الَّـذي يُرْمَـى العـدُوَّ بِـهِ فَيَسْـــتَنيرُ وتَخْبُـــو عِنْـــدَهُ الشُّـــهُبُ

وإخال أنَّه نظر إلى نقد عبد الملك بن مروان لعبد الله بن قيس، وأخذ معانيه ودبجها بديباجته فأحسن وأجاد ولم يعلق به تقصير.

ك- التعميم في المدح:

وذلك باستبدال كلمة تدل على حصر المدح أو عدم ظهوره لعامة النَّاس بكلمة تدل على سعة المدح لكافة النَّاس، وذلك لَمَّا سَمِعَ يزيد بن مفرِّع الحميري ينشد في مدح جعفر قائلاً:[2]

تَـــزُورُ فَتَـــى قَـــدْ يَعْلَـــمُ اللهُ أَنَّـــه تَجُـــودُ لَـــهُ كَـــفٌّ بَعِيْـــدٌ غِرَارُهـــا

قال: "يابن قيس، أما اتقيتَ الله حين تقول لابن جعفر يعلم الله، ألا قلتَ: يعلم النَّاس، فقد والله علمه الله وعلمته أنتَ وعلمته أنا وعلمه النَّاسُ"[3]

نعم لو قال (يعلم النَّاس) لكان أظهر لجود الممدوح، فالله يعلم الظاهر والباطن، فجود الممدوح من الظاهر الَّذي يعلمه النَّاس ولا يخفى على أحدٍ.
أمَّا نقده للمعاني الإنسانية في هذا الغرض فخير شاهد يُساق قوله لَمَّا سمع قول الشَّماخ بن ضرار يمدح عرابة الأوسي:

إِذَا بَلَّغْتِنِـــــي وَحَمَلْـــــتِ رَحْلِـــــي عَرابـــــةَ فَاشْـــــرِقي بِـــــدَمِ الـــــوتينِ

قال: "بئست المكافأة كافأها، حملتْ رحله، وبلعته بغيته، فجعل مكافأتها نحرها"[4]

نعم بئس القول قوله، وقريب من هذا في قبح المكافأة قول ذا الرُّمة:[5]

---

[1]شِعر مروان بن أبي حفص، 20
[2]دِيوان يزيد بن مفرِّع الحميري، 82
[3]الأغاني، 4/ 157
[4]عبد الملك بن مروان النَّاقد الأديب، 222، الأغاني، 8/ 107
[5]الحماسة البصرية، 1/ 383

أَقُـولُ لَهَـا: إِذْ شَـمَّرَ السَّـيْرُ واسْـتَوَتْ بِهَـا البِيـدُ وَاسْـتَتَّتْ عليهـا الحَرائِـرُ
إِذَا ابـنُ أَبـي مُوْسَـى بِـلالٌ بَلَغْتِـهِ فَقَـامَ بفَـأْسٍ بَـيْنَ عَيْنَيْـكِ جـازِرُ

فقد دعا عليها بالذبح بعد أن أوصلته إلى ممدوحه، وقد أحسن ابن رواحة في مكافأته لناقته بأن أطلق صراحها كما بلغته إلى مُبتغاه، وذلك عند خروجه لغزوة مؤته[1] قائلاً:[2]

إِذَا بَلَّغْتِنِـي وَحَمَلْـتِ رَحْلِـي مَسِـيرَةِ أَرْبَـعٍ بَعْـدَ الحِسـاءِ
فَشَـأْنَكِ، فـأَنْعَمِي وَخَـلاكِ ذَمٌّ وَلَا أَرْجِـعْ إِلـى أَهْلِـي وَرائِـي

وأراح الفرزدق ناقته لَمَّا أوصلته إلى ممدوحه هشام بن عبد الملك بن مروان، قائلاً:[3]

أَقُـول لنـاقَتِي لَمَّـا تَرامَـتْ بِنَـا بِيْـدٌ مُسَـرْبَلَةُ القَتَـامِ[4]
إِلامَ تَلَفَّتِـينَ وَأَنْـتِ تَحْتِـي وَخَيْـرُ النَّـاسِ كُلِّهِـمُ أَمَـامِي[5]
مَتَـى تَـرْدِي الرُّصـافَةَ تَسْـتَرِيحِي مِـنْ التَّهجِيـر والـدَّبرِ الـدَّوامِي[6]

ونظر أبو نُواس إلى معاني الشماخ بن ضرار فنقضها وأحسن جزاء ناقته قائلاً:[7]

أَقُـولُ لِنـاقَتِي إِذْ بَلَّغَتْنِـي لَقَـدْ أَصْـبَحتِ عِنْـدي بـاليمينِ
وَلَـمْ أَجْعَلْـكِ لِلْغِرْبـانِ نَهبْـاً وَلَا قُلْـتُ: اَشْـرَقِي بِـدَمِ الـوَتِينِ[8]
حَرُمْـتِ عَلَـى الأزِمَّـةِ والوَلايـا وَأَعْـلاقِ الرِّحَالـةِ وَالوَضِـين[9]

وقال –أيضاً –في ناقته بعد أن وصلته إلى محمد بن هارون الرشيد:[10]

فَـإِذَا المَطِـيُّ بِنَـا بَلَغْـنَ مُحمَّـداً فَطُهُـورُهُنَّ عَلَـى الرِّجـالِ حَـرامُ
قَرَّبْنَنَـا مِـنْ خَيْـرِ مَـنْ وَطِـئَ الحَصَـى فَلَهـا عَلَيْنَـا حُرْمَـةٌ وَذِمَـامُ

---

[1] سِيرة بن هشام، 2/ 373
[2] الحماسة البصرية، 1/ 382
[3] المرجع نفسه، 1/ 380
[4] مسربلة: لبست سربالاً وهو القميص. القتام: الغبار.
[5] خير النَّاس: هشام بن عبد الملك.
[6] الرصافة: بلد غرب الرّقة بناها هشام بن عبد الملك لَمَّا وقع طاعون الشام وكان يسكنها زمن الصَّيف. التهجير: السير وقت الهاجرة. الدَّبر: القروح في الدَّابة.
[7] الحماسة البصرية، 1/ 379
[8] الوتين: عرق في العنق.
[9] الأزمة: جمع زمام. الولايا: جمع وليه، وهي البردعة أو ما تحتها.
[10] المرجع نفسه، 1/ 381

قال بعض العلماءِ عن هذه الأبيات –: "هذا المعنى كانتْ العرب تحوم حوله فتخطئه ولا تصيبه، فقال للشماخ كذا وقال ذو الرُّمة كذا، وما أبانه إلَّا أبو نُواس بهذا وهو في نهاية الحُسن، فقد وعد الشماخ ناقته بالذبح وذو الرُّمة دعا عليها بالذبح، وأبو نواس حَرَّم الركوب على ظهرها وأراحها من الكدِّ في الأسفار، فهو أتم في المقصود؛ لكونه أحسن إليها في قُبالةِ إحسانها إليه، حيث أوصلته إلى الممدوح"[1]

إنَّ نهج الله في الإحسان أوضح نهج حيث قال: (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)[2] وكذلك نهج النُّقاد من بعد نهج الله تعالى ولقد عَلَّق قُدامة بن جعفر لَمَّا سَمِعَ قول الشاعر:

سَـــلامٌ لَيْـــتَ لِسَـــاناً تَنْطِقِـــينَ بِـــهِ قَبْـــلَ الَّـــذي نَـــالَنِي مِـــنْ صَـــوْتِهَا قُطِعَـــا

قائلاً: "فما رأيتُ أغلظ ممّن يدعو على معشوقة أجادتْ في غنائها بقطع لسانها، لأنَّ المذهب إنَّما هو الرِّقة واللطافة وحُسن الجزاء..."[3]

---

[1] المرجع نفسه، 381/1
[2] سورة الرحمن، الأية: 60
[3] قُدامة بن جعفر (نقد الشِّعر) 191

خامساً: الهجاء:

إنَّ الهجاء غرض من أغراض الشِّعر العربي قديم النشأة، له حضور في العصر الأموي لا سيما في مجلس عبد الملك بن مروان، وقد كان يرد بطريقتين أولهما: التصريح، وهي الأكثر، وثانيهما: التعريض، وهي الأقل، وأعني بالتصريح أنَّ الهجاء في الأبيات ظاهر بيِّن صريح لا يحتاج إلى كبير جهد وتحريك فكر، ومنه قول الخليفة لجلسائه: "أهجي بيت قالته العرب في ابن الزُّبير:[1]

فـــإن تصـــبك مـــن الأيـــامِ جائحـــةٌ لـــم نبـــكِ منـــك علـــى دنيـــا ولا ديـــنِ

إنَّ هذا البيت مِن أبشع أنواع الهجاء، وهو من قول خصوم ابن الزُّبير، يبعد عن الحقيقة؛ لأنَّ ابن الزُّبير إن لم يك رجل دنيا بالعطاء والهباة، فلا أحد يتردد في أنَّه رجل دين، وحق الشاعر أن يبكِ على دينه إن لم يبكِ على دنياه.

ويدخل في الصريح قول الخليفة لجلسائه: "والله ما سرني أنّي هُجيتُ ببيت الأعشى، وأنَّ لي طلاع الأرض ذهباً، حيث قال في علقمة بن علاثة[2] بيته:[3]

يَبِيْتُـوْنَ فـي المشـتى مِـلاءً بُطـونهم وجـــاراتهم غرثـــى يبـــتن خمائصـــا

هجاه بالبخل وعدم تعهد الجيران بالزاد وقت الشِّتاء، وهذه سُبَّةٌ إن غفرها الجار له فلن يغفرها الأعشى ولا عبد الملك ولا التاريخ لعلقمة بن عُلاثه:

ومن قبيل التصريح بالهجاء أن يسأل الخليفة الوافد عليه عن أفضل الشُّعراء وأحسن من قال في أغراض شتى، وهو يعلم علم اليقين أن تفضيل أحدهم على الأخر يهيج نار الهجاء بينهم ويدخل في هذا الضرب القصّة الَّتي مفادها:

(أَنَّ أعرابياً– من بني عُذرة –دخل على الخليفة يمدحه وعنده الفرزدق، وجرير، والأخطل) فلم يعرفهم الأعرابي، فقال عبد الملك للأعرابي: هل تعرف أهجى بيت قالته العربِ في الإسلام؟ قال نعم! قول جرير:

---

[1] العِقد الفريد، 6/ 127

[2] علقمة بن عوف الكلابي العامري، كان في الجاهلية من أشراف قومه، وفد على قيصر الروم، ونافر عامر بن الطُفيل. ثُمَّ أسلم، وارتدَّ في أيام أبي بكر، ثُمَّ عاد إلى الإسلام، ولاه عمر بن الخطاب حوران فنزلها إلى أن مات بها، ينظر، خِزانة الأدب 1/ 88 -89

[3] الحُصري، زهر الآداب، 4/ 11

فَغُــضَّ الطــرفَ إنّــكَ مِــن نُمَيْــرٍ فَــــلا كَعْبــــاً بلغْــــتَ وَلا كِلابــــا

فقال: أحسنتَ؛ فهل تعرف أمدح بيت قِيل في الإسلام؟ قال: نعم! قول جرير:

ألســتُمْ خيــرَ مَــن رَكِــبَ المطايــا وأنَــــدى العــــالمينَ بُطــــونَ راحِ

فقال: أصبتَ وأحسنتَ، فهل تعرف أرقَّ بيتٍ قِيل في الإسلام؟ قال: نعم! قول جرير:

إنَّ العُيــونَ الَّتــي فــي طَرْفِهَــا حَــوْرٌ قَتَلْنَنــا ثُــمَّ لَــمْ يَحْــينَ قَتْلانــا

يَصْــرَعْنَ ذَا اللُّــبِّ حَتَّــى لا حَــراكَ بــهِ وهُــنَّ أَضْــعفُ خَلْــقِ اللهِ أرْكانــا

فقال: أحسنتَ؛ فهل تعرف جريراً؟ قال: لا والله، وإنِّي لرؤيته لمشتاق. قال: فهذا جرير، وهذا الفرزدق، وهذا الأخطل، فأنشأ الأعرابي يقول:

فحَيَّــا الإلَــهُ أبــا حَــزْرَةٍ وأرغــمَ أَنْفَــكَ يــا أخطــلُ

وَجــدُّ الفــرزدقِ أَثْعِــسْ بــهِ ودَقَّ خياشــيمَهُ الجَنْــدَلُ

فأنشأ الفرزدق يقول:

يــا أَرْغَــمَ اللهُ أَنْفَــاً أَنْــتَ حَامِلُــهُ يــا ذا الخَنــا وَمَقــالِ الــزُّورِ وَالخَطــلِ

مــا أنْــتَ بــالحكمِ التُرْضــى حُكومَتُــهُ ولا الأصــيلِ ولا ذي الــرَّأي والجــدَلِ

ثُمَّ أنشأ الأخطل:

يــا شــرَّ مَــنْ حَملَــتْ سَــاقٌ علــى قَــدمٍ مَــا مِثْــلُ قَوْلِــكَ فــي الأقــوامِ يُحْتَمَــل

إنَّ الحُكومــةَ لَيســتْ فــي أبيــكَ فــي مَعْشــرٍ أنْــتَ مِــنْهُمْ إنّهــمْ سَــفلُ

فقام جريرٌ مغضباً، وقال:

شــتمتما قــائلاً بــالحقِّ مبتــدئاً عِنْــدَ الخليفــةِ والأقــوالُ تَنْتضِــلُ

أتشــتمان سَــفاهاً خَيْــرَكمْ حســباً ففيكمــا –وإلهــي –الــزُّورُ والخَطــلُ

شــتمتماه علــى رَفْعــي ووضْــعِكما لا زِلتمــا فــي سِــفَالٍ أيُّهــا السُّــفلُ

ثُمَّ وَثَب جريرٌ فقبّلَ رأس الأعرابي وقال: يا أمير المؤمنين، جائزتي له، وكانت خمسة عشر ألفاً. فقال عبد الملك: وله مثلها من مالي: فقبض الأعرابيُّ ذلك كلَّه وخرج)[1]

تدل هذه القصة على تواضع الخليفة إذا فتح باب قصره للشُّعراء والأعراب لإفادته من آرائهم النَّقدية ولا يبرأ لفظ الأعرابي من شطط إذ (أتعس جد الفرزدق) وأرغم أنف الأخطل وكذا القول في جرير إذ زعم أنَّ صاحبه (خيرهم حسباً، قائلاً بالحق مهتدياً) لم يكن كذلك بل حكمه غير مرضي شابه شيء من التعصب لجرير، وهذا أمر يَبُعد به عن منهج النَّقد الأدبي، وكانتْ العرب لا تولي حكمها إلَّا لرجل حكيم ضليع في الأمور والعلوم، يقول قولاً في دبره الصواب.

قال عامر بن الطفيل[2] في رده على النَّابغة الذُّبياني:[3]

فـــإنّ لَنَـــا حُكُومَـــةَ كُـــلَّ يـــومٍ ... ويُبَـــيّنُ فـــي مَفاصِـــلِهِ الصّـــوابِ
وإنِّـــي سَـــوْفَ أَحْكُـــمُ غيـــر عـــادٍ ... ولا قَـــذِعٍ إذا الـــتُمِسَ الجَـــوابُ
حَكوَمَـــةَ حَـــازِمٍ لا عَيْـــبَ فِيهـــا ... إذا مَـــا القـــومُ كَظّهُـــم الخِطـــابُ

الأمر الآخر في حكومة الأعرابي تحديده لأجمل بيت في الهجاء وكذلك في المدح والغزل، وهو أمر تناضل فيه النُّقاد ولم يُجمعوا على بيت في ذاك.

ولولا سؤال الخليفة لَمَا حصل كل هذا الهجاء بين الشُّعراء.

وأمَّا التعريض بالهجاء فيعني أن يكون الهجاء مُضمراً خلف المعاني والكلمات كما في التورية ونحوها من فنون البلاغة، الَّتي تحتاج لتحريك الفكر لاستخراج ما وراء المعنى أو ما يلزم من المعنى ونحوها، ولقد أصاب هذا النوع من الهجاء ابن عبد الله بن زياد، والخليفة نفسه، غير أن الخليفة نجا بفطنته، وعلِق الزيادي في حباله وأصل الخبر كما ساقه الطبري: (أنَّ الفضل ابن العبَّاس بن عتبة[4]

---

[1]الأغاني، 8/ 44، 46، البداية والنهاية، 10/ 98، 99

[2]عامر بن الطُفيل العامري، من بني عامر بن صعصعة، فارس قومه، وأحد فُتَّاك العرب وشعرائهم، وفد على النَّبيِّ ﷺ يريد الغدر به فلم يجرؤ، مات في طريق عودته. ينظر، ترتيب الأعلام على الأعوام، 2/ 109

[3]دِيوان عامر بن الطُفيل، رواية أبو بكر مُحمد بن الأنباري عن أبي العبَّاس أحمد بن يحيى ثعلب، دار صادر للطباعة بيروت – لبنان، 1979م، ص20

[4]الفضل ابن العبَّاس بن عتبة بن أبي لهب، شاعر الهاشمين، كان فصيحاً، أمه آمنة بنت العبَّاس بن عبد المطلب، توفى في خِلافة الوليد بن عبد الملك سنة 90هـ، ينظر، الأعلام، 5/ 344

قَدِمَ على عبد الملك بن مروان وأنشده شِعراً، وعنده ابن لعبيد الله بن زياد، فقال الزيادي: والله ما سمعتُ شِعراً!! فَلَمَّا كان العشاء راح إليه الفضل بن العبَّاس وأنشده:

أتيتُـــكَ خَـــالاً وَابـــن عَـــمٍّ وعَمَّـــةٍ ... وَلَـــمْ أَك شِـــعْباً لَاطـــه بـــك مُشـــعبُ[1]

فَصـــل واشـــجاتٍ بيننـــا مِـــنْ قرابـــةٍ ... أَلا صـــلةُ الارْحَـــامِ أَبْقَـــى وأَقْـــرَبُ

وَلَا تَجْعَلَنَّـــي كـــامرئٍ لَـــيْسَ بَيْنَـــهُ ... وَبيـــــنكُمُ قُرْبَـــــى ولا مُتنسَّـــــبُ

أتحـــدب مِـــنْ دون العشـــيرةِ كُلِّهـــا ... فَأَنْـــتَ عَلَـــى مَـــوْلَاكَ أَحْنَـــى وَأَحْـــدَبُ

فقال الزيادي: هذا والله الشِّعر يا أمير المؤمنين، فقال عبد الملك: "النخس يكفيك البطئ" "[2]

والأبيات كلها تعريض بقصة استلحاق زياد بن أبيه بنسب أبي سفيان بن حرب وما فيها من العار، ولقد ألحقه مُعاوية للإفادة من جَلَدِ زياد وخدمته لبني أُميَّة. وأرى أنَّ الباعث الحقيقي لنظم هذا التعريض هو الغضب؛ لأنَّ الزيادي بَطر الشاعر حقه في أوَّل الأمر حيث قال: ما سمعتُ شعراً، فوثب الشاعر على نسبه المهلهل بالنقص والهدم، فأحسن من الناحية الفنية لا الناحية الخُلقية والأدبية، فلمَّا رأى الزيادي صدق الباعث وجودة السبك، حكم عليه بالإحسان الشِّعري قائلاً :هذا والله الشِّعر" ولايخفى دور الغضب في هذه الأبيات الَّذي هو إحدى بواعث الشِّعر الَّتي عدها ارطأة لعبد الملك حين قال: "كيف أقول الشِّعر وأنا لا أطرب، ولا أغضب، ولا أرهب، ولا أركب، وما يكون الشِّعر إلَّا من نتاج هذه الأربعة"[3] ومن هذه البواعث تتوزع الأغراض الشِّعرية من مدح وغزل، وهجاء، ورثاء، وفخر، واعتذار...

ومن قبيل التعريض بالشِّعر ما وقع للخليفة لَمَّا سأل جلساءه "أيَّ الشُّعراء أفضل؟ فقال له كَثيِّر بن هراسة –يُعرض به –: أفضلهم المقنع الكندي[4] حيث يقول:

إِنِّـــي أُحَـــرِّصُ أَهْـــلَ البُخْـــلِ كُلِّهُـــمُ ... لَـــوْ كَـــانَ يَنْفَـــعُ أَهْـــلَ البُخْـــلِ تَحْرِيَضِـــي

مَـــا قَـــلَّ مَـــالِيَ إِلَّا زادَنِّـــي كَرَمـــاً ... حَتَّـــى يَكُـــونَ بِـــرِزْقِ اللهِ تَعْوِيضِـــي

فَالمـــالُ يَنْفَـــعُ مَـــنْ لَـــوْلَا دَراهِمُـــهُ ... أَمْسَـــى يُقَلِّـــبُ فِيْنَـــا طَـــرْفَ مَخْفُوضِـــي

---

[1]لاطه: ألصقه.

[2]تاريخ الطبري، 5/ 215، الأغاني، 16/ 181

[3]المرزباني (المُوشح) 373

[4]المقنع الكندي هو مُحمد بن عُمير بن أبي شمر، شاعر أُموي من قبيلة كندة اليمنية أُقِب بالمُقنع لشدة جماله، له خبر مع الملوك، يمتاز شِعره بالرصانة وانتقاء الألفاظ، ينظر، ترتيب الأعلام على الأعوام، 1/ 150

لَــنْ تُخْــرُجَ البِــيْضُ عَفْــواً مِــنْ أكفِّهِــمُ إِلَّا عَلَـــى وَجَـــعٍ مِـــنْهُمْ وَتَمْـــرِيضِ[1]

كَأَنَّمَـــا مِـــنْ جُلُـــودِ البَـــاخِلِينَ بِهَـــا عِنْـــدَ النَّوائِـــبِ تُحْـــذَى بِالمقَـــارِيضِ[2]

فقال عبد الملك –وقد عرف ما أراد –الله أصدق مِن المقنع حيث يقول: "وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا"[3] وكان عبد الملك يُسمى رشح الحجارة لبخله"[4]

ولا أصدق من كتاب الله للردّ على قول الشاعر كما صنع الخليفة.

---

[1]البيض: الدراهم.
[2]تحذى: تقطع.
[3]سورة الفرقان، الأية: 67
[4]أبو هلال العسكري (الأوائل) 251- 252

سادساً: التبرؤ والإعتذار:

هذا غرض قديم المنشأ، ويُعد النَّابغة الذُّبياني رائده الأوَّل، وللخليفة في العصر الأُموي وقفة واحدة مع شاعر مُعارضٍ لسياسة بني أُميَّة وهو عبد الله بن الحجَّاج الَّذي وفد على الخليفة بعد مقتل عبد الله بن الزُّبير –وكان موالياً له، فاحتال للدخول على عبد الملك بن مروان مع من دخل من النَّاس ولَمْ يأكل معهم الطَّعام، فسأله عبد الملك، مالك لا تأكل؟ فقال: لا أستحل أن آكل حتَّى تأذن لي، فأذن له فأكل، فَلَمَّا أكل النَّاس وجلس الخليفة في مجلسه، جاءه عبد الله بن الحجَّاج فوقف بين يديه وأنشده:

أَبْلِـــغ أَمِيْـــرَ المـــؤمنين فـــإنني ... مِمَّـــا لَقِيْـــتُ مِـــنْ الحَـــوادثِ مُوْجَـــعُ

مُنِـــعَ القـــرارُ فَجِئْـــتُ نَحْـــوَكَ هَارِبـــاً ... جَـــيْشٌ يَجُـــرُ وَمِقْنَـــبٌ يَتَلَمَّـــعُ[1]

فقال عبد الملك: ما خوفك لا أم لك! لولا أنَّك مريب! فقال عبد الله:

إنَّ الـــبِلادَ عَلـــيَّ وَهـــي عَرِيْضَـــةٌ ... وَعَـــرَتْ مَـــذاهِبُها وَسُـــدَّ المَطلـــعُ

فقال عبد الملك: ذلك بما كسبتْ يداك، وما اللهُ بظلام للعبيد، فقال عبد الله:

كُنَّـــا تنحلنـــا البَصـــائِرَ مَـــرَّةً ... وَإِلَيْـــكَ إِذْ عَمِـــي البْصَـــائرُ نَرْجِـــعُ

إِنَّ الَّـــذي يَعْصِـــيك مِنَّـــا بَعْـــدَهَا ... مِـــنْ دِينـــه وَحَياتِـــه متـــودعُ

آتـــي رِضَـــاكَ وَلَا أَعُـــوُدُ لِمثلِهـــا ... وأطيـــعُ أَمْـــرَكَ مَـــا أَمَـــرْتَ وَأَسْـــمَعُ

فقال عبد الملك هذا لا نقبله مِنك إلَّا بعد المعرفة بك وبذنبك؟ فإذا عُرفت الحوبة فبلنا التوبة، فقال عبد الله:

وَلَقَـــدْ وَطِئْـــتَ بنـــي سَـــعيدٍ وَطْـــأةً ... وَابْـــنَ الزُّبيـــرِ فَعِرْشُـــهُ مُتَضَعْضَـــعُ

مَـــا زِلْـــتَ تَضْـــربُ مَنْكِبـــاً عَـــنْ مَنْكِـــبٍ ... تَعْلُـــو وَيَسْـــفُلُ غَيْـــرَكُمْ مَـــايُرْفَعُ

وَوَطِئْـــتُمُ فـــي الحـــربِ حَتَّـــى أَصْـــبَحُوا ... حَـــدَثاً يَكُـــوْسُ وَغَـــابِراً يَتَجْعَجـــعُ[2]

وُضِـــعتْ أميَّـــةُ وَاسِـــطينَ لِقـــوْمِهِمْ ... وَوُضِـــعْتَ وَسْـــطَهُمُ فَـــنِعْمَ المَوْضِـــعُ

فقال عبد الملك: إنَّ توريتك عن نفسك لتريبني، فأي الفسقة أنتَ؟ وماذا تريد؟ فقال عبد الله:

---

[1] المِقنب: الجماعة من الجيش زهاء الثلاثين أو الأربعين تجْمع للغارة.

[2] يكوس: من كاس البعير إذا مشى على ثلاثة أرجل وهو معرقب. يتجعجع: يضرب بنفسه الأرض لشدة وجعه.

وَأَرى الَّـــذي يَرْجُـــو تُـــراثَ مُحمـــدٍ أَفِلـــتْ نُجُـــوْمُهُمُ وَنَجْمُـــكَ يَسْـــطَعُ

فقال عبد الملك: ذلك جزاء أعداء الله. فقال عبد الله:

أَدْنُـــو لِتَرْحَمَنِـــي وَتَجْبُـــرَ فَـــاقَتِي فَـــأَرَاكَ تَـــدْفَعُنِي فَـــأَيْنَ المَـــدْفَعُ

فتبسم عبد الملك، فقال: إلى النَّار، فمن أنتَ الآن؟ فقال: أنا عبد الله بن الحجَّاج، قد وطئتُ دارك وأكلتُ من طعامك، وأنشدتُك فإن قتلتني بعد ذلك فأنتَ وما تراه، ثُمَّ عاد وأنشده:

ضَـــاقَتْ ثِيَـــابُ المُلْبِســـينَ وَفَضْـــلُهُمْ عَنِّـــي فَأَلْبِسْـــنِي فَثَوْبُـــكَ أَوْسَـــعُ

فنبذ إليه الخليفة رداءً كان في كتفه، وقال: ألبسه، لا لبستَ! فالتحف به، ثُمَّ قال: لا تُجاورني في بلدٍ، وانصرف آمناً حيث شئتَ"[1]

لقد أراد الشاعر باعتذاره الَّذي مُزِجَ بالمدح أن يتزلف إلى الخليفة؛ ليغفر له مناوأته العداء من قبل، لكنَّ الخليفة لم يثق في قوله وعدّه من نفاق القول؛ فلولا أنَّ الشاعر قد أعجزه الهرب، وسُدّتْ أقطار الأرض دونه؛ لَمَا لجأ إلى ظل الطاعة مُكْرهاً، ولهذا زهد الخليفة في شِعره، بل في جواره أيضاً ويلمح ذلك في قوله "لا تجاورني في بلدٍ" ولولا حُرمة المؤاكلة –الَّتي تقدسها العرب –لسفك دمه، وَلَمَا أعطاه الأمان حين قال "وانصرف آمناً حيث شئتَ"

[1] الأغاني،13/ 181- 178

سابعاً: الغزل:

اتصل ببلاطة شُعراء الغزل بشقيه عفيف وفاحش، وكان نصيبه من العفيف الإعجاب والطرب وشئ من التعليق والتوجيه. وأَمَّا نصيبه من الثاني فكان الرفض والغضب؛ لتجرده من القيم الخُلقية.

1- الغزل العفيف:

كان يُعْجِبُه التهالك في الغزل، ويُشفع ما يسمعه بتعليق يدل على الإعجاب، يُروى (أنَّ ليلى الأخيلية أنشدته قول توبة بن الحُميِّر فيها:

يقـــولُ رِجـــالٌ لَا يَضـــيرُكَ نَأيُهـــا بَلَـــى كُـــلُّ مـــا شَـــفَّ النُفـــوسَ يَضِـــيرُهَا

قال لها –معجباً – (عمرك الله أَنْ تذكريه))[1]

ومصدر الإعجاب في معاني البيت الغزلية، فالشاعر متضرر لِبُعْدِ حبيبته عنه مُسفهً أقوال القائلين: إنَّ البُعد لا يضر، وكان الشاعر يتعلق بآثار المحبوبة إذا رحلتْ عنه ذاكراً الطلل والدِّمن وغير ذلك ممَّا هو معروف، شاكياً ألم البُعد في أشعارٍ ترسل ماء العين وتهيج الفؤاد، قال يزيد بن مفرِّغ الحميري[2]

وَحَسْـــبُكَ مِـــنْ أَسْـــمَاءَ نَـــأْيٌ وأَنَّهـــا إِذَا ذُكِـــرَتْ هَاجَـــتْ فُـــؤاداً مُعَلَّقـــا

والأصل أنْ يَكِلَّ الرجلُ في إثر المرأة إذا وقع منها النأي والبُعد، لا أنْ تطلب المرأةُ الرجلَ البعيد، وللشُّعراء استثناء يتمثل في السفر والسجن، فالرجل السَّجين تَطْلُبُهُ المرأةُ زائرة وإنْ بَعُدَ ونأي عنها، قال يزيد بن مفرِّغ –وهو بالسجن –:[3]

زَارَتْ سُـليمى وَكـانَ الحَـيُّ قَـدْ رَقَـدا وَلَـمْ تَخَـفْ مِـنْ عَـدوٍّ كَاشِـحٍ رَصَـدا

لَقَـد وَفَـتْ لَـكَ سَـلمى بالَّـذي وَعَـدَتْ لكـنَّ عُقْبَـةَ لَـمْ يُـوفِ الَّـذي وَعَـدا[4]

وكذلك المسافر تزوره المرأةُ، قال زياد بن حمل[5] في ذلك:[6]

---

[1]أمالي القالي، 88

[2]دِيوان يزيد بن مفرِّغ الحميري، 176

[3]المصدر نفسه، 107

[4]عقبة: يبدو أنَّه أحد ممدوحي الشاعر مناه بوعد ثُمَّ مطله.

[5]زياد بن منقذ المرار العدوي التميمي، شاعر أُموي، اتصل ببني أُميَّة كانت أقامته في بطن الرّمة (من أودية نجد) ينظر الزركلي (ترتيب الأعلام على الأعوام) زُهير ظاظا، دار الأرقم، 1/ 166

[6]المُرشد إلى فهم أشعار العرب، 3/ 331

زَارَت رُوَيْقَــةُ شُــعْثاً بَعْــدَ مــا هَجَعُــوا لَــدَى نَواحِــلَ فــي أَرْســاغِهَا الخَــدَمُ[1]
فَقُمْــتُ للــزَّوْرِ مُرْتَاعــاً، فــأَرَّقني فَقلــتُ: أَهْــيَ سَــرَتْ، أَمْ عَــادَني حُلُــمُ
وَكَــانَ عَهْــدِي بِهــا والمَشْــيُ يَبْهَظُهــا مِــنَ القريــبِ وَمِنْهــا النَّــوْمُ والسَّــأَمُ[2]
وبالتَّكــالِيفِ تَــأْتي بَيْــتَ جَارِتهــا تَمْشِــي الهُــوينَى ومــا تَبْــدُو لَهَــا قَــدَمُ[3]

فقال مالك بن حريم[4] مُصوراً زيارة المحبوبة له ليلاً:[5]

تَــذَكّرْتُ سَــلْمَى والرِّكــابُ كَأَنَّهــا قَطــا وارِدٌ بَــيْنَ اللِّفــاظِ ولَعْلَعــا[6]
فَحَّــدثتُ نَفْسِــي أَنَّهــا أَوْ خَيالَهــا أتانــا عِشَــاءً حِــيْنَ قُمْنَــا لِنَهْجَعــا
فَقُلْــتُ لَهَــا: بيتِــي لَــدينا وَعرِّســي وَمَــا طَرَقَــتْ بَعْــدَ الرُّقــادِ لِتَنْفَعــا

استقبل الشاعر محبوبته بحفاوة وترحاب، لا يتسلل إليهما الهجر والصد، وذلك إذ يقول: (بيتي لدينا وعرِّسي) هذه لهفة الحبيب إلى حبيبته البعيدة المكان، لا البعيدة الفكر والخاطر، ولَمَّا كانتْ هي الفكر والخاطر صارت الأشياء كلها صورتها وطيفها وخيالها، ولذلك وقع الاستفهام منه لَمَّا زارته أهي أَمْ خيالها زاره؟ والحق إنَّ الزائر هو الخيال المتمثل في صورتها.

وللشُّعراء المساجين الَّذين ترامت المسافة بينهم وبين محبوباتهم، طريقة في توظيف أوآصر القرب للمحبوبة إذا حِيل أنْ تزوره، وهي الاكتفاء بمظاهر الطبيعة الَّتي تجمعهما، قال جحدر[7] وهو في سِجن الحجَّاج:[8]

ألــيس اللَّيــلُ يَجْمــعُ أُمَّ عَمــرو وإِيَّانــا فَــذاكَ لَنَــا تــدانِ
نَعْــمَ وتــرى الهِــلالَ كَمَــا أراهُ ويعلوهــا النَّهــارُ كَمَــا عَلانــي
فَمْــا بــين التفــرُّقِ غَيْــرَ سَــبْعٍ بَقِــيْنَ مِــنْ المُحــرّمِ أوْ ثمــانِ

---

[1]رويقة: حبيبته. شعثاً: أي: قوماً غبرا. النواحل: الإبل الضامرة: في أرساغها الخدم: أي: القيود.
[2]يبهظها: يعييها قطع المسافة القريبة.
[3]تمشي الهوينا: أي: تمشي مشياً هيناً. وما يبدو لها قدم: أي: لا تجر أذيالها.
[4]مالك بن حريم بن مالك الهمداني: شاعر فحل مُخضرم جاهلي إسلامي، لِصٌّ مشهور ينظر، الأصمعيات، 72، دِيوان اللُّصوص، 2/ 122
[5]المفضليات، 57، المُرشد، 3/ 176
[6]اللفاظ ولعلعا: موضعان.
[7]جحدر بن مالك، المشهور بجحدر اللِّص، رجل من بني حنيفة باليمامة، أحد شعراء الدَّولة الأُمويَّة، كان شاعراً لَسِناً فاتكاً. قبض عليه الحجَّاج بن يوسف لكثرة غاراته وفتك به، وله أشعار في سِجن الحجَّاج، ينظر ديوان اللُّصوص 1/ 143، 144
[8]المُرشد إلى فهم أشعار العرب، 3/ 188

إنَّ اللَّيل يجمعه بها، والنهار يعلوهما معاً، ويشتركان في النظر إلى الهلال كل ذلك مظهر من مظاهر القرب.

لقد توافقتْ الأشعار على أنَّ القرب خير من البُعد، وهذا ما نطق به الشاعر النجدي[1] إذ يقول:[2]

بِكُلٍّ تَدَاوَيْنا فَلَمْ يُشْفَ مَابِنَا عَلَى أَنَّ قُرْبَ الدَّارِ خَيْرٌ مِنَ البُعْدِ

ولذلك أُعْجِبَ عبد الملك ببيت توبة بن الحُمَيِّر، لأَنَّه يروم القرب وينبذ البُعد.

وكان تعليقه بجملة دعائية (عمرك الله أن تذكريه) تحمل هذه الجملة في طياتها الإعجاب والرضى، وكان الشُّعراء يَسْتَدعونها في أبياتهم إذا غمره الشعور نفسه، قال عمر بن أبي ربيعة:[3]

أَكَمَا يَنْعَتُني تُبْصِرْنَني عَمْرَكُنَّ اللهَ أَمْ لا يَقْتَصِدْ

وكان يطلب من الوافد عليه أن يُسْمعه بعض ما يحفظ إذا كان من شُعراء الغزل العفيف، أو ما يُتوهم أَنَّه غزل، يروى أنَّه قال لأعرابي: (أخبرني عَنْ ليلى الَّتي تقول فيها:

وَأَبْكِي فَلَا لَيْلَى بَكَتْ مِنْ صَبَابَةٍ إِلَيَّ وَلَا لَيْلَى لِذي الوُدِ تَبْذُلُ

والله لئن كانتْ ليلى حُرَّةً، لَأزوجنكها، ولئن كانتْ أمةً، لأبتاعنها لك بما بلغت فقال الأعرابي: كلا يا أمير المؤمنين، والله ما كنتُ لأذكر حُرمة حُرٍّ أبداً، ولا أمته، والله ما ليلى إلَّا قوسي هذه، سميتها ليلى، لأشبب بها، وإنَّ الشاعر لا يُسْتطاب إذا لم يُشبب. فقال عبد الملك: ذلك والله أظرف)[4]

نعم إنَّ الشِّعر يُسْتَطاب إذا اتصل بذكر النِّساء يقول ابن قتيبة: "إنَّ النسيب قريب من النفوس، لا ئط بالقلوب، لِمَا جعل اللهُ في تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النِّساء، فليس يكان أحدٌ يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب، وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام..."[5]

---

[1]عبد الله بن الدُّمَيْنَةَ الخَثْعمِيُّ، شاعر أُموي، شِعره عذري مثل جميل وقيس وكُثيِّر، مات غيلة، اغالته أحد بني سلول؛ لأَنَّه قتل منهم رجلاً كان متهماً بحب أميمة زوج ابن الدِّمنة، ينظِر، دِيوان عبد الله بن الدِّمنة، شرحه :مُحمد الهاشمي البغدادي، مطبعة المناره مصر، ط1، 1918م ص،2، 3، 4

[2]حماسة أبي تمام، 248

[3]دِيوان عمر بن أبي ربيعة، 106

[4]الأغاني، 3/ 301

[5]الشِّعر والشُّعراء، 1/ 74، 75

ويسأل أحيانا شعراء الغزل عن مَنْ هو أغزل منهم، روى صاحب زهر الآداب (أَنَّ عبد الملك بن مروان سأل كُثيِّر يوماً، هل رأيتَ أعشق منك؟ قال: نعم، بينما أنا أسير في بعض الفلوات إذ أنا برجل حبائله ممدودة فصاد ظبيةً، فأسرع إليها فحلها وأطلقها، فقلتُ: ما حملك على هذا؟ قال: دخلتني لها رقةٌ لشبهها بليلى، وأنشا يقول:[1]

أيـــا شِـــبْهَ لَيْلَـــى لَا تُرَاعِـــي فَـــإِنَّني لـــكِ اليَـــوْمَ مِـــنْ وَحْشِـــيَّةٍ لَصَـــدِيقُ
أقـــولُ وقَـــدْ أَطْلقتُهـــا مِـــنْ وِثاقِهـــا لأنـــتَ لِلَيْلَـــى مـــا حييـــتُ طَلِيـــقُ

يدل هذا الخبر على تعطش الخليفة لغرائب الأخبار في هذا الباب، وتيمم من اكتوى بحرقة الحب. ولذلك لم يسأل علماء الأخبار والأدب ولم يكتفِ الخليفة بالخبر هذا، بل تاقتْ نفسه لمعرفة المزيد من العجائب والغرائب، فطفق يسأله عَنْ أعجب خبره مع عزَّة؟ فقال: (يا أمير المؤمنين حججتُ سنةً وحجّ زوج عزَّة معها، ولم يعلم أحدنا بصاحبه، فَلَمَّا كُنّا ببعض الطريق أمرها أنْ تجلب سمناً، فدخلتْ الخيامَ خيمة خيمة حَتَّى أتتْ إلى خيمتي –وهي لا تعلم – وكنتُ أُبْرِي سهماً، فَلَمَّا رأيتُها جعلتُ أُبْرِي لحمي، وأنا لا أشعر فأسرعتْ إليّ ومسحتْ الدمَ بثوبها، وأعطيتُها نحى سمنٍ، فَلَمَّا ذهبتْ إلى زوجها ورأى الدمَ سألها عن الخبر فكاتمته، حَتَّى حلف عليها لتصدقنّهُ، فصدقته فضربها، وحلف عليها لتشتمني في وجهي، فوقفتْ عليّ وقالتْ –وهي تبكي –ثُمَّ انصرفا، وقلتُ في ذلك:[2]

يُكلّفهـــا الغَيـــرانُ شَـــتْمِي وَمَـــا بِهَـــا هَـــــواني وَلَكِـــــنْ لِلحليـــــلِ اسْـــــتَزَلَّتِ
هَنِيئـــــاً مَرِيئـــــاً غَيْـــــرَ دَاءٍ مُخـــــامِرٍ لِعَـــزَّةَ مِـــنَ أَعْرَاضِـــنَا مَـــا اسْـــتحلَّتِ
أَســـيئ بِنَـــا أَوْ أَحْسِـــني لَا مَلُوْمـــةً لـــــــدينا وَلا مَقْلِيّـــــــةً إِنْ تَقَلَّـــــــتِ

قِيل إِنَّ عبد الملك لَمَّا سَمِعَ قوله: "أسيي بنا أو أحسني لا ملومة... قال: لو كان هذا في وصف الدُّنيا لكان أجود.

ولَمَّا سَمِعَ قوله –في القصيدة نفسها –:

فقلـــتُ لَهَـــا يَـــاعَزُّ كَـــلُّ مُصـــيبةٍ إِذا وُطِّنـــتْ يَوْمـــاً لَهَـــا الـــنَّفسُ ذَلَّـــتِ

قال: لوكان هذا في التقوى والزهد لكان أشعر النَّاس.

---

[1] زهر الآداب، شرح صلاح الدِّين الهواري، 2/ 79
[2] العُمدة، 2/ 230 الأغاني، 8/ 37 الخِزانة، 5/ 216

ولَمَّا سمع قول القُطامي يصف الإبل:

يَمْشِـــينَ رَهْـــواً فَـــلَا الأَعْجَـــازُ خَاذِلَـــةٌ وَلَا الصُّـــدُورُ عَلَـــى الأَعْجَـــازِ تَتْكِـــلُ[1]

قال: لو كان في وصف النِّساء لكان أبلغ وأحسن"[2]

إنَّ البيت الأوَّل لو كان في وصف الدُّنيا لم يُعبِّر عنها وقع الحاضر على الحافر، فحال الدُّنيا يختلف من شخص لأخر، بين مُحِبٍ ومُبغضٍ، وليست مرضيّةً على كلِّ حال كما قال عبد الملك، والحق إنَّه يتجانس مع القصيدة ويتواخى مع أبياتها في وصف حال كُثيِّر مع عزَّة ورضاه التام عنها، وإن وقع منها ما وقع.

لقد كان عبد الملك مُعْجَباً بأشعار كُثيِّر وأخباره مع عَزَّة لِمَا فيها من تهالك ووجد.

وكان يسأل عَزَّة عَنْ أبيات كُثيِّر فيها وذلك لَمَّا وفدتْ عليه، فقال لها: (أنتِ عزَّة كُثيِّر؟ قالتْ: نعم، قال لها: أتروين قول كُثيِّر:

وَقَـــدْ زَعَمَـــتْ أَنِّـــي تغيّـــرتُ بَعْـــدَهَا وَمَـــنْ ذَا الَّـــذي يـــا عـــزَّ لا يتغيّـــرُ

قالت: لا أروى هذا، ولكني أروي قوله:[3]

كَـــأَنِّي أُنَـــادِي صَـــخْرَةً حِـــيْن أَعْرضَـــتْ مِـــنَ الصُّـــمِّ لَـــوْ تَمْشِـــي بِهَـــا العُصْـــمُ زلَّـــتِ

صَـــــفوحاً فَمَـــــا تَلْقَـــــاكَ إِلَّا بخِيْلَـــــةً فَمِـــــن مَـــــلَّ مِنهـــــا ذَلِـــــكَ الوصـــــلَ مَلَّـــــتِ

اتهمته بتغير الحال وتبدله معها، وهو دأب النِّساء مع الرجال، قال عمر بن أبي ربيعة:[4]

لَـــئِنْ كـــانَ إِيّـــاهُ لَقَـــدْ حَـــالَ بَعْـــدَنا عَـــنِ الْعَهْـــدِ وَالإِنْسَـــانُ قَـــدْ يَتَغَيَّـــرُ

لقد لَخصت عزَّة صفة المرأة مع الرجل من إعراض وامتناع وبخل بالوصل، وهي صفات الحُرّة الحيية، الّتي يركض وراءها الرجلُ المُحِب فأحسنتْ له الجواب في انتقائها للبيتين السابقين.

قال يسأل بثينة صاحبة جميل قائلاً: كيف كان في عشقه؟ قالتْ: كان كما قال:[5]

---

[1] الرهو: الساكن قال تعالى (وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ) وقِيل الكثير الحركة.

[2] المُوشح، 233

[3] الخِزانة، 5/ 222، 223

[4] دِيوان عمر بن أبي ربيعة، 124

[5] الإبشيهي: شهاب الدِّين محمد بن أحمد (المُستطرف في كل فن مُستظرف) تحقيق: مُحمد خير طعمه، دار المعارف بيروت، ط5، 2008م، 2/ 350

لَا والَّـــذي تَسْـــجُدُ الجِبـــاهُ لَـــهُ مَـــا بـــي بمَـــا تَحْـــتَ ثَوْبِهَـــا خَبَـــرُ
وَلَا بقيهـــــا وَلَا هَمَمْـــــتُ بِـــــهِ مَـــا كـــانَ إِلَّا الحـــديثُ والنظـــرُ

أراد عبد الملك من هذا السؤال معرفة عشقه عفيف أَمْ فاحش؟ لأنَّه كان يُحبُ الغزل العفيف ويكره الفاحش كما سيأتي إن شاء الله.

نقده لمعاني الغزل العفيف:

للخليفة أخبار في تقويمه لمعاني الغزل العفيف –بما فتح الله عليه –ومن هذا ما رواه الأقيشر: "أنَّه دخل على عبد الملك فذكر بيتَ نُصيبٍ:

أُهـــيمُ بِدَعْـــدٍ مَاحَيْيـــتُ فـــإنْ أَمُـــتْ فَوَاحَزنـــاً مَـــنْ ذَا يَهِـــيمُ بِهَـــا بَعْـــدِي

والله لقد أساء قائل هذا البيتِ. فقال له عبد الملك: فما كنتَ تقول؟ قال: كنتُ أقول:

تُحِـــبُّكُمُ نَفْسِـــي حَيَـــاتِي فـــإنْ أَمُـــتْ أُوْكِـــل بِدَعْـــدٍ مَـــنْ يَهـــيمُ بِهَـــا بَعْـــدي

فقال عبد الملك: فأنتَ والله أقبح قولاً، وأقل بصراً، حين توكل بها بعدك. قِيل ما كنتَ أنتَ قائلاً يا أمير المؤمنين؟ قال: كنتُ أقول:

تُحِـــبكُمُ نَفسِـــي حَيَـــاتِي فَـــإنْ أَمُـــتْ فَـــلَا صَـــلُحَتْ دَعْـــدٌ لِـــذي خُلَّـــةٍ بَعْـــدِي

فقال من حضر: والله لأنتَ أجود الثلاثة قولاً، وأحسنهم بالشِّعر عِلماً يا أمير المؤمنين"[1]

إنَّ المُحِبَّ يغار على زوجته،ـ ولا يتمنى أنْ يتصل حبلها برجل سواه، وإنْ أَرِم وهلك ولا تجد هذه الغيرة إلَّا عند عربي أو بدوي، وهذا الشِّماخ بن ضرار لا يود أنْ تتزوج محبوبته بأحدٍ غيره وإنْ لم يتزوجها هو، قائلاً:[2]

يَقِـــرُّ بعينـــي أَنْ أَنَبَّـــأَ أَنّهـــا وَإِنْ لَـــمْ أَنَلْهَـــا أَيِّـــمٌ لَـــمْ تَـــزَوَّجِ
وَكنْـــتُ إِذَا لا قيتُهـــا كَـــانَ سِـــرُّنا وَمَـــا بَيننـــا مَثْـــلَ الشِـــواءِ المُلَهْـــوَجِ[3]

[1]المُوشح، 298 الشِّعر والشُّعراء، 1/ 412
[2]البيان والتبين، 1/ 281
[3]الملهوج: المعجل الَّذي لم ينتظر به النضج، يريد أنَّه كان على عجلة من خوف الرقباء.

وكان هدبة بن الحشرم بدوي شديد الغيرة على زوجته، فَلَمَّا دنى من الموت وهو في قيده، نظر إلى زوجته وخشى أنْ تُنْكَحَ بعده، وكانتْ شديدة الجمال، فهوت إلى مُدْيةٍ فجدعتْ أنفها وشفتها، ونظرتْ إليه وقالتْ: أبعد هذا يكون نِكاح؟! ورسف في قيده، وقال: الآن طاب الموت)[1]

كان يبغض الشِّعر الَّذي يخالف الطبع، قال لكُثيِّر: (أنشدني بعض ما قلته في عَزَّة فأنشده، إلى أن قال:

هَمَمْتُ وَهَمّتْ ثُمَّ هَابتْ وَهِبْتُهَا حَياءً وَمِثلي بالحياءِ حقيقُ

فقال عبد الملك: أما والله لولا بيت أنشدتنيه قبل هذا لحرمتك الجائزة، قال: ولم يأمير المؤمنين؟ قال: لأنَّك أشركتها معك في الهيبة ثُمَّ استأثرتَ بالحياء دونها. قال أي بيت عفوتَ عنِّي به يا أمير المؤمنين؟ قال: قولك:[2]

دَعُوني لَا أُريدُ بِهَا سِوَاهَا دَعُوني هَائِماً فِيمنْ يَهِيْمُ

يرى عبد الملك أَن يضرب الشاعر لمحبوبته سهماً من الحياء، فهو رأس الأمر عندهُنَّ، وجبلهنّ الله عليه، فكيف يبخسها حقها؟!

ونجده في موضع آخر –ينقم على عمر بن ربيعة تكاسله في طِلاب المحبوبة قائلاً: "أأنتَ القائل؟:

أَأَتْرُكُ لَيْلَى لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا سِوَى غدوةٍ إِنِّي إِذاً لَصَبُورُ

قال: نعم، قال: بئس المحبُ أنتَ: تركتها وبينك وبينها غدوة! قال: يا أمير المؤمنين إنَّها من غدوات سُليمان، غدوها شهر ورواحها شهر"[3] انظر إلى بداهة عمر في الجواب، وإن كان الخليفة على حق في مذهبه النَّقدي. فالإسراع إلى المحبوبة هو مذهب العذريين، لا التباطؤ عنها.

للخليفة طريقة خاصة يربي بها بنيه إزاء الغزل العفيف، وهي استحسانه ونبذه لفاحشه، قال لبنيه: "لينشدني كل رجل منكم أرق بيت قالته العرب، ثُمَّ لم يفحش. قال الوليد:

مَا مَرْكِبُ وَرُكُوْبُ الخيلِ يُعْجِبُنِي كَمركِبٍ بَيْنَ دُمْلُوجٍ وَخَلْخَالِ[4]

---

[1]يحيى الجبوري (شِعر هُدبة بن الخشرم) دار القلم الكويت، ط2، 1986م 19
[2]العِقد الفريد، 6/ 189
[3]الأغاني، 18/ 133، عبد الملك بن مروان النَّاقد الأديب، 221
[4]الدملوج المِعْضَدُ مِنْ الحليُّ, الخلخال: حلية من ذهب أو فضة كالسوار تلبسها المرأة في رجلها.

فقال عبد الملك: وهل يكون من الشِّعر أرق من هذا؟! هات يا سُليمان، فقال:

حَبَّـــذَا رَجْعُهَـــا إِليهـــا يَـــدَيْها فـــي يَـــدَيْ دِرْعِهـــا تَحُـــلُّ الإِزارَ

فقال: لم تصب، هات يا مَسْلَمة، فأنشد قول امرئ القيس:

وَمَـــا ذَرَفَـــتْ عَيْنَـــاكِ إِلَّا لِتَضْـــرِبي بِسَـــهْمَيْكِ فِـــي أَعْشَـــارِ قَلْـــبٍ مُقَتَّـــلِ

فقال عبد الملك: كذب امرؤ القيس، إذ ذرفت عيناها بالوجد فما بقى إلَّا اللقاء، ثُمَّ ينبغي للعاشق أن يرتضي منها الجفاء ويكسوها المودة. ثُمَّ أمهلهم ثلاثة أيام، وبينما سُليمان في موكب، إذا هو بأعرابي يسوق إبله وينشد:

لَـوْ حُـزَّ بِالسَّـيْفِ رَأسِـي فِـي مَوَدَّتِهـا لَمَـــالَ يَهْـــوِي سَـــرِيعاً نَحْوَهَـــا رأسِـــي

فجاءه سُليمان وأخبره الخبر، فقال أبوه: أحسنتَ، سل حاجتك ولا تنسى صاحبك"[1] أخطأ سُليمان في بادئ أمره إذ أتى ببيت فاحش، وفطن لذلك في المرة الثانية فجبّ الخلل ببيت عذري رقيق، نال إعجاب الخليفة لموافقته شرطه.

وفي مجلس آخر مع بنيه وجاريته يقع السؤال نفسه، "أيُّ بيت قالته العرب أرق؟ قال: الوليد قول جرير:

إِنَّ العُيُـونَ الَّتِـي فِـي طَرَفِهـا حَـورٌ قَتَلْنَنَـــا ثُـــمَّ لَـــمْ يُحْـــيِنَ قَتْلانَـــا

قال سليمان: قول عمر بن أبي ربيعة:

حَبَّـــذا رَجْعُهَـــا إِلَيْهـــا يَـــدَيْها فـــي يَـــدَيْ دِرعِهَـــا تَحُـــلُّ الإِزَارَ

قالتْ الجارية قول حسَّان بن ثابت:

لَـوْ يَـدب الحَـوْلُ مِـنْ وَلَـدِ الـذرِ عَليهـــا لأَنـــدبتهَا الكُلُـــوْمُ[2]

فقال عبد الملك: أحسنتِ، وما نرى شيئاً في الإحسان إليك من ردِّك إلى أهلك. فأعظم كسوتها، وأحسن صلتها"[3] مدح حسَّان صاحبه بالرقة الَّتي لا مثيل لها، فالنمل لو سار على جسمها لأحدث فيه جراحاً، نعم إنَّه أرق بيت، لا فحش فيه ولا تقصير.

---

[1] البداية والنهاية، 9/ 178

[2] الكُلوم: الجُروح.

[3] الحُصري (زهر الآداب وثمر الألباب) 2/ 186

وله نقد يبعد فيه عن منحى العرب في نعت صفات المرأة الحُرّة الَّتي تتيه بدلها على الرجل، قال عبد الملك لجلسائه: (أعلم أنَّ الاحوص أحمق، لقوله:

فَمَـــا بَيْضَـــةٌ بَـــاْتَ الظَّلِـــيمُ يَحُفُّهَـــا وَيَجْعَلُهـــا بَـــيْنَ الجَنَـــاحِ وحَوْصَـــلَهْ
بأَحْسَـــنَ مِنْهَـــا يَـــوْمَ قَالَـــتْ تَـــدلَّلاً تَبَـــدَّلْ خَلِيلِـــي، إِنَّنِـــي مُتَبَدِّلَـــهْ

فما أعجبه وهي تقول هذه المقالة)[1]

درج الشُّعراء أن يُشبهوا المرأة بالبيضة الَّتي يحميها الظَّليم، والجامع بين المرأة والبيضة بياض اللَّون وشدة الحماية والرِّعاية، وإنَّ أوَّل من طرق هذا التشبيه امرؤ القيس إذ يقول:[2]

وَبَيضَـــةِ خِـــدرٍ لا يُـــرَامُ خِبَاؤُهَـــا تَمَتَّعْـــتُ مِـــنْ لَهْـــوٍ بهـــا غَيْـــرَ مُعْجَـــلِ

وأحسب أَنَّ الأحوص قد نظر إلى قول سحيم عبد بني الحسحاح إذ يقول:[3]

فَمَـــا بَيْضَـــةٌ بَـــاتَ الظَلِـــيمَ يَحُفُّهـــا وَيَرْفَـــعُ عَنهـــا جُؤجُـــواً مُتَجافيـــا[4]
ويَجْعَلُهـــا بَـــيْنَ الجَنـــاحِ ودَفِّـــهِ ويَفرِشُـــها وَحْفـــاً مِـــنَ الـــزِّفِّ وافيـــا[5]
بِأَحْسَـــنَ منهـــا يَـــوْمَ قَالَـــتْ أَرَاحِـــلٌ مَـــعَ الرَّكْـــبِ أَمْ ثَـــاوٍ لَـــدَيْنَا لَيَالِيـــا

إنَّ الحُكم على الأحوصِ بالحماقةِ –كما ذهب عبد الملك –يبعد عن الحقيقة؛ لأَنَّ الشاعر عزا هذا الإعراض والتبدل الَّذي ظهر منها إلى الدلال حيث قال: (تدللاً) والمرأة الحُرَّة تتدلل على الرجل وإن كانتْ ترغب فيه، وهي صِفةٌ تُمْدَحُ بها المرأة الحُرَّة، قال حسَّان بن ثابت:[6]

دِيَـــارُ الَّتَـــي رَاقَ الفُـــؤادَ دَلَالُهَـــا وَعَـــزَّ عَلَيْنَـــا أَنْ تَجُـــودَ بِنَائِـــلِ

قال العبَّاس بن مرداس:[7]

لَيَـــالِيَ سَـــلْمَى لَا أَرَى مِثْـــلَ دَلِّهَـــا دَلَالاً، وأُنْسَـــاً يُهْـــبِطَ العُصْـــمَ آنِســـا

قال النَّابغة الذُّبياني:[8]

---

[1]الصناعتين، 199 شِعر الأحوص الأنصاري، 221
[2]شرح المُعلقات السبع، لأبي عبد الله الحسين الزوزني، 16
[3]ديوان سُحيم عبد بني الحسحاس، 18
[4]الظَّليم: ذكر النعام. الجؤجؤ: الصدر.
[5]الزِّفّ: الريش. الوحف: الكثير الأسود.
[6]شرح دِيوان حسَّان بن ثابت، البرقوقي، 228
[7]دِيوان العبَّاس بن مِرداس، تحقيق: يحيى الجبوري، مُؤسسة الرسالة، 1991م ص 91
[8]المُرشد إلى فهم أشعار العرب، 3/ 328

أَتاركـــــــةً تَـــــــدَلُّلَهأ قَطـــــــام وَضَـــــــنًّاً بِالتَّحيَّـــــــةِ وَالكَـــــــلامِ
فَـــإن كَـــانَ الـــدَّلال فَـــلَا تَلَجِّـــي وَإِن كَـــــانَ الـــــوداع فبالسَّـــــلامِ

قال أبو ذؤيب الهذلي:[1]

وَمَـــا أمُّ خِشْـــفٍ بالعَلايَـــةِ تَرْتَعِـــي وَتَرْمُـــقُ أَحَيْانَـــاً مُخاتَلَـــةَ البُخْـــلِ
بأحســـنَ مِنْهَـــا يَـــوْمَ قَالـــتْ تَـــدَلُّلاً أَتَصْـــرِمُ حَبْلِـــي أَمْ تَـــدومُ عَلـــى وَصْـــلِي

ولو أنَّ الأحوص استبدل كلمة (تدللاً) بكلمة أخرى لا ينكسر بها الوزن وتدل على تزمر المرأة من الرجل كـ(تفركاً، تضجراً، تكرهاً...) لكان لنقده وجاهة، أما وإنَّها قالتْ ذلك على وجه الدلال فلا عيب فيه.

وكان يُعِدُ الجوائز لأحسن الشُّعراء غزلاً وأبدعهم صوراً، مُشجعاً لهم على نظم الشِّعر في هذا الغرض، "حكى الهيثم عن عدى أَنَّ عبد الملك بعث إلى عمر بن أبي ربيعة، وإلى جميل بن معمر، وإلى كُثيِّر عَزَّة، وأعدَّ لهم جائزة فقال: لينشد كل واحدٍ منكم ثلاثة أبيات، فأيكم كان أغزل شِعراً فله الجائزة، فقال عمر بن أبي ربيعة:

فَيَالَيْـــتَ أَنَّـــي حِـــيْنَ تَـــدْنُو مَنِيَّتِـــي شَـــمَمْتُ الَّـــذي مَـــا بَـــيْنَ عَيْنَيْـــكِ وَالْفَـــمِ
وَلَيْـــتَ طَهُـــورِي كَـــانَ رِيقُـــكِ كُلَّـــهُ وَلَيْـــتَ حَنُـــوطِي مِـــنْ مُشَاشِـــكِ وَالـــدَّمِ
وَلَيْـــتَ سُـــلَيْمَي فِـــي المْنَـــامِ ضَـــجِيعَتِي لَـــدَى الجنَّـــةِ الخَضْـــراءِ أَوْ فِـــي جَهـــنَّمِ

فقال جميل:

حَلَفْـــتُ يَمِينـــاً يَـــا بُثَيْنَـــةُ صَـــادِقاً فـــإِنْ كُنْـــتُ فِيهَـــا كَاذِبـــاً فَعَمِيـــتُ
حَلَفْـــتُ لَهَـــا بالْبُـــدْنِ تُـــدْمِي نُحُورَهَـــا لَقَـــدَ شَـــقِيَتْ نَفْسِـــي بِكُـــمْ وَعَيِيـــتُ
وَلَـــوْ أَنَّ رَاقِـــي الْمَـــوتِ يَرْقِـــي جَنَـــازَتِي بِمَنْطِقِهَـــا فِـــي النّـــاطِقِينَ حَيِيـــتُ

فقال كُثيِّر عَزَّة:

بِـــأَبِي وَأُمِّـــي أَنْـــتِ مِـــنْ مَعْشُـــوَقَةٍ ظَفِـــرَ العَـــدُوُّ بِهَـــا فَغَيَّـــرَ حَالَهَـــا
وَمَشَـــى إِلَـــيَّ بِعَيـــبِ عـــزَّةَ نِسْـــوَةٌ جَعَـــلَ المَلِيـــكُ خُـــدُودَهُنَّ نِعَالَهَـــا

[1]شرح أشعار الهذليين، صنعه أبي سعيد الحسن السكري، حققه: عبد الستار فراج، مكتبة دار العروبة، 1/ 88

وَلَـو أَنَّ عَـزَّةَ خَاصـمتْ شَـمْسَ الضَّـحَى فِــي الحُسْــنِ عِنْــدَ مُوَقَــفِ لَقَضــى لَهَــا

فقال عبد الملك: خذ النَاقة يا صاحب جهنَّم"[1]

لقد جنح الجميع للمبالغة، لكنَّها عند عمر أشد من صاحبيه ولا أحد يتمنى مُضاجعة المحبوبة في النَّار، الَّتي هي إحدى خيرات عمر، وأرى أنَّ أبياته قد مُزِجت بشيءٍ من الغزل الصريح المادي المتمثل في (شممت الَّذي ما بين عينيك والفم، وريقها العذب الَّذي تمنى أن يكون طهوره وحنوطه، والمضاجعة الَّتي تمناها في جنَّة أو نار)

وجاء جميل مُحسناً إحساناً لا يرتقي إلى منزلة كُثيِّر، والَّذي أنقص من منزلته ذكره الشقاء في طِلابها، والمُحِب الحقيقي يتلذذ بهذا الشقاء فكل هذا الحلف ليبين لها شقاءه في طِلابها، وأحسن في بيته الثالث إحساناً غفر ما قبله من ضعف، وأحسب أنَّ المُبالغة الَّتي أتى بها عمر من تمنيه المحبوبة وإن كانتْ في مكان ضنك لا يتمناه أحد دليل على شدّة حبه لها، ممَّا جعل الخليفة يُفضِّله على الثلاثة قائلاً (خذ الناقة يا صاحب جهنَّم) ويغفر له ولوغه في الغزل المادي الَّذي كان الخليفة يكرهه ولا يحب أن تصافح عباراته أذنه، والباحث يُوافق الخليفة في تفضيله لعمر على صاحبيه، وتأتي في المرتبة الثانية أبيات كُثيِّر، فهو يتمسك بمحبوبته رغم إعراضها عنه، ويرى هذا الإعراض من تحريض العدو المتمثل في (الوشاة، والنِّسوة اللائي يُخببنها إليه) قد جمع الشاعر بين محرضين، محرض من جهتها نجح في تغير حالها، وعدو من جهته قام بتحريضه وعيبها له وهنّ النِّسوة اللائي فشلن في كيدهنَّ، بل جعل خدودهنّ لها نعلاً، رافعاً من قدرها بين النِّساء، وكان الشُّعراء –منذ أمد بعيد –يضيقون ذرعاً من العدو الَّذي يُخبِبُ المرأة على زوجها قال الجُميح[2] شاكياً من هذا العدو:[3]

أَمْسَــتْ أُمَامَــةُ صُــمْتا مــا تُكلِّمنــا مجنونــــة أَمْ أَحَسَّــــتْ أَهْــــلَ خَــــرَّوبِ[4]

مَــرّتْ بِراكِــبِ مَلْهُــوزٍ فقــال لَهَــا: ضُــــرِّي الجُمْــــيحَ ومُسِّــــيهِ بتعــــذيبِ[5]

---

[1]ذيل الأمالي، 67 تاريخ دِمشق، 45/ 98، 99

[2]الجميح هو لقبه، واسمه: منقذ بن الطماح بن قيس، أحد فرسان الجاهلية يوم جبلة، وكان من فرسان بني أسد، ينظر (المفضليات) 34

[3]المفضليات، 34، خِزانة الأدب، 4/ 296

[4]صمتاً: مصدر صمت. خروب: موضع. أمامة: اسم زوجته، يقول: مالها أمست صامتة أخالطها جنون أم أفسدها أهلي عليّ؟

[5]الملهوز: صِفة للجمل الموسوم في أصل لحييه. يقول: لقد أفسد هذه المرأة رجل يركب جملاً موسوماً في لحييه قال لها: ضرِّي الجميع ليتزوجها هو من بعده.

وَلــو أصــابتْ لقالــتْ: وهــي صــادِقةٌ إنّ الرِّياضَـــــةَ لا تُنْصِـــــبْكَ للشِّـــــيبِ[1]

ثُمَّ إنَّ كُثيِّراً، جعلها تفضل المظاهر الطبيعية، الَّتي توطأ العرب على تشبيه جمال المرأة بها وهي (الشمس) في أبياته وهي أجمل من الشَّمس، قد جمع كُثيِّر بين: الفداء والحالة النَّفسية والمُفاضلة بين الطبيعة والبشر، فأجاد وأحسن.

2- الغزل الفاحش

هذا الضَّرب من الغزل لم يك الخليفة به حفياً، وطفق يَسْتنكره يَسْتهجنه وفقا لمعانيه الخُلقية ومراميه المنسلخة عن الحياء، ومن قَبِيل هذا النَّقد قوله لعمر بن أبي ربيعة -لَمَّا لقيه في طريق حجّة وحياه -: (لا حياك الله يا فاسق) ألستَ القائل:[2]

وَلَـــــوْلا أَنْ تُعَنِّفنـــــي قُـــــرَيْشٌ مَقـــالَ النَّاصِـــحِ الْأَدْنَـــى الشَّـــقيقِ

لَقُلْـــــتُ، إذا الْتَقَيْنَـــــا قَبِّلينـــــي وَلَـــوْ كُنَّـــا عَلَـــى ظَهْـــرِ الطَّرِيـــقِ

إنَّ الَّذي حجز الشاعر عن التقبيل مخافة التقليظ والتعنيف الَّذي يجده من قريش، ولولا ذاك لنال من محبوبته مبتقاه ولو كان على قارعة الطريق، هذا المعني لم يرق الخليفة لِمَا فيه من التعهر ومخافة النَّاس، لا مخافة الله، ولو كان الحاجز مخافة الله لكان عند الخليفة أوقع.

وعاب على عمر -في موضع آخر -تهتكه بالنِّساء قائلاً: "لقد علمت قريش أنَّك أطولها صبوة وأبعدها توبة، ويحك، أمالك في نساء قريش ما يكفيك من نساء بني عبد مناف، ألستَ القائل؟:

نَظَـرْتُ إِلَيْهـا بالمُحَصَّـبِ مِـنْ مِنـىً وَلـــي نَظَـــرٌ لَـــوْلَا التَحـــرُّجُ عـــازِمُ[3]

فَقُلْـتُ: أَشَـمْسٌ أَمْ مَصـابيحُ رَاهِـبٍ بَـدَتْ لَـكَ خَلْـفَ السِّـجْفِ أَمْ أَنْـتَ حَـالِمُ[4]

بَعيـدةُ مُهْـوَى القُـرْطِ إِمَّـا لِنَوْفـلٍ أَبُوْهَـا وَإِمَّـا عَبْـدُ شَـمْسٍ وَهَاشِـمُ[5]

فقال: يا أمير المؤمنين، فإنَّ بعد هذا:

طَلَـبْنَ الهـوى حَتَّـى إِذَا مَـا وجدنـه نَـزَعْنَ وَهُـنَّ المُسْـلِماتُ الكـرائِمُ

---

[1]الرِّياضة: التذلل والمعالجة. يقول: ولو أصابتْ لقالتْ لمحرضها: لا تُتعب نفسك في رياضة الكلام واللسان، فإنَّ له من التجربة ما تمنعه من سماع هذا الكلام.

[2]شرح دِيوان عمر بن أبي ربيعة، 336

[3]المحصَّب: مكان من الجمار. التحرج: ارتكاب الذنب. عازم: مصمِّم.

[4]السِّجف: الأستار.

[5]مهوى القرط: المسافة بين شحمة الأذن والكتف، كناية عن طول العنق. القرط: ما يعلق على الأذن

فاستحيا منه عبد الملك، وقضى حوائجه ووصله)[1]

إنَّ الَّذي أوقع الخليفة في هذا الحرج نقده الجزئي لبعض أبيات القصيدة دون أن يستوعب جميع أبياتها ومعانيها، فكان الجواب بنفي الهوى في البيت الرابع، وبهذا تخلص الشاعر من التُهمة الَّتي ظنها الخليفة.

لم يك استنكار عبد الملك لهذا الضَّرب مِن الغزل حِكراً على عمر بن أبي ربيعة وحده، بل كان لنُصيب نصيبٌ منه لَمَّا أنشده:

وَمُضْمَرِ الكَشْحِ يَطْوِيهِ الضَّجِيعُ بِهِ ... طَيَّ الحَمائِلِ لَا جَافٍ وَلَا فَقِرُ
وَذِي رَوَادِفَ لَا يُلْفَى الإِزارُ بِهَا ... يُلْوَى وَلَوْ كَانَ سَبْعاً حَيْنَ يَأتزِرُ

فغضب عبد الملك من هذا الفحش، وسأل نُصيباً عن هذه المرأة، فقال: بنت عَمّ لي نوبية لو رأيتَها ما شربتَ من يدها الماء! فقال عبد الملك: لو غير هذا قلتَ: لضربتُ الَّذي فيه عيناك)[2]

ظن عبد الملك أَنَّ الشاعر طابق قوله فعله في الفحش –لذلك غضب –لكنَّ الشاعر أخبره أَنَّها حلّت من القبح مكاناً يَصْعُب معه شرب الماء من يدها، فكيف بما هو أعظم من ذاك؟! ولذلك سكن غضب الخليفة؛ وَعَلِمَ أنَّ الشاعر يقول ما لا يفعل.

3- المفاضلة بين شعراء الغزل:

وللخليفة صورة أخرى وهي الحكم بالجودة على الشاعرين إذا تساويا في الإحسان، قال عبد الملك بن مروان لأيمن ابن خريم: (والله ما وصف النِّساء أحدٌ مثل وصفك، ولا عرفهنَّ أحدٌ معرفتك، إذ تقول:

رَأَيْتُ الغَواني شَيْئاً عُجَابَا ... لَوْ اَنْسَ مِنّي الغَوانِي الشبابَا
وَلَكِنْ جَمْعَ العذارى الحِسان ... عناء شديد إِذَا المرءُ شابَا
وَلَوْ كِلْتَ بِالمُدِّ للغانياتِ ... وَصَاعفتَ فَوْقَ الثِيَابِ ثِيَابَا
إِذَا لَمْ تَنلهُنَّ مِنْ ذَاكَ ذَاكَ ... بَغينَكَ عِنْدَ الأَمِيْرِ الكِذَابَا
عَلْامَ يَكْحَلن حُوْرَ العُيونِ ... وَيُحْدِثْنَ بَعْدَ الخِضَاب الخِضَابَا
وَيَعْرِكْنَ بِالمِسْكِ أَجْيَادهن ... وَيُدْنين عِنْدَ الحجالِ العِيابَا

[1] الحُصري: (زهر الآداب وثمرة الألباب) 1/ 121 دِيوان عمر، 182
[2] الأغاني، 1/ 336 شرح دِيوان نُصيب، 90

ويغمـــــــزن إلَّا لمـــــــا تَعْلَمُـــــــونَ فَـــــلَا تحْرِمُـــــوا الغَانِيَـــــاتِ الضِـــــرابُا

فقال له: لئن كنتَ صدقتَ في ذلك لقد صدق الَّذي يقول:[1]

فـــــإنْ تَسْـــــأَلُونِي بالنِّســـــاءِ فـــــإنَّني خَبِيْـــــرٌ بـــــأدْوَاءِ النِّسَـــــاءِ طَبِيـــــبُ

إِذَا شَـــابَ رَأْسُ المـــرءِ أَوْ قَـــلَّ مَالُـــهُ فَلَـــيْسَ لَـــهُ فـــي وُدِّهِـــنَّ نَصـــيبُ

يُـــرِدْنَ ثَـــرَاءَ المـــالِ حَيْـــثُ عَلِمْنَـــهُ وَشَـــرْخُ الشَّـــبابِ عِنْـــدَهُنَّ عَجِيْـــبُ[2]

فقال عبد الملك: قد –لعمري –صدقتما وأحسنتما)[3]

قال أبو عمر بن العلاء عن هذه الأبيات: (أعلم النَّاس بالنِّساء علقمة بن عبدة)[4] ولَمَّا سَمِعَ الحارث الغساني هذه الأبيات، قال: (صدق فوك لله أبوك! أنتَ طبيبهنّ والخبير بأدوائِهنّ)[5]

تدل هذه الأبيات على طبائع النِّساء وتقلباتهنّ، من حبهنّ للمال، والشباب وكرههن للشيب، وهذه المعاني شائعة على ألسنة الشُّعراء إخباراً عن طبائع الغانيات، ومن هذا النوع قول الطفيل[6] عامر بن واثلة:[7]

رأتنـــي فقالـــتَ: أَنْـــتَ شـــيخٌ، وَإِنَّمـــا يَـــرُوقُ الغـــوانِي مُجْـــدِبُ الخَـــدِّ خَـــالعُ[8]

يَعُـــدُّنَنِي شـــيخاً، وقـــد عِشْـــتُ حِقبَـــةً وهُـــنَّ عـــنْ الأزواجِ نَحْـــوي نَـــوازعُ

---

[1]أحمد صقر (شرح دِيوان علقمة) المطبعة المحمودية –القاهرة، ط1، 1935م، ص7- 11

[2]شرخ الشباب: أوله.

[3]الأغاني، 20/ 311

[4]شرح دِيوان علقمة، ص7

[5]المصدر نفسه، ص11

[6]عامر بن واثلة بن عبد الله، كنيته أبا الطفل، شاعر إسلامي تشيع لعليّ بن أبي طالب، وكان يثني على عمر وأبي بكر، لقِي مُعاوية فأثنى عليه، تُوفي بمكّة عام 100هـ، ينظر، الأغاني، 15/ 147- 154

[7]الحماسة البصرية، 1/ 106

[8]مجدب الخد: كناية عن شبابه تعني أمرداً.

ثامِناً: الرثاء:

هو من الأغراض الَّتي تحتاج إلى رِقة وتفجعٍ، لا يحسنه من كان حظه من اللفظ الغلظة، ومن الطبع الفجاجة، وعلى قدر صدق صاحبه وامتزاج كلماته مع دموعه يكون انفعال المتلقي، ومشاركته الشاعر مُصابه، وللخليفة وقفات يسيرة تتراوح بين استحسانه واستهجانه حسب تفوق الشاعر، وربَّما غِيض عن الخليفة لفظ فصيح أو اسلوب صحيح فراح يستهجنه فباءت الهُجنة عليه.

أمّا استحسانه للرثاء فكثير، ومن ذلك قوله لنُصيب: "أنشدني رثاء أخي فأنشده:

عرفــتُ فجبــرتُ الأمــورَ فمــا أرى ... كعــــاصٍ تــــلاه الغــــابرُ المتــــأخرُ
ولكـنَّ أهـلَ الفضـلِ مِـنْ أهـلِ نِعمتـي ... يمــــرون أسْــــلافاً أَمَــــامي وَأغبــــرُ
وإنْ أبكــه أعــذر وإنْ أغلــب الأســى ... بصــبرٍ فمثلــي عنــدما اشــتدَّ يَصْــبِرُ
وكانــتَ ركــابي كُلَّمــا جِئْــتُ تنحنــي ... إليــك فتقضــي نحبهــا وهــي ضــمرُ

فَلَمَّا سَمِعَ عبد الملك، قال: فإنْ أبكه أعذر وإنْ أغلب الأسى...

فقال: ويلك أنا أحق بهذه الصِّفة من أخي منك، فهلا وصفتني بها؟ وجعل يبكي"[1]

حشد الشاعر من صِفات المرثي ما رغب الخليفة فيها، وتشوقت نفسه أن يُمْدح بها، فجعل ينشد بيت القصيد: وإن أبكه أعذر...، وحُق له أن ينتقيه من بين الأبيات؛ لأنَّه جمع بين التفجع المتمثل في البكاء والأسى، والتجلد المتمثل في الصبر إنَّ هذه المعاني تحْسن في قصيدة الرثاء وكُتب الأدب مشحودة بها، فمع الصدمة الأولى يكون البكاء الَّذي يطفئ شيئاً من حُرقة الفراق، وشفاء النفس كما قال امرؤ القيس: (وإنَّ شفائي عبرة مهراقة) البيت، انظر إلى قول الفرزدق:[2]

أَلَــمْ تَــرَ أَنِّــي يَــوْمَ جَــوِّ سُــوَيْقَةٍ ... بَكَيْــــتُ فَنَــــادَتْنِي هُنَيْــــدَةُ مَالِيَــــا
فقلــتُ لَهَــا: إنَّ البُكَــاءَ لَراحَــةٌ ... بِــهِ يَشْــتَفِي مَــنْ ظَــنَّ أنْ لَا تَلاقِيَــا

وثمَّة شعراء يرونه سفاهة، غير أنهم يولعون به، قال أبو ذؤيب الهذلي:[3]

ولقــــد أرى أنَّ البكــــاء ســــفاهة ... وليــــولعن بالبكــــاء مــــن يُفجــــعُ

---

[1] الأغاني، 1/ 361
[2] الحماسة البصرية، 2/ 733
[3] المفضليات، 425

وتستطيب الخنساءُ دمعها في رثاء صخر إذا تقول:[1]

إِذَا قَـــبُحَ البُكـــاءُ عَلَـــى قَتِيـــلٍ رَأيـــتُ بُكَـــاءَكَ الحَسَـــنَ الجَمِـــيلا

أمّا الأسى بمعنى (الحزن) فهو قرين البكاء ورديفه في قصيدة الرثاء كما عند الخنساء ومتمِّم بن نويرة في رثاء أخيه مالِكاً إذ يقول:[2]

تَقـــولُ ابْنَـــهُ العُمْـــرِي مَالَـــكَ، بَعْـــدَمَا أراكَ حَـــــدِيثاً نَـــــاعِمَ البَـــــالِ أفْرَعـــــا

فَقلـــتُ لَهَـــا: طُـــوْلُ الأَسَـــى إِذْ سَـــأَلْتِنِي وَلَوْعَـــةُ حُـــزْنٍ تَتـــرُكُ الوجْـــهَ أَسْـــفَعَا[3]

وقال أيضاً مُخاطباً صاحبه الَّذي لامه على بكائه لأخيه مالك:[4]

فقلـــتُ لَـــهُ: إِنَّ الأسَـــى يَبْعَـــثُ الأَسَـــى فـــــذرني، فهـــــذا كُلُّـــــهُ قَبْـــــرُ مَالِـــــكِ

ويتمسك الشاعر –أحياناً –بحبل الصبر ويخزن دمعه معه، قال أبو خراش الهذليّ مخاطباً زوجته:[5]

تَقـــولُ أَراهُ بَعْـــدَ عُـــرْوَةَ لَاهِيـــاً وَذَلِـــكَ رُزْءٌ لَـــوْ عَلِمْـــتِ جَلِيـــلُ

فَـــلَا تَحْسَـــبي أَنِّـــي تَنَاسَـــيتُ عَهْـــدَهُ وَلكـــنَّ صَـــبْرِي يَـــا أُمَـــيْمَ جَمِيـــلُ

وربَّما عاتب الشاعر نفسه لتبسطه بعد المُصاب فرتدّ يعزو ذلك للصبر، قال خلف بن خليفة[6] في ذلك:[7]

أُعاتِـــبُ نَفْسِـــي أنْ تَبَسَّـــمْتُ خَالِيـــاً وَقَـــدْ يَضْـــحَكُ المَوْتُـــورُ وَهْـــوَ حَـــزِينُ

وتبقى مساحة يتحرك فيها شِعر الرثاء بين الجزع والصبر، كما عند الدَّعْجاء ابنة المُنْتَشِر[8] ترثي أباها[9]

---

[1]الحماسة المغربية 8/ 8

[2]الحماسة البصرية 3/ 629

[3]أسفعا: أسود.

[4]المرجع نفسه، 2/ 625

[5]المرجع نفسه، 2/ 631

[6]خلف بن خليفة الباهلي، شاعرٌ أُموي لَسِناً بذياً، راوية، شاعراً مطبوعاً، لُقِب بالأقطع؛ لسرقة اتهم بها فقُطِعت يده، ينظر، الشِّعر والشُّعراء، 1/ 474

[7]الحماسة البصرية، 2/ 707

[8]المُنتشِر بن وهب بن عجلان، كان رئيساً فارساً، قاد الأبناء يوم أر فقتله هند بن أسماء من بني الحارث، يُنظر، الحماسة البصرية، 2/ 702

[9]المرجع نفسه، 604/2

إِنْ تَقْتُلُـــوهُ فَقَـــدْ أَشْـــجَاكُمُ حِقَبـــاً كَـــذَلِكَ الـــرُّمْحُ بَعْـــدَ الطَّعْـــنِ يَنْكَسِـــرُ
فـــإِنْ جَزِعْنَـــا فَمِثْـــلُ الخَطـــبِ أَجْزَعَنَـــا وَإِنْ صَـــبَرْنَا فَإِنَّـــا مَعْشَـــرٌ صُـــبُرُ

ويدخل في استحسان الخليفة لشعر الرثاء تفضيله ليلى الأخيلية على الخنساء رُوى أَنَّه "سأل الشّعبيَّ عن أشعر نِساء الجاهلية؟ فقال: الخنساء، قال: وَلِمَا فضلتها: قال لقولها:

وَقَائِلَـــةٍ وَالـــنَّعشُ قَـــدْ فـــات خَطْوَهَـــا لِتُدْرِكَـــهُ يَـــا لَهْـــفَ نَفْسِـــي عَلَـــى صَـــخْرِ
أَلا ثكِلَـــتْ أُمُّ الَّـــذينَ غَـــدَوْ بِـــهِ إِلـــىَ القَبْـــرِ مَـــاذَا يَحْمِلُـــونَ إِلـــى القَبْـــرِ

فقال عبد الملك: أشعر منها الَّتي تقول –يعني ليلى الأخيلية –:

مُهفهـــفُ الكشـــحِ والسّـــربالِ مُنْخـــرِقٌ عَنْـــهُ القمِـــيصُ لِســـيرِ اللَّيـــلِ مُحْتَقِـــرُ[1]
لَا يَـــأمَنُ النَّـــاسُ مُمْسَـــاهُ ومُصْـــبحَهُ فـــي كُـــلِّ فَـــجٍّ وَإِنْ لَـــمْ يَغْـــزُ يُنْتَظـــرُ

ثُمَّ قال: يا شعبي، إنَّما أعلمتُك هذا؛ لأنَّه بلغني أَنَّ أهل العِراق يتطاولون على أهل الشام، ويقولون: إن كانوا غلبونا على الدَّولة فلم يغلبونا على العلم والرواية، وأهل الشام أعلم بعلم أهل العِراق من أهل العِراق"[2]

لا يبرأ هذا الحكم من عصبية ليست من النَّقد ومنهجه في شيءٍ، فالخنساء أشعر من ليلى الأخيلية، وهي مُقدَّمة عليها عند أهل الأدب والنَّقد. وقلّ أن تذهب نباهة الأمير فيقع في دَخَن اللفظ ويحسب أنَّه على شيء إذ عاب لفظاً حسبه رخواً أو مخنثاً، فلَمَّا، تبين له قوته وأنَّه ورد في أصح كتاب عدل عن رأية ووافق منشده وشاهد هذا أنَّه عاب على ابن الرقيَّات قوله:

إِنَّ الحَـــوَادِث بالمدِينَـــةِ قَـــدْ أَوْجَعنَنِـــي وَقَـــرَعْنَ مُرْوَتَيَـــهْ

فقال عبد الملك: (أحسنتَ يا ابن الرقيَّات، لولا أَنَّكَ خنثتَ قافيته، فقال: يا أمير المؤمنين، ما عدوتُ قول الله –عزَّ وجَلَّ –في كتابه: " مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ"[3] فقال له عبد الملك: أنتَ في هذه أشعر منك في شعرك"[4]

---

[1] مهفهف الكشح: ضامر البطن.
[2] الأغاني، 11/ 24
[3] سورة الحاقه، الأية: 28، 29
[4] أبو الفتح عثمان بن جنِّي (الخصائص) تحقيق: الشربيني شِريدة، دار الحديث القاهرة، 2007م، 3/ 287

فلا عيب في التباس أمير المؤمنين، فإن لُبِسَ عليه فقد لُبس على علماء العربيَّة من بعده اللفظة نفسها، بل البيت نفسه فقد روى "أنَّ رجلاً أنشد أبا عمرو بن العلاء البيت نفسه. فانتهره أبو عمرو، فقال: مالنا ولهذا الشِّعر الرَّخو! إنَّ هذه الهاء لم توجد في شيءٍ من الكلام إلَّا أرخَته. فقال له المديني: قاتلك الله! ما أجهلك بكلام العرب! قال الله عزّ وجلّ في كتابه:" وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ"[1] فانكسر أبو عمرو انكساراً شديداً"[2]

انظر إلى قول عبد الملك لَمَّا بُصِّر بما جهل طفِق قائلاً: "أنتَ في هذه أشعر منك في شعرك" ثُمَّ انظر إلى فعل أبي عمرو "انكسر انكساراً شديداً" وذلك لعلم عبد الملك أنَّه رجل سياسة وسلطة فإن أخطأ فلا يُحْمَلُ عليه حمل من نصب نفسه إماماً يستحلق حوله الطلاب، فيستحي من الخطأ.

[1]سورة الحاقة، الأية: 25، 26
[2]ابن جنِّي (الخصائص) 3/ 286- 287

تاسعاً: الحكمة والوعظ:

إنَّ الحكمة والوعظ يهدفان إلى غاية سامية وهي: دعوة النَّاس وهدايتهم ودلالتهم إلى الخير؛ لذلك جُمِعَا تحت عنوانٍ واحدٍ، كما في القرءانِ الكريم قال تعالى مُخاطباً الرسول ﷺ : " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ"[1]

إلَّا أنَّهما لم يحظيا عند الخليفة بموضع كبير؛ لأنَّهما أقرب إلى الخطابة وفِعل الوعاظ والنساك منهما إلى الشِّعر الَّذي يرى أنَّ غايته الإمتاع وترويح النفس، ومع هذا فقد ارتفع قدر الحكمة عن قدر الوعظ، فراح يُفَضِّل أبياتاً منها، ويسأل جلساءه عن أحسنها، ويرجع هذا التفضيل لِلُحمة الحِكمة بالشِّعر العربي، ولقد حكم الصادق والمصدوق بذلك حيث قال: (إنَّ مِنْ الشِّعر حِكْمَةً)[2]

هذا سبب خاص، أمّا السبب العام فيرجع لقول النَّبيِّ ﷺ: "الحِكْمَةُ ضآلة المؤمن فحيث وجدها فهو أَحَقُّ بِهَا"[3]

ونجد الخليفة يحكم على الشُّعراء لملامستهم لهذا الغرض بأنَّهم أشعر النَّاس، وربَّما يكون للحالة النَّفسية الَّتي يعيشها الخليفة حينئذ دَخْلٌ في هذا الحكم فهو حُكم على المَفضُولِ في وجود الأفضل، ومن ذلك قوله –يوماً لجلسائه وأهل بيته –: (ليقل كل واحدٍ منكم أحسن شِعر سَمِعَ به، فذكروا لامرئ القيس، والأعشى، وطرفة، فأكثروا حَتَّى أتوا على محاسن ما قالوا، فقال عبد الملك، أشعرهم والله الَّذي يقول:

وَذي رَحِمٍ قَلمتُ أَظفارَ ضِغْنِهِ ... بحلمي عَنْهُ وهو ليس لَهُ حِلْمُ

إذا سُمْتُهُ وَصْلَ القَرابةِ سَامَنِي ... قَطيعَتَهَا، تِلْكَ السفاهةُ والظّلْمُ

فأسعى لكي أبني ويهدم صالحي ... وليس الَّذي بيني كَمَنْ شأنُهُ الهدمُ

يحاولُ رُغْمي لا يحاولُ غَيْرَهُ ... وكالموتِ عِنْدي أن يَحُلّ بِهِ رُغْمُ

لا ستل مِنْهُ الضِّغْنَ حَتَّى استللتُهُ ... وَقَدْ كَانَ ذَا ضِغن يصوّبه الحزمُ

---

[1]سورة النحل، الأية: 125
[2]صحيح البخاري، كِتاب الأدب، رقم الحديث، 5793
[3]سنن الترمذي، رقم الحديث، 2687

قالوا: ومن قائلها: يا أمير المؤمنين؟ قال: معن بن أوس المزني)[1]

لأنَّ شِعر معن بن أوس يتأخر منزلة عن شِعر الملك الضِّليل، والأعشى وطرفة، ولعلّ عبد الملك فضله لموافقته الحالة النَّفسية الَّتي كان يعيشها مع عمرو بن سعيد ابن عمّه، الَّذي خرج عليه ونازعه الخِلافة فاحتال عبد الملك عليه وكتب له الأمان، حَتَّى إذا تمكن منه غدر به وفتكه، ممَّا جعل العُلماء والشُّعراء ينقمون على الخليفة، ويجعلون ذلك من بوائقه الَّتي لا تُغْتفر، أورد السيوطي –في كتابه –(عن ابن الكلبي: قال: كان مروان بن الحكم وَلِيَ العهد لعمرو بن سعيد بن العاص بعد ابنه، فقتله عبد الملك، وكان قتله أوَّل غدر في الإسلام، فقال بعضهم:[2]

يَـــاقَوْمُ لَا تُغْلَبُـــوا عَـــنْ رَأْيكُـــمْ فَلقـــدْ ... جَـــرَّبْتُمُ الغَـــدْرَ مِـــنْ أَبْنَـــاءِ مَرْوانـــا

أَمْسَـــوْا وَقَـــدْ قَتَلُـــوا عَمْـــراً وَمَارَشـــدُوا ... يـــــدْعُونَ غَـــــدْراً بِعَهْـــــدِ اللهِ كَيْســـــانا

يُقْتَلُـــونَ الرِّجـــالَ البُـــزلَ ضَـــاحِيةً ... لِكَـــيْ يُوَلُّـــوا أُمُـــورَ النَّـــاسِ وُلْـــدَانا

تَلَاعَبُـــوا بِكِتَـــابِ اللهِ واتّخَـــذُوا ... هَـــوَاهُمُ فِـــي مَعَاصِـــي اللهِ قُرْبَانـــا

وكانتْ أُخته تحت الوليد بن عبد الملك فَلَمَّا بلغها مقتله خرجتْ حاسرة الرأس وهي تبكي، وترمي عبد الملك ومن معه بالغدر قائلة:[3]

أيـا عـينُ جـودي بالـدموعِ علـى عَمْـرو ... عشـــيةَ جانبنـــا الخِلافَـــةَ بـــالقهرِ

غـــدرتم بعمـــر يـــابني خـــيط باطـــلٍ ... وكُلكُـــمُ يَبْنِـــي البُيـــوتَ علـــى غَـــدرِ

ومـــا كـــان عمـــرو عـــاجزاً غيـــر أنَّـــه ... أتتـــه المنايـــا بَغتـــةً وهـــو لا يَـــدْري

كـــأَنَّ بَنـــي مـــروانَ إذْ يَقْتُلونـــه ... خَشـاشٌ مِـنْ الطيـر اجـتمعن علـى صَـقْرِ

لحـــى الله ذنبـــاً تُعْقِـــب النَّـــارَ أهلهـــا ... وتَهتـــك مـــا بـــين القرابـــةِ مِـــنْ سِـــتْرِ

ألا يـــا لقـــومي للوفـــاءِ وللغـــدرِ ... وللمقفلـــين البـــابَ قَســـراً علـــى عمـــرو

فرحنـــا وراح الشـــامتون عَشـــيةً ... كـــأنَّ علـــى أعنـــاقِهم فلـــق الصـــخرِ

ولَمَّا قتله (بعث عبد الملك إلى امرأة عمرو بن سعيد، أن ابعثي إليَّ بكتابِ الأمان الَّذي كنتُ كتبتُه لعمرو، فقالتْ: إنِّي دفنتُه معه ليحاكمك به يوم القيامة عند اللهِ)[4]

---

[1]الأغاني، 12/ 55

[2]السيوطي (تاريخ الخُلفاء) 174، أبو هلال العسكري (الأوائل) 248

[3]المُرشد إلى فهم أشعار العرب، 4/ 424- 425

[4]البداية والنهاية، 9/ 74

أمَّا الأبيات الَّتي ساقها عبد الملك فهي من الحكمة الَّتي اكتسبها الشاعر من تقلبات الزمان، وتشرح حاله مع ابن عَمِّه الغادر الَّذي ينفر مشمساً عنه وإن تودد له، وهذا التفضيل من عبد الملك له يدخل في الحالة النفسية الَّتي قال عنها ابن طباطبا: (والنفس تسكن إلى كل ما وافق هواها وتقلق مِمّا يخالفه، ولها أحوال تتصرف بها، فإذا ورد عليها في حالة من حالاتها ما يوافقها اهتزتْ له وحدثتْ لها أريحية وطرب، وإذا ورد عليها ما يُخالِفها قلقتْ واستوحشتْ)[1]

فهنا يربط ابن طباطبا بين حالة المتلقي النَّفسية وارتباط الحكم على الشيء المُتلقى. وهذا ما حدث للخليفة عبد الملك.

ويسأل جلساءه قائلاً: "ما أحكم أبيات قالتها العرب في الجاهلية؟ فأنشده رجل:

مَنَـــعَ البقَـــاءَ تَقَلُّـــبُ الشَّـــمسِ وَطُلُوعُهَـــا مِـــنْ حَيْـــثُ لَا تُمْـــسِ
تَجْـــرِي عَلَـــى كَبِـــدِ السَـــمَاءِ كَمَـــا يَجْـــرِي حِمَـــامُ المَـــوْتِ فـــي الـــنَّفْسِ
اليـــومَ تَعْلَـــمُ مَـــا يَجِـــئُ بِـــهِ وَمَضَـــى بِفَضْـــلِ قَضَـــائِهِ أَمْـــسِ

قال: أحسنتَ"[2]

هذي حكمة بالغة، تلخص تعاقب الأيام وحركة الشَّمس، وتدبير الله تعالى للأشياء فأحسن وأجاد وللشُّعراء والحُكماء والخُطباء أقوال توافق هذه المعاني المطروقة، يضيق المقام لسردها. وأمَّا الوعظ فقد مقته الخليفة لملامسته الطيرة وبعده عن الفأل، فهو يرى أنَّ الشِّعر يُسلي النَّفس لا يقبضها بِذِكر هادم اللذات، الَّذي متى طاف بالإنسان أو صافح اسمه أذنه طاف عليه طائف الكدر، وإن كان الموت حقيقة لا فوات منها، ولكنَّ ذِكره لا يَصْلُح في بلاط الخليفة ومجلس سمره، بل هو أوفق ما يكون في حِلق الوعظ ومنابر المساجد، فالمقام مقام أُنْسٍ لا مقام وعظ، وهذا ما وقع فيه زر بن جحش عندما كتب إلى الخليفة قائلاً: "لا يطمعنك يا أمير المؤمنين، في طول البقاء ما يظهر من صحتك، فأنتَ أعلم بنفسك، واذكر ما تكلَّم به الأولون:

إِذَا الرجـــــالُ وَلَـــــدَتْ أَوْلادَهَـــــا وَبَلِيـــــتْ مِـــــنْ كِبَـــــرٍ أَجْسَـــــادُهَا

[1]ابن طباطبا العلوي (عيار الشِّعر) ص 6، نقلاً عن (الأسس الجمالية في النَّقد العربي عرض وتفسير ومقارنة) عز الدِّين إسماعيل، دار الفِكر العربي، 2000م، ص 172
[2]الحُصري، زهر الآداب، 821

وَجَعلـــــتْ أَسْـــــقامها تَعْتادُهـــــا تِلْـــكَ زُروعٌ قَـــدْ دَنَـــا حَصَـــادُها

فَلمَّا قرأه عبد الملك قال: صدق زر، لو كتب إلينا بغيرها كان أوفق"[1]

عاب عليه ذكر الموت والضعف والهرم، ولو كان الوعظ بغيرها ممَّا هو أبعد للطيرة كالتقوى والزهد ونحوها، لكان في نفس الخليفة أوقع من هذا؛ ثُمَّ إنَّ زراً لم يتوسم الوقت المناسب ليتخول الخليفة بالموعظة فوقع في سأم الخليفة، وكان النَّبيُّ ﷺ (يتخول أصحابه بالموعظة في الأيام كراهة السآمة عليهم)[2]

وكره الأمر نفسه من أرطأة بن سُهية حين أنشده:

رَأيـــتُ المـــرءَ تأكُلُـــهُ اللَّيـــالي كأكـــلِ الأرضِ سَـــاقِطَةَ الحديـــدِ

وَمَـــا تُبْقِـــي المنيَّـــةُ حِـــيْنَ تَعْـــدُو عَلَـــى نَفْـــسِ ابـــنِ آدمَ مِـــنْ مَزيـــدِ

وَأَعْلَـــمُ أَنَّهـــا سَـــتكرُ حَتَّـــى تُـــوفى نَـــذَرَها بـــأبي الوليـــدِ

وكان عبد الملك يكني أبا الوليد، فتطيّر منه وما زال يُرى كراهة شِعره في وجهه حَتَّى مات"[3]

[1] عبد الملك بن مروان النَّاقد الأديب، 106

[2] صحيح البخاري، كِتاب الدعوات، باب الموعظة ساعة بعد ساعة، رقم الحديث 6048

[3] المرزباني، المُوشح، 204- 205

الفصل الرابع

الشعر والنقد في مجالس الحجّاج بن يوسف

المبحث الأوّل: نشأة الحجّاج بن يوسف.

المبحث الثاني: رواية الحجّاج بن يوسف للشعر وتمثله به.

المبحث الثالث: إعجاب الحجّاج بن يوسف بالشعر ومشاركته في نقده بحسب أغراضه.

المبحث الأوَّل: نشأة الحجَّاج بن يوسف:

يشتمل هذا المبحث على:

نسبه ومولده:

هو(الحجَّاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف)[1]

(وُلِدَ بقرية الكوثر من قرى الطائف)[2] (في سنة إحدى وأربعين ، لقبه الحجَّاج يُكَنَّى بأبي مُحمد)[3]

(يرى المُؤرخون أنَّ اسمه الحقيقي كُلِيباً)[4] يروى المُبرد قول الشاعر في هجاء الحجَّاج:[5]

كُلَيْبُ تَمَكَّنَ فِي أَرْضِكُمْ وَقَدْ كَانَ فِيْنَا صَغِيْرَ الخَطَرْ

(والرّاجح أنَّ اسمه كُليب؛ لأنَّ العرب كانت تختار لأبنائها الأسماء الَّتي تدل على القُوه والشِّدة كصخر، وفهد، وأسد، وكلب ، ولذلك سُمِّى كُليباً جرياً على عادة القُدماء، ثُمَّ اسمته أُمُّهُ الحجَّاج للتفاؤل بأنْ يكون مِنْ المُكثرين للحجِّ)[6]

والِد الحجَّاج : (هو يُوْسُف بن الحكم، كان من أشهر رجالات الطائف، ومن أشهر المُعلمين بها، وقد كان ذا وجاهة عند الخليفة الأُموي قبل أنْ يتولى الحجَّاج الإمارة)[7]

أمَّا والدة الحجَّاج:

فهي (الفارعة بنت همّام بن عُروة بن مسعود الثقفي)[8]

---

[1] الذَّهبي (تاريخ الإسلام) 314/6، 315

[2] ياقوت الحموي (مُعجم البُلدان) 290/7

[3] تاريخ الإسلام ، 314/6

[4] المعارف، 238، العِقد الفريد،5/3

[5] المُبرد (الكامل في اللُّغة والأدب) 290

[6] ابن شاكر: صلاح الدِّين أبو عبد الله بن أحمد (عيون التواريخ) دار الكُتب المصرية، 258/5

[7] عبد الرحمن بن سعيد بن على (أبراج الزَّجاج في سِيرة الحجَّاج) تحقيق: سعيد بن علي بن وهف، بدون بيانات نشر، ص95

[8] العِقد الفريد، 5/3 ، الأغاني، 23/6

وجعلتْ بعض المصادر أُمَّة (المتمنية) الَّتي سَمِعَها عمر بن الخطاب– وهو طائف ليلاً يتفقد الرعيَّة– تنشد:[1]

هَلْ مِنْ سَبيلٍ إِلَى خَمْرٍ فَأَشْرَبُهَا أَمْ مِنْ سَبيلٍ إِلَى نَصْرِ بْنِ حَجَّاجِ

قال صاحب الخِزانة هي (الذلفاء) الَّتي عُرِفت بالمتمنّية قائلاً : (إنَّ الحجَّاج حضر مجلس عبد الملك ابن مروان، وعُروة بن الزُّبير يُحدِّثه ويقول: قال أبو بكر كذا– يعني أخاه عبد اللهِ بن الزُّبير– فقال له الحجَّاج: عند أمير المؤمنين تُكنَّى أخاك المُنافق، لا أُمَّ لك! فقال عُروةُ: يا ابن المتمنية، ألِيَ تقول لا أُمَّ لك! وأنا ابن إحدى عجائز الجنَّة: صفية، وخديجة، وأسماء، وعائشة[2])[3]

وقد اضطربت المصادر في هذا الخبر حيث ذهب ابن الجوزي إلى أنَّ (المُتمنّية) أمُّ الحجَّاج، بينما تردد ابن كثير فيروي أنَّها أُمَّه مرّةً وأنَّها جدته من جهة أبيه مرّةً أخرى)[4]

ولا يُعْقَل من امرأة أنجبت الحجَّاج، وجَدُّها عُروة بن مسعود عظيم القريتين[5] أنْ يقع منها هذا الصنيع بل هو من دسائس الأعداء، وإنْ كان ذلك صحيحاً لَمَا فَخِرَ الحجَّاج بها إذ يقول: (أنا ابن الأشياخ من ثقيف والقبائل من قريش)[6]

عمله قبل الولاية:

لم تتفق المصادر على عمل واحدٍ تولاه قبل ولايته، فتارةً تذكر أنَّه كان دباغاً)[7] قال الشاعر فية:

إنَّ ابنَ يُوسُفَ غَرّةُ مِن غَزْوِكُمْ خَفْضُ الجَناحِ بِجَانبِ الاَمْصَارِ

ورأى مُعَاوَدةَ الدِّباغِ غَنيمةً أيّامَ كَانَ مُحَالِفَ الإِقْتَارِ

---

[1]محمود زيادة (الحجَّاج بن يوسف المُفترى عليه) مطبعة دار السَّلام ،ط1،991 1 م ، ص14

[2]بنت أبي بكر الصدِّيق، رضي الله عنها وعن أبيها، أُمُّ المؤمنين، أفقه نساء المسلمين، كنيتها أُمُّ عبد الله، أكثرت من رواية الحديث النبوي، أنشدت الشِّعر العربي في مواقف من حياتها، وُلِدَت سنة 9هـ، وماتت سنة 58هـ، ينظر، الأعلام، 3/ 240

[3]خِزانة الأدب، 81/4

[4]ابن القيم الجوزي: جمال الدّين بن الفرج عبد الرحمن (تنقيح فهوم أهل الأثر) مطبعة جيّد بريس ببلدة دهلى، 353

[5]الحجَّاج بن يوسف المُفترى عليه، 13 وعظيم القريتين المذكورين في القرآن في الأية:" وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآَنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ" الزخرف(31) القريتين مكَّة والمدينة، والرجل الثاني الوليد بن المُغيرة المخزومي، ينظر، الحجَّاج بن يوسفَ المُفترى عليه، ص13

[6]العِقد الفريد، 7/3

[7]الاغاني، 58/3

وتارة تذكر أنَّه (مُعلماً يُعَلِم الصِّبيان القرءان بالطائف)[1]

قال مالك بن الرَّيب يهجوه، وكان الحجَّاج قد ألزمه مُحاربة الخوارج فهرب:[2]

فَلَــوْلا بَنُــو مَــرْوانَ كَــانَ ابــنُ يُوســفٍ كَمَــا كَــانَ عَبْــداً مِــنْ عَبِيْــدِ إيــادِ
زَمــانَ هُــو العَبْــدُ المُقِــرُّ بِذُلِّــهِ يُــراوِحُ غِلمَــانَ القُــرىَ ويُغَــادِي

لعلَّ الراجح أنَّه كان مُعلم صِبيان بالطائف، وَرِثَ هذه المِهنة عن أبيه (وكان والده من سادات ثقيف وأشرافهم، وإنَّما صار التعليم صناعة واشتغل به المستضعفون حينما استقرت قواعد الإسلام واشتغل أهل العصبية بأمور المُلك والسُلطان وتركوا التعليم)[3]

(واشتغل بالعِلم والرواية –منذ صباه– فروى عن ابن عبَّاس[4] وسمرة بن جندب[5] وأسماءَ بنت أبي بكر[6] وغيرهم)[7]

عقله:

كان ذا عقل وذكاء. أمَّا عقله فَقِيَل فيه (كانت عُقُول النَّاس تقرب بعضها البعض إلَّا ما كان من عقل الحجَّاج وإياس بن مُعاوية[8]، فإنَّ عُقولهما كانت ترجح عُقول النَّاس)[9] ممَّا يدل على ذكائه أنَّهما بنيا هو وعبد الملك بابين فوقعت صاعقة وأحرقت باب عبد الملك، فداخله حسد الحجَّاج فكتب إليه

---

[1]المعارف، 238
[2]العِقد الفريد، 5/3 الخِزانة، 211/2 ، الشِّعر والشُّعراء314
[3]ابن خلدون: عبد الحمن بن جابر (مُقدمة بن خلدون) المطبعة البهية، 22،23
[4]عبد الله بن العبَّاس بن عبد المطلب، ابن عم النَّبيِّ ﷺ صحابي جليل ومفسر القرآن الكريم عالم باللغة والشِّعر، وحبر الأُمة، توفى سنة 68هـ، ينظر، المسعودي، مروج الذهب، 2/ 39، 40، 78
[5]سمرة بن جندب بن هلال بن جريح بن مرّة، يُكنّى بأبي سُليمان، حفظ عن النَّبيّ ﷺ الحديث وهو غُلام، استخلفه زيادٌ على البصرة، كان شديداً على الخوارج، مات سنه 85هـ وقِيل 95هـ ،ينظر، الإصابة 150/3
[6]صحابية من قريش، من الفاضِلات، آخر المهاجرين وفاة، تزوجتْ الزُّبير بن العوام رضي الله عنه، عَمِيتْ في آخر عمرها، لها أخبار مع الحجَّاج بن يوسف، كانت فصيحة حاضرة الجواب، تقول الشِّعر، ماتت بمكَّة سنة 73هـ، ينظر، الأعلام، 1/ 205
[7]سِير أعلام النبلاء، 343/4
[8]أبو وائلة، قاضي البصرة وأحد أعاجيب الدَّهر في الفطنة والذكاء، وُلِدَ سنة 46هـ، وكان عجيباً عند الخُلفاء في القضاء، مات بواسط سنة 122هـ، ينظر، الأعلام، 2/ 33
[9]ابن كثير (البداية والنهاية) مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط8، 1990م، 119/9
بدر الدِّين محمود بن أحمد بن موسى (عقد الحجاز في تاريخ أهل الزَّمان) دار الكُتب، 400/11

الحجَّاج "إنَّما مثلي ومثلك كمثل ابني آدم إذ قرّبا قُرباناً فتُقبل من أحدهما ولم يتقبل من الأخر" فسُرّ عبد الملك بذلك الجواب وزال ما كان في نفسه)[1]

وكان خطيباً بيّناً يحوك ألفاظه لمعانيه رزقه الله الإقناع. قال مالك بن دينار (ما رأيتُ أبين من الحجَّاج كان يرقى المِنبر فيذكر إحسانه لأهل العراق وإساءتهم إليه حَتَّى أقول في نفسي إنِّي لأحسبه صادقاً وأظنهم كاذبين)[2]

صفته:

قال عن نفسه: (أنا لجوجٌ حقودٌ حسودٌ)[3]

(كان صغير الجسم، ضعيف البصر، وقد نسب بعض رجال حاشيته ضعف عينه إلى قراءته المُستمرة في الأوراق)[4] (كان في ساقيه ضعف وصِغر، فإذا مشى اصطكت إحداهما بالأخرى)[5] وكان دقيق الصَّوت، يُرجل شَعره ويخصب أطرافه)[6]

وكان يصف سِيرته حيث كتب إلى الوليد بن عبد الملك (إنِّي أيقظتُ رأيي، وأنمتُ هواي، فأدنيتُ السَّيد المُطاع في قومه، ووليت الحَزِب الحازم في أمره، وقلدتُ الخراج الموفّر لأمانته، وصرفتُ السَّيف إلى النَّطف المُسئ، والثواب إلى المُحسن البرئ فخاب المُريب صولة العِقاب، وتمسك المُحسن بحظه من الثواب)[7]

آراء العُلماء فيه: قال الذَّهبي: (أهلكه الله في رمضان سنة خمسٍ وتسعين كَهْلاً، وكان ظلوماً جبّاراً، ناصِبياً سفاكاً للدِّماء، خبيثاً، من سوء سِيرته حِصاره لابن الزُّبير بالكعبة، ورميه إيّاها بالمنجنيق، وإذلالِهِ لأهل الحرمين، وخُروب ابن الأشعث له، وتأخيره للصَّلوات إلى أنْ استأصله الله. فنسُبُّهُ ولا نُحِبُّهُ، بل نبغضه في الله فإنَّ ذلك من أوثق عُرى الإيمان... {ويذكر من حسناته} كان ذا شجاعةٍ

---

[1] الحجَّاج بن يوسف المُفترى عليه، 3/7
[2] النويهي (نهاية الأرب) 244/7
[3] (تاريخ مدينة دمشق) 1995م، 167/2
[4] العِقد الفريد، 15/3
[5] المرجع نفسه، 19/3
[6] المعارف، 173 ، العِقد الفريد،16/3
[7] العِقد الفريد، 272/4

ودهاءٍ ومكرٍ وإقدامٍ، وفصاحةٍ وبلاغةٍ، وتعظيمٍ للقرآن. وله حسناتٌ مغمورةٌ في بحر ذنوبه. وله توحيد في الجملة وأمرهُ إلى الله...)[1]

قال عنه عبد الله بن شوذب: (ما رؤى مثل الحجَّاج لِمَنْ أطاعه ولا مثله لِمَنْ عصاه)[2]

قال عنه ياقوت الحموي، ذُكِرَ الحجَّاج عند الوهاب الثقفي بسوء، فغضب وقال: إنَّما تذكرون المساوئ! أو ما تعلمون أنَّه أوَّل من ضرب درهما عليه (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وأوَّل من بنى مدينة بعد الصحابة في الإسلام. وأن امرأةً من المُسلمين سُبِيَتْ في الهند فنادتْ يا حجّاجاه، فاتصل به ذلك فجعل يقول: لبيك لبيك! وأنفق سبعة آلاف ألف درهم حَتَّى أنقذ المرأة)[3]

قال عنه عمر بن عبد العزيز: (إذا كان يوم القيامة ووافت الروم بقياصرتها، و الفرس بأكاسرتها، جئنا بالحجَّاج فكان عِدْلاً لهم)[4]

قال عنه محمد بن المنكدر[5]: (كان عمر بن عبد العزيز يُبْغِض الحجَّاج فنفس عليه بكلمة قالها عند الموت: اللهم اغفر لي فإنَّهم يزعمون أنَّك لا تفعل)[6]

وفاته:

(كانت وفاته ليلة سبع وعشرين من رمضان سنة خمس وتسعين عن عُمر يُناهز خمساً وخمسين سنة)[7]

(ودُفِنَ بمدينة واسط، وعُفى قبره)[8]

---

[1] سِير أعلام النبلاء 548/1
[2] الأعلام، 168/2
[3] مُعجم البُلدان، 382/8 الأعلام، 168/2
[4] الزَّجاجي: أبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق (أمالي الزَّجاجي) تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، لبنان، ط2 ،1982م ص33
[5] مُحمد بن عبدالله القرشي، وُلِدَ سنة بضع وثلاثين من الهجرة عدّه أصحاب الطبقات من الطبقة الثالثة ومن التابعين، روى له أهل السُنن، عُرِفَ بالزهد وكثرة العِبادة، كانت وفاته نحو 130ه، ينظر، سِير أعلام النبلاء، 354/5 ص7
[6] عبد الملك بن حُسين بن عبد الملك الشافعي (سمط النُّجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي) تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي مُحمد معوض، دار الكُتب العِلمية بيروت – لبنان، 1998م، 299/3
[7] ابن قتيبة (المعارف)174 سِير أعلام النبلاء ، 343/4
[8] البداية والنهاية،139/9

المبحث الثاني: رواية الحجَّاج بن يوسف للشعر وتمثله به:

لقد تمثل بالشِّعر في مواقف مختلفة من حياته على النحو التالي:

1- تمثله بالشِّعر وهو على المِنبر:

أَحَبَّ الحجَّاج الشِّعر حُباً قطع به وقته مُتمثلاً، راوياً وناقداً. وهو من أكثر ولاة بني أُميَّة شغفاً به، وأوفرهم نقداً، وكان يتمثل بالشِّعر وهو على المِنبر جامعاً بين الصناعتين، ومن أمثلة ذلك تمثله – وهو على المِنبر– بأبيات حُرَيث بن حفص التميمي، قال: أنتم يا أهل الشام كما قال حُرَيث[1]:[2]

أَلَـــمْ تَـــر قَـــوْمِي إنْ دُعُـــوا لِمُلمّـــةٍ أجـابوا، وإنْ أَغْضَـبْ عَلَـى القَـوْمِ يَغْضَـبُوا

هُـمْ حَفِظُـوا غَيْبِـي كَمَـا كُنْـتُ حَافِظـاً لِقَـــوْمِي أُخْـــرَى مِثْلَهَـــا إنْ تَغَيَّبُـــوا

بَنُـو الحَـرْبِ لَـمْ تَقْعُـد بِهِـمْ أُمَّهـاتُهُم وآبـــاؤهمْ آبـــاءُ صِـــدقٍ فَـــأنْجَبُوا

وكان مُحِباً لأهل الشام يثني عليهم في خطبه ويضرب لهم المثل بالأشعار الحِسان، يقول لهم :(يا أهل الشام، لأزواجكم أطيب من المِسك، ولأبناؤكم آنس بالقلب من الولد، وما أنتم إلَّا كما قال أخو بني ذُبيان:[3]

إذَا حَاولْـــتَ فِـــي أسَـــدٍ فُجُـــوْراً فـــإنِّي لَسْـــتُ مِنْـــكَ ولَسْـــتَ مِنِّـــي

فَهُـــمْ دِرْعِـــي الَّتِـــي اسْـــتَلأَمْتُ فِيْهَـــا إلِـــي يَـــوْمِ الفَخَـــارِ وَهَـــمْ مِجَنِّـــي[4]

وكان إذا خاطب أهل العِراق، قرع الأسماع بألفاظ غلاظٍ، ورماهم بالفجور والفتن ونحوها، وتمثل لهم بأبيات تكشف حالهم معه. وذلك عندما صعد المِنبر ورفع صوته بأبيات سويد بن أبي كاهل قائلاً:[5]

رُبَّ مَـــنْ أَنْضَـــجْتُ غَيْظـــاً قَلبَـــهُ قَـــدْ تَمنّـــى لِـــيَ مَوْتـــاً لَـــمْ يُطَـــعْ

وَيَرانـــي كالشَّـــجا فـــي حَلْقِـــهْ عَسِـــراً مَخْرجُـــهْ مَـــا يُنْتَـــزَعْ[6]

---

[1]حريث بن محَفَّض التميمي، شاعر مخضرم مُجيد، ينظر، الأعلام، 2/ 174

[2]الخِزانة، 23،34/6

[3]عمر فروخ (الحجَّاج بن يوسف) مكتبة منيمنة – بيروت- لبنان، 1941م، ص25

[4]دِيوان النَّابغة الذُّبياني ، ص 127، استلأم : لبس اللأمة. المِجن: الترس الَّذي يوضع على الرأس والصَّدر في الحُروب.

[5]الشِّعر والشُّعراء، 38/4، الخِزانة، /126/125

[6]الشجا: الغصص.

مُزْبِـــــدٌ يَخطِـــــرُ مـــــالم يرنـــــي فـــإذا اَسْـــمعتُهُ صَـــوْتِي انقمـــعْ[1]

قَـــدْ كَفـــانِي اللهُ مَـــا فِـــي نَفْسِـــهِ ومَتـــى مـــا يَكْـــف شَـــيئاً لَـــمْ يُضَـــعْ

ويحيِّينـــــــــي إذا لاقيتُـــــــــهُ وإذا يَحلـــــو لَـــــهُ لَحْمـــــي رَتـــــعْ

لـــــم يَصْـــــرِني غيـــــرَ أنْ يَحْسُـــــدَني فَهْـــوَ يَزْقُـــو مِثْلَمْـــا مـــا يَزْقُـــو الضُّـــوَعْ[2]

ويدخل في تمثله بالشِّعر وهو على المِنبر، خطبته المشهورة الَّتي أعنف فيها اللفظ لأهل الكُوفة، واستهلها بقول سُحيم بن وثيل الرياحي قائلاً:

أنَـــا ابـــنُ جَـــلا وَطَـــلّاعُ الثَّنَايَـــا مَتَـــى أَضَـــعِ العِمَامَـــةَ تَعْرِفُـــوْني[3]

وقال فيها: إنِّي لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها، وإنِّي لصاحبها، وإنِّي لأنظر إلى الدِّماء ترقرق بين العمائم واللِّحَى.

ثُمَّ أنشد:

قد شمرّت عَنْ سَاقِهَا فشمرا

ثُمَّ قال:[4]

هـــذا أوانُ الشَّـــدِّ فاشـــتدّي زِيَـــمْ قَـــدْ لَفّهـــا اللَّيـــلُ بسَـــوَّقٍ حُطَـــم[5]

لـــيسَ بِراعِـــي إبـــلٍ وَلَا غَـــنَمْ وَلا بِجـــزّارٍ عَلَـــى ظَهـــرِ وَضَـــم[6]

وقال أيضاً:

---

[1]مُزبد: من أزبد أخرج الزبد، الخطر: من تحريك اليدين في المشى والاختيال بهما. انقمع: دخل بعضه في بعض، والمعنى إنّه يتعاظم إذا لم يرني وإذا رآني تضآل.

[2]الضوع: ذَكَرُ البوم. يزقو: يصيح.

[3]ابن جلا: أي: ابن المُنكشف الأمر، وزعم بعضهم أنَّ ابن جلا اسم لرجل كان صاحب قارات مشهورة، الخِزانة، 256/1 وابن جلا هو من عبارات المدح قال العين المنقري يهجو رؤبة: إنِّي أنا ابن جلا إنْ كنتَ تعرفني يا ربَ والحيّةُ الصمّاء والجبل، الخِزانة، 257/1 طلاع الثنايا: يعني الجبال والأماكن العالية لينظر إلى العدو وهي من مخائِل الشَّجاعة ،قال دريد بن الصِّمّةِ في الرثاء: كميش الإزار خارج نصف ساقه بعيد من السوءات طلاع أنجد، الخِزانه، 260/1 وقوله: متى أضع العمامة تعرفوني: أي: متى أنزع العمامة تعرفوني ؛لانحسار شَعر رأسِي ،وهي من مخائل الشَّجاعة عند العرب. وقوله ابن جلا: أي: ملازم للجلا، الخِزانة، 258/1

[4]الرجز لرويشد بن رصيف العنزي قاله في الحطم واسمه: شريح بن صحبية: الَّذي أنقذهم من الهلاك بسوقه الإبل سوقاً عنيفاً فنجو من الهلاك والعطش، ينظر، البيان والتبين، 308/2

[5]زيم: اسم ناقته. لفها: الضمير للإبل. بسواق حطم: أي: سائق شديد.

[6]الوضم: كل ما قطع عليه اللَّحم.

قَـــــدْ لَفَّهـــــا اللَّيـــــلُ بِعَصْـــــلَبِيّ أَرْوَعَ خَـــــرَّاجٍ مـــــن الـــــدَّوِّىِّ[1]

مُـــهـــاجِـــرٍ لَيْسَ بأعرابـــي

إنِّي والله يا أهل العِراق، والشِّقاقِ والنِّفاقِ، ومساوئ الأخلاق، ما أُغْمَرُ تغمازَ التِّين، ولا يُقعقع لي بالشِّنان...)[2]

إنَّ أبياته الَّتي ساقها في خطبته هذه لها صِلة بالحماسة والحرب، ليبين لأهل العراق منذ يومه الأوَّل أَنَّه رجل شِدَّة وحرب، ولا يصلح معهم إلَّا هذا الضَّرب من اللفظ والنوع من البشر، أعني الحجَّاج وزياد بن أبيه وأمثالهم، وذلك لطبيعة أهل العِراق الثائرة على خُلفائها وولاتها.

وفي موضع آخر يتمثل لهم- وهو على المِنبر- ببيتين الهمداني:[3] إذ يقول[4]

وَكُنْـــتُ إِذَا قَـــوْمٌ غَزَوْنـــي غَـــزَوتُهم فَهَـــلْ أَنْـــتَ فـــي ذا يالَهْمـــدان ظـــالِمُ

مَتـــى تَجْمَـــعِ القَلْـــبَ الـــذَكيَّ وَصَـــارِماً وَأَنْفَـــاً حَمِيَّمـــاً تَجْتَنِيـــكَ المَظَـــالِمُ

ومعني البيتين ،أنَّه مظلوم وليس بظالم.

راوح الحجَّاج بين المعاني الخطابية والمعاني الشِّعرية، وهذا أمر محمود يخدم المعنى ويوصله إلى سامعيه قال القرطاجني (إنَّ التخيل هو قوام المعاني الشِّعرية والإقناع هو قوام المعاني الخطابية، واستعمال الإقناع في الأقاويل الشِّعرية سائغ إذا كان ذلك على جهة الإلماع في موضع بعد موضع، كما أنَّ التخاييل سائغ استعمالها في الأقاويل الخطابية، في الموضع بعد الموضع؛ وإنَّما ساغ لكليهما أنْ يُسْتَعمل يسيراً فيما تتقوم به الأخرى؛ لأنَّ الغرض من الصناعتين واحدٌ، وهو إعمال الحِيلة في إلقاء الكلام من النُّفوس بمحل القبول لتتأثر لمقتضاه، فكانت الصناعتين متواخيتين لأجل

---

[1]العصلبي: الشديد. الأروع: الكريم الجسيم السيد وقِيل هو الجميل. الدَّوِّىّ: الصحراء.

[2]البيان والتبين 308/2

[3]هو عمر بن براقة الهمداني، شاعر جاهلي من عدائي العرب ذكره تأبط شراً في المفضليات إذ يقول: ليلة صاحوا وأغروا بي سراعهم*** بالعيكتين لدى معد ابن براقِ، البيان والتبين، 138/2

[4]الحجَّاج بن يوسف المُفترى عليه، 271 البيان والتبين، 138/2

اتفاق المقصد والغرض فيهما. فلذلك ساغ للشاعر أن يخطب لكن في الأقل من كلامه، وللخطيب أن يشعر لكن في الأقل من كلامه)[1]

2- تمثله بالشِّعر في مواقف مختلفة: تمثل بقول الشاعر لَمَّا مات ولده مُحمّد:[2]

عزائـــي نبـــيُّ اللهِ مِـــنْ كُـــلِّ مَيّـــتٍ وحَسْـــبي ثَـــوابُ اللهِ مِـــنْ كُـــلِّ هالِـــكِ
إذا مَـــا لَقِيْـــتُ اللهَ عَنَّـــي راضـــياً فـــإنَّ سُـــرورَ الـــنَّفْسِ فِيْمَـــا هُنالِـــكِ

قال سمرة بن جندب (لَمَّا مات ولد الحجَّاج مُحمّد، وانصرفنا من جنازته، اجتزتُ بشيخٍ من بني عقيل، فقال لي: من أين؟ فقلتُ من جنازة مُحمّد بن الحجَّاج بن يوسف، فأنشد الشيخ قائلاً:

فَـــذُوقُوا كَمَـــا ذُقْنْـــا غَـــداةَ مُحَجَّـــرٍ مِـــنْ الغَـــيْظِ فـــي أَكْبَادِنَـــا والتحـــوُّبُ[3]

قال: وكان الحجَّاج قد قتل ابناً للشَّيخ)[4]

وتمثل لَمَّا غَضِبَ عليه عبد الملك- بقول الشاعر:[5]

فَلَـــوْ كَفـــيِّ اليَمِـــيْنُ بَغَتْـــكَ خَوْفـــاً لأَفْـــرَدْتُ الـــيَمِنَ مِـــنْ الشِّـــمَالِ

هذا البيت شبيه ببيت المُثقب العبدي[6] في نونيته:[7]

فـــإنِّي لَـــوْ تُخَـــالِفُنِي شِـــمَالِي خِلافَـــكَ مَـــا وَصَـــلْتُ بِهَـــا يَمِيْنِـــي

وكان يتمثل إذا أبصر ما يسره ويدخل في هذا قوله

للمُهلَّب بن أبي صُفرة،: أنتَ والله كما قال لقيط بن يعمر الإيادي:[8]

وَقَلِّـــــدُوا أَمـــــرَكُم للهِ دَرّكُـــــمُ رَحْـــبَ الـــذِّراعِ بـــأمرِ الحـــرْبِ مُضْـــطَلِعَا

---

[1] المِنهاج، 361
[2] العِقد الفريد، 182/4
[3] التحوّب: صوت مع التوجع وهو صوت الحزن.
[4] أمالي الزَّجاجي، 16 البيت لطُفيل الغنوي في دِيوانه، 14
[5] الخِزانة،138/2
[6] عائذ بن محصن بن ثعلبة، والمُثقب لقبه لقوله (وثقبن الوصاوص للعيونِ) شاعر جاهلي فحل، كان في زمن عمرو بن هند، ينظر، المفضليات،149
[7] المفضليات، 288
[8] دِيوان لقيط بن يعمر الإيادي، تحقيق: عبد المجيد خان، دار الأمانة مُؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، 1971م 47، 49

لاَ يَطْعَـــمُ النَّـــوْمَ إِلَّا رَيْـــثَ يَبْعَثُـــهُ هَـــمٌّ يَكـــادُ حَشَـــاهُ يَقْـــبضُ الضَـــلَعَا
لا مُتْرفـــاً إنْ رخَـــاءُ العـــيشِ ســـاعَدَهُ وَلَا إذَا عَـــضَّ مَكْـــرُهٌ بِـــهِ خَشَـــعَا
مَـــا زالَ يَحْلُـــبُ هـــذا الـــدَّهرَ أشـــطُرَهُ يَكُـــون مُتَّبِعـــاً طَـــوْراً ومُتَّبَعـــا[1]
حَتَّـــى اسْـــتَمَرَّتْ علـــى شَـــزْرٍ مَرِيرَتـــه مُسْـــتَحْكِمُ الـــرَأي لا قَمْحَـــاً ولا ضَـــرَعا[2]

وكان يسمع أخبار المُهلَّب بمزيد من اللهفة والإعجاب، وشاهد ذلك القصَّة الَّتي رواها الوليد بن هشام (من وفادة زيادٍ الأعجم[3] على حبيب بن المُهلَّب، وهو بخرسان، فبينما هو وحبيب ذات عشيةٍ يشربان، إذ سَمِعَ زياد حَمَامَةً تُغنِّي على شجرةٍ كانت في دار حبيب بن المُهلَّب، فقال:

تَغَنَّـــىْ أنْـــتِ فـــي ذِمَمِـــي وجَـــارِي بـــأنْ لَا يَـــذْعَرُكِ وَلَـــنْ تُضَـــاري
إذَا غَنَّيْتِنِـــــي وَطَرِبْـــــتُ يَومـــــاً ذَكَـــــرْتُ أَحِبّتِـــــي وَذَكَـــــرْتُ دارِي
فَإِمَّـــا يَقْتُلُـــوكِ طَلَبْـــتُ ثـــأْراً بَقَـــتْلِهِمُ، لأنَّـــكِ فـــي جِـــواري

فأخذ حبيبٌ سهماً فرماها فقتلها. فقال زيادٌ: يا حبيب، قَتَلْتَ جاري، بيني وبينك المُهلَّب، فاختصما إلى المُهلَّب، فقال المُهلَّبُ: زيادٌ لا يُرَوَّعُ جارُهُ، قد لَزِمتكَ الدِّية ألف دينارٍ! فقال حبيب: إنَّما كنتُ أَلْعَبُ. فقال المُهلَّب ادفع إليه، فدفع إليه ألف دينار. فقال زيادٌ:

فَلِلّـــهِ عَيْنَـــا مَـــنْ رَأى كَقَضِـــيةٍ قَضَـــى لِـــي بِهَـــا شَـــيْخُ العِـــراقِ المُهَلَّـــبُ
قَضَـــى أَلْـــفَ دِيْنَـــارٍ لِجَـــارٍ أَجَرْتُـــهُ مِـــنَ الطَّيـــرِ حَصّـــانٍ عَلَـــى البَـــيْضِ يَنْعَـــبُ

فبلغت القصَّة الحجَّاج. فقال: ما أخطأتِ العربُ حيث جعلتِ المُهلَّبَ رَجُلَهَا"[4]

وغناء الحمام له رَجِمٌ بتحريك سهو العقول، وايقاظ دفائن الذكريات، وتبعق المُقل دمعاً، قال الرِّياشيّ:[5]

ألا قَاتَـــلَ اللهُ الحَمَامَـــةَ غُـــدْوَةً عَلَـــى الفَـــرْعِ مـــاذا هيّجَـــتْ حِـــيْنَ غَنّـــتِ

---

[1]رواية الدِّيوان (ما انفك يجلب درّ الدهر)
[2]رواية الدِّيوان (مُستحكم السَّن) وقوله: على شزر مريرته: هذا مثل يُضْرَب يقال: شزرت الحبل: إذا كررتُ فتله بعد استحكامه، والمرير: الحبل.
[3]أبو أمامة العبدي، من شعراء الدَّولة الأُمويَّة، جزل الشِّعر فصيح العبارة، كان في لسانه عجمة فلقب بالأعجم، مدح الكرماء وهجا البخلاء من الأمراء، مات سنة 100هـ، ينظر، الأعلام، 3/ 54
[4]أسامة بن منقذ (لباب الآداب) تحقيق: أحمد مُحمد شاكر، مكتبة السّنة الدَّار السَّلفية لنشر العِلم، ط1، 1987م، 264، 265
[5]أمالي الزَّجاجي، 15،16

تَغنّـــتْ غِنـــاءً أَعْجَميّـــاً فهيّجَـــتْ جَـــوايَ الَّـــذي كانَـــتْ ضُـــلوعي أجَنّـــتِ

والقول في الحمام أوفر من أنْ يُحصى في هذا الموضع، وحسب الباحث ما ستشهد به، وحِمى الحيوان والطَّير أمرٌ غير مُستحدث عند زيادٍ فحسب، بل هو أمرٌ شائعٌ عند العرب، على نحو ما حَمَى النُّعمان بن المُنذر كبشاً، فوثب عليه علباء[1] فذبحه، فأغضب ذلك النُّعمان فحمل إليه، فَلَمَّا مَثُل بين يدي النُّعمان أنشده قصيدةً طويلاً مُعتذراً، ومنها:[2]

وأيُّ مَلِيْـــكٍ مِـــنْ مَعَـــدٍّ عَلِمْـــتُمُ يُعَـــذِّبُ عَبْـــداً، ذِي جَـــلالٍ وَذِي كَـــرَمْ

أمِـــنْ أجْـــلِ كَـــبْشٍ لَـــمْ يَكُـــنْ عِنْـــدَ قُرَبـــةٍ ولا عِنْـــــدَ أذوادٍ رِتَـــــاع وَلا غَـــــنَمْ

يُمَشِّـــي كَـــأنَ لاحَـــىَّ بـــالجِزْعِ غَيْـــرَهُ ويَعْلـــو جـــرَاثِيمَ المَخِـــارِمِ والأكَـــمْ[3]

أُخَـــوَّفُ بالنُّعمـــانِ حَتَّـــى كَأنَّمـــا قَتَلـــتُ لَـــهُ خـــالاً كَرِيمـــاً أوْ ابْـــنَ عَـــمْ

وإنَّ يَـــدَ النُّعْمَـــانِ ليْسَـــتْ بِكَـــزَّةٍ وَلَكِـــنْ سَـــمْاءٌ تُمْطِـــرُ الوَبْـــلَ والـــدِّيَمْ[4]

لم يقف إعجاب الحجَّاج عند المُهلَّب فحسب، بل أُعْجِبَ بولده يزيد بن المُهلَّب، وقال:– حين نظر إليه يخطر في مشيه– لعن الله المُغيرة بن وجناء حيث يقول:[5]

جَمِيَـــلَ المُحَيـــا يَجْتَـــرِيء إذَا مَشَـــى وفـــي الـــدِّرعِ ضَـــخَمُ المَنْكِبـــينِ شِـــناقُ

فالتفت إليه يزيد فقال له: إنَّه يقول فيها:

شَـــدِيْدُ القُـــوى مِـــنْ أهْـــلِ بَيْـــتٍ إذا وهـــي مِـــنْ الـــدِّينِ فَتْـــقُ حُمْلِـــوا فأطـــاقوا

مَـــراجِيْحُ فـــي الـــلأواءِ إنْ نَزَلَـــتْ بِهِـــمْ مَيـــامِيْنُ قَـــدْ قَـــادُوا الجُيـــوشَ وسَـــاقوا

مدحهم بالشَّجاعة والِّدين ورجاحة العقل وحمل الأمانة، وحسن المظهر، فجمع لهم الفضائل من أقطارها.

إنَّ رِضى الحجَّاج عن المُهلَّب وآله كان قبل أنْ يسمع الأشعار الَّتي دسها الشُّعراء على آل المُهلَّب، لتحريك حمية الحجَّاج عليهم وأولها: قول العُديل بن الفرخ موازناً بين الحجَّاج وباب يزيد بن المُهلَّب

---

[1] عِلْبَاءٌ بن الأرقم بن عوف، شاعر جاهلي كان معاصراً للنُّعمان بن المُنذر، ينظر ،مُعجم الشُّعراء،304، الخِزانة، 367-364/4

[2] الأصمعيات، 158، 159

[3] الجزع: بكسر الجيم منعطف الوادي وجانبه. الجراثيم: الأماكن المرتفعة من الأرض. المخارم: الطرق في الجبال.

[4] كزَّة: أي :منقبضة يعني أنَّه ليس ببخيل.

[5] الأغاني، 100/13

رافعاً من قدر يزيد خافضاً من قدر الحجَّاج، وثانيها: قول عبد الله بن عامر مُحرضاً الحجَّاج على آل المُهلَّب عُموماً ولابنه يزيد على وجه الخصوص، قائلاً:

لأنَّـــه كَـــاسَ فـــي إطـــلاقِ أُسْـــرته وقَـــادَ نَحْـــوَكَ فـــي أغَلالَهِـــا مُضَـــرا
وقـــى بِقَوْمِـــكَ وِرْدَ المَـــوتِ أُسْـــرَتَهُ وَكَـــانَ قَوْمَـــكَ أدنـــى عِنْـــدَهُ خَطَـــرا

فأطرق الحجَّاج ملياً ووقرت الكلمة في نفسه)[1] (وكان ذلك من الأسباب الَّتي دعت الحجَّاج إلى عزل آل المُهلَّب وحبسهم فيما بعد)[2]

وظل الحجَّاج راويةً للشِّعر حَتَّى أيامه الأخيرة، ولَمَّا حضرته الوفاة أنشد مُتمثلاً بقول الشاعر:[3]

إنَّ الَمـــوالي إنْ شَـــابَتْ عَبيـــدُهُمُ فـــي رِقْهِـــم عتقـــوهم عِتْـــقَ أَبـــرارِ
وَأَنْـــتَ يـــا خَـــالِفي أَولـــى بِـــذَا كَرَمـــاً قَـدْ شِـبْتُ فـي الـرِّقِ فَـاعْتِقنِي مِـنْ النَّـارِ

وأنشد أيضاً:[4]

يَـــا رَبِّ، قَـــدْ حَلَـــفَ الأَعْـــداءُ وَاجْتَهَـــدوا أَيمَـــانهم أَنَنَـــي مِـــنْ سَـــاكِنِي النَّـــارِ
أَيحلفـــون عَلَـــى عَمْيَـــاءَ وَيْحَهُـــمُ!! مَـــا ظَـــنهُمُ بِعظـــيمِ العَفْـــوِ غَفَـــارِ

[1] الحجَّاج بن يوسف المُفترى عليه، 288
[2] المرجع نفسه، 288
[3] البداية والنهاية، 324/9
[4] المرجع نفسه، 411، عيون التواريخ، 275

المبحث الثالث:

إعجاب الحجَّاج بن يوسف بالشعر ومشاركته في نقده بحسب أغراضه:

كان الحجَّاج بليغاً فصيحاً وناقداً لا يُشق له غُبار، وهو أحد العُلماء الَّذين تجافى عنهم اللحن، والعِي، والحصر، قال الأصمعي: (أربعة لم يلحنوا في جدٍّ ولا هزلٍ: الشّعبيُّ، وعبد الملك بن مروان، والحجَّاج بن يوسف، وابن القِرِّيَّة، والحجَّاج أفصحُهم)[1]

وهو أوَّل من استخدم كلمتي (مطبوع ومصنوع) في العصر الأُموي وهي مصطلحات نقدية، وذلك لَمَّا سَمِعَ كلاماً بليغاً من أحد قادة جيشه فقال له: (أقسمتُ عليك هل روأتَ– أي ترويتَ وتفكرتَ– في هذا الكلام؟ قال: ما أطلع الله عليه أحداً، فقال الحجَّاج لجلسائه: هذا والله الكلام المطبوع، لا الكلام المصنوع)[2]

يرفع الخبر هذا من رُتبته النَّقدية ويجعله سابقاً لفتق أكمام مُصطلحات النَّقد، مع ما سبق من روايته وتذوقه للشِّعر جامعاً بين الرواية والنَّقد، فقد خُلِطت مجالسة الأدبيَّة بتعليقات نقدية وضعها الباحث وفقاً لأغراض الشِّعر العربي وهي.

أوَّلاً المدح: ينقسم من حيث معالجة الموضوع إلي قسمين:

1. مدحه بالشِّعر:

مدحه شعراء كُثرٌ يذكر الباحث منهم: عمران بن حطان، والفرزدق، وجريراً.

قِيل إنَّ عمران بن حطان هجا الحجَّاج بقوله:

أسَدٌ عليّ وفي الحُروبِ نَعَامةٌ رَبْداءُ تنْفِرُ مِنْ صفِيْر الصافِرِ

وهرب من يد الحجَّاج، فقبض عليه فقال للحرس: اضرب عنقَ ابن الفاعلة، فقال عمران: بئس ما أدبك أهلك يا حجَّاج! أبعد الموت منزلة أصانعك عليها؟ فقال الحجَّاج: صدق، أطلقوا عنه، فَلَمَّا انطلق إلى الخوارج أمروه بقتال الحجَّاج، فقال: هيهات غلّ يداً مُطلِقها، واسترق رَقَبةً مُعْتِقُها ثُمَّ أنشد:

---

[1] أمالي الزَّجاجي،20

[2] المثل السائر،338/2، 340

أَ أُقَاتِـــلُ الحجَّـــاجَ عَـــنْ سُـــلطانِه ... بِيـــــدٍ تُقِـــرُّ بأنَّهـــــا مولاتُـــــهُ
إنّـــــي إذاً لأَخِ الأنـــــاءَةِ والَّـــــذي ... عَفّـــت عَلَـــى عِرْفانِـــه جَهَلاتُـــهُ
مَـــاذا أقـــولُ إذا وَقَفْـــتُ مُوازِيـــاً ... فـــي الصَّـــفِ واحْتَجَّـــتْ لَـــهُ فَعَلاتُـــهُ
وَتَحَـــدَّثَ الأَكْفَـــاءُ أَنَّ صَـــنائِعاً ... غُرِســـتْ لـــدَّى فَحَنّظَلَـــتْ نَخَلاتُـــهُ
أَ أَقُـــولُ جَـــارَ عَلَـــيَّ، إنّـــي فـــيكمُ ... لَأَحـــقُّ مَـــنْ جـــارتْ عليـــه وُلاتُـــهُ
تـــاللهِ لاكِـــدْتُ الأميـــرَ بآلـــةٍ ... وجـــوارحي وســـلاحُها آلاتُـــهُ

ذِكرُ عمران بن حطان في هذه الحكاية وَهْمٌ؛ وكذا وقعت في (زهر الآداب) وفي غيره من الكُتب؛ لأنَّ عمران بن حطان كان من القعدة، ولم يكن يحضر القتال، وإنَّما هو عامر أخو عمران)[1]

وكان الخوارج من أوفى النَّاس عهداً، وذلك جزء من عقيدتهم الراسخة، فالرجل بكلمة أبرمها للحجَّاج أغمد سيفه، وأرسل بلسانه مادحاً ومعظماً صنيعه معه، وكان الحجَّاج عرّافاً بهذه الصِّفة فيهم؛ ولذلك خلىّ سبيله، ولو أن الرجل كان من أي ثورة أخرى لضاق موضع الصَّفح، كما صنع مع أعشى همدان وعُمير بن ضابئ، وسيأتي خبرهما عند ذِكْرِ الجمع بين الهجاء والمدح. وهنالك نفر مدحوا الحجَّاج للتكسب والعطاء، وجاءت أشعارهم في غاية الجمال والنضج مستوعبة معاني المدح، بعيدة عن العيب، وقعت عند الممدوح موقعاً حسناً، قال الفرزدق يمدحه:[2]

إنَّ ابـــنَ يُوسُـــفَ مَحْمُـــوُدٌ خَلائِقُـــهُ ... سِـــيانِ مَعْرُوفُـــهُ فـــي النَّـــاسِ والمَطَـــرُ
هـــو الشِّـــهَاب الَّـــذِي يُرْمَـــى العَـــدَّو بِـــهِ ... والمَشْـــرَفيُّ الَّـــذِي تُعْصَـــىَ بِـــهِ مُضَـــرُ[3]

مدحه بالكرم والشَّجاعة، مشبهه بالمطر في النفع والعطاء والشِّهاب في الفتك وتَصيد الأعداء.

لجرير مدح عذب للحجَّاج في قصيدة طويلة نأخذ منها قوله:

سَـــئِمْتُ مِـــنَ المُوَاصَـــلَةِ العِتَابَـــا ... وَأَمسَـــى الشَّـــيبُ قَـــدْ وَرِثَ الشَّـــبابَا
دَعَـــا الحَجَّـــاج مِثْـــلَ دُعـــاءِ نُـــوْحٍ ... فَأَســـمَعَ ذَا المَعـــارِجِ فاسْـــتَجابَا

[1]ابن الأبّار: أبي عبد الله مُحمد بن عبد الله أبي بكر (إعْتابُ الكُتّاب) تحقيق: صالح الأشتر، مطبوعات مجمع اللُّغة العربيَّة دمشق، ط،1961،1م، ص61، 62
[2]دِيوان الفرزدق 301
[3]المشرفي: السَّيف . تعصى هنا: تضرب، من العصا. مضر: اسم لقبيلة.

صَـبَرْتْ الـنّفسَ يَـا بـنَ أَبـي عَقيـلٍ مُحافَظَـــةً فَكَيْـــفَ يَـــرَى الثَّوابَـــا
وَلَـــوْ لَـــمْ يَـــرْضَ رَبُّـــكَ لَـــمْ يُنَـــزِّلْ مَـــعَ النَّصْـــرِ المَلائِكَـــةَ الغِضَـــابَا
إِذَا سَـــعَرَ الخَليفَـــةُ نَـــارَ حَـــرْبٍ رَأى الحَجَّـــاجَ أَثْقَبَهَـــا شِـــهَابَا
عَفَارِيـــتُ العِـــراقِ شَـــفَيْتَ مِـــنْهُمْ فَأَمْسَـــوْا خَاضِـــعِينَ لَـــكَ الرِّقَابَـــا
وَقـــالُوا: لَـــنْ يُجامِعَنَـــا أَمِيـــرٌ أَقَـــامَ الحَـــدَّ واتّبَـــعَ الكِتابَـــا

وأعطاه الحجَّاج جاريةً وهي أُمّ ولده بلال وحزرة وحكيم وكانت تُسمى باسم هذا الأخير (أُمّ حكيم))[1]

أُعْجِبِ الحجَّاج بالصِّبغة الدِّينية الَّتي وردت في القصيدة، ولذلك وهبه الجارية.

لقد أفرغ جرير في مدائحه للحجَّاج المعاني الدِّينية الَّتي يُتَمدَّحُ بها من إقامة العدل، ووأد الفِتنة، ومنع الرشا، وحماية الحجيج، والشِّدة على المُنافقين، والغيرة على الحُرم، قائلاً:[2]

مَـــنْ سَـــدَّ مُطّلَـــعَ النّفـــاقِ عَلَـــيْهِمِ أَمْ مَـــنْ يَصُـــولُ كَصَـــوْلَةِ الحَجَّـــاجِ
أَمْ مَـــنْ يَغـــارُ عَلَـــى النِّســـاءِ حَفيظَـــةً إذ لَا يَـــــــثِقْنَ بِغَيْـــــــرةِ الأَزْوَاجِ
إِنَّ ابـــنَ يُوسُـــفَ فَـــاعلَموا وَتَيَقَّنُـــوا مَاضِـــي البَصِـــيرةِ وَاضِـــحُ المِنْهَـــاجِ
قَـــاضٍ عَلَـــى الغَمَـــراتِ يُمْضِـــي هَمَّـــهُ واللَّيْـــلُ مُخْتَلِـــفُ الطّرائِـــقِ داجِـــي
مَنَـــعَ الرُّشَـــا وَأَراكُـــمُ سُـــبُلَ الهُـــدَى وَاللِّـــصَّ نَكّلَـــهُ عَـــنِ الإِدْلاجِ
فَاسْـــتَوثِقُوا وَتَبَيّنُـــوا سُـــبُلَ الهُـــدَى وَدَعُـــوا النَّجـــيَّ فَلَـــيسَ حِـــيْنَ تنـــاجي
يَـــارُبَّ ناكِـــثِ بَيْعَتَـــينِ تَرَكْتَـــهُ وَخِضـــــابُ لِحْيَتِـــــهِ دَمُ الأَوْدَاجِ
وإِذَا رَأَيْـــتَ مُنـــافِقِينَ تَخَيَّـــرُوا سُـــبُلَ الضَّـــجَاجِ أَقَمْـــتَ كُـــلَّ ضَـــجاجِ
داوَيْـــتَهُمْ وَشَـــفَيْتَهُمْ مِـــنْ فِتْنَـــةٍ غَبـــراءَ ذاتِ دَوَاخِـــنٍ وَأُجَـــاجِ
إِنِّـــي لَمُرْتَقِـــبٌ لِمَـــا خَـــوَّفْتَني وَلِفَضْـــلِ سَـــيْبَكَ يـا بـن يُوسُـفَ رَاجـي
وَلَقَـــدْ كَسَـــرتَ سِـــنانَ كُـــلّ مُنـــافِقٍ وَلَقَـــدْ مَنَعْـــتَ حَقائِـــبَ الحُجَّـــاجِ

جمع الشاعر في البيت قبل الأخير بين الخوف من العِقاب، والتزلف والاستجداء بالعطاء تصريحاً لا تلميحاً، فهو لا يصدر عن عاطفة صادقة لا تروم غير المدح، ولقد نال الشاعر بُغْيَتَهُ فخلع عليه الحجَّاج عطيّةً.

[1] دِيوان جرير، 16، 18، الأغاني،66/7
[2] دِيوان جرير، 90، 91

2. تقويمه لمعاني المدح: كان الحجَّاج يُرشد الشُّعراء إلى المعاني الَّتي تَصْلُحُ في المدح ، وله خبر مع الفرزدق وجرير وخبر مع ليلى الأخيلية.

أَمَّا خبره مع الفرزدق وجرير في تقويم معاني المدح، فيروى أَنَّه قال لهما: (–وبين يديه جارية – أيكما مدحني ببيت فضل فيه صاحبه فهذه الجارية له. فقال الفرزدق:

فَمَـــنْ يَـــأْمَنُ الحَجَّـــاجَ والطَّيـــر تَتَّقِـــى عُقُوبَتَـــــهُ إِلَّا ضَـــــعِيفٌ عَزَائِمُـــــهْ

وقال جرير:

فَمَـــنْ يَـــأْمَنُ الحَجَّـــاجَ أَمَّـــا عِقَابُـــهُ فَمُـــــرٌّ وأَمَّـــــا عَقْـــــدُهُ فَوَثِيْـــــقُ

فقال الحجَّاج: (والطَّير تتقى عُقُوْبته) كلام لا خير فيه؛ لأَنَّ الطَّير تتقى كُلَّ شيءٍ الثوب والصَّبيَّ وغير ذلك خذها يا جرير)[1]

ولو قال: (والأُسْدُ تتقى عقوبته) كان أظهر لقوة وسطوة الممدوح. والطَّير تتقى كُلَّ شيء كما قال الحجَّاج. فهي تنفر من :الغُلام، والجوارح من الطَّير، والشراك ،والصَّائد. وأحسن زُهير بن أبي سُلمى[2] حيث جمع كُلَّ هذه الأشياء في قصيدة طويلة نجتزئ منها:

كأنَّهـــا مِـــنْ قَطَـــا الأجْبـــابِ حَلأهـــا وِرْدٌ وأفـــرَدَ عنْهَـــا أُخْتَهـــا الشّـــرَكُ[3]

أهَـــوى لَهَـــا أَسْـــفَعُ الخَـــدْينِ مُطّـــرِقٌ رِيـــشَ القـــوادِمِ لَـــمْ يُنْصـــبْ لَـــهُ الشَّـــبَكُ[4]

لا شـــئَ أسَـــرعُ مِنْهـــا وَهـــىَ طيّبَـــةٌ نَفْســـاً بِمَـــا سَـــوْفَ يُنْجِيْهَـــا وَتَتّـــرِكُ[5]

دُونَ السَّـــماءِ وَفَـــوْقَ الأَرْضِ قَـــدْرُهُمَا عِنْـــدَ الـــذُّنابَى، فَـــلا فَـــوْتٌ ولا دَرَكُ

عِنْـــدَ الـــذُّنابَى لَهَـــا صَـــوْتٌ وَأَزْمَلَـــةٌ يَكـــادُ يَخْطِفُهـــا طَـــوْراً وَتهتِلـــكُ[6]

حَتّـــى إِذا مَـــا هـــوتْ كَـــفُّ الوَليـــدِ لَهَـــا طَـــارَتْ وَفِـــي كَفّـــهِ مِـــنْ ريشـــهَا بتَـــكُ[7]

ثُـــمَّ اسْـــتَمَرّتْ إلـــى الـــوادي فَألجاهَـــا مِنْـــهُ وَقَـــدْ طَمِـــعَ الأَظْفَـــارُ والحَنَـــكُ[8]

حَتَّـــى اســـتَغاثَتْ بِمَـــاءٍ لا رِشـــاءَ لَـــهُ مِـــنْ الأبـــاطحِ فـــي حفاتِـــهِ البُـــرَكُ

---

[1]المُوشح، 224

[2]دِيوان زُهير بن أبي سُلمى، اعتنى به وشرحه حمدُو طمّاس، دار المعارف بيروت- لبنان، ط2، 2005م، ص42، 43

[3]الأجباب: الآبار. حلأها: طردها عن الماء. الورد: هم النَّاس الَّذين يردون الماء.

[4]أهوى: انحدر. اسفع الخدين: أي :صقر. مطّرق: أي: ريشه غير منتشر في جميع جسمه.

[5]تتّرك: أي لا تبذل جميع جهدها في الطَّير ثقتاً بسرعتها.

[6]الأزملة: هي اختلاط الأصوات. تهتلك: تجدّ في طيرانها.

[7]البتك: بعض ريشها، يعني أنَّ الوليد أخذ بعض ريشها.

[8]الحنك: أي :مِنقارها.

إنَّ بيت جرير يَفضلُ بيت الفرزدق في حُسن التقسيم، حيث جعل عِقابه مُرٌ، وعهده وثِيق.

وخبره الثاني مع ليلى الأخيلية إذ دخلت عليه مادحةً، بعد سنة أصابتها، مُرْسلة لِسانها بمعاني الإطراء بأشعار كثيرة، يأخذ الباحث مِنها أنموذجين، أنموذج وقع فيه الإصلاح لكلمة توحي بمعنى لا يصلح في المدح، بكلمةٍ موحيةٍ بالمدح قائلةً:

أَحَجَّـــاجُ إنَّ اللهَ أعْطَـــاكَ غَايَـــةً ... يُقَصِّـــرُ عَنْهَـــا مَـــنْ أَرَادَ مَـــداهَا

أَحَجَّـــاجُ لاَ يُفْلَـــل سِـــلاحُكَ إنَّمـــا الـــ ... مَنايـــا بِكَـــفِّ اللهِ حَيْـــثُ يَراهَـــا[1]

إذَا هَـــبَطَ الحَجَّـــاجُ أَرْضَـــاً مَرِيضَـــةً ... تَتَبَّـــعَ أَقْصَـــى دَائِهَـــا فَشَـــفَاهَا

شَـفَاهَا مِـنْ الـدَّاءِ العُضَـالِ الَّـذي بِهَـا ... غُـــلَامٌ إذَا هَـــزَّ القَنَـــاةَ سَـــقَاهَا[2]

سَـــقَاهَا دِمَـــاءَ المَـــارِقِيْنَ وَ عَلّهَـــا ... إذا جَمْحَـــتْ يَوْمَـــاً وَخِيْـــفَ أَذاهَـــا

إذَا سَـــمِعَ الحَجَّـــاجُ رِزَّ كَتِيبَـــةٍ ... أَعَـــدَّ لَهَـــا قَبْـــلَ النُـــزُولِ قِرَاهَـــا[3]

أَعَـــدَّ لَهَـــا مَصْـــقُوَلةً فَارِسِـــيّةً ... بأيْـــدِي رِجَـــالٍ يَحْلُبُـــونَ صُـــراهَا[4]

فَمَـــا وَلَـــدَ الأَبْكَـــارُ وَالعَـــوْنُ مِثْلَـــهُ ... بِنَجْـــدٍ وَلَا أَرْضٍ يَجِـــفُّ ثَرَاهَـــا[5]

فقال الحجَّاج: (قاتلها الله! والله ما أصاب صفتي شاعر مذ دخلت العراق غيرها، ثُمَّ التفت إلي عنبسة بن سعيد، فقال: والله إنّي لأعد للأمر عسى ألا يكون أبداً، ثُمَّ التفت إليها فقال: حسبك، فقالت: إنِّي قد قلت أكثر من هذا، قال حسبك ويحك! ثُمَّ قال يا غُلام اقطع لسانها {يعني بالصلة})[6]

وفي رواية أخرى: (لا تقولي غُلام بل قولي هُمام)[7]

أقرَّ الحجَّاج إحسانها في المدح وأرضاها بالمال، ورمَّ ما وقع منها من فساد في كلمة(غُلام) الَّتي تُوحي بالضَّعف، والطيش، والتخبط، واستعاض عنها كلمة (هُمام) الَّتي تباين المعنى وتحمل الوزن،

---

[1]يفلل: يثلم ويكسر.

[2]سقاها: رواها بالدم.

[3]الرزّ: الصوت. القرى: الاطعام، وهذا كناية عن عِدّة الحرب.

[4]المصقولة: أي: السيوف المجلوّة. الصرى: اللبن الَّذي تغيّرطعمه.

[5]الأبكار: الفتية. العون: الثيب. النجد: الأرض المرتفعة.

[6]الشِّعر والشُّعراء، 85/1، 86

[7].دِيوان ليلى الأخيلية، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت- لبنان، ص51

وهي أوفق مع أخواتِها في النهوض بالمعنى الحماسي الَّذي تمخض للشاعرة. أضف إلى ذلك أنَّها كلمة ذائعة في مُعجم الشُّعراء إذا راموا المدح والفخر، قال عامر ابن الطُفل[1] فاخراً بنفسه:[2]

لَقَـــدْ تَعْلَـــمُ الحَـــرْبُ أَنِّـــي ابْنُهَـــا وَأَنِّـــي الهُمَـــامُ بِهَـــا المُعْلَـــمُ

قال مروان بن حفص[3] في مدح معن بن زائدة[4]:[5]

هُمَـــامٌ إِمَـــامٌ لَـــهُ قُـــدْرَةٌ تَـــذِلُّ الرِّقَـــابُ لآياتِهَـــا

فَـــلاَ مَجْـــدَ فِـــي الأَرضِ لَـــمْ يَبْنِـــهِ ولا غَايَـــةً فِيْـــهِ لَـــمْ يَأتِهَـــا

وسرعان ما مدحته في المجلس نفسه ببيتين بريئين من عُيوب المدح، قائلة:[6]

حَجَّـــاجُ أَنْـــتَ الَّـــذي مَـــا فَوْقَـــهُ أَحَـــدٌ إلَّا الخَليفـــةَ والمُسْـــتَغْفِرُ الصَّـــمَدُ

حَجَّـــاجُ أَنْـــتَ شِـــهابُ الحـــرْبِ إنْ لَقِحـــت وأَنْـــتَ للنَّـــاسِ نُـــوْرٌ فـــي الـــدُّجى يَقِـــدُ

هذه لُغةٌ عذبةٌ سهلةٌ مُأْنِوسةٌ للنَّفس، يعلو فيها قدر الممدوح عن عامة النَّاسِ حاشا الخليفة. فهو شِهاب في ليلٍ داجٍ وذلك أظهر لضوئه وتوقده، إنَّ كلمة (شهاب) تحمل في طياتها معنى القهر للعدو والتفوق عليه، وهكذا جاءت في القرءان قال تعالى حاكياً عن الجنِّ: "وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا"[7] فهي لقهر العدو وحماية خبر السَّماء،قال الله عزَّ وجَّل –وفي موضع آخر–: "إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ"[8]

فهو شِهاب الحرب إنْ لَقِحَتْ استعارت للحرب صِفه اللِّقاح، فهي تُلْقَحُ وتنتج وتُتْئِم، قال زُهير:[9]

فتَعـــركُمُ عَـــرْكَ الرَّحَـــى بِثفالِهـــا وتَلْقَـــحْ كِشَـــافاً ثُـــمَّ تُنْـــتِجِ فتُتْـــئِمِ[10]

---

[1]فارس قومه وأحد فتاك العرب وشعرائها وساداتها في الجاهلية، كنيته أبو علي، أدرك الإسلام شيخ فلم يسلم، مات سنة 11هـ، له دِيوان شِعر، ينظر، الأعلام، 3/ 252

[2]دِيوان عامر بن الطفيل، 119

[3]وُلِدَ سنة 105هـ باليمامة، شاعر عالي الطبقة أدرك الدَّولتين الأُمويَّة والعبَّاسية، مدح المهدي والرشيد ومعن بن زائدة، وجمع ثروات هائلة، مات ببغداد سنة 182هـ، ينظر، الأعلام، 7/ 208

[4]أبو الوليد الشيباني، وُلِدَ سنة 105هـ من أشهر أجواد العرب، وأحد الفرسان الفصحاء، مدح المُهلَّب بن أبي صُفرة وبنيه، ولاه المنصور العبَّاسي اليمن وسجستان، قُتِلَ سنة 151هـ، وللشُّعراء فيه أماديح ومراثي، ينظر، الأعلام، 7/ 273

[5]شِعر مروان بن أبي حفص،تحقيق :حُسين عطوان ،دار المعارف المصرية،ط3، 27

[6]الشِّعر والشُّعراء، 85/1، 86

[7]سورة الجن، الأية:8

[8]سورة:الحِجر، الأية:18

[9]دِيوان زُهير بن أبي سُلمى، ص68

[10]ثفال الرحى: هي الجلدة الّتي توضع تحت الرحى لينزل الطحين عليها. تلقح: أي: تحمل. الكشاف: هو لقاح النعجة مرتين في العام الواحد. النتاج: هو الولادة.

قال ابن عُباد[1] واصِفاً لها:[2]

قَرِّبـــــا مَـــــرْبِطَ النَّعامَـــــةِ مِنِّـــــي لَقِحَـــتْ حَـــرْبُ وائـــلٍ عَـــنْ حِيـــالِ

لقد أحسنتْ ليلى في توظيف هذه المعاني لإظهار سطوه الممدوح وقُوته على سائر خصومه، مستخدمة البلاغة لإيصال جمال معانيها حيث نادته نداء القريب بحذف أداة النداء في صدر البيت الأوّل والثاني (حجَّاج) وشبهته بالشِّهاب والنور، واستعارت للحرب صِفة اللِّقاح وطابقت بين (النور والدجى) فأرضت الممدوح والمُستمع معاً.

وكان هذا المجلس مُتْرَعَاً بأشعارها ولها خبر وشِعر يُورِده الباحث في المبحث القادم عند ذِكر الرثاء.

ثانياً: الهجاء: قسمه الباحثُ إلى قِسمين هما: 1–الهجاء المحض. 2–الجمع بين الهجاء والمدح.

للهجاءِ المحضِ طُرقٌ مِنها:

1– تَوَعده لِمَنْ هجاه:

لقد تَوَعَّد كَعْباً بن معدان الأشقر الَّذي كان في جيش الحجَّاج يحارب الأزارقة وقد هجا الحجَّاج يوماً، فقال:

إنَّ ابـــنَ يُوْسُـــفَ غَـــرَّهُ مِـــنْ غَـــزْوِكُمْ خَفْـــضُ الجَنـــاحِ بِجَانِـــبِ الأَمْصَـــارِ

لَـــوْ شَـــاهَدَ الصّـــفَّيْنِ حِـــيْنَ تَلَاقَيَـــا ضَـــاقَتْ عَليـــهِ رَحِيبَـــةُ الأَقْطـــارِ

وَرَأَى مُعـــــاوَدَةَ الـــــدِّبَاغِ غنيمَـــــةً أَيّـــامَ كَـــانَ مُحـــالِفَ الإِقْتَـــارِ

فَلَمَّا بلغت الأبيات الحجَّاج أرسل، إليه، فَلَمَّا مثل بين يديه قال له: إيه يا كعب (ورأى مُعاودةَ الدِّباغ غَنِيمة) فقال أيُّها الأمير، والله لوددتُ في بعض ما شاهدتُهُ من تلك الحُروب وأهوالها أنْ أنجو منها وأكون حجاماً أو حائِكاً، فقال الحجَّاج: لولا أنَّك احتميتَ بأميرِ المؤمنين ما نفعك ما أسمع فالحق بصاحبك، وكان قد احتمى بعبد الملك)[3]

---

[1] الحارث بن عباد بن ، شاعر جاهلي فارس شارك في حُروب البسوس وُعِرفَ بفرسه النَّعامة، وهو سيد من سادات بكر، ينظر، دِيوان بن عُباد، جمعه وحققه: أنس عبد الهادي أبو هلال، هيئة الثقافة والتراث أبو ظبي، المجمع الثقافي، ط1، 2002م، ص32، 33 ،46، 50

[2] المصدر نفسه، ص72

[3] الأغاني، 13/ 58 والأبيات في (شِعر كعب بن معدان الأشقر) جمعه وحققه :أحمد مُحمد عبيد ،دار الكُتب الوطنية أبو ظبي ،ص 77، 78

ويرجع هذا الهجاء إلى باعث نفسي وهو، إكراه الجنود واستنفار النَّاس لقتال الخوارج قهراً، واتخذ الحجَّاج أساليب غريبة مع الَّذين تخلفوا عن الحرب وهي: هدم الدَّار، واستباحة المال والنفس، والَّذي يظهر من أبياته أنَّه كان مُرْغماً ولذلك صدر منه ما صدر.

2- سؤاله عن بواعث الهجاء:

كان يسأل الشُّعراء عن بواعث الهجاء وأسبابه بين الخصوم، (سأل جريراً عن سبب التهاجي بينه وبين شعراء عصره فبيّن له جريرٌ سبب كُلِّ واحدٍ إلى أنْ قال الحجَّاج: ثُمَّ مَنْ؟ قال: ثُمَّ التميمي عمرو بن لجأ قال: ومالك وله؟ قال: حسدني فعاب عليَّ بيتاً كنتُ قلتُه، فحرفه، وهو:

لَقَـــوْمِي أَحَمْـــي لِلحقيقـــةِ مِـــنْكُمُ وَأَضْـــرَبُ للجَبَّـــارِ والنَقْـــعُ سَـــاطِعُ

وأوثـــقُ عِنْـــدَ المُرْهَفَـــاتِ عَشِـــيَّةً لحاقـــاً إذا مـــا جَـــرَّد السَّـــيفَ لامِـــعُ

فقال لي: إنَّما قُلْتَ: وأوثقُ عند المُرْدَفَاتِ عشِيَّةً

فصيّرتَ نساءك قد أُرْدِفت غُدْوَةً ولحقتهنَّ عَشِيّةً وقد فُضِحْن، ولم أقل كما حكى. قال الحجَّاج فَمَا قُلْتَ له؟ قال قُلْتُ له أُحذِّرُهُ وأُحذِّر قومه:

يـــا تـــيمُ تـــيمَ عـــدىٍّ لا أبـــا لَكُـــمُ لا يُلْقِيَـــنَّكُمُ فـــي سَـــوْءةٍ عُمَـــرُ

قال فنقض عليَّ بأشدِ ممَّا قُلْتُ له فقال:[1]

لَقَـــدْ كـــذبتَ، وشـــرُّ القـــولِ أكْذَبُـــهُ مـــا خـــاطرتْ بِـــكَ عَـــنْ أحْسَـــابِهَا مُضَـــرُ

رماه بالضَّعف المُتمثل في العجز عن حماية الظعن صباحاً وإدراكها ليلاً بعد أنْ ينال العدو منها نَهْمَتَه، وهو أمر في غاية القُبح، وكانت العرب- ولازالت- تنفر لحماية الظعائن قال ربيعة بن مُكدَّم[2] مُفتخراً بقتله من أراد ظعينته:[3]

إذ هِـــي لأوَلِ مـــا أتاهـــا نَهْـــزَةٌ لَـــولا طِعـــانُ رَبيعـــةَ بـــن مُكـــدَّمِ

وهتكـــتُ بـــالرّمحِ الطويـــلِ إهابَـــهُ فهـــوى صَـــرِيعاً لليـــدينِ وللفـــمِ[4]

---

[1] النقائض، 487، 488 الخِزانة، 2/ 300، 301

[2] شاعر جاهلي، وهو أحد فرسان مُضر المعدودين وشجعانها، توفى سنة 558م، ينظر، قصص العرب،3/ 476

[3] العِقد الفريد، 3/ 324

[4] الإهاب: الجلد.

قال عمرو بن معد كرب[1]:[2]

لَمَّـــــا رأيـــــتُ نِسَـــــاءَنا يَفْحَصْـــــنَ بـــــالمَعْزاءِ شَـــــدَّا[3]

وَبَـــــدتْ لَمِـــــيْسُ كأنَّهـــــا بَـــــدْرُ السَّـــــماءِ إذا تَبَـــــدَّى[4]

نازلـــــتُ كَبْشَـــــهُمُ وَلَـــــمْ أَرَ مِـــــنْ نِـــــزَالِ الكَـــــبْشِ بُـــــدّا[5]

ورماه أيضاً بالكذب وتخلف الحُبَى عنه فلا ظهير خلفه، ومن هنا كان موضع التفوق عليه.

3- روايته لأخبار الهجاء، لاستخلاص العبر والفوائد مِنها:

قال حمَّاد الراوية: (سأل أعشى قيس شجرة بن سُليمان العبسى حاجةً فردَّه، فقال يهجوه:

لَقَـدْ كُنْـتَ خَيْاطـاً فَأصَـبْحتَ فَارِسـاً تُعَـدُ إذا عُـدَّ الفَـوارسُ مِـنْ مُضـرْ

فَـإِنْ كُنْـتَ قَـدْ أنكـرتَ هـذا فَقُـلْ كـذا وَبـين لـي الجُـرحَ الَّـذِي كَـانَ قَـدْ دَثَـرْ

وَاصَـبعك الوسـطى عليـه شـهيدة وَمَـاذَاكَ إِلَّا وَخَـذَهَا الثَّـوبُ بـالإبَرْ

وكان شجرة خياطاً. قبل أنْ يلى للحجَّاج بعض أعمال الدَّولة، فَلَمَّا قَدِمَ على الحجَّاج قال له: يا شجرة، أرني اصبعك أنظر إليها.

قال:- أصلح الله الأمير- وما تصنع بها؟ قال: أنظر إلى صِفة الأعشى، فخجل شجرة، فقال الحجَّاج: مُر المُعْطِى أنْ يُعْطِي الأعشى من عطاء شجرة، كذا وكذا، ثُمَّ قال يا شجرة، إذا أتاك امرؤ ذو حسبٍ ولسانٍ فاشتري عِرْضَكَ مِنْهُ)[6]

هذا توجيه سياسي، بأنْ يتقي العامل في الدَّولة عِرْضَه بالمال؛ فَمَنْ لا يتقي الذَّم يُذْمَم، ولكي لا تضيع هيبة الدَّولة فيلغ العامة في لحوم رجال الدَّولة، أضف إلى ذلك إنزال النَّاس منازلهم وإكرام الشُّعراء بالصِّلة والعطاء.

2/ الجمع بين الهجاء والمدح:

---

[1]أبو ثور، من قبيلة زبيدة، فارس اليمن وشاعرها، له غارات مذكورة، وفد على النَّبيِّ ﷺ فأسلم، ثُمَّ ارتد بعد وفاة النَّبيِّ ﷺ ثُمَّ رجع إلى الإسلام وشَهِدَ الفتوحات الإسلامية، كان فيه قسوة الجاهلية، ينظر، الأعلام، 5/ 86

[2]شِعر عمرو بن معدى كَرِب الزُّبَيْدي، جمعه ونسقه: مُطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللُّغة العربيَّة بدِمشق، ط2، 1985م ص81

[3]المعزاء: الأرض الصلبة ذات الحجارة، ومعنى يَفْحَصْنَ: أي: يركضن في الأرض الصلبة ويصير بها لآثارهنَّ كالأفاحيص.

[4]لميس: اسم محبوبته، وكشفت عن وجهها لشدة الرعب.

[5]الكبش: الرئيس والسيِّد.

[6]الأغاني، 6/ 58

ثَمّة نفر مدحوا الحجَّاج بن يوسف خوفاً وتقيةً بعد أنْ ولغوا في هجائه، فغفر لبعضهم وسخط على بعضهم، يدخل في القسم الأوّل العدُيل بن الفرخ[1] حيث عَرّض ببخل الحجَّاج مُقارناً بين بابه وباب ابن المُهلَّب، واصِفاً الحجَّاج بالبخلِ والشُحِ، وأنَّه عِلْجٌ من أعلاج ثمود، قائلاً:

لـــئن أَرْتَـــجَ الحجَّـــاج بالبخـــلِ بَابَـــهُ ... فَبَـــابُ الفتـــى الأزدي بـــالعرفِ يُفْـــتَحُ[2]
فتـــى لا يبـــالي الـــدَّهر مـــا قَـــل مالـــه ... إذا جعلـــتْ أيـــدي المكـــارمِ تَسْـــنَحُ[3]
يـــداه يـــد بـــالعرفِ تنهـــبُ مـــا حـــوت ... وأخـــرى عَلَـــى الأعـــداءِ تَسْـــطُو وَتَجْـــرَحُ
أَقَـــامَ عَلَـــى العَـــافِيْنَ حُـــراسَ بَابِـــهِ ... يُنَـــادُوْنَهُمْ والحـــرُّ بـــالحرِّ يَفْـــرَحُ[4]
هلمـــوا إلـــى سَـــيْبِ الأمِيْـــرِ وَعَفْـــوَهُ ... فـــإنَّ عطايـــاه عَلَـــى النَّـــاسِ تَـــنْفَحُ[5]
وَلَـــيْسَ كَعِلْـــجٍ مِـــنْ ثَمُـــوْدَ بِكَفـــهِ ... مِـــنْ الجُـــوْدِ والمَعْـــرُوفِ حـــزم مطـــوحُ[6]

فقال له يزيد بن المُهلَّب: عرّضت بنا وخاطرت بدمك، فطلبه الحجَّاج فَلَمَّا ظَفِرَ به، مدحه تقيةً علّه يكون في مأمن، قائلاً:

بَنـــى قُبَّـــةَ الإســـلامِ حَتَّـــى كأنَّمـــا ... هـدى النَّـاسَ مِـنْ بَعـدِ الضَّـلالِ رسـوْلُ
إذَا جَـــارَ حُكْـــمُ النَّـــاسِ ألجـــأ حُكمَـــهُ ... إلـــى اللهِ قـــاضٍ بالكِتَـــابِ عَقُـــوْلُ
خَلِيْـــلُ أمِيْـــرَ المُـــؤمنين وَسَـــيْفُهُ ... لِكُـــلِّ إمـــامٍ صـــاحِبٌ وخَلِيْـــلُ
بـــه نَصَـــرَ اللهُ الخَلِيفـــةَ مِـــنْهُمُ ... وَثَبَّـــتَ مُلْكَـــاً كـــادَ عَنْـــهُ يـــزوْلُ
فَأَنْـــتَ كَسَـــيْفِ اللهِ فـــي الأرضِ خَالـــدٍ ... تَصـــولُ بِعـــونِ اللهِ حِـــيْنَ تَصُـــوْلُ
تَـــرَى الثَّقَلَـــيْنِ الجِـــنَّ والإنْـــسَ أَصْـــبَحَا ... عَلَـــى طَاعَـــةِ الحَجَّـــاجِ حِـــيْنَ يَقُـــوْلُ

وعفا الحجَّاج عنه)[7]

امتازت الأبيات الَّتي مُدِحَ فيها يزيدٌ بالفخامة، والجزالة، لِتُظْهِرَ قدر الممدوح عن مُنافسه الحجَّاج، وأشدّ أبياته هجاءً بيته الرابع إذا جعل الحرَّ بالحرِّ يفرح، فإذا كان الحجَّاج حُرّاً لفرح بالسائلينُ ولم

---

[1] العُديل بن الفرخ العجليّ، ولقبه العباب وكان العباب كلباً له، وهو من رهط أبي النَّجم شاعر أُموي، هجاء، هجا الحجَّاج وهرب إلى الروم ثُمَّ أدركه الحجَّاج، ينظر ،الخِزانة، 2/ 367، 368

[2] أرتج: أغلق. الفتى الأزدي: هو يزيد بن المُهلَّب الأزدي

[3] تنسح: أي: تبتعد وتذهب، فهو كريم في هذا الوقت.

[4] العافين: الفُقراء.

[5] السيب: العطاء.

[6] العِلج: الشديد الغليظ من الرجال.

[7] الأغاني، 22/ 334، 335 الشِّعر والشُّعراء، 375، البيان والتبين، 1/ 299، 300

يوصد الباب أمامهم، ولا يُستبعد هذا الفعل من علج ثمود وبهذا يشترك الأخير مع الَّذي ذُكِرَ في شدّة وقع الهجاء.

أمّا مدحه للحجَّاج فجاء بألفاظ عذبةٍ سهلة يربو فيها المعجم الإسلامي؛ لتقطعَ حُمّة الغيظ ويحصل بها على الاستعطاف، وأفلح فيما أراده، وليس صنيعه هذا من أقوى أسباب الصَّفح؛ بل صفح عنه لعلمه به أنَّه شاعر تكسب وعطاء، يتخبط الأبواب بحثاً عن المال، وهو نفسه يُصرِح في بيته قائلاً:

هلمـــوا إلـــى ســـيبِ الأميـــرِ وعرفـــه فـــإن عطايـــاه علـــى النَّـــاس تُـــنْفَحُ

ولو كان الشاعر شاعر ثورة يُألِّبُ الحشودَ على الخليفة والوالي، لَمَا صَفَحَ الحجَّاج عنه بعد الَّذي كان منه. بل لوجد ذلك سبباً لقطف رأسه كما صنع مع عُمير بن ضابئ[1] الَّذي اعتذر عن قِتال الخوارج لشيخوخته وكان بجوار الحجَّاج عنبسة بن سعد بن العاص فقال للحجَّاج: (هذا عُميرُ بن ضابئٍ كان في يوم الدَّار دخل على عُثمان بن عفَّان فرفسه وكسر ضلعين من أضلاعه، وهو القائل:

هَمَمْـــتُ وَلَـــمْ أَفْعَـــلْ وَكِـــدْتُ وَلَيْتَنِـــي تركـــتُ عَلَـــى عُثْمَـــانَ تَبْكِـــي حَلَائِلُـــهْ

فضرب الحجَّاج عُنقه...)[2]

لم يَغْفِر الحجَّاج للرّجل ضلاله القديم، وإنْ شاخ؛ لأنَّه نال من عُثمان بن عفَّان الَّذي ينتهي نسبه إلى بني أُميَّة بن العاص، ولا يخفى الأثر السِّياسي في هذه الحادثة إنَّ الحجَّاج لا يَغْفِر لِمَنْ انسلخ عن بني أُميَّة لأي ثورةٍ أو حِزب مُناهضاً بالشِّعر، وإنْ لم يقع منه هجاء لرجالات بني أُميَّة، يُروى أنَّ عمران بن عصام[3] مدح الحجَّاج بقوله:

وَبَعَثْـــتَ مِـــنْ وَلَـــدِ الأغـــرِّ مُعَتِّـــبٍ صَـــقْراً يَلُـــوذُ حَمَامُـــهُ بـــالعَرْفجِ[4]

فـــإِذَا طَبخـــتَ بِنَـــارِهِ أَنْضَـــجتْهَا وإذا طَبَخْـــتَ بغيرهـــا لَـــمْ تَنْضَـــجِ

وهـــو الهِزَبْـــرُ إذا أرادَ فريســـةً لَـــمْ يُنْجِهَـــا مِنـــهُ صِـــياحُ مُهَجْهِـــجِ[5]

---

[1] عُمير بن ضابئ بن الحارث بن أرطأة البرجمي، خبيث اللسان هجاء رجل شرٍّ، من شعراء العصر الأُموي، قتله الحجَّاج وهو شيخ كبير سنة 75هـ بالكُوفة، ينظر ،الإصابة، 5/ 125

[2] الشِّعر والشُّعراء، 352/1 العِقد الفريد، 5/ 19

[3] عمران بن عصام العنزي شاعر جلد وشجاع، عرفه الحجَّاج فبعثه إلى عبد الملك بن مروان لينزع ولاية العهد عن أخيه عبد العزيز بن مروان، قتله الحجَّاج ؛لانضمامه لابن الأشعث، ينظر، الأغاني، 16/ 58، 59

[4] مُعَتِّب: جد الحجَّاج بن يوسف. العرفج: نوع من الشجر كثيف الشوك.

[5] مهجهج: يُقَال هجهج بالسبع إذا صاح فيه وزجره.

لكنَّه انسلخ عن الحجَّاج ولحق بثورة بن الأشعث، وَلَمَّاَ قُتِلَ ابن الأشعث ظَفِرَ الحجَّاج به فقتله، فَلَمَّا بلغ عبد الملك خبرَ مقتله قال: ويله؟ ألا راعى قوله فيه وذكر الأبيات)[1]

ومن القِسم الثاني: أي الَّذين مدحوا الحجَّاج تقيّةً بعد أنْ وقع منهم الهجاء، ونجم عن ذلك حصد نفوسهم أعشى همدان[2] الَّذي انخرط في جيش ابن الأشعث وقال في هجاء الحجَّاج:

مَـــــنْ مُبْلِـــــغُ الحَجَّـــــاج أنِّ ... ي قَـــــدْ نَـــــدَبْتُ إليـــــهِ حَرْبـــــا

حَرْبـــــاً مُـــــذَّكرةً عَوانـــــاً ... تَتـــــرُك الشُـــــبّانَ شُـــــهْبَا[3]

يـــــا ابـــــنَ الأشَـــــجِّ قَرِيـــــعَ كِنْـــــ ... ـــدَةَ لا أُبـــــالِي فِيْـــــكَ عَتْبَـــــا[4]

أَنْـــــتَ الـــــرئَيسُ ابْـــــنُ الرئيـــــ ... ـــسِ وأَنْـــــتَ أَعْلـــــى النّـــــاسِ كَعْبَـــــا

نُبِئْـــــتُ حَجَّـــــاجَ ابْـــــنَ يُـــــوْ ... سُـــــفَ خَـــــرَّ مِـــــنْ زَلَـــــقٍ فَتَبّـــــا

فَلَمَّا وقع في أسر الحجَّاج، قال له: الحمد لله الَّذي أمكنني منك، ألستَ القائِل؟:

إنَّ ثَقيفـــــاً مِـــــنْهُمُ الكـــــذّابان ... كَـــــذّابُهَا المَاضِـــــي وَكـــــذّابٌ ثـــــان[5]

ألستَ القائل؟:

وإذَا ســـــأَلْتَ المَجْـــــدَ أَيْـــــنَ مَحَلُّـــــهُ ... فالمَجْـــــدُ بَـــــيْنَ مُحَمّـــــدٍ وَسَـــــعِيدِ

بَـــــيْنَ الأَغَـــــرِّ وَبَـــــيْنَ قَـــــيْسٍ بَـــــاذِخٌ ... بَـــــخْ بَـــــخْ لِوَالِـــــدِهِ وللمَولُـــــودِ[6]

والله لا تبخبخ بعدها أبداً. ألست القائل؟:

وَأَصـــــابَنِي قَـــــوْمُ وَكُنْـــــتُ أُصـــــيبُهُم ... فَـــــاليْوَمَ أَصْـــــبَرُ لِلزّمـــــانِ وَأَعْـــــرِفُ!

كذبتَ، والله ما كنتَ صبُوراً ولا عروفاً. ثُمَّ قلتَ بعده

وإذا تُصِـــــبْكَ مِـــــنْ الحَـــــوَادِثِ نَكْبَـــــةٌ ... فاصـــــبر فَكُـــــلُّ غَيَابـــــةٍ سَتَكَشَّـــــفُ

---

[1]البيان والتبين، 1/ 48 بتصرف.

[2]عبد الرحمن بن عبدالله بن الحارث بن جشم الهمداني، شاعر اليمانين بالكُوفه، وفارسهم في عصره، من شعراء الدَّوله الأمويَّة، كان أحد الفقهاء القراء، وكان من الغزاة أيام الحجَّاج، غزا الديلم، قتله الحجَّاج؛ لأنَّه انحاز إلى ابن الأشعث سنة 83هـ، ينظر ،الزركلي ،الأعلام، 312/3

[3]الحرب العوان: الحرب الَّتي تشتّد مرّة ًبعد مرّةٍ، وهي أشدّ أنواع الحرب.

[4]ابن الأشج: هو عبد الرحمن بن الأشعث، قِيل أبوه كان أشجاً وقِيل جدّه هو الأشج.

[5]الكذاب الأوَّل: هو مُسيلمة الكذاب. والثاني: هو الحجَّاج بن يوسف، والحجَّاج لم يكن كذاباً بل كان مُبِيراً أي :مُهلِكاً قالتْ أسماء بنت أبي بكرٍ رضي الله عنهما للحجَّاج، قال: رسول الله ﷺ يخرج من ثقيف كذاب ومُبِير، فأمَّا الكذاب فرأيناه، وأمَّا المبُيِر فلا إخالك إلَّا إياه، ينظر ،صحيح مسلم باب ذكر كذاب ثَقِيف ومُبِيرها ،رقم الحديث، 4617

[6]بخ بخ: هي كلمة تقولها العرب عند الشئ تفضله وتمدحه وتعجب به.

أما والله لتكونن نكبة لا تنكشف غيابتها عنك أبداً!

أولستَ القائل؟:

نُبْئـــــتُ حجَّـــــاج ابَـــــنْ يُـــــو سُـــفَ خَـــرَّ مِـــنْ زَلَـــقِ فَتَبّـــا

كلَّا يا عدو الله، بل عبد الرحمن بن الأشعث هو الَّذي خر من زلق فتب، وحار وانكب، وما لقى ما أحب، ورفع بها صوته وأربد وجهه واهتز مَنْكِباه، فَلَمْ يبق أحدٌ في المجلس إلَّا أهمته نفسه وارتعدت فرائصه، فقال الأعشى: بل أنا القائل:

أَبـــــى اللهُ إلَّا أَنْ يُـــــتمِمَّ نُـــــورَهُ وَيُطفِـــئَ نَـــارَ الفَاسِـــقينَ فَتَخْمُـــدا

وَيَظهَـر أهـلُ الحـقِّ فـي كُـلِّ مَـوْطِنِ وَيَعـدِلَ وَقَـعَ السِّـيفِ مَـنْ كَـانَ أَصْـيدا

وَيُنْـــــزِلَ ذُلاً بِـــــالعِراقِ وَأهلِـــــهِ لِمَـــا نَقضُـــوا العَهْـــدَ الوَثِيـــقَ المُؤكَّـــدا

وَمَـــا أَحْـــدَثُوا مِـــنْ بِدعَـــةٍ وَعَظِيمـــةٍ مِـنَ القـولِ لَـمْ تَصْـعَد إلـى اللهِ مَصْـعَدا

وَمَـــا نَكثـــوا مِـــنْ بَيْعَـــةٍ بَعْـــدَ بَيْعَـــةٍ إذَا ضَـــمِنُوها اليَـــوْمَ خَاسُـــوا بِهَـــا غَـــدا

فَمَـــا لَبِـــثَ الحَجَّـــاجُ أَنْ سَـــلَّ سَـــيْفَهُ عَلَيْنَـــا فَـــوَلىّ جَمْعُنَـــا وَتبـــدَّا

لِيَهْنَـــئ أَمِيْـــرَ المُـــؤمِنينَ ظُهُـــوْرُهُ عَلَـــى أُمَّـــةٍ كـــانُوا بُغـــاةً وَحُسَّـــدا

نَـــزَوا يَشْـــتَكُونَ البَغـــيَ مِـــنْ أُمَـــرائِهِم وكـــانوا هُـــمُ أَبْغَـــى البُغَـــاةِ وأعنَـــدا

كَـــذَاكَ يُضِـــلَّ اللهُ مَـــنْ كَـــانَ قَلْبُـــهُ مَرِيْضـــاً وَمَـــنْ والـــى النِفـــاقَ وَألحَـــدا

فقال من حضر من أهل الشام: قد أحسن فخل سبيله، فقال: أتظنون أنَّه أراد المدح؟ لا والله، ولكنَّه قال هذا تأسفاً لغلبتكم إياهم، وأراد أنْ يحض أصحابه. ثُمَّ قال: أتظن يا عبد اللهِ أنَّك تخدعني بالشِّعر؟ وأمر بضرب عنقه)[1] رأى الحجَّاج عدم صِدق الشاعر في المدح لأمور منها: إنَّ الشاعر جاء مُرْغَماً مأسوراً ولم يأتِ طائعاً راغباً، ثُمَّ نظر إلى ما فرط من هجائِه في سالف الأيام، وطفِق يسرده سردَ من لا ينوى الصَّفح، والحق إنَّ هجاءه كان عنيفاً مُوْثِباً للخصوم، ومُصْغِراً لقدر الحجَّاج، انظر إلى قوله:

مَـــــنْ مُبْلِـــــغُ الحَجَّـــــاج أنِّ ي قَـــــدْ نَـــــدَبتُ إليـــــهِ حَرْبـــــا

حَرْبـــــاً مُـــــذَكرةً عَوانـــــاً تَتـــــرُك الشُـــــبّانَ شُـــــهْبَا

[1] القصَّة كاملة في الأغاني، 6/ 69، 70 مُروج الذَّهب، 3/ 162، 164 الحجَّاج بن يوسف المُفترى عليه، 289، 291

مُعظماً لأمر الحرب ومُهيجاً لها في تكرار كلمة (حرب) في عجز البيت وفي صدر البيت الثاني هذا التكرار عُرِفَ عند البلاغيين بـ (تشابه الأطراف) (وهو أنْ يجعل الشاعر قافية بيته الأوَّل أوَّل البيت الثاني وقافية البيت الثاني أوَّل الثالث وهكذا، وفي النثر أنْ يجعل آخر الجملة الأولى أوَّل الجملة الثانية وهكذا...)[1] وفي القرءان الكريم: "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ "[2]

إنَّ هذا الأسلوب البلاغي قد صافح أُذْنَ الحجَّاج مِنْ قبل عندما مدحته ليلى الأخيلية قائلا:[3]

إذا هَـــبَطَ الحَجَّـــاجُ أَرْضَـــاً مَرِيْضَـــةً ... تَتَبَّـــعَ أَقْصَـــى دَائِهَـــا فَشَـــفَاهَا

شَـفَاهَا مِـنْ الـدَّاءِ العُضَـالِ الَّـذي بِهَـا ... غُـــلامٌ إذَا هَـــزَّ القَنَـــاةَ سَـــقَاهَا

سَـــقَاهَا فَرَوَّاهَـــا بِشُـــرْبِ سِـــجالِهِ ... دِمـــاءَ رِجـــالٍ يَحْلُبُـــون صَـــرَاهَا[4]

لم يكتفِ الشاعر بتكرار كلمة (حرب) بل وصفها وصفاً يدل على إصراره في تأجيجها وتهيجها فهي حرب (مُذكرة) ليست مُؤنثة، ولا يخفى ما في معنى الذكورة من قوة وحماسة، هذه الذكورة توصف بها الحرب وأدواتها قال المهلهل بن ربيعة واصِفاً الحرب:[5]

فَلَـــوْلَا الـــرِّيْحُ أُسْـــمِعُ مَـــنْ بحُجْـــرٍ ... صَـــلِيْلَ البِـــيْضِ تُقْـــرَعُ بالـــذُّكُورِ[6]

وأضاف للحرب صِفةً أخرى وهي (عوان) والعوان أشدّ أوصاف الحرب

قال عنترة بن شداد مُخاطباً الرَّبيع بن زيادٍ العبسي[7]

إنْ تَـــكُ حَـــرْبُكُمْ أَمْسَـــتْ عَوانـــاً ... فـــإنِّي لَـــمْ أَكُـــنْ مِمَّـــنْ جَناهـــا

---

[1]عبد الله الطَّيب، المُرشد، 63/2 الأمالي لأبي علي القالي، 87/1

[2]سورة النور الآية: 35

[3]دِيوان ليلى الأخيلية، ص 88، 89

[4]صِراها: ما بقي فيها من الحليب.

[5]دِيوان مهلهل بن ربيعة، ص41

[6]حجر: قرية باليمامة. البيض: الخوذ. الذكور: السِّيوف.

[7]شرح دِيوان عنترة، الخطيب التبريزي، قدم له: مجيد طراد، دار الكِتاب العربي بيروت- لبنان، ط1، 1992م، 209

وزاد في نعتها بأن جعلها تترك (الشُبان شُهبا) أي تترك الشباب شيباً، إنَّ الحجَّاج لا تغيب عنه ما وراء هذه الكلمات من معاني، فقد وُصِف من قبل بهذه الصِّفة إبّان حُروبه مع الأزارقة، وذلك بعد أنْ قُتِلَ عُمير بن ضابئ البرجمي قال عبد الله بن الزَّبير الأسدي[1]

وإلَّا فَمَـــا الحَجَّـــاجُ مُغْمِـــدَ سَـــيْفِهِ مَـدَ الـدَّهْرِ، حَتَّـى يَتْـرِكَ الطِّفْـلَ أشْـيَبا

(خرّ من زلقٍ فتب) هذا الابن قد خرّ من مكان زلق لا تستقر عليه رِجل (فتب) وهي كلمة تدل على الهلاك والبوار والقطع، وفي القرءان الكريم "تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ"[2] وأشنع من هذا رميه إياه بالكذب حيث قال (وكذاب ثان) أبعد هذا يتشوف إلى صفح؟! كلّا لا يصدر صفح، فالحجَّاج رجل لا تنتضل في ذهنه خدائع الأشعار، وإنْ كانت في المدح، فهو مدح لا يجد موضعاً إلى قلبه؛ لأنَّه عارٍ من الصِّدق الَّذي به تُقطع حُمّة الخطايا، ولذلك نسخ العِقابُ الرجاءَ وضرب الحجَّاج عُنقه.

[1] العِقد الفريد، 5/ 19
[2] سورة المسد، الأية: 1

ثالثاً: الفخر:

كان لأشعار الفخر موضع في مجلس الحجَّاج، رضى عن بعضها وأنكر بعضها، وفقاً لما تمليه ظروف الساعة والمقام، والشاهد على رضاه الرواية الَّتي مفادها (إنَّ الشُّعراء اجتمعوا في مجلسه وفيهم بن عبدل[1] فقالوا للحجَّاج: إنَّ شِعر ابن عبدل كله هجاء وشِعر سخيف، فقال له: قد سَمِعْتَ قولهم فاسمع مِنِّي؛ قال: هات، فأنشده قوله:

وإنِّـــي لأسْـــتغنِي فَمَـــا أبْطَـــرُ الغِنـــى ... وأَعْـرِضُ ميسـوري لِمَـنْ يَبْتَغِـي قَرْضِـي

وأعْسِـــر أحيانـــاً فَتَشْـــتَدُّ عُسْـــرتي ... فـأدْرِكُ مَيْسُـورَ الغِنـى ومعـي عِرْضِـي

حَتَّى انتهى إلى قوله:

وَلَسْـــتُ بِـــذِي وَجْهَـــيْنِ فِـــيمَنْ عَرفتَـــهُ ... ولا البُخْـلُ فَـاعْلَمْ مِـنْ سَـمَائي وَلَا أرْضِـي

فقال الحجَّاج أحسنتَ وفضله في الجائزة عليهم بألفي دِرهم)[2]

لخص الشاعر صِفاته الخُلقية في هذه الأبيات وهي صِفات حسنة وقعت في نفس الحجَّاج موقعاً حسناً فأعطاه الجائزة؛ لأنَّ الشاعر مُجرّب لتقلبات الحياة من غنى وفقر، وحفظ للعرض، ونبذه للتلون والنفاق والبخل، هذه النُعوت تغنى بها الشُّعراء ومُدِحَ بها الفضلاء فهي موضع فخر لا موضع هجاء، وتعمد الشاعر إنشادها لنفي ما تُوهِم عنه من وَلهٍ بالهجاء الَّذي أفسد شِعره على حدّ زعمهم.

والشاهد على سخطه خبره مع (يزيد بن الحكم الثقفي الَّذي وفد عليه من الطائف إلى العِراق، وكان رجلاً شريفاً، فولاه الحجَّاج فارس، فَلَمَّا جاء لأخذ العهد قال له الحجَّاج: يا يزيدُ أنشدنا من شِعرك– يريد أنْ ينشده مديحاً له– فأنشده:

مَـــنْ يـــك سَـــائلاً عَنِّـــي فـــإنِّي ... أَنَـــا ابـــنُ الصِّـــيدِ مِـــنْ ســـلفي ثَقِيـــفِ

وَفِـــي وَســـط العـــرينِ مَحْـــلُّ بَيتِـــي ... مَحَـــلُّ الليـــثِ مِـــنْ وســـطِ الغَرِيـــفِ[3]

وفـــي كَعْـــبٍ، ومَـــنْ كـــالحيِّ كَعْـــبٍ؟ ... حَللـــتُ ذُؤابـــةَ الجَبـــلِ المُنيـــفِ

حَويـــتُ فَخَارَهَـــا غَـــوْراً وَنْجـــداً ... وَذَلِـــكَ مُنْتَهـــى شَـــرفُ الشـــرِيفِ[4]

---

[1]الحكم بن عَبْدل بن جبلة، شاعر مُقدم في طبقته، هجاء خبيث اللسان، من شعراء الدَّولة الأُمويَّة، منشؤه بالكُوفة، كان أعرج أحدب، له عصاه لا تفارقه، ينظر تجريد الأغاني، 299

[2]وليد محمود خالصى (النَّقد الأدبي في كِتاب الأغاني) دار أسامة للنشر، ط1، 2000م، ص 673

[3]الغريف: وسط عرين الأسد وبيته.

[4]الغور: المكان المنخفض. النجد: المكان المرتفع.

نمـــــاني كـــــلُّ أَصْـــــيَدَ لا ضَـــــعِيْفٍ بِحَمْـــــلِ المُعْضِـــــلات ولا عَنيـــــفِ[1]

فوجم الحجَّاجُ وأطرق ساعة، ثُمَّ رفع رأسه فقال: الحمد لله أحمده وأشكره إذ لم يأتِ علينا زمانٌ إلَّا وفينا أشعر العرب. ثُمَّ قال أنشدنا ، فأنشأ يقول:

وأبـــى الَّـــذي فَـــتَحَ الـــبِلادَ بِســـيفِهِ فأذَّلهـــا لبنـــي الزّمـــانِ الغَـــابِرِ

وأبـــى الَّـــذي سَـــلبَ ابـــنَ كِســـرى رايـــةً فـــي المُلْـــكِ تَخْفِـــقُ كالعُقَـــابِ الكَاسِـــرِ

وإذا فَخِـــرْتُ فَخِـــرْتُ غَيْـــرَ مُكَـــذّبٍ فَخْـــرَاً أدقُّ بِـــهِ فَخَـــارَ الفَـــاخِرِ

فقام الحجَّاج مُغضباً، ودخل القصر، وانصر يزيد والعهد في يده، فقال الحجَّاج لخادمه: اتْبعه وقل لـه: اردُدْ علينا عهدنا فإذا أخذْتَه فقل لـه: هل ورَّثك أبوك مثل هذا العهد؟ فقال الخادم وقد أبلغه الرسالة، فردَّ عليه العهد فقال قل: للحجَّاج أورثني أبي مجده وفعاله، وأورثكَ أبوكَ أعنزاً ترعاها!)[2]

وفي الأغاني أَنَّه قال:[3]

وَرِثْـــتُ جَـــدي مَجْـــدَهُ وَفَعَالَـــهُ وَوَرِثْـــتَ جَـــدَّكَ أَعْنُـــزاً بالطـــائفِ

لقد أخذت الأمير الدهشة لَمَّا سَمِعَ هذا الفخر بالآباء والمآثر القديمة الموروثة على الوالي نفسه، فهذا خطأ في اختياره للغرض الشِّعري،فالمقام يحجز عن الفخر ويفسح لمدح الحجَّاج، لا إخمال ذِكره كما وقع منه، وقد قِيل قديماً: اختيار الرجل قِطعة من عقله وشِعره قِطعة من علمه.

ولهذا صرف الحجَّاج عنه ولاية فارس؛ لأنَّ شِعره كشف عن شخصيته الَّتي لا تَصْلُحْ لولاية العهد بهذا التطاول على الولاة، فكيف تمتثل لأمرهم فيما بعد، وهي ترى أنَّها أعظم منهم وهذا ما صَرَّح به في هجائه له؛ إذ رماه برعي الأغنام ووصف جدوده بالمجد الموروث.

لقد نظر الشاعر في بيته الأوَّل والثاني إلى أبيات سُحيم بن وثيل الفخرية الَّتي يقول فيها:[4]

وإنَّ مكانَنَـــــا مِـــــنْ حِمْيَـــــرِيٍّ مَكَـــانُ اللَّيْـــثِ مِـــنْ وَسَـــط العَـــرِينِ

كـــريمُ الخـــالِ مِـــنْ سَـــلَفَى رِيَـــاحٍ كَنْصـــلِ السَّـــيْفِ وَضَّـــاحُ الجَبِـــينِ

---

[1] الأصيد: السيد في قومه.
[2] الزَّجاجي، ص220 الخِزانة، 114/1
[3] الأغاني، 11/ 96
[4] الأصمعيات، 18، 20

رابعاً: الغزل:

كان في مجلسه شيءٌ من الأشعار الغزلية، الَّتي تملّح بها وقَطَعَ بها سآمة الملل إذا طاف به، مُشْفِعاً ما يسمع بارآء نقدية مُقومة لهذا الغرض من وصف حسن، وحُكمٍ بالصِّدقِ والكذب، ونعت لحال النِّساء مع الكهول.

ومن حُسْنِ الوصف خبر الحجَّاج مع جرير.

قال الحجَّاج لجرير: (وكان في المجلس جارية للحجَّاج. صِفها، فسألها جرير عن اسمها، فقالتْ: أُمَامَةَ، فقال جرير:

وَدِّع أُمامـــةَ حِـــيْنَ حَـــانَ رَحِيْـــلُ إنَّ الـــوَداعَ لِمَـــنْ يُحِـــب قَلِيْـــلُ

مِثْـــلَ الكَثِيْـــبِ تَمَايَلَـــتْ أَعْطَافُـــهُ وَالـــرِّيحُ تَجْبُـــرُ مَتْنَـــهُ وتُمِيْـــلُ

هَـــذي القُلُـــوبُ صَـــوَادِياً تَيَّمْنَهَـــا وَأرى الشِّـــفَاءَ وَمَـــا إِلَيْـــهِ سَـــبِيْلُ

فقال الحجَّاج: قد جعل الله لك السَّبيل إليها، خذها هي لك.

فضرب بيده إلى يدها فتمنّعت عليه؛ فقال:

إنْ كـــانَ حـــبكم الـــدلالَ فإنَّـــهُ حَســـنٌ دلالُـــكِ يـــا أمَـــامَ جَمِيْـــلُ

فاستضحك الحجَّاج وأمر بتجهيزها معه إلى اليمامة)[1]

تدخل هذه الأبيات في الغزل اللاهي أو المادي، إذ وصف الشاعر الجمال الخارجي للأنثى فهي كالرمل الكثيف جسماً إذا لعِبت بها الريح، وكانت العرب تُحِبُ المرأة الممتلئة قال الأعشى:[2]

وَهْـــيَ إنْ تَقْعُـــدْ نَقـــاً مِـــنْ عَـــالِجٍ وَإِذَا قَامَـــتْ نِيْافَـــاً كَالشَّـــطَنْ[3]

ووصفها بما تُوْصَفُ به الحُرّة من الدلال، قال امرؤ القيس في مُعلقته:[4]

وَيَوْمـــاً عَلَـــى ظَهْـــرِ الكثيـــبِ تَعـــذَّرتْ عَلـــيَّ وآلـــتْ حَلْفَـــةً لَـــمْ تَحلَّـــلِ

أفَـــاطِمَ مَهْـــلاً بَعْـــضَ هـــذا التَـــدلُّلِ وإنْ كُنْـــتِ قَـــدْ أَزْمَعْـــتِ صَـــرمِي فَـــأجْمِلي

---

[1] خِزانة الأدب، 5/ 165، 166 ديوان جرير، 472

[2] دِيوان الأعشى الكبير ميمون بن قَيس، شرح وتعليق :مُحمد حُسين، مكتبة الآداب بالجماميزت، ص357

[3] النقا: الكثيب. العالج: موضع به رمل. نِياقا: امرأة تامة الطول والحسن . الشَّطن : الحبل.

[4] دِيوان امرؤ القيس، 12

الصِّدق والكذب:

وكان يحكم بمِقياس الصِّدق والكذب على الشُّعراء في جميع الأغراض، وَلَمَّا سَمِعَ الشاعر النُّميري ينشد واصِفاً ومُتغزلاً بزينب أخت الحجَّاج، وقِيل ليست بأخته، أبياتاً حكم عليه بالصِّدق إذا وافق الواقع والكذب إذا خالف ذاك، وهذا مِقياس نقدي تعامل به الحجَّاج.

أنشده النُّميري[1]:

تَضَـوّعَ مِسْـكاً بَطْـنُ نَعمـانَ إذَ مَشـتْ بِـهِ زَينـبٌ فِـي نِسْـوةٍ خَفِـرَاتِ[2]

فقال الحجَّاج: كذبتَ، والله ما كانت تخرج متعطِّرةً من بيتها، ثُمَّ أنشد حَتَّى بلغ إلى قوله:

وَلَمَّـا رَأتْ رَكْـبَ النُّمَيْـرِي رَاعهـا وَكُـنْ مِـنْ أَنْ يَلْقينـهُ حَـذِرَاتِ[3]

فقال الحجَّاج: حُق لها أن ترتاع؛ لأنَّها من نِسوة خفرات صالحاتِ، ثُمَّ أنشد حَتَّى بلغ قوله:

مَـرَرنَ بِفَـخِ ثُـمَّ رُحْـن عَشِـيّةً يُلبـينَ للـرّحمنِ مُعْتَمِـرَاتِ

فقال الحجَّاج: صدقتَ، لقد كانت حجّاجة صوّامة، ثُمَّ أنشد حَتَّى بلغ قوله:

يُخَمْـرنَ أَطْـرَافَ البَنَـانِ مِـنْ التُقـى وَيَخْـرُجْن جُـنْحَ اللَّيْـلِ مُعْتَجِـرَاتِ[4]

فقال الحجَّاج: صدقتَ. هكذا كانت تفعل، وهكذا المرأة الحُرَّةُ المُسلمة)[5]

وممَّا له صِلة بهذا الضَّرب الغزلي خبره مع أنس بن زنيم[6] حيث قال له: (أنشدني أفضل ما قالته كنانة. فأنشده قصيدة أبي الطُفيل الَّتي فيها:

أَيَـدْعُونَنِي شَـيْخاً وَقَـدْ عِشْـتُ بُرْهَـةً وَهُـنَّ عَـنْ الأَزْوَاجِ نَحْـوي نَـوَازِعُ

فقال الحجَّاج: قاتله اللهُ منافقاً ما أشعره!)[7]

---

[1]أبو حيَّة النُميري: شاعر إسلامي، كان يهوي زينب أخت الحجَّاج بن يوسف، وله فيها أبيات، ينظر، الأعلام، 6/ 220

[2]الخفر: شدة الحياء.

[3]راعها: أفزعها وأخافها.

[4]مُعتجرات: مُختمرات.

[5]الأغاني، 6/ 194

[6]أنس بن زنيم بن عمرو الكناني، شاعر من الصَّحابة، نشأ في الجاهلية، وَلَمَّا ظهر الإسلام هجا النّبيَّ ﷺ فأهدر دمه، فأسلم يوم الفتح ومدح رسول الله ﷺ بقصائد فعفا عنه، عاش إلى أيام عبيد الله بن أبيه، وكان عبيد الله يحرش بينه وبين بعض الشُّعراء، مات سنة 60هـ، ينظر ،الأعلام الزركلي، 24/3

[7]الأغاني، 15/ 148

فالشاعر يصِف شبابه المُنْصَرِم، وأسره للنِّساء حينئذ، وتركُهنّ أزواجَهنّ وميلهنّ إليه، الأمر الَّذي جعل الحجَّاج يُعْجَبُ بهذه المعاني والخِلال ويتعجب من شِعره، وقد مُدِحَ الحجَّاج بِصفةٍ تُشاكِهُ الصِّفةَ الأخيرة وهي: وُثُوقُ النِّساءِ بِغَيرتِهِ واتهام غَيرة بُعولهُن، قال جرير:

أَمْ مَــنْ يَغــارُ علــى النِّســاءِ حَفِيْظــةً إذْ لَا يَــــــــثِقْنَ بِغَيــــــــرةِ الأَزواجِ

فأمر له بألف درهم، وكساهُ حُلَّةً صفراء، وأنزله في دار الضيافة) [1]

[1] الخِزانة، 5/ 164

خامساً: الرثاء:

لَمَّا مات مُحمد بن الحجَّاج ومُحمد أخاه، قال الحجَّاج: من يقول شِعراً يُسليني به؟ فقال الفرزدق:

إنَّ الرَّزيّـــــةَ لا رزّيّـــــةَ مِثْلُهَـــــا ... فُقْـــدَانُ مِثْـــلَ مُحَمَّـــدٍ ومُحَمَّـــدِ

مَلِكـــانِ قَـــدْ خَلَـــتِ المَنَـــابِرُ مِنْهُمَـــا ... أخَـــذَ الحِمَـــامُ عليهمـــا بالمرْصَـــدِ

فقال: لو زِدْتَنِي! فقال الفرزدق:

إنّـــي لبَـــاكٍ عَلَـــى ابْنَـــي يُوْسُـــفٍ جَزَعـــاً ... ومِثْـــلُ فَقْـــدِهِمَا لِلـــدِّينِ يُبْكِيْنِـــي

مـــا سَـــدَّ حَـــيٌّ ولا مَيْـــتٌ مَسَـــدَّهُمَا ... إلَّا الخَلائِـــفُ مِـــنْ بَعْـــدِ النَّبيّـــينِ

فقال له ما ضعت شيئاً، إنّما زِدْتَ في حُزْني، فقال

لـــئِنْ جَـــزِعَ الحَجَّـــاجُ مَـــا مِـــنْ مُصِـــيْبَةٍ ... تَكُـــوْنُ لِمَحْـــزُونٍ أَجَـــلَّ وأوْجَعَـــا

مِـنْ المُصْـطَفى والمُصْـطَفى مـن خيـارهم ... جَنَاحَيْـــه لَمَّـــا فَارَقَـــاهُ فَوَدَّعَـــا

جَنَاحَـــا عُقَـــابٍ فَارَقَـــاهُ كِلاهُمَـــا ... وَلَـــوْ نُزِعَـــا مِـــنْ غَيْـــرِهِ لَتَضَعْضَـــعَا

فقال: الآن)[1] وفي رواية أخرى بزيادة بيتين أخيرين هما:[2]

وَلَـــوْ أنَّ يَـــوْمَ جُمْعَتَيْـــهِ تَتَابَعَـــا ... عَلَـــى شَـــامِخٍ صَـــعْبِ الـــذُرى لَتَصـــدّعا

سَـــميّا رَســـولَ اللهِ سَـــمّاهُما بِـــهِ ... إذا لَـــمْ يكـــن عِنْـــدَ الحَـــوادِثِ أَخْضَـــعا

لم يُحْسِن الفرزدق في هذا الغرض الاحسان المنتظر؛ لأنَّ الرثاء يحتاج إلى رقةٍ وتفجعٍ وطبيعة لا يغلب عليها الفخر والتيه، والحق إنَّ الفرزدق كان لا يُحْسِنُ قافية في الرثاء، وأخباره أظهر من أنْ تُذكَر، ثُمَّ إنَّ أواصر الوفاء بينه وبين المرثيين متقطّعة، ولم تك بين يدي الشاعر من الفضائل ما يَعِب منها ويرتوى، ولذلك جاء الرثاء بارداً فاتراً لم يُضْرِم حُزْناً في القلب والكبد، ولم يرسل عيناً بالدمع والنحيب، ولم يذكر من مآثر المرثيين الشيء الكثير الَّذي تُبْنى عليه قصيدة الرثاء وتحصل به السلوى، ولَمَّا رأى الحجَّاج ضآلة المعاني في بيته قال: لو زدتني (يعني في المعاني) وأتى الشاعر في الكرة الثانية بزيادة يسيرة تفضل الأولى بحيث جعلهم في منزلة بعد منزلة الأنبياء، وكان قبل خصمهم بالخطابة على المنابر، تقآل الحجَّاج المعنيين السابقين لذلك قال ناقداً: ما ضعتَ شيئاً. الأمر الَّذي جعل الشاعر يلهث وراء معاني الرثاء الحقيقية، ويبذل من نفسه فوق ما اعتادت عليه، ويقتفي أثر المُتمرسين في هذا الباب علّه يجد ما غاب عنه، وخال أنَّه ظَفِرَ بوصف أثر المُصاب

[1] الكامل في اللُّغة والأدب، 2/ 134

[2] العِقد الفريد، 16/3 الحجَّاج بن يوسف المُفترى عليه، 369

على نفسه ، بحيث لو أصاب جبلاً لتصدع، هذا المعنى كثير الطرق عند شعراء الغزل؛ والجامع بين الرثاء والغزل: إضرام القلب، وإرسال الدَّمع، وذوبان النَّفس، إذا طافت ذكرى الحبيب أو الفقيد بالعقل، قال كُثيِّر عَزَّة:[1]

ويـا عَـزَّ لـو أشْـكو الَّـذي قَـدْ أصـابنِي إلــى جَبَـلٍ صَــعْبِ الــذُّرى لنحــى لِيَــا

قال مُتَمِّم بن نويرة[2] في رثاء أخيه مالكاً[3]:[4]

فَلَــوْ أَنْ مَــا أَلْقَــى يُصِــيْبُ مُتَالِعــاً أَوْ الــرُّكْنَ مِــنْ سَــلْمَى إذنْ لَتَضَعْضَــعَا[5]

لقد ألهب الفرزدق معانيه المتمثلة في تشبه المرثيين (بجناحي العُقاب) المنزوعيين فَتُرِكَ العُقاب كَلَّا لا يقدر على حول وصول والخليفة هو العُقاب، جرياً على عادة العرب في تشبيه الرجل بالعُقاب والصَّقر الفاتك، والحجَّاج نفسه شُبِّه بالصَّقر في موضع آخر فرضى عن الشاعر حيث يقول:[6]

وبعثــتَ مِــنْ ولــد الأغــرِ مُعتبِــاً صَــقْراً يَلُــوذُ حَمَامُــهُ بالعَوْسَــجِ

قال العُديل مُشبهاً الحجَّاج بالبازي ، وأراد أنْ يهجوه فوقع له المدح:[7]

لَقَــدْ جَــرَّدَ الحَجَّــاجُ بــالحقِ سَــيْفَهُ ألا فَاسْــتَقِيمُوا لا يَمِلــنَّ مَائِــلُ

وأصــبَحَ كالبــازي يُقَلِّــبُ طَرفَــهُ عَلَــى مِرْقَــبٍ والطَّيــرُ مِنْــهُ دَوَاخِــلُ

إنَّ بيت الفرزدق الَّذي وقع فيه التشبيه هو بيت القصيد؛ لأنَّه جَبّ ما قبله من تقصير، وأرضى الحجَّاج؛ لجمعه بين المدح والرثاء في وقت واحدٍ، وتحقق للحجَّاج طِلبته من العزاء والسلوى وهما مطلب الشُّعراء في الرثاء، قالتْ الخنساء في رثاء صخر:[8]

فَلَــوْلَا كَثْــرَةُ البَــاكِينْ حَــوْلِي عَلَــى إِخْــوانِهِمْ لقَتَلْــتُ نَفْسِــي

وَلكِــنْ لَا أَزَالُ أَرَى عَجُــولاً وَنَائِحَــةً تَنُــوحُ لِيَــوْمِ نَحْــسِ

هُمْــا كِلْتَاهُمْــا تَبْكِــي أَخَاهَــا عَشِــيَّةَ رُزْئِــهِ أَوْ غِــبَّ أَمْــسِ

---

[1]دِيوان كُثيِّر عزَّة، 365

[2]أبو نهشل، أخو مالك بن نويرة، أدرك الإسلام وأسلم، استفرغ شِعره في رثاء أخيه مالك، ينظر، الإصابة، 3/ 360

[3]فارس زي الخمار وشاعر مخضرم، وهو سيد بني يربوع، قتله خالد بن الوليد لردَّة اتهمه بها، لقبه الجفُول؛ لكثرة شَعره، أو لأنَّه جَفَّل إبل الصدقة، ينظر، المرزباني (مُعجم الشُّعراء) 360

[4]المفضليات، 269

[5]متالع وسلمى: جبلان

[6]البيان والتبين، 1/ 48. الأغاني، 16/ 58، 59

[7]الأغاني، 20/ 343

[8]لويس شيخو (أنيس الجلساء في شرح دِيوان الخنساء) 1995م، 152-153

وَمَـــا يَبْكِـــينْ مِثْـــلَ أَخِـــي وَلكِـــنْ أُسَـــلّي الـــنَّفْسَ عَنْـــهُ بِالتأَسِّـــي

قال مروان بن أبي حفص في رثاء معن بن زائدة:[1]

تَعـــزَّ أَبَـــا العَبَّـــاسِ عَنْـــهُ وَلا يَكُـــنْ عَـــزَاؤُكَ مِـــنْ مَعْـــنٍ بـــأَنْ تَتَضَعْضَـــعا

والتسلية والتعزية يتدخلان في المعنى أَمَّا التعزية فهي: (أنْ يذكر ما يتوصل به إلى تسليه مخلفي الميت وتصبيرهم وإطفاء نار ثكلهم)[2] أَمَّا التأسي فقد عرفه القرطاجنِّي: (سُمِّي القول في الظفر والنجاة تهنئة، وسُمِّى القول بالإخفاق إنْ قصد تسلية النَّفس عنه تأسياً، وإنْ تحسرها تأسفاً)[3]

دخلت ليلى الأخيلية عليه ذات يوم وسألها أنْ تنشده ما قال توبةُ فيها فأنشدته شِعراً يحمل الوفاء ويرثي النَّفس، ويجنح إلى خُرافات العرب في الجاهلية، حيث قالت:[4]

وَلَـــوْ أَنَّ لَيلـــى الأَخْيَلِيَّـــةَ سَـــلّمَتْ عَلـــيَّ وَدُونِـــي جَنْـــدَلٌ وَصَـــفَائِحُ[5]

لَسَـــلمتُ تَسْـــلِيمَ البَشَاشَـــةِ أَوْ زَقَـــا إليهـا صَـدىً مِـنْ جَانِـبِ القَبـرِ صَـائِحُ[6]

فأُعجِب الحجَّاج بذلك وأعطاها مالاً كثيراً، ومصدر الإعجاب حَشُد معاني الرثاء في البيتين، اللذين اتخذا من الحقيقة طرفاً من الخُرافة القدر الأكبر، أمَّا حقيقته فهو رثاؤه للنَّفس، كما رثى نفرٌ من الشُّعراء أنفسهم قال امرؤ القيس راثياً نفسه:[7]

وَلَـــوْ أَنَّهَـــا نَفْـــسٌ تَمُـــوتُ جَميعـــة وَلكنَّهـــا نَفْـــسٌ تَســـاقَطُ أَنفُسَـــا

قال عبد يغوث بن الحارث[8] راثياً نفسه:[9]

أَقُـــولُ وَقَـــدْ شَـــدُّوا لِســـانِي بِنِسْـــعَةٍ أَمَعْشَـــرَ تَـــيْمٍ أَطْلِقُـــوا عَـــنْ لِسَـــانِيَا[10]

أَمَعْشَـــرَ تَـــيْمٍ قَـــدْ مَلَكْـــتُمْ فَأَسْـــجِحُوا فـــإِنَّ أَخَـــاكُمْ لَـــمْ يَكُـــنْ مِـــنْ بَوَائِيَـــا[11]

---

[1]شِعر مروان بن أبي حفصة، تحقيق: حُسين عطوان، دار المعارف القاهرة، ط3، 115

[2]مُعجم النَّقد العربي القديم، 1/ 355

[3]مُعجم النَّقد العربي القديم، 1/ 286 مِنهاج البلغاء، 337

[4]زهر الآداب، 4/ 76، دِيوان توبة بن الحُميِّر، ص47،48

[5]الجندل والصفائح: الحجارة العريضة.

[6]زقا: صاح.

[7]دِيوان امرؤ القيس، 107

[8]عبد يغوث بن صُلاة الحارثي، شاعر جاهلي يماني، وفارس معدود، كان سيد قومه، أُسِرَ فقُتِلَ نزفاً بعد أنْ شرب الخمر وقطع له عرقاً يُقال له الأكحل، وذلك في يوم الكُلاب الثاني، ينظر، الأعلام، 4/ 187

[9]المفضليات، ص157.

[10]النِسعة: جِلدة يُشدّ بها اللسان؛ لكي لا يهجوهم.

[11]بوائيا: أي: مثيلي وعِدلي

قال: مالِكٌ بن الرَّيب راثياً نفسه:[1]

وقُوْمَـــا إذا مـــا اسْـــتُلَّ رُوحـــي وَهيّـــاء لِـــيَ السِّـــدرَ والأَكْفَـــانَ عِنْـــدَ فَنَائِيـــا

وخُطَّـــا بـــأطْرَافِ الرِّمـــاحِ مَضْـــاجِعِي وَرُدَّا عَلَـــى عَيْنَـــيَّ فَضْـــلَ رِدَائيـــا

وأمَّا الخُرافة فتتجلى في فِكرة البومة الَّتي تصيح على قبر الميت بعد موته، وقد ذكرها الشُّعراء في أشعارهم، قال ذو الإصبع العدواني:[2]

يـــا عَمْـــرُ إلا تَـــدَع شَـــتْمي وَمنقصـــتِي أضْـــرِبْكَ حَتَّـــى تَقُـــولُ الهامَـــةُ اسْـــقُونِي

كُلُّ هذه الأشياء ساقها الشاعر ليدلل على اتصال حبله بها حيّاً وميتاً، مُبيتاً مدى اخلاصه لهذه الحبيةِ، مُوظفاً الخُرافةَ بطريقة تشُدّ المتلقي.

[1] المرزوقي: أبي علي أحمد بن مُحمد (أمالي المرزوقي) تحقيق: يحيى وهيب الجبوري، دار الغرب الإسلامي، 239، 240

[2] المفضليات، 160

سادساً: التبرؤ والاستعطاف:

إنَّ الحجَّاج رحيم إذا صافح أُذنَهُ كَلِمٌ عَطُوف بكى لذاك ونسخ حكمة من عقاب إلى ثواب، يُروى أنَّ رجلاً يُقال له أسلم بن عبد البكر، قد اتهمه الحجَّاج في أمر من الأمور فَلَمَّا مَثَلَ بين يديه، قال: يا أيُّها الأمير، ما بلغك عَنِّي فباطل والله يقول: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ"[1] وأنا أعول أربعة وعشرين امرأة، وهن بالباب، فأمر الحجَّاج بإحضارهن، فَلَمَّا حضرن جعلتْ هذه تقول أنا خالته، وهذه أنا عمته، وهذه أنا زوجته، وهذه أنا ابنته، ثُمَّ تقدمت جارية دُون العاشِرة فقالت أنا ابنته وأنشدت:

أحجَّـــاجُ لَـــمْ تَشـــهَد مقـــامَ بناتِـــهِ وعماتِـــهِ يَنْدُبنَـــهُ الليـــلَ أجْمَعَـــا
أحجَّـــاجُ كَـــمْ تقتـــل بِـــهِ إنْ قتلتـــه ثمانيـــاً وعَشْـــراً واثنتـــين وأربَعَـــا
أحجَّـــاجُ مـــن هـــذا يَقـــومُ مَقامَـــهُ عَلينـــا فَمْهـــلاً لا تَزِدنـــا تَضْعضُـــعَا
أحجَّـــاجُ إمَّـــا أنْ تَجـــودَ بِنعمـــةٍ عَلَيْنَـــا وإمَّـــا أنْ تُقَتِّلِنَـــا مَعَـــا

قال فبكى الحجَّاج وقال: (والله لا أعنتُ عليكنَّ ولا زدتكنَّ تضعضعا، وأطلق الرجل وتفقد الجارية في كُلِّ يوم)[2] لقد أثر هذا الشِّعر في أطواء نفسه، لِمَا اشْتمل عليه من التودد والضَّعف وسوء المُنْقَلَب، نادته نداء القريب وكررت النداء لتقرع العاطفة.

وكان وقافاً على كِتاب الله إذا ذُكِره بما نَسى فاء إلى أمر الله تعالى، قال الهيثم بن عدي: (جاء رجلٌ إلى الحجَّاجِ فقال: إنَّ أخي خرج مع ابن الأشعث فَضُرِبَ على اسمي في الدِّيوان، ومُنِعتُ العطاء وقد هُدِمت داري، فقال الحجَّاج: أما سَمِعْتَ قول الشاعر:

جَانِيْـــكَ مَـــنْ يُجْنِـــي عَلَيْـــكَ وَرُبَّمَـــا تُعْـــدِّي الصِّـــحاحَ مَبـــارِكُ الجَـــرَبِ
وَلَـــرُبَّ مَـــأخُوذٍ بـــذَنبِ قَريبـــهِ ونجـــا المُقـــارِفُ صَـــاحِبُ الـــذَّنْبِ؟

فقال الرجل: أيُّها الأمير، إنِّي سَمِعْتُ الله يقول غير هذا، قال وما قال؟ قال الرجل: قال الله تعالى: "قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ

[1] سورة الحجرات، الأية: 6
[2] منصور الحكم (الحجَّاج بن يوسف طاغية بني مروان) دار الكِتاب العربي دِمشق، ص 131، 132

أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ"[1] قال الحجَّاج: يا غُلام، أعد اسمه في الدِّيوان، وابني داره، وأعطه عطاءه، ومُر مُنادِياً يُنادِي: صدق الله وكذب الشاعر)[2]

تفرد خُلفاء وولاة بني أُميَّة– لا سيما في العِراق– بظاهرة هدم منازل الرعيّة إذا وقعوا فيما نُهوا عنه، ولقد مسَّ هذا الضرر جريراً والفرزدق لتهاجيهما بالمِرْبَد، قال جرير:[3]

فَمَـــا فـــي كِتـــابِ اللهِ تَهْـــدِيمُ دُورنَـــا كَتَهْـــديمِ مَـــاخُورٍ خَبِيـــثٍ مَدْاخِلُـــهْ

قال الفرزدق:[4]

أَحَـــــارِثُ دَارِي مَـــــرَّتَيْنِ هَـــــدَمْتَهَا وَكُنْـــتَ ابْـــنَ أُخْـــتٍ لَا تُخَـــافُ غَوَائِلُـــهْ

كان الحجَّاج بن يوسف قلق الوضين إذا طُوى عنه خبرٌ له رِتقةٌ بالأدب، يلتمس من حاشيته ورعيته أنْ يُخبروه عمَّا غاب عنه وأحاطوا به عِلماً، وشاهد ذلك الخبر المحكي: (أنَّ الحجَّاج كتب إلى عبد الملك بن مروان، يُعَظِّم أمرَ قطري بن الفجاءة، فكتب، إليه عبد الملك: أوصيك بما أوصى به البكريّ زياداً، فقال الحجَّاج لحاجبِه: نادي في النَّاس، مَنْ أخبر الأمير بما أوصى به البكريّ زياداً فله عشرة آلاف درهم، فقال رجل للحاجب أنا أخبره، فأدخله عليه، فقال له: ما قال البكري لزيد؟ قال قال: لابن عمّه زيد، والشِّعر لموسى بن جابر الحنفي:[5]

أَقـــــولُ لِزيـــــدٍ لا تَرتـــــدّ فـــــإنّهم يَـــرون المنايـــا دُونَ قَتْلِـــكَ أوْ قَتْلِـــي

فـــإِنْ وصَـــفوا حَرْبـــاً فَضَـــعْهَا فـــإنْ أبـــوا فَشَـــبّ وَقُـــوْدَ الحَـــرْبِ بالحَطَـــبِ الجَـــزْلِ

فـــإِنْ عَضّـــتْ الحَـــرْبُ الضَّـــروسُ بِنَابِهَـــا فعُرضَـــةُ نَـــار الحـــربِ مَثْلـــكَ أوْ مِثْلِـــي

فقال الحجَّاج: صدق أمير المؤمنين، عُرْضَةُ نار الحربِ مثلي أو مثله)[6]

إنَّ السؤال عن سواتر الأخبار ومخابئها من عمائق الفِطن، لاسيما إذا صدر من الأعلى إلى الأدنى ؛ فإنَّه أنفى للكِبر عن النَّفس، وأجمع لخِصال العِلم، ولولا سؤاله لَسُتِرَ عنّا خبر هذه الأبيات الحماسية ،الَّتي كشفت مداخل النُّفوس من إحن وأحقاد لا ترضى بشيءٍ غير القتل واشعال نار

---

[1]سورة يوسف، الأية: 78، 79

[2]البداية والنهاية، 9/ 307، 308

[3]دِيوان جرير، ص389

[4]دِيوان الفرزدق، 505

[5]موسى بن جابر بن الأرقم الحنفي، شاعر مُخضرم نصراني، ينظر ، الأغاني، 10/ 107

[6]عبد الملك بن مروان النَّاقد الأديب، 131، ذيل الأمالي، 72

الحرب. مُسْتَعِيْرَةً للحرب (النَّار، والعضّ، والناب) مَازِجَةً بين الثنائية في قوله (مثلك أو مثلي، قتلك أو قتلي) الَّتي أشار إليها عبد الملك مُنَبِهَاً الحجَّاج، إذ هما المقصودان عند الأعداء. والحق إنَّ عبد الملك أضلع من الحجَّاج في هذا الباب.

الخاتمة

الحمد لله الَّذي أتمَّ عليَّ المِنَّة، وأكرم مثواي بهذه الدِّراسة الَّتي أحْلُمْ بها منذ أمدٍ بعيد، وأنا استحقبُ أوراقي، جامعاً أشتات ما تبعثر في بطون الكُتب عن مجالس بني أُميَّة الأدبيَّة حتَّى إذا بلغت الأوراق مَبْلَغ البحث، آخى الباحث بين فصولها ، وألَّف بين مباحِثها، وجُمِعتْ تحت عنوانٍ تشوَّقتْ إليه نفسي، وعُقدِ عليه أملي، فالحمد للهِ الَّذي بعث وشائج الوُد بيني وبينه، فآضت الآمال حقائق.

النتائج:

1- تعددت الأحزاب السِّياسية في العصر الأُموي، فكان الخوارج أصدقهم عاطفة، وكان الموالي أشد الأحزاب حِقداً على الحِزب الحاكم، بل إنَّ لهم اليد الطولى والسَّهم الوافر في سقوط الدَّولة الأُمويَّة.

2- اتسعت مجالس الأدب والنَّقد في كُلِّ أرجاء الدَّولة، وكان نقد سُكينة بنت الحُسين نقداً انطباعياً في –أغلب الأحيان– واقتصر نقدها للشِّعر على غرضين هما: الرثاء والغزل؛ لقرب الغرضين من طبع النِّساء.

3- عرَّض الشُّعراء بهجاء مُعاوية بن أبي سُفيان –رضي الله عنه– وعبد الملك بن مروان، لكنَّهم لم يعرِّضوا بالحجَّاج بن يوسف؛ وإنْ وقع له الهجاء صراحةً.

4- إنَّ مُعاوية بن أبي سُفيان –رضي الله عنه– من أكثر الخُلفاء موضوعية في نقده للشِّعر، بينما عبد الملك بن مروان أقلهم موضوعية؛ وذلك لتعصبه للقديم على الجديد من الشِّعر، وتقديمه الشاعر الموالي لسياسة الدَّولة على الشاعر المُعارض، وإنْ وقع المُعارض على الصواب في قرضه للشِّعر.

5- جاء نقد عبد الملك بن مروان نقداً جزئياً ممَّا أوقعه في بعض الأخطاء.

6- أذعن عبد الملك بن مروان والحجَّاج بن يوسف لتوجيهات العُلماء والشُّعراء إذا جانبا الصواب في نقدهما ثُمَّ أُرشدا إلى الصواب ، وهذا أنفى لِصِفة الكِبر.

7- اتخذ كُلٌ من عمر بن عبد العزيز وعبد الملك بن مروان الصِّدق في قول الشِّعر مع المعيار الدِّيني والخُلقي والإنساني أساساً في المُفاضلة بين الشُّعراء كما نبذا الغزل الفاحش؛ لخدشه للحياء.

8- هجا الشُّعراء عبد الملك بن مروان والحجَّاج بن يوسف ومُعاوية بن أبي سُفيان، ولم يهجو شاعر عمر بن عبد العزيز؛ لِحُسْنِ سِيرته، بل مدحه شعراء للأحزاب المُعارضة مثل كُثيِّرعزَّة وغيره.

9- كان الحجَّاج من أشدّ ولاة بني أُميَّة على الخصوم، لا يغفر لمن تمرد على السُّلطان، بينما يغفر الهجاء الفاحش وإنْ وقع الشاعر في عِرضِه كما فعل مع النُميري، وأعشى همدان.

10- أكثر الأغراض نقداً عند عبد الملك المدح وأقلها قبولاً في نفسه الغزل الفاحش.

11- قرض كُلٌ من عبد الملك بن مروان والحجَّاج بن يوسف والوليد بن يزيد الشِّعر العربي، بينما لم يَقْرِض بقيَّة خُلفاء بني أُميَّة الَّذين شَمِلتهم الدِّراسة الشِّعر العربي.

12- إنَّ الحجَّاجَ ناقدٌ كبيرٌ وهو أوَّل من استخدم مصطلحي (مطبوع ومصنوع) وهما مصطلحان نقديان.

13- كان الحجَّاج شديد التأثر إذا صافح سمعه شِعر رقيق قرع عاطفته واستدر رحمته حتَّى ينسخ العفو العِقاب عن الجاني.

التوصيات:

1- أوصي بمزيد من الدِّراسات الأدبيَّة والنَّقدية في هذا العصر وأنْ تُفْرَدَ مساحات لِبقيةِ خُلفاء بني أُميَّة الَّذين أسقطتهم الدِّراسة مثل: يزيد بن مُعاوية بن أبي سُفيان، ومران بن مُحمد وغيرهم.

2- أوصي بأنْ تختص الدِّراسة لهم في المنظوم والمنثور، فقد درس الباحث توجيهاتهم النَّقدية للمنظوم وترك المنثور الَّذي لا يقل أهميَّة وكثرةً وتشعباً عن المنظوم، وذلك من خِلال مجالسهم الأدبيَّة.

3- أوصي بإفراد دراسةٍ مستقلةٍ لمجالس خُلفاء وولاة بني أُميَّة الأدبيَّة والنَّقدية في بيئة المغرب أي : بلاد الأندلس؛ فالدِّراسة هذي تناولت مجالسهم الأدبية في بيئة المشرق.

4- أوصي بتخصيص دِراسة لتوجيهات مُعاويَّة بن أبي سُفيان النَّقدية للشُّعراء والخُطباء والكُتاب فهو بحر لا ينضب، فقد اقتضب الباحث بعض توجيهاته للشُّعراء وترك أكثرها، لضيق الوقت.

المصادر والمراجع

1- القرءان الكريم

2- إبراهيم بن على أبو الحسن (الحُصري) (زهر الآداب وثمر الألباب) دار الحلبي –مصر- 1953م.

3- أبو الأسود الدؤلي (الدِّيوان) ضعه: أبو سعيد الحسن العسكر، تحقيق: مُحمَّد حسن آل ياسين، دار مكتبة الهلال، ط2، 1998م.

4- أبو تمام حبيب بن أوس (دِيوان الحماسة) شرح المرزوقي دار الكُتب العِلمية –بيروت- ط1، 2002م.

5- أبو تمام حبيب بن أوس (دِيوان الحماسة) رواية (الجواليقي) شرح: أحمد حسن، دار الكُتب العِلمية، بيروت، ط1، 1998م.

6-أبو سعيد (السكري) (شرح أشعار الهذليين) تحقيق: عبد الستار فراج، مكتبة دار العروبة.

7- أبو عُبيدة مَعْمَر بن المُثنى (نقائض جرير والفرزدق) وضع حواشيه: عُمْران المنصور، دار الكُتب العِلمية، بيروت –لبنان- ط1، 1998م.

8- أبو النَّجم العِجْلي (الدِّيوان) جمع وشرح وتحقيق: مُحمد أديب عبد الواحد، مطبوعات مجمع اللُّغة العربيَّة، دِمشق 2006م

9- أبو مِحْجن الثقفي (الدِّيوان) شرح: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، مطبعة الأزهار البارونية، مصر.

10- إحسان عبَّاس (شِعر الخوارج) دار الثقافة للطباعة والنشر –مصر- ط2، 1974م.

11- أحمد الأمين (المُعلقات العشر وأخبار شعرائها) دار الكِتاب العربي –بيروت- 2009م.

12- أحمد زكي صفوت (جمهرت خُطب العرب في عُصور العربيَّة الزاهرة) مطبعة البابلي الحلبي بمصر، ط1، 1933م.

13- أحمد الشايب (تاريخ الشِّعر السِّياسي) مكتبة النَّهضة المصرية، ط5، 1976م.

14-أحمد بن عبد الله، أبو الحسن (العسكري) (المصون في الأدب) تحقيق: عبد السلام هارون، ط2، 1402هـ.

15- أحمد بن على، أبو بكر (الخطيب البغدادي) (تاريخ مدينة السلام وأخبار مُحدّثيها وذِكرُ قُطَّانها العُلماءُ من غير أهلها ووارِديها) تحقيق: بشار عوَّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2001م.

16- أحمد بن على (ابن حجر العسقلاني) (الإصابة في تميز الصَّحابة) تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكُتب العِلمية ،بيروت -لبنان- ط1، 1995م.

17- أحمد مُحمد بن أبي بكر (ابن خلكان) (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) تحقيق: إحسان عبَّاس، دار صادر -بيروت- 1972م.

18- أحمد مُحمد، أبو الفضل (الميداني) (مجمع الأمثال) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار عيسى البابلي الحلبي -القاهرة- ط2، 1345هـ

19- أحمد مُحمد يحيى، أبو العبَّاس (ثعلب) (مجالس ثعلب) تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط3.

20- أحمد مطلوب طبانه (مُعجم النَّقد العربي القديم) دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1989م.

21- أحمد مُحمد يعقوب (مسكوية) (تجارب الأمم وتعاقب الهِمم) تحقيق: سيد كِسروي حسن، دار الكُتب العِلمية، بيروت -لبنان- ط1، 2003م.

22- الأحوص الأنصاري (الدِّيوان) تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة الأندلس بغداد، 1389هـ

23- الأحوص الأنصاري(شِعر الأحوص الأنصاري) تحقيق: عادل سُليمان جمال، مكتبة الخانجي -القاهرة- ط2، 1990م.

24- الأخطل التغلبي (الدِّيوان) شرح: مهدي مُحمد ناصر الدِّين، دار الكُتب العِلمية -بيروت- ط4، 1994م.

25- أسامة بن منقذ (لباب الآداب) تحقيق: أحمد مُحمد شاكر، مكتبة السنة الدَّار السَّلفية للنشر والعلم، ط1، 1987م

26- إسماعيل بن عمر، أبو الفداء (ابن كثير) (البداية والنهاية) مكتبة المعارف بيروت، 1991م

27- إسماعيل بن عمر، أبو الفداء (المِصباح المُنير في تهذيب تفسير بن كثير) إعداد جماعة من العُلماء بإشراف الشَّيخ صفي الدِّين المُبارك فوري، دار السلام للنشر والطباعة، المملكة العربيَّة السعودية، ط2، 2000م

28- إسماعيل بن يسار (شِعر إسماعيل بن يسار) يوسف حُسين بكار دار الأندلس للطباعة والنشر، ط1، 1984م

29- الأعشى، ميمون بن قيس (الدِّيوان) شرح: مُحمد حُسين، مكتبة الآداب بالجماميزت.

30 الأفوه الأودي (الدِّيوان) شرح وتحقيق: مُحمد ألتونجي، دار صادر، بيروت، ط1، 1998م

31- الأقشير (الدِّيوان)صنعه مُحمد علي دقه، دار صادر بيروت، ط1، 1997

32- امرؤ القيس (الدِّيوان) ضبطه وصححه: مصطفى عبد الشافي، دار الكُتب العِلمية، بيروت – لبنان- ط5، 2004م

33- البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (صحيح البخاري) المكتبة الإسلامية استانبول، تركيا، 1981م

34- بدر الدِّين محمود بن أحمد (عقد الجمان في تاريخ أهل الزَّمان) دار الكُتب العِلمية بيروت لبنان.

35- جرير بن عطيّة (الدِّيوان) دار بيروت للطباعة والنشر، 1986م

36- جلال الدِّين (السيوطي) (تاريخ الخُلفاء) دار بن حزم، بيروت –لبنان- ط1، 2003م

37- جمال الدِّين (المزني) (تهذيب الكمال في أسماء الرجال) تحقيق: بشار عوّاد معروف، مُؤسسة الرسالة، ط1، 1983م

38- جمال الدِّين بن الفرج (ابن القيم الجوزي) (تنقيح فهوم أهل الأثر) مطبعة جيّد بريس ببلدة دهلى.

39- جميل بثينة (الدِّيوان) تحقيق: حُسين نصار، دار صادر.

40- جرجي زيدان (تاريخ آداب اللُّغة العربيَّة) دار الهلال، بدون تاريخ طبع.

41- حازم القرطاجني (مِنهاج البُلغاء وسِراج الأدباء) تقديم وتحقيق: مُحمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3

42- الحارث بن عُباد (الدِّيوان) جمعه وحققه: أنس عبد الهادي، الناشر: هيئة الثقافة والتراث أبو ظبي، بيروت –لبنان- ط1، 2002م

43- الحسن (ابن رشيق) (العُمدة في محاسن الشِّعر وآدابه) تحقيق: عبد القادر أحمد، دار الكُتب العِلمية، بيروت –لبنان- ط1، 2001م

44- الحسن بن عبد الله (أبو هلال العسكري) (الفُروق اللُّغوية) تحقيق: مُحمد إبراهيم سليم، دار العِلم والثقافة، القاهرة.

45- الحسن بن عبد الله (الأوائل) تحقيق: مُحمد السَّيد الوكيل، دار البشير للثقافة والعُلوم الإسلامية –القاهرة، ط1، 1987م

46- الحسن بن مسعود (اليوسي) (زهر الأكم في الأمثال والحكم) تحقيق: محمد حجي الأخضر، دار الثقافة المغربية، ط1، 1981م

47- حُسين نصّار (قيس ولبنى شِعر ودِراسة) مكتبة النَّهضة القاهرة.

48- حفني مُحمد (النَّقد الأدبي عند العرب: أصوله، قضاياه، تاريخه) مكتبة الشَّباب –القاهرة- 1970م

49- خليل إبراهيم جفَّال (عبد الملك بن مروان النَّاقد الأديب) دار النضال مصر، ط1، 1991م

50- الخنساء (الدِّيوان) شرح: حمدو طمّاس، دار المعارف –بيروت- ط2، 2004م

51- الخنساء (أنيس الجُلساء في شرح دِيوان الخنساء) لويس شيخو، 1995م

52- خير الدِّين (الزركلي) (الأعلام) دار العِلم للملائين، بيروت، لبنان، ط15، 2002م

53- خير الدِّين (ترتيب الأعلام على الأعوام) تحقيق: زُهير ظاظا، دار الأرقم.

54- دعبل الخُزاعي (الدِّيوان) صنفه عبد الكريم الأشتر، مجمع اللُّغة العربيَّة، دمشق، ط2، 1983م

55- دُريد بن الصِّمَّة (الدِّيوان) تحقيق: عمر عبد الرسول، دار المعارف المصرية.

56- الراعي النُميري (الدِّيوان) جمعه وحققه: رينهرت فاييرث، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية – بيروت- لبنان.

57- ربيعة بن مقروم الضبيّ (الدِّيوان) تحقيق: تُماضر عبد القادر فياض، دار صادر، ط1، 1999م

58- رفعت ذكي (من مظاهر النَّقد الأدبي عند العرب) دار الكُتب المُحمدية، 1990م

59- زكريا بن يحيى (التبريزي) (شرح دِيوان عنترة بن شداد) تحقيق: مجيد طراد، دار الكُتب العِلمية، ط1، 1992م

60- زكريا بن يحيى (شرح المُعلقات العشر) ط2، 1352هـ

61- زُهير بن أبي سُلمى (الدِّيوان) اعتنى به وشرحه: حمدو طمَّاس، دار المعارف، بيروت –لبنان- ط2، 2005م

62- سبط بن الجوزي (الجليس الصَّالح والأنيس النَّاصح) تحقيق: فواز صالح فواز، دار رياض الريش الكُتب والنشر، 1989م

63- شكري فيصل (تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام) مطبعة جامعة دِمشق، 1959م

64- الشمَّاخ بن ضِرار (الدِّيوان) تحقيق: صلاح الدِّين الهادي، دار المعارف، مصر

65- شوقي ضيف (تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي) دار المعارف المصرية، ط24، 2003م

66- شوقي ضيف (تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي) دار المعارف المصرية، ط5، 2000م

67- شوقي ضيف (البلاغة تطور وتاريخ) طبعة دار المعارف المصرية.

68- شوقي ضيف (الفن ومذاهبة في النثر العربي) دار المعارف المصرية، ط5

69- شهاب الدِّين أحمد (النويهي) (نهاية الأدب في فنون العرب) تحقيق: يوسف الطويل، دار الكُتب العِلمية، بيروت -لبنان- ط1، 2004م

70- شهاب الدِّين محمد بن أحمد (الاشبيهي) (المُستطرف في كُلِّ فن مُستظرف) تحقيق: مُحمد خير طمعة، دار المعارف، بيروت، ط5، 2008م

71- شهاب الدِّين (ياقوت الحموي) (مُعجم البلدان) دار صادر، 1993م

72- شهاب الدِّين (مُعجم الأدباء) تحقيق: إحسان عبَّاس، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1993م

73- صلاح الدِّين أحمد، أبو عبد الله (عيون التواريخ) دار الكُتب المصرية.

74- ابن طباطبا العلوي (عيار الشِّعر) تحقيق: عبَّاس عبد الستار، ونعيم زرزور، دار الكُتب العِلمية، ط2، 2005م

75- طرفة بن العبد (الدِّيوان) شرحه: مهدي مُحمد ناصر الدِّين، دار الكُتب العِلمية -بيروت- ط3، 2002م

76- طُفيل الغنوي (الدِّيوان) شرح: الأصمعي، تحقيق: حسَّان فلاح، دار صادر بيروت، لبنان، ط1، 1997م

77- طه حُسين (حديث الأربعاء) المطبعة التجارية الكبرى بمصر، 1955م

78- طه حُسين (مكانة النثر في الأدب العربي) دار المعارف المصرية، ط12

79- عامر بن الطُفيل (الدِّيوان) دار صادر بيروت، لبنان، 1979م

80- عامر بن الطُفيل (الدِّيوان) رواية أبو بكر الأنباري، عن أبي العبَّاس ثعلب، صادر للطباعة بيروت، لبنان، 1979م

81- العبَّاس بن مرداس (الدِّيوان) جمعه وحققه: يحيى الجبوري، مُؤسسة الرسالة، ط1، 1991م

82- عبد الجليل الشلى (الخطابة وإعداد الخطيب) مُؤسسة الخليج العربي- القاهرة- ط5، 1991م

83- عبد الحليم حنفي (شرح ودِراسة لاميَّة العرب) مكتبة دار الآداب، القاهرة، ط1، 2008م

84- عبد الحميد محمود (شِعر بني تميم في العصر الجاهلي) ط1، 1402هـ

85- عبد الحي أحمد مُحمد (العكري) (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط1، 1986م

86- عبد الرحمن بن إسحاق (الزَّجاجي) (أمالي الزَّجاجي) تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت -لبنان- ط2، 1982م

87- عبد الرحمن بن جابر (ابن خلدون) مُقدمة بن خلدون) المطبعة البهية.

88- عبد الرحمن سعيد بن سعد (أبراج الزَّجاجي في سِيرة الحجَّاج) تحقيق: سعيد بن علي، بدون بيانات طبع.

89- عبد السلام محمد هارون (قطوف أدبية دراسات نقدية في التراث العربي حول تحقيق التراث) مكتبة السنة، ط1، 1988م

90- عبد العزيز الدوري (الجذور التاريخية الشُعوبية) طبعة القاهرة مصورة عن طبعة دار الطباعة بيروت.

91- عبد العزيز عتيق (تاريخ النَّقد الأدبي عند العرب) دار النَّهضة، بيروت -لبنان- ط2، 1972م

92- عبد القادر بن عمر (البغدادي) (خِزانة الأدب ولُب لِبَابِ لسان العرب) تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي مصر، ط3، 1996م

93- عبد الله بن الدمنة (الدِّيوان) شرحه مُحمد الهاشمي، مطبعة المنارة بمصر، ط1، 1918م

94- عبد الله الطيب (الحماسة الصغرى) الدَّر السُّودانية للطباعة والنشر.

95- عبد الله الطيب (المُرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها) دار الآثار الإسلامية –الكويت- ط2، 1989م

96- عبد الله كنون (أدب الفُقهاء) دار الكِتاب اللبناني، بيروت.

97- عبد الله بن قيس (الرقيَّات) الدِّيوان) تحقيق: مُحمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت.

98- عبد الله بن مُسلم، أبو مُحمد (ابن قتيبة) (الشِّعر والشُّعراء) تحقيق وشرح: أحمد مُحمد شاكر، دار الحديث، القاهرة.

99- عبد الله بن مُسلم (المعارف) تحقيق: عُكاشة مُحمد، دار المعارف المصرية، ط4

100- عبد الملك بن الحُسين بن عبد الملك (سمط النُّجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي) تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي مُحمد معوض، دار الكُتب العِلمية، بيروت –لبنان- 1998م

101- عبد الملك بن قريب (الأصمعي) (الأصمعيات) شرح وتحقيق: أحمد مُحمد شاكر وعبد السلام هارون، ط5، بيروت لبنان.

102- عبد الملك بن قريب (فحولة الشُّعراء) تحقيق: المستشرق، صن نوّري، دار الكِتاب الجديد، بيروت –لبنان- ط2، 1980م

103- عبد الملك بن مُحمد (الثعالبي) (أحسن ما سمعتُ) وضعه حواشيه: خليل عمران المنصور، ط1، 2000م

104- عبد الملك بن هشام الأنصاري (ابن هشام) (السِّيرة النَّبوية) تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، دار مصطفى البابي الحلبي، ط3.

105- عبد المُنعم أبو زيد (نُصوص نثرية في صدر الإسلام وبني أُميَّة) 2002م

106- عُبيدة بن عبد الله البكري (التنبيه على أوهام أبي على القالي في أماليه) مطبعة دار الكُتب المصرية –القاهرة- ط1، 2000م

107- عثمان، أبو الفتح (بن جنِّي) (الخصائص) تحقيق: الشربيني شريدة، دار الحديث القاهرة، 2007م

108- عدى بن الرِّقاع العاملي (الدِّيوان) جمع وشرح وتحقيق: مُحمد نور الدِّين، دار الكُتب العِلمية، بيروت، ط1، 1990م

109- عُروة بن الورد (الدِّيوان) شرح سعيد رضنَّاوي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1996م

110- عُروة بن أذنية (الدِّيوان) جمعه: يحيى الجبوري، دار العِلم، الكويت، ط2، 1981م

111- عُروة بن أذنية (الدِّيوان) دار صادر بيروت، ط1، 1996م

112- عز الدِّين إسماعيل (الأسس الجمالية في النَّقد العربي) دار الفِكر العربي، ط3، 1974م

113- عز الدِّين علي بن الحسن (ابن الأثير) (الكامل في التاريخ) دار الكُتب العِلمية، بيروت، ط1، 1987م

114- علاء الدِّين معلطاي (إكمال تهذيب الكامل في أسماء الرجال) تحقيق: عادل مُحمد، دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ط1، 2000م

115- علي بن الحسن بن وهبة (ابن عساكر) (تاريخ مدينة دِمشق) تحقيق: محب الدِّين عمر بن غلامة، دار الفِكر للطباعة والنشر، ط1، 1998م

116- علي بن الحُسين (أبو الفرج الأصفهاني) (الأغاني) مُؤسسة الرسالة، بيروت، 1983م

117- علي بن الحُسين (مقاتل الطالبيين) طبعة الحلبي.

118- علي بن الحُسين (المسعودي) (مُروج الذهب ومعادن الجوهر) اعتنى به وراجعه: كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية بيروت، ط1، 2005م

119- علي بن مُحمد (أبو حيَّان التوحيدي) الإمتاع والمؤانسة) طبعة أحمد أمين وأحمد الزين، مكتبة الحياة بيروت، بدون تاريخ نشر.

120- علي مُحمد البجاوي وآخرون (قصص العرب) دار احياء الكُتب العربيَّة، ط4، 1962م

121- علي بن الحسن صدر الدِّين (الحماسة البصرية) تحقيق: عادل سُليمان جمال، مكتبة الخانجي، ط1، 1999م

122- عمر بن أحمد (ابن عبد ربه) (العِقد الفريد) تحقيق: مُحمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، 1953م

123- عمرو بن بحر (الجاحظ) (البيان والتبين) تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1948م

124- عمرو بن بحر (الحيوان) تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابلي الحلبي، ط2

125- عمرو فروخ (الحجَّاج بن يوسف) مكتبة منيمنه –بيروت- لبنان، 1941م

126- عمرو بن قميئة (الدِّيوان) تحقيق: إبراهيم خليل إبراهيم، دار صادر بيروت، لبنان، ط2، 1994م

127- عمر بن معد طرب الزَّبيدي (شِعر عمر بن معد كرب) جمعه ونسقه: مطاوع الطرابيشي، مطبوعات مُعجم اللُّغة العربيَّة دِمشق، ط2، 1985م

128- غازي طليمات وعرفان الأشقر (الشِّعر في عصر النُّبوة والخِلافة الراشدة) دار الفِكر، دِمشق، ط1، 2007م

129- الفرزدق (الدِّيوان) شرح: علي فاعور، دار الكُتب العِلمية، بيروت، ط1، 1987م

130- قُدامة بن جعفر (نقد الشِّعر) تحقيق: مُحمد عبد المنعم جفاجي، دار الكُتب العِلمية، بيروت، لبنان.

131- قيس بن المُلوح (الدِّيوان) دِراسة وتعليق: يسري عبد الغني، دار الكُتب العِلمية، بيروت، ط1، 1999م

132- قيس بن ذريح (الدِّيوان) اعتنى به وشرحه: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعارف، بيروت، ط2، 2004م

133- الفطامي (الدِّيوان) دِراسة وتحقيق: محمود الربيعي، الهيئة المصرية العامة للكِتاب، 2001م

134- كثيِّر عزَّة (الدِّيوان) تحقيق: إحسان عبَّاس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1971م

135- كعب بن معدان الأشقر (الدِّيوان) جمعه وحققه: أحمد مُحمد عبيد دار الكُتب الوطنية، أبو ظبي، ط1، 2001م

136- الكُميت بن زيد (الدِّيوان) تحقيق: مُحمد نبيل الطريفي، دار صادر، بيروت.

137- لبيد بن أبي ربيعة (الدِّيوان) دار صادر

138- لقيط بن يعمر الإيادي (الدِّيوان) تحقيق: عبد المجيد خان، مُؤسسة الرسالة، بيروت -لبنان- 1971م

139- ليلى الأخيلية (الدِّيوان) وضاح الصَّمد، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت -لبنان- ط2، 2003م

140- مجد الدِّين أبو الطاهر (الفيروز أبادي) (القاموس المحيط) تحقيق: مُحمد نعيم العرقسوسي، مُؤسسة الرسالة، ط8، 2005م

141- مُحمد بن أحمد (الأزهري) (تهذيب اللُّغة) تحقيق: مُحمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2001م

142- مُحمد بن أحمد (الذَّهبي) (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام) تحقيق: عمر عبد السلام تدمر، دار الكُتب العربيَّة، بيروت -لبنان- ط1، 1987م

143- مُحمد بن أحمد (سِير أعلام النبلاء) تحقيق: شُعيب الأرنؤوط، وآخرون، مُؤسسة الرسالة، ط1، 1996م

144- مُحمد بن أحمد (العِبر في خبر من غبر) تحقيق: صلاح الدِّين المنجد، دائرة المطبوعات والنشر -الكويت- 1960م

145- مُحمد بن إسحاق (ابن النديم) (الفهرست في أخبار العُلماء والمصنفين من القُدماء والمُحدثين وأسماء كتبهم) دار المعرفة للطباعة والنشر، 1997م

146- مُحمد بن جرير (الطبري) (تاريخ الرسل والملوك) دار المعارف المصرية، ط2، 1967م

147- مُحمد بن الحسن (البغدادي) (التذكرة الحمدونية) تحقيق: احسان عبَّاس، دار صادر، ط1، 1996م

148- مُحمد بن الخطاب (أبو زيد القرشي) (جمهرة أشعار العرب) دار صادر بيروت، لبنان.

149- مُحمد زغلول سلَّام (تاريخ النَّقد العربي إلى القرن الرابع الهجري) دار المعارف المصرية.

150- مُحمد بن سعد (ابن سعد) (الطبقات الكبرى) تحقيق: علي مُحمد عمر، مكتبة الخانجي القاهرة، ط1، 2001م

151- مُحمد بن سلَّام (ابن سلَّام) (طبقات فحول الشُّعراء) تحقيق: محمود مُحمد شاكر، دار المدني بجدة، ط1

152- مُحمد صادق (الكرباسي) (دِيوان القرن الحادي عشر) المركز الحُسيني للدِّراسات –لندن– ط1، 2009م

153- مُحمد عبد الرحمن (القزويني) (الإيضاح في علوم البلاغة) تحقيق: مُحمد عبد القادر، المكتبة العصرية صيدا ، بيروت، 2008م

154- مُحمد عبد القادر أحمد (دِراسات في أدب ونصوص العصر الأُموي) مكتبة النهضة المصرية، ط1، 1982م

155- مُحمد عبد الكريم (الشهرستاني) المِلل والنِّحل) تحقيق: أحمد فهمي مُحمد، المكتبة العِلمية، ط2، 1992م

156- مُحمد عبد الله بن أبي بكر (ابن الآبَّار) (اعتاب الكُتَّاب) تحقيق: صالح الأشقر، 1961م

157- مُحمد عبد الله السالمي (عمان تاريخ يتكلم) دِمشق الطبعة العمومية، 1963م

158- مُحمد عمر (المرزباني) (مُعجم الشُّعراء) تحقيق: فاروق أسليم، دار صادر، ط1، 2005م

159- مُحمد عمر (المُوشح في مأخذ العُلماء على الشُّعراء) تحقيق: مُحمد علي البجاوي، مطبعة نهضة مصر.

160- مُحمد عمر (المُوشح) تحقيق: مُحمد حُسين شمس الدِّين، دار الكُتب العِلمية، بيروت، ط1، 1995م

161- مُحمد بن مكرم (ابن منظور) لِسان العرب) تحقيق: عامر أحمد حيدر، دار الكُتب العِلمية – بيروت- ط2، 2009م

162- مُحمد نبيل طريفي (دِيوان اللُّصوص في الجاهلية والإسلام) دار الكُتب العِلمية –بيروت- لبنان، ط1، 2004م

163- مُحمد بن يزيد، أبو العبَّاس (المُبرد) (الكامل في اللُّغة والأدب) تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار الفِكر العربي، القاهرة، ط3، 1997م

164- مُحمد زيادة (الحجَّاج بن يوسف المُفترى عليه) دار السلام، ط1، 1995م

165- محمود شكري (الألوسي) (بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب) تحقيق: مُحمد بهجة الأثري، بدون بيانات طبع.

166- مرتضى مُحمد الحُسين (الزَّبيدي) (تاج العروس من جواهر القاموس) مطبعة الكويت، ط2

167- مروان بن أبي جعفر (الدِّيوان) شرحه وجمعه حُسين عطوان دار المعارف المصرية، ط3

168- مروان بن أبي جعفر (شِعر مروان بن أبي جعفر) تحقيق: حُسين عطوان، دار المعارف، القاهرة، ط3

169- مِسكين الدَّارمي (الدِّيوان) تحقيق: كارين صادر، دار صادر، بيروت، ط1، 2000م

170- مصطفى عبد الرحمن إبراهيم (في النَّقد الأدبي القديم عند العرب) دار مكَّة للطباعة والنشر، 1998م

171- مُعاوية بن أبي سُفيان (الدِّيوان) تحقيق: فاروق أسليم، دار صادر، بيروت، ط1، 1996م

172- المفضل الضبي (المفضَّليات) تحقيق: أحمد مُحمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف المصرية، ط6

173- المهلهل (الدِّيوان) شرح: طلال حرب، الدَّار العالمية.

174- مُنير البعلبكي (مُعجم أعلام الموارد) دار العِلم للملايين، بيروت –لبنان- ط2، 1992م

175- منصور الحكم (الحجَّاج بن يوسف طاغية بني مروان) دار الكِتاب العربي دِمشق.

176- ابن ميَّادة (الدِّيوان) تحقيق: وضاح الصَّمد

177- ابن ميَّادة (شِعر ابن ميَّادة) جمع وتحقيق: حنّا جميل حداء، مجمع اللُّغة العربيَّة –دمشق- 1982م

178- النَّابغة الذُّبياني (الدِّيوان) تحقيق: مُحمد أبو الفضل، دار المعارف المصرية، ط3

179- نايف معروف (دِيوان الخوارج) دار الميسرة، 1983م

180- النَّعمان بن عبد المتعال (شِعر الفُرق الإسلامية في العصر الأُموي) دار المعارف المصرية، 1970م

181- نُصيب بن رباح (شِعر نُصيب بن رباح) جمع وتحقيق: داؤود سُلّوم، مطبعة الارشاد بغداد، 1967م

182- وليد محمود خالص (النَّقد الأدبي في كِتاب الأغاني) دار أسامة للنشر، ط1، 2000م

183- هُدبة بن الحشرم (شِعر هُدبة بن الحشرم) يحيى الجبوري، دار القلم الكويت، ط2، 1986م

184- يوسف بن أبي بكر (السكاكي) (مِفتاح العُلوم والحكم) تحقيق: عبد الحميد الهنداوي، دار الكُتب العِلمية، بيروت، 2000م

185- يوسف خليف (الحُب المثالي عند العرب) دار المعارف المصرية، 1961م